مع الله

في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور
القطب محمد طبلية



مــع الله

فى كتابه وسنة رسوله ﷺ

دكتور/ القطب محمد القطب طبلية
أستاذ ورئيس قسمى القانون العام والسياسة الشرعية
بجامعة أم درمان الإسلامية (سابقا)
عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
الإدارة : ٩٤ شارع عباس العقاد ـ مدينة نصر ـ القاهرة
ت : ٢٧٥٢٩٨٤، ٢٧٥٢٧٣٥ فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

٢٢٩ القطب محمد القطب طبلية.

ق ط م ع مع الله فى كتابه وسنة رسوله (ﷺ) / القطب محمد القطب طبلية .ـ القاهرة : دار الفكر العربى، ١٩٩٧.

٢٨٠ ص ؛ ٢٤ سم.

يشتمل على إرجاعات بيليوجرافية.

تدمك : ٢ ـ ٠٩٥٣ ـ ١٠ ـ ٩٧٧.

١ ـ القرآن الكريم ـ مباحث عامة. ٢ ـ السنة. أ ـ العنوان.

الدعاء

الرحمة والرضوان
لوالديَّ
وللشهيد محمد قطب وزملائه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾

(٥٩ – النمل)

﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾

(١٢٨ – النحل)

﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلىّ العظيم ﴾ (٢٥٥ – البقرة)

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلاً من غفور رحيم * ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين * ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يُلقَّاها إلا الذين صبروا وما يُلقَّاها إلا ذو حظ عظيم * وإما ينزَغنَّك من الشيطان نزغٌ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ (٣٠ – ٣٦ فُصلت)

ومن الحديث الشريف

«تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتى ، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض» . (الحاكم فى مستدركه – عن أبى هريرة).

الفهــرس

تابع الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر الشريف
الإمام الأكبر شيخ الأزهر

تقديم
بقلم فضيلة الإمام الأكبر
الأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوى
شيخ الأزهر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فقد اطَّلعت على كتاب «مع الله» فى كتابه وسنة رسوله» لمؤلفه الأستاذ الدكتور/ القطب محمد القطب طبلية أستاذ ورئيس قسم القانون العام والسياسة الشرعية بجامعة أم درمان الإسلامية سابقا، وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

وقد كان المؤلف موفقا فى إعداد بحثه وفقا للمنهج العلمى والتربوى، حيث استند فى دراسته هذه إلى ما استقاه من المصادر الموثقة والمراجع المعتمدة التى بنت أحكامها على ضوء نصوص الكتاب الكريم والسنة المطهرة.

وقد اشتمل الكتاب على سبعة وعشرين فصلا ـ تنقل فيها المؤلف من وقفة مع القرطبى والإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والفضائل والآداب الإسلامية،

والمحكمات والمتشابهات والصدقات فى الكتاب والسنة، والإسراف والترف فى القرآن الكريم إلى:

المحافظة على البيئة، واليهود فى القرآن الكريم، والجهاد، وأن الإسلام دستور كامل للحياة.

وتحدث عن الطعام والأمن بعد الجوع والخوف .

وختم دراسته بالحديث عن الطب النفسى.

وهو فى كل ذلك يستشهد بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.

وقد صيغ الكتاب ـ بوجه عام ـ بأسلوب يتسم ببساطة التركيب ووضوح العبارة وجودة السبك من غير تعقيد، بحيث يتناسب مع جميع المستويات ويستفيد منه العامة والخاصة، ويثرى المكتبة الإسلامية فى مجالات الحياة المختلفة.

وكان المؤلف موفقا فى اختيار الموضوعات التى تمس حياتنا اليومية.

نسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا المؤلف ، ويثيب مؤلفه ويجزيه خير الجزاء.

وبالله التوفيق، ومنه العون والسداد.

شيخ الأزهر الشريف

أ. د. محمد سيد طنطاوى

١٩٩٦/٩/٢٤

الفصل الأول

مدخل الدراسة

القرطبى وشىء فى علوم القرآن

بند (١)

لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى(١) القرطبى تفسير للقرآن الكريم، عنوانه «الجامع لأحكام القرآن» – ويتميز هذا التفسير العظيم بالتركيز على الأحكام، والاهتمام الكبير باللغة وبيانها وفنونها.

وقد صدَّر القرطبى تفسيره بمقدمة ومدخل بلغا مائة وسبع صفحات، كتب فيها عما يمكن تسميته «علوم القرآن». وسأذكر شيئًا يسيرا من ذلك بعد ..

المبحث الأول

توفيق الحكيم، وكتابه «مختار تفسير القرطبى»

بند (٢)

ومما له دلالة وفائدة – فيما أرى – أن أثبت هنا أن لشيخ الكتاب، الأديب الكبير «توفيق الحكيم» – رحمه الله – كتابا ضخما أربى على تسعمائة صفحة من القطع الكبير أسماه «مختار تفسير القرطبى». كتب فى الصفحات الأولى – (وهى غير مرقمة) – وتحت عنوان «هذا الكتاب» قال: «أوحى إلىَّ بضرورة هذا الكتاب أمران»:

---

(١) الخزرجى الأندلسى الذى رحل من الأندلس واستقر فى منية ابن خصيب. وتوفى ودفن بها فى التاسع من شوال عام ٦٧١ هـ. وعُرف عنه رحمه الله – أن أوقاته كانت معمورة مابين توجه وعبادة وتصنيف. وكانَ مُطَّرِحًا للتكلف، يمشى بثوب واحد وعلى رأسه طاقية (من ترجمة له بصفحتى «و» و«ز» من المجلد الأول – من التفسير. الطبعة الثالثة عن «طبعة دار الكتب المصرية» (دار الكتاب العربى للطباعة والنشر – ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٧ م).

وهذه عبارات مماكتبه تحت عنوان «ماينبغى لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به» قال: (وكأنه – فيما أرى – يصف نفسه) «... وينبغى أن يكون عالما بأهل زمانه، متحفظا من سلطانه، ساعيا فى خلاص نفسه، ونجاة مهجته، مقدما بين يديه مايقدر عليه من عرض دنياه، مجاهدا لنفسه فى ذلك ما استطاع. وينبغى له أن يكون أهم أموره عنده الورع فى دينه، واستعمال تقوى الله ومراقبته فيما أمره به ونهاه عنه».

(ص ٢٠ من المجلد الأول)

أولهما - ماجاء في مقدمة كتاب «مختار الصحاح» مانصه « .. قال العبد المفتقر إلى رحمة ربه محمد بن أبى بكر عبد القادر الرازى» : هذا مختصر في علم اللغة جَمَعْتُه من كتاب «الصحاح» للإمام أبى نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى ... لما رأيته أحسن أصول اللغة ترتيبا وأوفرها تهذيبا، وأسهلها تناولا، وأكثرها تداولا وسميته «مختار الصحاح» اقتصرت فيه على مالابد لكل فقيه.. أو أديب من معرفته لكثرة استعماله وجريانه على الألسن، واجتنبت فيه عويص اللغة وغريبها ..» إلخ.

الأمر الثاني - هو ماتراه اليوم في مصر والبلاد العربية من الاهتمام المخلص بالدين والرغبة الصادقة في الاستزادة من معرفة جوهر الإسلام وأحكامه، مما يقتضى الرجوع إلى المنبع الأصلى للشريعة لمن يريد الاتصال المباشر بالنصوص وتفسيرها في أمهات المراجع المعتمدة . ولما كانت هذه المراجع مثل تفسير القرطبى .. المشهور بأنه من أجلِّ التفاسير.. من الضخامة في مجلداته العشرين .. ماتشق قراءته على معظم الناس، فقد رأيت أن أقوم بمثل ما قام صاحب «مختار الصحاح»، للتيسير على الناس، باستخراج مختار في مجلد واحد للجامع لأحكام القرآن .. وقد اقتصرت فيه (كما فعل صاحب مختار الصحاح) على مالابد لكل متدين ومسلم وقارئ للقرآن من معرفته.. وخاصة في أيامنا هذه التى ظهرت فيها الرغبة على أشدها في الرجوع إلى مصادر الدين . على أنى لم أذهب في الاختصار والتسهيل إلى الحد الذى أحذف فيه ما قد يضيق به الكثيرون من التحليلات النحوية واللغوية والاستشهادات الشعرية،ذلك لأن معرفة اللغة العربية بنحوها وإعرابها وشعرها شرط أساسى في تفسير القرآن العربى المبين.. إلى آخره.

مقدمة صاحب المختار

(شيء منها) (بتصرف)

قال - مما قال - عندما نشرت كتابى «محمد - الرسول البشر» عام ١٩٣٦ كان مقصدى هو إبراز صورة للنبى من واقع النصوص وحدها، حتى يكون القارئ وجها لوجه مع السيرة الطاهرة، دون حائل من أقوال متحمس أو متعصب . واليوم بإخراجى هذا المختار، فإنى أسير على نفس المنهج حتى أضع القارئ وجها لوجه أمام منبع الشريعة في القرآن وأحكامه. وبعد أن أشار إلى المفسرين للقرآن الكريم واختلاف مذاهبهم في التفسير باختلاف ثقافاتهم وسائر ظروفهم، ومن كل ذلك نتجت حصيلة دينية وفكرية تدعو إلى الفخر والإعجاب. وتدلنا على أن الله - سبحانه وتعالى - عندما دعانا إلى النظر والتأمل فيما حولنا من خلقه إنما أراد لعقلنا البشرى التحرك للبحث عن حقائق الأشياء ، «وقد تحرك عقلى بالفعل مع هذه العقول المفسرة لكلام الله.. مما أعاننى على رؤية الحقائق بنفسى» ثم قال : وإنى مع حرصى على عدم التدخل في هذا التفسير، إلا أنى لم أستطع منع فكرى الذى تحرك من أن تَرِدَ عليه بعض الخواطر في بعض المسائل. وهذه نماذج من خواطرى أعرضها على سبيل الاستشهاد.

في إعجاز القرآن

لقد حار في أمر القرآن ، ممن حار، أحد كبار قريش الراسخين في تذوق البيان، فقال : «لقد سمعت منه كلاما، لاهو من كلام الإنس ولامن كلام الجن. وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق . وإنه ليعلو ولايُعلى عليه . وما يقول هذا بشرٌ» ولم يكن هذا الرجل مؤمنا، ولذلك لم يستطع تعليل هذا القرآن إلا بأنه سحْرُ ساحر. ولكن الفرق بين السحر والمعجزة – كما جاء في هذا التفسير واضح، فالسحر يأتى نتيجة تعلم شخص له وتدربه عليه، أما المعجزة فهى تهبط على الشخص أو تنبع من كيانه دون سابق تعليم وتدريب، كما أن المعجزة السماوية لابد أن تقترن برسالة سماوية . أما بغير الرسالة والرسول فإن المعجزة التى يأتى بها شخص عادى، قد تكون نتيجة خاصية فى تكوينه تجعله يقوم بأعمال غير عادية، بمجرد تركيز الإرادة أو التحديق، ويستطيع العلم المادى أن يعلل ذلك بزيادة خارقة فى القوة المغناطيسية الكهربية فى طبيعة تكوين هذا الشخص العادى (١) .. إلى آخره .

فى التلاوة والتطريب

كذلك نرى فى هذا الكتاب (٢) خلافا حول التلاوة والتطريب للقرآن. هذا الخلاف الذى يشق فيه الترجيح ، قد يَحْسُنُ معه فى رأيى (أى رأى صاحب المختار) الأخذ بالرأيين معا. فمع الترتيل يتجه الذهن إلى عمق المعانى، ومع التطريب تتجه الأذن إلى موسيقى الكلمات. والجمع بين المعنى والمبنى فيه اكتمال للإدراك، واستيعاب لعنصرى الروح والجسد : الروح فى جلال معناه، والجسد فى جمال تركيبه . وهذا جوهر أساسى فى الإسلام : وهو الجمع بين الروح والمادة .

فى الجمع بين الدين والدنيا

أى بين شئون الروح ودواعى الجسد ، أى بالاتصال بالله والصلاة والصيام والاعتكاف ونحو ذلك من شئون الروح، لاينفى الاتصال بالمرأة والمأكل والمشرب ونحو ذلك من ضرورات الجسد. وهذا ما يميز الإنسان الذى يجمع بين التغذى روحيا بغذاء نورانى، وجسديا بغذاء مادى. ولهذا كانت فطرة الإنسان هذه هى جوهر الإسلام، ولهذا أيضا كان الإسلام هو ختام الأديان السماوية، وكان محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين. فما جاء لم يعد معه حاجة إلى بعثة أخرى من عند الله، فاليهودية كانت مرحلة التوحيد فى إطار التجمع القبلى لطائفة مختارة، لكن طغيان المادة غلب عليها فى عهودها الأخيرة إلى حد أن كان الهيكل المقدس مكان تجارة .. وجاءت المسيحية الروحية كرد فعل، ولكن احتمال الروح العلوى لم يكن ممكنا إلا فى حدود المثل العليا، لا فى حدود الممارسة البشرية فى عمومها، فكان أن أرسل

---

(١) انظر كتابى «محمد فريد وجدى» بعنوان «ماوراء المادة» ص٣٥ وما بعدها.

(٢) يقصد «تفسير القرطبى» .

الله تعالى الرسول البشر الذى يقيم التوازن بين الروحية والمادية تبعا الطاقة البشرية، وطبقا لطبيعة الخلق البشرى من روح ومادة . وفى هذا التوازن ختام التكوين فى الإنسان.

فى الإذن بالقتال

كان القتال محظوراً فى أول الرسالة (أُمِروا فى هذه (١) الفترة بالصفح والعفو والصبر) . ثم أُذِن بقتال الدفاع لا بقتال الاعتداء . ويبدو أن العقائد والمذاهب لايمكن أن تبقى طويلا فى صورتها المعنوية وحدها أمام اعتداء المعتدين بالقوة المادية . فأمام قوة مادية لابد من درع مادى يحميها . وحتى إن صمدت فإنها تبقى محصورة فى نطاق محدود، ولاتخرج وتنتشر إلا بقوة مادية . ولايدرى غير الله ماذا كان يمكن أن يكون حجم المسيحية مالم تعتنقها دولة قوية كالإمبراطورية الرومانية ، هل كان يصبح حجمها كحجم الديانة اليهودية ؟ وكذلك الحال فى المذاهب السياسية والاجتماعية إذا ما اعتدى عليها المعتدون، كما أن العقائد والمذاهب بعد كفاحها ضد أعدائها وتمام ثباتها، سرعان ما تتخذ لها وضعا آخر، وهو ماجاء فى حديث ورد عن الرسول فى هذا الكتاب «الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا» .. معنى هذا أن كل رسالة أو ثورة تنقلب بعد ذلك نظام حكم .

أقول : وكلام المرحوم الحكيم محل نظر : فالإسلام (كدولة وحكم) بدأ فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . إنه دين ودولة ، ورسالة وحكم . وبدأت الدولة من يثرب ثم امتدت إلى كل الجزيرة العربية قبل أن يختار الرسول عليه الصلاة والسلام الرفيق الأعلى . والحديث «الخلافة من بعدى .. إلى آخره ، يعنى الخلافة الراشدة ، التى جاء بعدها ملك وراثى بدءاً من معاوية» وهذا (كنظام حكم) يمثل انتكاسة، والانسلاخ عن نظام الشورى، نظام البيعة والاختيار الحر وانظر كتابى – الإسلام والدولة – الخلافة – (أى رئاسة الدولة فى الإسلام) (وانظر – بصفة خاصة – ملحق الكتاب) .

فى الحكم ونظام المجتمع

خلاصة الفقرة أن الإسلام جعل الحكم (القضاء) لهيئة محايدة . والسيد هو القانون (الشريعة الإسلامية) – وحل هذا محل الفوضى فى ظل الأخذ بالثأر فى الجاهلية (أى فى عهد ما قبل البعثة)

فى العقوبات والحدود

أقول : هذا الموضوع كبير وخطير ، وفيه نظريات ومدارس مختلفة، وهو إلى ذلك متشعب ، وفيه تفاصيل كثيرة ، سواء فى القوانين الوضعية أم الشريعة الإسلامية . وماكتبه صاحب المختار لايتجاوز صفحة . وفى بعض ماكتب أفكار جديدة ، وفى بعضه الآخر نراه قد رفض العقوبة بالحبس أو السجن، ووقف إلى جانب العقوبة بالجلد.

---

(١) هذه الإضافة منى .

وإنى أعلم أن كثيرا من الدول والنظم العقابية قد ألغت عقوبة الإعدام، أما هو فقد قال فيها: إنه لابد من أن تبقى ، لأنها وضع طبيعي، فطبقا لمذهب «التعادل» (١) لاشيء يعادل حياة الإنسان غير حياة الإنسان ، أما بقية الجرائم التى يعاقب عليها عادة بالحرمان من الحرية (بالحبس والسجن) فيجب أن تتغير على أساس المعادلة بين الخير والشر . فمن يرتكب فعلا يضر الغير يجب أن يعادله بفعل ينفع الغير (المجتمع) - يجب أن تحل المصانع وأدوات الإنتاج ، وأن يحل العمل لصالح المجتمع محل السجون. ورأيه الذى نشره فى كتابه سالف الذكر، والذى مازال يتمسك به، هو إحلال العقوبة الشرعية بالجلد العلنى محل الحبس، مضافا إلى ذلك المعادل الإنتاجى لخير المجتمع، على أنه طريق التوبة. وختم هذه الفقرة بقوله : جاء فى كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه عن أخبار الخليفة عثمان رضى الله عنه، أنه كان قد عيّن أخاه لأمه الوليد بن عقبة واليا على الكوفة، فصلى بالناس الصبح ثلاث ركعات، وهو سكران، ثم التفت إليهم وقال «وإن شئتم زدْتكم» فقامت عليه البينة بذلك عند عثمان فأمر بجلده، وجُلِدَ . ومعنى ذلك أن الوالى نفسه : يُجلد كما يجلد غيره. لاتشفع له مرتبته ولاقرابته للخليفة نفسه .

لا عنصرية فى الإسلام

وجاء فى هذا الكتاب على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال لرجل : انظر فى وجوه القوم .. فنظر .. فقال له النبى : «مارأيت؟» فقال الرجل : «رأيت أبيض وأسود وأحمر» فقال رسول الله : «إنك لاتفضلهم إلا بالتقوى»(٢) .

الله غنى عن العالمين

إذا قيل : إن فضائل الصلاة وغيرها ترضى الله، فليس معنى هذا أن الله فى حاجة إلى هذا الإرضاء، فهو غنى بذاته. وفى كتابه الكريم **﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين﴾** (٣) ولكن رضا الله هو لمصلحة الناس . وأساس عبادة الله هو أساس رقى الإنسان ، فمن خلال هذه العبادة يرتفع البشر من مرتبة الحيوان إلى مرتبة أرفع، هى التى أرادها الخالق، ولن يتيسر هذا الارتقاء إلا بإدراك الأرقى . والأرقى والأعلى هو الله.

---

(١) له كتاب بعنوان «التعادلية» نشره عام ١٩٥٥، وقد صدّر كلمته بالإشارة إليه، كما أن الكلمة مأخوذة منه .

(٢) وانظر فى هذا الموضوع : القطب طبلية «الإسلام وحقوق الإنسان» - دراسة مقارنة - طبعة ثانية ص٢١٧ ومابعدها . وأثبت هنا قوله تعالى : «ليس بأمانيكم ولا أمانىّ أهل الكتاب من يعملْ سوءاً يُجْزَ به ..» (٢٣ : النساء) .

(٣) ٦ - العنكبوت .

العقل أعجب الخلق

وهذا العقل الذى خلقه الله هو الأداة التى يدرك بها الإنسان عظمة الكون الذى أبدعه الخالق الأعظم. وقد جاء فى تفسير سورة القلم ، عن أبى هريرة هذه العبارة الرائعة «ثم خلق الله تعالى العقل . فقال الجبار : ما خلقت خلقا أعجب منك» عبارة جديرة أن يقولها أعظم علماء العصور الحديثة فى بلاد الحضارة المعاصرة .

الله والعلماء

لم يخلق الله العقل عبثا .. ولكن لتتم به إرادته فى أن يكون مدركا لقوانين الكون، وبالتالى ليكون أرقى مخلوقاته على هذه الأرض . ففى هذا الرقى استمرار لبقائه فى مواجهة الأخطار التى تهدد بقاءه . والله يخلق الأنواع[1] ويخلق معها أدوات المقاومة ووسائلها . والعلماء هم الذين يمثلون قوة العقل. وفى الآية الكريمة ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾[2] والخشية تعنى التقدير والإجلال . وها هو إينشتين يقول : «إنى أدين بأعمق الإجلال والتعظيم لهذه القدرة العجيبة التى تفصح عن نفسها فى كل جُزَىءٍ من جزيئات الكون» .

ليس كمثله شيء

هذا الذى تقدم ما قاله إينشتين بوصفه أحد علماء الطبيعة، وليس برؤية الايمان السماوى. إن ما قاله هو ثمرة إلمام ضئيل بقوانين الكون. إنه من المستحيل عليه وصف الله ، وكأنه يردّد الآية الكريمة ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ (١١ - الشورى) والله أكبر من أن تتسع له حدود وهو غير محدود. إنه تعالى أعلى من أن تدركه أفهام البشر . والقرآن كتاب الله المبين . أراد الله ألا يضمنّه أسرارا فوق فهم البشر ، لكنه - وفى حدود ماجاء فيه مما يفهمه البشر- يرتفع بهم إلى حيث يريد الله ويرضى .

القرن القادم للدين

أراد الله للإنسان أن تتسع مداركه بالتدريج .. ليلم ببعض أسرار مالم يكن يعرف . للفريد كاستلر الحائز لجائزة نوبل لأبحاثه فى تفاعل الضوء والمادة ، كتاب بعنوان «هذه المادة العجيبة» ومن أقواله «كلما ازددنا تعمقنا فى دراسة تركيب المادة تضاءل اقتناعنا بأننا عرفناها . إن جزءا منها يظل ، وسوف يظل إلى الأبد بعيدا عن تعليلنا لأنه مخفى عنا ، مخفى بمن ؟ بالمبدأ الأوحد . بالنظام الكونى . إن كل ما نعرفه عن العالم المحسوس، لاقيمة له فى معرفة العالم غير المحسوس» . وهكذا حيرة العلم والعلماء اليوم ! كلما توغلوا فى العلم اقتربوا من الدين ، ومن الخشوع لله . وابتعدوا عن علم القرن التاسع عشر يوم كان العلم الوليد فى بداياته المغرورة يدفعهم إلى الإلحاد .. ويبدو أن القرن العشرين وما ظهر فيه من علماء يرون

---

(١) (هكذا ؟)، ولعلها (الأدواء والآفات) .

(٢) ٢٨ فاطر .

مـارأى إينشـتين وكـاسـتلر ، ويتـواضـعـون بقـدر مـازاد مـن علمـهـم ، ويؤمنون بما قـال تعـالى : ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ (١) . هذا القرن يكاد ينبئ بقرن قادم يصل فيه مستوى العلم الحديث إلى درجة من النفوذ والكشف عن أسرار الكون تجعل علماءه أقرب الناس إلى باب الله والدين . يقول شيخ الكتاب: وقد علمت أيضا أن هذا كان رأى المؤرخ المعروف «أرنولد توينبى» من أن القرن الحادى والعشرين سوف يكون قرن الدين .. الدين المتعمق المبنى على العلم والعقل . ذلك العقل الذى هو أعجب ما خلق الله ، على العلم الذى كرمه الله بتكريم العلماء الذين قال فيهم ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (٢٨ - فاطر) . أقول : والمقصود «بالعلماء» علماء الدين ، وعلماء الطبيعة ، وكل العلماء الذين «يتفكرون» و «يتدبرون» ﴿أفلا تتفكرون﴾ (٥٠ - الأنعام) ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ (٨٢ - النساء ، ٢٤ - محمد) . وفى نفى أقوال الملحدين ودحضها . يقول إينشتين : «إن الطبيعة لاتلعب بالنرد» يقصد أن كل شىء وراءه تدبير محكم، هو تدبير البارئ سبحانه وتعالى وليس بالصدفة (كما يحدث فى اللعب بالنرد) وكما يقول الملاحدة ! .

ويقول صاحب المختار: أما الكلام عن علماء الدين أو عن الواصلين بالنور الإلهى فلم تكن هنا بالطبع حاجة إليه . فهم مؤمنون بطبعهم لأن مجالهم هو الإيمان بالقلب والوجدان ، وهو ليس مما يحتاج إلى تدليل.

وبعد أن ذكر مايذكره كل مؤلف صالح من أن ينفع الله الناس «بمؤلفه» قال : والله، أسأل أن أكون بهذا «المختار» قد أسهمت فى هداية الناس إلى طريق الصواب والصلاح فى دينهم ودنياهم مسترشدين بنور العقل ، معتصمين بقوة الإيمان .

المبحث الثانى

القرطبى - ومقدمة التفسير ومدخله

بند (٣)

بعد مرور سريع بما كتبه المرحوم توفيق الحكيم - أعود إلى القرطبى ومقدمة التفسير . إن قلمى يعجز عن وصفها وبلاغتها ودقتها، والمعانى التى تطرق إليها كاتبها يرحمه الله . أكتفى بكليمات مما قال ، وببعض النصوص . بعد حمد الله والصلاة على رسول الله الذى أرسله بكتابه المبين ، الفارق بين الشك واليقين، الذى أعجزت الفصحاء معارضته.. وأخرست البلغاء مشاكلته، فلا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .. وشرح فيه - جل وعز - واجبات الأحكام، وفرق فيه بين الحلال والحرام .. وضرب فيه الأمثال ، وقص فيه غيب الأخبار، فقال ﴿ما فرطنا فى الكتاب من شىء﴾ (٣٨ - الأنعام) . خاطب به أولياءه ففهموا ، وبين لهم

(١) ٨٥ - الإسراء .

فيه مراده فعلموا. فَقَرَأةُ القرآن حملة سر الله المكنون ، وحَفَظَةُ علمه المخزون ، وخلفاء أنبيائه وأمناؤه ، وهم أهله وخاصته وخيرته وأصفياؤه. قال صلى الله عليه وسلم : «إنّ لله أهلين منا» قالوا : يارسول الله ، من هم ؟ قال : «هم أهل القرآن، أهل الله وخاصته» (أخرجه ابن ماجة فى سننه) . فما أحق من علم كتاب الله أن . يَزْدَجِرَ بنواهيه ، ويتذكر ما شُرح له فيه، ويخشى الله ويتقيه .. فإنه قد حُمِّلَ أعباء الرسل ، وصار شهيدا فى القيامة على من خالف من أهل الملل. قال تعالى : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس﴾ (١٤٣- البقرة) . ألا وإن الحجة على من علمه فأغفله ، أوكد منها على من قصر عنه وجهله. ومن أوتى علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع .. كان القرآن حجة عليه .. قال صلى الله عليه وسلم «القرآن حجة لك أو عليك» (خَرَّجه مسلم) فعلى من خصه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته ، ويتدبر حقائقه .. قال تعالى : ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته﴾ (٢٩- ص). وقال : ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ (٢٤ - الأنفال) .. جمع الله لنا به خير الدنيا والآخرة ، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة . ثم جعل إلى رسول الله بيان ما كان منه مجملا .. ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ، ومنزلة التفويض إليه . قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ (٤٤ - النحل) ثم جعل إلى العلماء - بعد رسول الله - استنباط مانَبَّه على معانيه ، وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد، فيمتازوا بذلك عن غيرهم .. قال تعالى : ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ (١١ - المجادلة) - فصار الكتاب أصلا ، والسنة له بيانا ، واستنباط العلماء له إيضاحا وتبيانا ..

يقول القرطبى (الفقيه الفاضل الزاهد) : لما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع، نزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيت أن أشتغل به مدى عمرى ، وأستفرغ فيه قوتى ، بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا (١) يتضمن نُكَتًا(٢) من التفسير واللغات والإعراب والقراءات.. وعملته تذكرة لنفسى ، وذخيرة ليوم رمسى ، وعملا صالحا بعد موتى : قال تعالى : ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ (١٣- القيامة)، وقال: ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ (٥ - الانفطار) . وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» (البخارى فى الأدب - عن أبى هريرة) .

وشرطى فى هذا الكتاب (والكلام للقرطبى) إضافة الأقوال إلى قائليها .. فإنه يقال : من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله . وفى الكتاب .. أضرب عن كثير من قصص المفسرين ، وأخبار المؤرخين، إلا ما لابد منه .. واعتَضْتُ من ذلك تبيين آى الأحكام .. وسميته : بـ (الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمنه من السنة وآى الفرقان).

---

(١) الكتاب فى عشرين مجلدا .

(٢) المسألة العلمية الدقيقة ، يتوصل إليها بدقة وإنعام فكر (المعجم الوسيط) .

باب ذكر جمل من فضائل القرآن، والترغيب فيه، وفضل طالبه وقارئه ومستمعه والعامل به(١)

نذكر من ذلك نُكَتًا تدل على فضله ، وما أعد الله لأهله ، إذا أخلصوا الطلب لوجهه وعملوا به . وأول ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام الله، كلام من ليس كمثله شيء فهو من نور ذاته جل وعزّ .. يقول – تعالى جَدُّه – وقوله الحق : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله**﴾ (٢١ – الحشر) . فأين قوة القلوب من قوة الجبال ! ولكن الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم فضلا منه ورحمة.

وأما ما جاء من الآثار في هذا الباب – فأول ذلك ما خرّجه الترمذيّ عن أبي سعيد قال : قال صلى الله عليه وسلم : «يقول الرب تبارك وتعالى من شغله القرآن وذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» – قال : «وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» . عن عليّ رضي الله عنه، وخرجه الترمذي ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «ستكون فتَنٌ كقطع الليل المظلم . قلت: يارسول الله ، وما المخرجُ منها ؟ قال: «كتاب الله تبارك وتعالى. فيه نَبأُ مَنْ قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله. هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولاتلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع فيه العلماء، ولا يملّه الأتقياء، ولا يخلَق على كثرة الردِّ ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: ﴿ **إنا سمعنا قرآنا عجبا**﴾(٢) ، من عَلِمَ عِلْمَه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجر، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم..».

وروى البخاري عن عثمان بن عفان، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». وروى الدارميُّ عن وهب الذِّماري، قال: «من آتاه الله القرآن، فقام به آناء الليل وآناء النهار، وعمل بما فيه، ومات على الطاعة، بعثه الله يوم القيامة مع السَّفَرة والأحكام. قال سعيد: السفرة الملائكة، والأحكام الأنبياء».

وروى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول : الم حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف» . ومن حديث طويل ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «.. ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» . وعن عليّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ

---

(١) ص ٤ وما بعدها من المجلد الأول .

(٢) ١ – الجن .

القرآن وتلاه وحفظه أدخله الله الجنة، وشفعه في عشرة من أهل بيته كل قد وجبت له النار»(1). وقال الليث : يقال ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن، لقول الله جل ذكره: ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾(٢٠٤ - الأعراف). و«لعلّ» من الله واجبة .

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى
وما يُكره(2) منها وما يحرُم، واختلاف الناس في ذلك

مرّ بنا (ص ٧) رأى المرحوم توفيق الحكيم في ذلك وقد رأى الجمع بين الرأيين لمبررات وجيهة ذكرها . وقد كتب القرطبي تحت هذا العنوان الصفحات من ١٠ - إلى ١٧ . وذكر في صدر ما كتب آثاراً في كراهة رفع الصوت عند قراءة القرآن. ثم قال : وروى عن مالك أنه سئل عن النَّبر(3) في قراءة القرآن في الصلاة ، فأنكر ذلك وكرهه كراهة شديدة . وأنكر رفع الصوت به . وروى ابن القاسم عنه أنه سئل عن الألحان في الصلاة فقال : لايعجبني، وقال : إنما هو غناء يتغنون به ليأخذوا عليه الدراهم . وأجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتطريب به، وذلك لأنه إذا حسّن الصوت به ، كان أوقع في النفوس ، وأسمع في القلوب ، واحتجوا بقوله عليه الصلاة والسلام : «زيّنُوا القرآن بأصواتكم» (رواه البراء بن عازب ، أخرجه أبوداود والنسائي)، وبقوله عليه الصلاة والسلام : «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن» أخرجه مسلم. وبقول أبي موسى للنبي صلى الله عله وسلم: «لو أعلم أنك تستمع لقراءتي لحبّرته(4) لك تحبيرا» ، وبما رواه عبد الله بن مُغَفَّل قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح ، في مسير له سورة «الفتح» على راحلته ، فرجّع في قراءته . وممن ذهب إلى هذا أبو حنيفة وأصحابه، والشافعي وابن المبارك والنضر بن شميل ، وهو اختيار أبي جعفر الطبري ، وأبي الحسن بن بطال ، والقاضي أبي بكر العربي وغيرهم . قلت (والكلام للقرطبي) - القول الأول أصح لما ذكرناه ويأتي :

قال : وأما ما احتجوا به من الحديث الأول ، فليس على ظاهره ، وإنما هو من باب المقلوب «أي زينوا أصواتكم بالقرآن» ، وكذا فسره غير واحد من أئمة الحديث . كما قالوا

---

(1) أقول : ما أنا إلا طالب ودارس «مبتدئ» للقرآن والحديث وعلومهما . والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ (١١٣ - التوبة) . وفي أوضح التفاسير - على سبيل المثال - أي لايجوز لهم ولا يحق أن يطلبوا من الله المغفرة للمشركين الذين يتخذون مع الله إلَها آخر ، «ولو كانوا أولي قربى» أي ولو كان المشركون ذوي قرابة للنبي والذين آمنوا ، قيل : نزلت حين استغفر صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب واستغفر بعض المؤمنين لآبائهم المشركين «من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم» لأنهم ماتوا على الكفر، وليس بعد الكفر ذنب . قال تعالى : «إن الله لا يغفر أن يشرك به» (٤٨ - النساء) . (وانظر - أيضا - وبنفس المعنى - القرطبي جـ ١١ ص ٢٧٢ وما بعدها وفيه تفاصيل وتأكيد لما تقدم) .

(2) نفس المرجع ص ١٠ وما بعدها .

(3) رفع الصوت .

(4) حَبَرَ الشيء وحبّره = زينه ونمقه . وحَبِرَ يَحْبَرُ حَبَراً = ابتهج ونضر.

عرضت الحوض على الناقة ، وإنما هو عرضت الناقة على الحوض . قال : ورواه مَعْمَر عن منصور عن طلحة ، فقدَّم الأصوات على القرآن وهو الصحيح . ومضى القرطبي في الدفاع عن وجهة نظره بتأويلات مختلفة للأحاديث الأخرى، وهي تأويلات لها وجاهتها . إلا أني أخالفه، وأختار الرأي الآخر ، وأستحسن الجمع بين جمال المعنى القرآني وجمال الصوت في تلاوته بالتطريب . إن الإنسان ليس جسما وعقلا فحسب ، وإنما هو روح وعواطف أيضا . والعواطف جزء من فطرة الإنسان كالعناصر الأخرى . ولقد من الله على عباده «بالجمال» فقال : ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾ (النحل - ٦) . وألفاظ الزينة والبهجة(١) والبهيج ليست قليلة في كتاب الله . وكذلك الحديث ففيه «إن الله جميل يحب الجمال .. » . وجمال الصوت في قراءة القرآن لا يشغل عن تدبره . أو هو - بالأقل - ليس بعام . وهذا كله - فضلا عن أن القراءة بالتطريب تشد الناس إلى الاستماع والإنصات . ثم إنه من الناحية الفقهية فإن الأخذ بالظاهر أولى من الأخذ بالتأويل . هذا ، وواضح مما تقدم في صدر الكلام عن هذا الموضوع أن القائلين بالرأي الذي رجحته هم الأكثر والأشهر(٢) .

باب ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي، والجُرأة(٣) على ذلك، ومراتب المفسرين

روي عن عائشه رضي الله عنها قالت : ماكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر من كتاب الله إلا آيًا بِعَدَدٍ ، علمه إياهن جبريل . قال ابن عطية : ومعنى هذا الحديث في مغيَّبات القرآن ، وتفسير مُجمله ونحو هذا مما لا سبيل إليه إلا بتوفيق من الله تعالى . ومن جملة مغيَّباته مالم يُعلِم الله به ، كوقت قيام الساعة ونحوها مما يستقرى من ألفاظه، وكعَدَدِ النفخات في الصور ..

من توضيحات القرطبي (في التعقيب على بعض النصوص) قال : إن من قال في القرآن بما سنح في وهمه، وخطر على باله من غير استدلال عليه بالأصول فهو مخطئ ، وإن من استنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق عليها ، وعلى معناها فهو ممدوح .

دعا النبي لابن عباس فقال : «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» وهذا يعني الرد على من قال : إن التفسير موقوف على السماع، فالصحابة قرءوا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه .

إن النهي يحمل على وجهين : أحدهما أن يكون له في الشيء رأي ، وإليه ميل من طبعه وهواه ، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه . الثاني : أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير .

---

(١) انظر - على سبيل المثال الآيات ٦٠ النمل و٥ الحج و٣٢ الأعراف و٨ النحل .
(٢) من واجبي أن أشير إلى أن شيخنا القرطبي قد دافع عن رأيه في صفحات كثيرة ، فمن شاء فليرجع إليها .
(٣) ص ٣١ وما بعدها ، هذا و«الجُرأة» و«الجراءة» كلاهما صحيح .

وكان جلة(١) من السلف الصالح كسعيد بن المسيّب يعظمون تفسير القرآن ويتوقفون عنه تورعا واحتياطا .. ومن أقوال الصديق .. كيف أصنع ! إذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى ؟! ومن أقوال الإمام على : ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق ، ويتلوه (أى فى المرتبة) عبد الله بن مسعود. قال ابن عطية : ومن المبرزين فى التابعين الحسن البصرى ومجاهد ..

قال ابن عطية : «وألّف الناس فيه .. والبخارى وغيرهم ثم إن محمد بن جرير جمع على الناس أشتات التفسير ، وقرب البعيد منها ، وشفى فى الإسناد. ومن المبرزين من المتأخرين أبو إسحاق الزجاج وأبو على الفارسى .. وكلهم مجتهد مأجور . نَضَّر الله وجوههم .

باب تبيين الكتاب(٢) بالسنة، وما جاء فى ذلك

قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾ (النحل - ٤٤) وقال : ﴿**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**﴾ (النور - ٦٣) وقال : ﴿**وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم**﴾ (الشورى - ٥٢) . وفرض طاعته فى غير آية من كتابه وقرن طاعته بطاعته . وقال : ﴿ **وماآتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ (الحشر - ٧) كان طاووس يصلى ركعتين بعد العصر . فقال ابن عباس : اتركهما . فقال : إنما نهى عنهما أن تُتَّخَذا سنة. فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله عن صلاة بعد العصر ، فلا أدرى أتُعذب عليهما أم تؤجر؟ ، لأن الله تعالى قال : ﴿ **وماكان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم**﴾(٣).

والبيان منه صلى الله عليه وسلم على ضربين : بيان المجمل من القرآن، كبيانه للصلوات الخمس فى مواقيتها .. وسائر أحكامها ، وكبيانه لمقدار الزكاة ووقتها .. وبيانه لمناسك الحج، «خذوا عنى مناسككم» . وقال «صلوا كما رأيتمونى أصلى» (أخرجه البخارى) . وروى الأوزاعى.. «كان الوحى ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحضره جبريل بالسنة التى تفسر ذلك» ..

وبيان آخر : وهو زيادة على حكم الكتاب كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، وتحريم الحُمُر الأهلية وكل ذى ناب من السباع ، والقضاء باليمين مع الشاهد وغير ذلك .

---

(١) جَلَّ يجلّ جلالاً وجلالةً : عَظُمَ ، فهو جَلٌّ وجُلاَلٌ وجليلٌ. والجمع : أجِلَّة وأجِلاَّء ، وأجلال وجِلَّة . وفى حديث الضحاك «أخذت جِلَّةَ أموالهم» .

(٢) ص ٣٧ ومابعدها .

(٣) ٣٦ - الأحزاب .

باب كيفية التعلم والفقه لكتاب الله وسنة نبيه ، وماجاء أنه سُهل على من تقدم العمل به[1] دون حفظه

عن عثمان وابن مسعود وأُبَىّ : «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا مافيها من العمل . فيعلمنا القرآن والعمل جميعا».

قال عبد الله بن مسعود : «إنا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن ، وسهل علينا العمل به ، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به» . ويروى أن عمر بن الخطاب حفظ البقرة فى بضع عشرة سنة ، فلما حفظها نحر جَزُوراً شكراً لله . قال معاذ بن جبل : «اعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا» . وقال بعضهم : العلماء همَّهم الدراية ، والسفهاء همَّهم الرواية .

المبحث الثالث

شىء عن المصحف الشريف ، وجمع القرآن ، والجهد المشكور المأثور للصحابة ، والخليفة الراشد عثمان بن عفان

بند (٤)

فى نهاية «مصحف المدينة النبوية» (المطبوع عام ١٤٠٥ هجرية فى مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة) ، وتحت عنوان «تعريف بهذا المصحف الشريف» أنه كُتبَ وضبط على ما يوافق رواية حفص بن سليمان بن المغيرة الأسدى الكوفى ، لقراءة عاصم بن أبى النجود الكوفى التابعى عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمى عن عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وزيد بن ثابت وأُبَىّ بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم.

وَأُخذَ هجاؤه مما رواه علماء الرسم عن المصاحف التى بعث بها الخليفة الراشد عثمان ابن عفانَ رضى الله عنه إلى البصرة والكوفة والشام ومكة والمصحف الذى جعله لأهل المدينة، والمصحف الذى اختص به نفسه ، وعن المصاحف المنتسخة منها . هذا : وكل حرف من حروف هذا المصحف موافق لنظيره فى المصاحف العثمانية الستة السابق ذكرها ..

وفى مقدمة تفسير القرطبى ، وتحت عنوان «باب ذكر جمع القرآن ، وسبب كَتْب[2] عثمان المصاحف وإحراقه ما سواها ، وذكر من حفظ القرآن من الصحابة رضى الله عنهم فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم»[3] قال :

---

(١) ص ٣٩ ومابعدها .

(٢) كَتَب الكتاب ، يكتبُ كَتباً وكِتابا وكِتابة = خطَّه .

(٣) نفسه ص ٤٩ ومابعدها .

كان القرآن فى مدة النبى صلى الله عليه وسلم متفرقا فى صدور الرجال ، وقد كتب الناس منه في صحف وفى جريد وخزف وغير ذلك .. فلما اشتد القتل بالقراء يوم اليمامة فى زمن الصديق رضى الله عنه ، وقتل منهم فى ذلك اليوم - فيما قيل - سبعمائه ، أشار عمر ابن الخطاب على الصديق - رضى الله عنهما - بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القراء ، كأُبَيّ وابن مسعود وزيد . فنَدَبا زيد بن ثابت إلى ذلك .. وقال له أبو بكر : إنى لأرى أن تجمع القرآن . إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك . وكنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم : تَتَبَّعْ القرآن واجمعه! فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف(١) والعُسُب (٢) وصدور الرجال .. وكانت الصحف التى جُمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى الوفاة ، ثم عند عمر حتى الوفاة ثم عند حفصة بنت عمر .. واختلف الناس فى القراءات بسبب تفرق الصحابة فى البلدان.. فأرسل عثمان إلى حفصة «أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك» ، فأرسلت بها إليه . فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف . وقال عثمان للرهط القرشيين : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة . وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وجمع المهاجرين والأنصار وجِلَّة أهل الإسلام وشاورهم فى حرق كل ماسوى ذلك ، فأقروا ما رأى .

ماذا أقول فى هذا الإنجاز الذى يصل إلى حد الإعجاز(٣) . إنهم الصحابة الذين أدبهم الرسول بما أدَّبَهُ به ربه . يقول تعالى : ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾ (الأحزاب - ٢٣) .

أسأل الله لنفسى ، وللمسلمين جميعا ، أن يكون لنا فى رسول الله، وفيهم الأسوة والقدوة . وكلهم خير . ولن يغير الله مابنا ، ولن يصلح أحوالنا إلا بالرجوع إلى القرآن ، الذى صنعوا من أجله الكثير (كما رأينا) ، وإلى السنة الشريفة ، وإلى سيرة الصحابة الذين قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم : «أصحابى كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم» .

---

(١) الأكتاف جمع كتف ، وهو عَظْم عريض يكون فى أصل كتف الحيوان ، كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم .

(٢) العُسُب جمع عسيب ، وهو جريد النخل إذا نُزِع منه خوصه .

(٣) وما كان ليكون إلا بتوفيق من الله وتأييد .

الفصل الثانى

القرطبى .. وقفة معه(١)

تفسير الآيتين ٣٠ و ٢٤٧ - البقرة
متناقضات لا ينفرد بها وسفسطات سادت عصرها
واستطرادات لا مبرر لها

بند (٥)

لا أظننى بقادر على أن أضع القرطبى وتفسيره فى مكانهما الصحيح بين المفسرين وكتب التفسير، من معاصريه ولاحقيه. إن القرطبى - بحق - هو العالم، العلامة، الحبر، البحر، الفهامة، لا مجازا، ولا مجاملةً، ولا انحيازا. وإنما فى الحقيقة والواقع. إنه كذلك، وأكثر من ذلك، أما تفسيره فهو يبهر قارئه ودارسه وكل من يعرفه ويعايشه. إنه دراسات مقارنة بين المذاهب والآراء فى التفسير والفقه والأحكام. وإنه مرآة عصره فى الثقافات المختلفة ومنها التاريخ والأساطير! أما اللغة وعلومها، وفنونها، وشعرها ونثرها، بل وألغازها، فالكتاب (وهو من عشرين مجلداً) قليل النظير. وإنه فى عرضه لمختلف الموضوعات والمسائل، ومناقشتها، ونقدها، إنه - فى هذا كله - نهرفياض متدفق. وإنه يقف فى الصف الأول من الأفذاذ. وإنه - ككل الكبار والعباقرة - ذو شخصية متميزة - رضى الله عنه وأرضاه.

أقول هذا، وهو ما استطعته - كمدخل - لما أعرضه - من أقواله فى الآيتين الكريمتين (٣٠ و ٢٤٧ من سورة البقرة).

أما الآية الأولى (٣٠) فهى: **﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لاتعلمون﴾**.

أما الآية الأخرى: (٢٤٧) فهى: **﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله ا صطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾**(٢).

بعد أن ذكر القرطبى الآية - ٣٠ - قال: فيه (أى فى موضوعها) سبع عشرة مسألة:

---

(١) الآيتان فى «نظام الحكم» و «رئاسة الدولة» فى الإسلام.

(٢) رجعت إلى كتب التفسير الآتية (وبعضها حديث وبعضها قديم):

(أ) تفسير المنار. (ب) تفسير فى ظلال القرآن. (جـ) أوضح التفاسير.

(د) تفسير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. (هـ) تفسير ابن كثير.

(و) تفسير النسفى - فلم أجد من بينها من تكلم عن «الخلافة ونظام الحكم» وهو بصدد الآية ٣٠ سوى القرطبى - وهذه شهادة له. وانظر فى ذلك (أى فى نظام الحكم فى الإسلام - دراسة مقارنة «الإسلام والدولة» للمؤلف).

المسألة الرابعة[1]:

هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة، يُسمع له ويُطاع. لتجتمع به الكلمة، وتُنَفَّذ الأحكام، ولا خلاف في ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة، إلا ما روى عن الأصم[2] حيث كان عن الشريعة أصم!

يقول القرطبي: ودليلنا (أي على دحض مذهب الأصم): قوله تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة[3] ..﴾، وقوله تعالى: ﴿ياداود إنا جعلناك خليفة[4] في الأرض...﴾، وقوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم[5] في الأرض﴾، أي يجعل منهم خلفاء. إلى غير ذلك من الآي. وأجمعت الصحابة على تقديم الصديق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار في التعيين، وقال المهاجرون: إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش. فلو كان فرض الإمامة غير واجب لا في قريش ولا في غيرها لما ساغت المناظرة... ثم إن الصديق رضي الله عنه لما حضرته الوفاة، عهدإلى عمر، ولم يقل له أحد هذا أمر غير واجب علينا ولا عليك، فدل على وجوبها.

وقالت الرافضة : يجب نصبه عقلاً. وإنما السمع ورد على جهة التأكيد على قضية العقل. فأما معرفة الإمام فإن ذلك مدرك من طريق السمع دون العقل . هذا (والنقل عن القرطبي) - فاسد؛ لأن العقل لايوجب ولا يحظر ولا يقبح ولا يحسن. وإذا كان كذلك ثبت أنها واجبة من جهة الشرع لا من جهة العقل.

أقول: إن تنصيب رئيس للدولة واجب عَقْلا، وورد السمع تأكيدا لقضية العقل.

وقول القرطبي: إن العقل لا يوجب ولا يحظر، ولا يقبح ولا يحسن، إن قوله هذا، وبهذا الإطلاق، محل نظر.

إن شريعتنا بدأت مع بعثة رسولنا، وأخذت تتكامل إلى أن توفاه الله. ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ور ضيت لكم الإسلام دينا﴾ (٣ - المائدة). وإن كثيرا من الأحكام المدنية والعقابية وغيرها لم تنزل إلا في المدينة، بل إنها أو بعضها لم ينزل إلا في السنوات الأخيرة من حياة الرسول. فهل وقف الرسول وصحبه والمؤمنون أمام أحداث الدنيا وشئونها، وقد كَتَّفُوا أيديهم، وعطَّلوا عقولهم!!

إن الله - سبحانه وتعالى - قد كرم بني آدم ﴿ولقد كرمنا بني آدم...﴾ (الآية ٧٠ الإسراء). إنه - سبحانه - قد كرم بني آدم بإطلاق ، مسلمين كانوا أم غير مسلمين؟ وقد

---

(١) ص ٦٤، من المجلد الأول.

(٢) خلاصة كلامه ومن نحا نحوه: أنه إذا تناصف الناس فلا حاجة لهم إلى حاكم ولا إلى خليفة وهذا محض خيال. وقد ادعاه الفوضويون في العصر الحديث.

(٣) و (٤) و (٥) الآيات ٣٠ - البقرة و ٢٦ - ص، و ٥٥ - النور على التوالي.

كرمهم بنعم كثيرة – فى قمتها العقل – وهو مناط التكليف. والعقل يخطئ، عقل المسلم وغير المسلم. وهذا الأخير يخطيء أكثر لأنه لا يعلم ﴿إلا ظاهرا من الحياة الدنيا﴾ (٧ – الروم)، ولم يستضئ بنور الله. وفيما عدا الرسول المعصوم فيما يبلغ عن الله، فإن عامة المسلمين، بل وصفوتهم يخطئون، وأمامنا مثال «الاجتهاد والمجتهدين» وفى الحديث الشريف « من اجتهد فأخطأ فله أجر، ومن اجتهد فأصاب فله أجران» ، (أو كما قال). وفى الحديث الآخر، حين بعث رسولنا صلى الله عليه وسلم «معاذا» رضى الله عنه إلى اليمن سأله : «بم تقضى؟» قال: بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد؟» قال: فبسنة رسول الله، قال: «فإن لم تجد؟» قال : «أجتهد رأيى ولا آلو» (أو كما قال). كل هذا حتى لا نجمد، ولا نقف مكتوفى الأيدى ، مقيدى العقل، أمام الأحداث المتجددة والمتغيرة.

وليس استطرادًا إذا قلت: هل كان بنو آدم، أو الناس، وقبل الإسلام، وفى كل مكان، لا يعينون رئاسات للجماعات، ومنها «الدولة»؟. إن الناس قد أقاموا هذه الرئاسات، ومازالو(١) يقيمون . إن الله هو الذى «أعطاهم وكرمهم بالعقول»، وبها يتصرفون فى مختلف الشئون ومنها شئون الدولة والحكم. وقصارى القول: أن المؤمنين بالله واليوم الآخر، هم الأهدى سبيلا، والأصح نظرا وسلوكا . والمسلمون مقيدون بالنص حين يوجبون أو يمنعون، ويقبحون أو يحسنون. فإذا لم يوجد نص فعليهم أن يجتهدوا . وهم بالاجتهاد مكلفون . وفى الموضوع تفصيل، ولكنى أكتفى بهذا (وانظر – فى هذا الموضوع – على سبيل المثال – الأحكام السلطانية للماوردى ص ٥ طبعة مصطفى البابى الحلبى. وفيه أوجب العقل أن يمنع كل واحد من العقلاء نفسه عن التظالم.. ويأخذ بمقتضى التناصف، ولكن جاء الشرع بتفويض الأمور إلى وليه فى الدين ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ (٥٩ – النساء).

بعد هذا أعود إلى القرطبى، والمسألة الخامسة:

المسألة الخامسة:

إذا سلِّم أن طريق وجوب الإمامة السمع: فخبرونا: هل يجب من جهة السمع بالنص على الإمام من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم، أم من جهة اختيار أهل الحل والعقد له، أم بكمال خصال الأئمة فيه. ودعاؤه مع ذلك إلى نفسه كافٍ فيه؟

---

(١) وفى هذا يقول الشاعر العربى:

لايصلح الناس فوضى لا سَرَاة لهم .·. ولا سَرَاةَ إذا جهالهم سادوا

وفى الحديث : «لايحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمّروا أحدهم» (مسند الإمام أحمد عن عبد الله ابن عمر).

اختلف الناس في هذا الباب: فذهبت الإمامية وغيرها إلى أن الطريق الذى يعرف به الإمام هو النص[1] من الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا مدخل للاختيار فيه. وعندنا[2]: النظر طريق إلى معرفة الإمام، وإجماع أهل الاجتهاد طريق أيضا إليه...

المسألة السادسة:

فى رد الأحاديث التى احتج بها الإمامية فى النص على عليٍّ رضى الله عنه:منها قوله صلى الله عليه وسلم: «من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه». وقوله عليه الصلاة والسلام لعلي: «أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى». والجواب عن الحديث الأول أنه ليس بمتواتر، وقد اختلف فى صحته. وقد طعن فيه أبو داود السجستانى وأبو حاتم الرازى، واستدلا على بطلانه بأن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «مُزَينة وجُهينة وغفار وأسلم موالى دون الناس كلهم، ليس لهم مولى دون الله ورسوله». فلو كان قد قال: «مَن كنت مولاه فعلى مولاه» لكان أحد الخبرين كذبا. وإلى ذلك فإنه ليس فى الخبر ما يدل على إمامة على وإنما يدل على فضيلته. ويكون معناه هو نفس المعنى الذى جاء فى الآية (٤- التحريم) ﴿فإن الله هو مولاه﴾ أى وليه، أى ظاهر عليٍّ كباطنه، وذلك فضيلة عظيمة لعلي... إلى آخره.

وأما الحديث الثانى فعليه ردود كثيرة منها أن هارون مات قبل موسى، وإنما أراد أنى استخلفتك على أهلى فى حياتى وغيبوبتى عن أهلى كما كان هارون خليفة موسى على قومه عندما خرج لمناجاة ربه... إلى آخره.

المسألة السابعة:

واختُلِفَ على مايكون به الإمام إماما على ثلاث طرق: النص وقد تقدم الاختلاف فيه. ومع ذلك – وبشأن النص، فقد تمسك البعض بنص النبى على أبى بكر بالإشارة. ونص أبو بكرعلى عمر[3]. فإذا نص المستخلف على واحد معين كما نص أبوبكر على عمر، وكما نص عمر على جماعة – فهذا هو الطريق الثانى، وقد اختارت الجماعة عثمان (ثم كانت البيعة العامة فى المسجد كما قلت فى الهامش (٣)).

الطريق الثالث: إجماع أهل الحل والعقد. قال صلى الله عليه وسلم: «ثلاث لا يغل عليهن: قلب مؤمن، إخلاص العمل لله، ولزوم الجماعة ومناصحة ولاة الأمر فإن دعوة المسلمين من ورائهم محيطة».

---

(١) عند الإمامية الاثنى عشرية – يقتصر هذا على الأئمة الاثنى عشر بدءا من الإمام على رضى الله عنه إلى الإمام محمد المنتظر (وتفصيل ذلك فى كتاب: الإسلام والدولة) .

(٢) أى عند أهل السنة والجماعة.

(٣) أقول تلافيا لحدوث فتنة كادت أن تقع تحت سقيفة بنى ساعدة، بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام. ومع ذلك فإن هذا النص على عمر، ونص عمر على جماعة لم يكن سوى ترشيح تلته بيعة عامة فى المسجد.

المسألة الثامنة:

فإن تغلب من له أهلية الإمامة وأخذها بالقهر والغلبة، فقد قيل: إن ذلك يكون طريقاً... قال ابن خُوَيْز مَنداد: ولو وثَبَ على الأمر من يصلح له من غير مشورة ولا اختيار وبايع(١) له الناس تمت له البيعة.

المسألة التاسعة:

فإن عقدها واحد من أهل الحل والعقد فذلك ثابت ويلزم الغَيْر فعلُه - خلافا لبعض الناس الذين قالوا : لا تنعقد إلا بجماعة من أهل الحل والعقد . وبعد أن نقل القرطبى أقوالا لبعضهم فى تأييد (العقد من واحد) قال: وهذا مجمع عليه. ودليله عقد عمر البيعة لأبى بكر. وأقول : فى هذا نظر: إن عمر رضى الله عنه قد تنبأ بأشياء وأحكام نزل القرآن بعد ذلك بها، هذه واحدة، والثانية أن عقد عمر، أو بيعته لأبى بكر، كانت مجرد ترشيح أيدته البيعة العامة. لقد شرح الله صدر عمر، وصدور الصحابة معه حين اختاروا الصديق. إن الصديق هو صاحب قرار محاربة المرتدين ومانعى الزكاة .

وأقول : إن هذه الحرب التى استُشْهِدَ فيها أجلاء الصحابة بالمئات والتى أضعها - فى أهميتها ونتائجها - فى مكانة غزوة بدر الكبرى. فعند وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ارتفعت رءوس المنافقين داخل المدينة ذاتها، واهتزت الجزيرة العربية بالرِّدّة والتمرد، حتى لقد شُبِّه حال المسلمين وقتئذ - فضلا عن فقدهم لنبيهم - بالغنيمات المنكمشة فى ليلة ممطرة وباردة. وأعود وأقول: إنه النور الذى انبعث فى قلب عمر حين مدّ يده وبايع الصديق، وتابعه الصحابة رضى الله عنهما وعنهم جميعا . فالاحتجاج بفعل عمر فى أزمان آثر فيها الناس الدنيا والسلطة لا محل له . لقد انفصلنا عن أصول الحكم فى الإسلام منذ جعله معاوية رضى الله عنه بالوراثة!

المسألة العاشرة:

واختلف فى الشهادة على عقد الإمامة، فقال بعض أصحابنا : إنه لا يُفتقر إلى الشهود، لأن الشهادة لا تثبت إلا بسمع قاطع، وليس هاهنا سمع قاطع يدل على إثبات الشهادة. ومنهم من قال: يُفْتَقَرُ إلى شهود؛ لأنه لو لم تعقد فيه الشهادة أدى إلى أن يدعى كل مدع أنه قد عقد له سراً، ويحدث هرج وفتنة...؟

هذه سفسطة، انحدر فيها المتأخرون، وانفصلوا عن جدِّية السلف! أما شيخنا القرطبى فلا شيء عليه فيما أرى. فهو دائما حريص على نقل «ثقافة عصره» بما فيها من غث وسمين .

---

(١) أقول : إن من يثب على الأمر بالسيف - يسهل عليه بعد ذلك حمل الناس على مبايعته قهراً . وقصة معاوية رضى الله عنه عندما أراد أخذ البيعة لابنه يزيد معروفة! وستأتى..

المسألة الحادية عشرة :

فى شرائط الإمام، وهى أحد عشر:
١ – أن يكون من صميم قريش . ففى الحديث الشريف «الأئمة[1] من قريش» – وقد اختلف فى هذا.
٢ – أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضيا من قضاة المسلمين، مجتهداً لا يحتاج إلى غيره فى الاستفتاء.
٣ – أن يكون ذا خبرة ورأى حصيف بأمر الحرب وتدبير الجيوش وحماية البيعة والأخذ من الظالم للمظلوم.
٤ – أن يكون ممن لا تأخذه رقة فى إقامة الحدود،.. ولابد أن تجتمع فيه الخبرات المختلفة المتعلقة بشئون الحكم.
٥ و ٦ و ٧ – أن يكون حراً لا عبدا، مسلما ذكرا.
٨ و ٩ و ١٠ – سليم الأعضاء، بالغًا عاقلاً.
١١ – أن يكون عدلا، ومن أفضل العلماء.

المسألة الثانية عشرة:

يجوز نصب المفضول مع وجود الفاضل خوف الفتنة، وألا يستقيم أمر الأمة (والستة الذين رشحهم عمر كان فيهم الفاضل والمفضول).

المسألة الثالثة عشرة:

إذا فسق الإمام بعد تمام العقد، قال الجمهور: تنفسخ إمامته ويخلع بالفسق الظاهر المعلوم[2] . وقال آخرون: لا ينخلع إلابالكفر أو ترك الصلاة أو الدعوة إلى تركها... لقوله عليه الصلاة والسلام فى حديث عبادة: «وألا تنازع الأمر أهله، إلا أن ترو كفراً بَوَاحاً عندكم من الله فيه برهان». وفى حديث عوف بن مالك : «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة».

المسألة الرابعة عشرة:

ويجب عليه أن يخلع نفسه إذا وجد فى نفسه نقصا يؤثر فى الإمامة فأما إذا لم يجد نقصا، فهل له أن يعزل نفسه ويعقد لغيره؟ خلاف : منهم من قال ليس له أن يفعل ذلك . وإن فعل لم تنخلع إمامته. ومنهم من قال : له أن يفعل ذلك والدليل : قول الصديق رضى الله عنه: أقيلونى، أقيلونى. وقول الصحابة : لا نقيلك ولا نستقيلك. قدمك رسول الله لديننا، فمن ذا يؤخرك؟ فلو لم يكن له ذلك لأنكرت الصحابة عليه، فإقرار الصحابة دليل على أن للإمام أن يفعل ذلك.. جميع من ناب عن غيره في شيء له أن يعزل نفسه، كذلك الإمام يجب أن يكون مثله.

أقول : طرح القرطبى سؤالا يتضمن سؤالين. وإجابته صحيحة فيما يتعلق بحق الإمام –

(١) فى الرد على هذا الشرط (انظر للمؤلف – الإسلام والدولة – نفسه – بند ٩٣) .
(٢) أقول : إن الأمر خطير. وفاقد الشيء لا يعطيه .

كغيْره فى أن يعزل نفسه. ولكنه أهمل تماما أو نسى الجواب على السؤال الآخر: هل له أن يعقد لغيره. والجواب هو : فى ظل «الشورى الحقيقية» ليس له ذلك بالقطع فالدولة ليست إقطاعية خاصة به، له أن يتصرف فيها بكامل إرادته. ومع ذلك فما أكثر ما حدث من انحرافات وانتهاكات للحق الثابت للأمة (أو الشعب) فى اختيار رئيسه بمحض إرادته وكامل حريته. وهنا جاءت المناسبة لعرض ما حدث من معاوية رضى الله عنه : فأول انحراف وانتهاك، ارتكبهما : تحويل نظام رئاسة الدولة الإسلامية من «الانتخاب» (انتخاب الأمة للرئيس) إلى الملك (الوراثى). والثانى هو «العقد لغيره» (هذا الغيرهو ابنه يزيد) : جَمَعَ الزعماء والرءوس والوفود من أرجاء الدولة الإسلامية (الواسعة)، جمعهم بدار الخلافة بدمشق، وطلب منهم مبايعة ابنه يزيد ليكون الخليفة من بعده. وظهر على الحاضرين التردد. فقام أحد الحاضرين (بتدبير مسبق ولا شك) وقال: أمير المؤمنين هو هذا (وأشار إلى معاوية)، وخليفته هو هذا (وأشار إلى يزيد)، فمن أبى فهذا (وأشار إلى السيف). وأخذ «نظام الشورى الإسلامى» ينتكس، ومازال ينتكس حتى اليوم. وهذا هو أساس تخلفنا..!

المسألة الخامسة عشرة :

إذا انعقدت الإمامة باتفاق أهل الحل والعقد (أو بواحد على ما تقدم)؟ وجب على الناس كافة مبايعته على السمع والطاعة . ومن تأبى عن البيعة لعذر عُذِرَ، ومن تأبى لغير عذر جُبِرَ وقهر. قال صلى الله عليه وسلم: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخَر منهما» (رواهُ أبو سعيد الخدرى وأخرجه مسلم) . وعن عبد الله بن عمرو أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول: «ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر». رواه مسلم. وهذا أول دليل على منع إقامة إمامين لما يترتب عليه من الفرقة والفتن وزوال النعم . لكن إن تباعدت الأقطار وتباينت كالأندلس وخراسان جاز ذلك.

أقول : فى عصرنا، إذ صارت الدنيا كلها وأقطارها كقرية صغيرة للتقدم المذهل فى الانتقال والاتصال أصبح من الممكن، بل من الواجب، أن تكون للدولة الإسلامية الواحدة المنتظرة رئاسة واحدة، وكلمة واحدة منبثقة من كتاب الله وسنة رسوله .

المسألة السادسة عشرة:

لو خرج خارجى على الإمام معروف العدالة وجب جهاده...

المسألة السابعة عشرة :

فأما إقامة إمامين فى عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز إجماعا.

فى ثنايا ما تقدم من هذا البند أثبتُّ ما تراءى لى من نقد.، وفيما يلى نرى شيخنا القرطبى وجها لوجه مع الآية ٢٤٧ من نفس السورة (البقرة) - وأذكرها هنا مرة أخرى. قال تعالى : ﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق

بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله ا صطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾.

فى مطلع الآية السابقة (٢٤٦) قوله تعالى : **﴿ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ...﴾** إلى آخر الآية وجاء الرد فى الآية ٢٤٧ **﴿.. إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا﴾**. وكعادة بنى إسرائيل فى الماضى ، وحتى الحاضر - انْطَلَقَتْ منهم الاعتراضات، كما حدث منهم بشأن «البقرة» (الآية ٦٧ وما بعدها من نفس السورة) : اعترضوا هنا فقالوا: **﴿أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾**.

وكان طالوت سقاء، وقيل: دبّاغا، وقيل: مُكَارِيًّا[1]. وكان عالما، وكان من سبط بنيامين، ولم يكن من سبط النبوة ولا من سبط المُلْك. وكانت النبوة فى بنى لاوى، والملك فى سبط يهوذا فلذلك أنكروا فقالوا: كيف يكون له الملك علينا؟ وهذه - وكما قلت آنفا - ديدنهم فى التعنت مع الأنبياء، بل وقتلهم **﴿ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون﴾** (٨٧ البقرة) - تفاخروا بأنهم ذوو مال، وهو فقير، وتفاخروا بالأنساب، وبأنهم من بيوت وأسر النبوة والملوك. ولم يكفهم أن الله هو الذى اصطفاه. وجادلوا بلا حياء، **﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا[2] به الحق﴾**. وكأنهم أرادوا أن يضعوا معاييرهم فوق مقادير الله. لقد زاده الله، فى كل ما يتمناه الصالحون الطيبون من عباد الله. زاده سعة فى العلم، وقوة فى الجسم. وهذه الصفات هى التى زكى يوسف بها نفسه لفرعون وزكت ابنة شيخ مدين موسى، وهى تقدمه إلى أبيها. قال يوسف: **﴿اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم[3]﴾**. وقالت ابنة شيخ مدين **﴿يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين[4]﴾**. إن البسطة فى العلم هى مِلاك الإنسان. وإن البسطة فى الجسم، هى معينته فى الحرب وعدته عند اللقاء.

فتضمنت الآية بيان صفة الإمام وأحوال الإمامة، وأنها مستحقة بالعلم والدين والقوة لا بالنسب. فلا حظٌ للنسب فيها مع فضائل النفس، وأنها متقدمة عليه. وهذه الآية أصل فى الإمامة (وأحال على ما كتبه عن الآية ٣٠، وقد سبق النقل منه، والتعليق عليه) - قال ابن عباس: «كان طالوت يومئذ أعلم رجل فى بنى إسرائيل وأجْمَلَهُ وأتمَّه. وزيادة الجسم مما يهيب العدو. وقيل: سمي طالوت لطوله. وقيل: زيادة الجسم كانت بكثرة معانى الخير والشجاعة[5]» واستمر قائلاً: «ولم يرِد عظمُ الجسم. ألم تر إلى قول الشاعر[6]:

---

(١) يقال : أكْرى الرجل الدار أو الدابة : أجرها . كاراه مُكاراةً وكِرَاءً = آجره فهو مُكارٍ.
(٢) ٥ - غافر.
(٣) ٥٥ - يوسف.
(٤) ٢٦ - القصص.
(٥) هذا نقل عن القرطبى بتصرف (ج ٣ ص ٢٤٦).
(٦) هو العباس بن مرداس، كما فى الحماسة وغيرها - عن هامش - ٣ - بص ٢٤٦.

ترى الرجل النحيف فتزدريه	.·.	وفى أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطريف فتبتليه	.·.	فيخلف ظنك الرجل الطرير
وقد عَظُمَ البعير بغير لبٍّ	.·.	فلم يَسْتغنِ بالعِظم البعير(١)

فى الآية ٢٦ - القصص - يقول تعالى - على لسان ابنة شيخ مدين - ﴿**إن خير من استأجرت القوى الأمين**﴾ - وإنى أرى فى «القوة» و«الأمانة» كافة الفضائل التى يجب أن تجتمع فى كل إنسان، فى كل موقع من مواقع العمل: إن القوة تعنى الكفاءة، تعنى الجدارة والخبرة، تعنى العقل، تعنى العلم. وهذه كلها درجات: درجات عالية جدا، وعالية، ومتوسطة، ودون المتوسطة. وداخل كل هذه الدرجات يمكن تعددها وتصنيفها. وهذا يجب أن يتناسب مع اختلاف المواقع والوظائف والمناصب.

أما «الأمانة» فهى تعنى الدين ومكارم الأخلاق. ولا أنسى «الحكمة» التى يؤتيها الله «من يشاء»﴿**ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا**﴾ ﴿**وما يذكر إلا أولوا الألباب**﴾ (الآية - ٢٦٩ البقرة). إن «الحكمة» هى قمة الفضائل. إن علينا أن نتقى الله ما استطعنا ﴿**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها**﴾ وفى حدود الوسع والطاقة، يجب أن نستزيد من التقوى. ﴿**وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب**﴾﴿**ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه**﴾ «وأولوا الألباب» هم المخاطبون والمطالبون قبل غيرهم.

وباب الفضائل مفتوح على مصراعيه، ﴿**وفى ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾ بهذا كله يجب أن نلتزم. ونحن - فى حدود القدرة مسئولون عن أى تقصير. ومن رحمة الله، ومن لطفه بعباده أنه لا يؤاخذ عن السهو والنسيان وأنه «**يعفو عن كثير**».

إن «المناصب» «مسئولية». وكلما ارتقت المناصب عظمت المسئولية ومنصب رئيس الدولة فى النظام الرئاسى ومنصب رئيس الوزراء فى النظام البرلمانى هما الأثقل عبئا ، والأعظم مسئولية . ومن هنا زهد بعض الصالحين فى مثل هذه المناصب وفى مناصب القضاء كذلك وبالذات.

---

(١) قوله: «ولم يرد عِظَمُ الجسم، ثم ذكر هذه الأبيات الثلاثة مثيرة للحَيْرة: إنه متناقض مع ما نقلته عنه من شرح المراد ببسطة الجسم وزيادته، ثم إنه جاء فى الآية الكريمة (وهى فى تزكية طالوت) أن الله «اصطفاه» أى اختاره وزكّاه عمن سواه. وقامت التزكية على صفتين: البسطة فى العلم والبسطة فى الجسم. والمفاضلة بين النحيف والطرير قد تكون صادقة، أحيانا وليس دائما.

أقول : أحيانا، وفى ذلك يقول بعضهم «جسم البغال وأحلام العصافير»، وفى سورة «المنافقون» الآية (٤) «وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم...» مع أن قلوبهم فارغة من الإيمان... إلى آخره. وكثيرون هم من أعطاهم الله التميز فى العلم والعقل إلى جانب الجمال والبسطة فى الجسم ومنهم طالوت.

ومن رأيى عدم المبالغة فى الزهد، أو الخوف بعبارة أكثر صراحة. إن علينا أن نجتهد، وأن نجتهد، وألا نتقاعس عن منصب خشية أن يشغله من هو أقل كفاءة أو أمانة. ولنا فى الصحابة رضى الله عنهم أسوة. فما كان وراء ما جرى تحت سقيفة بنى ساعدة، بُعَيْد صعود روح الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى - إلا الحرص على المصلحة العامة.

وأعود وأقول: إنهما: الكفاءة والأمانة، وفيهما، وفى القول بهما كشرطين لكل منصب، ومنها - فى المقام الأول - منصب رئيس الدولة - عصمة من الخوض فيما خاض فيه «فقهاء العصور المتأخرة».

الإعجاز العلمى
فى القرآن الكريم

بند (٦)

نزل القرآن الكريم على محمد بن عبد الله النبى الأمى العربى، ونزل بلغة العرب الذين اختار الله سبحانه وتعالى رسوله منهم ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ (٢٤ - الأنعام) . وكانوا أهل بلاغة وفصاحة وبيان . وكانوا فى الجاهلية يقيمون الأسواق (ومن أشهرها سوق عكاظ) - وهذه الأسواق تشبه ما نسميه اليوم الندوات والمؤتمرات . وكانوا يتنافسون - (فى أسواقهم هذه)[١] - فى الشعر بالذات . وتعكّظ القومُ تعكُّظاً إذا تجلَّسُوا ينظرون فى أمورهم . قال : وبه سمِّيت عكاظ . وكانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ فى كل سنة، ويتفاخرون فيها؛ ويحضرها شعراؤهم ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر، ثم يتفرقون .

وفى دائرة المعارف[٢] (لوجدى يرحمه الله) - وتحت عنوان «المعلقات» - نقلاً عن ابن خلدون «واختلفوا فى جميع هذه القصائد السبع . وقيل : إن العرب كان أكثرُهم يجتمع بعكاظ ويتناشدون الأشعار، فإذا استحسن الملك قصيدة قال : علقوها وأثبتوها فى خزانتى، فأما قول من قال : إنها عُلِّقَتْ بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة» .

وفى رواية أخرى لابن عبد ربه وجماعة من علماء الأدب : أنه «قد بلغ منْ كَلَفَ العرب بالشعر أنهم عمدوا إلى سبع قصائد، فضلوها على غيرها من الشعر القديم، وكتبوها بماء الذهب فى القباطى المدرجة[٣]، وعلقوها فى أستار الكعبة» .

هكذا كان شأن اللغة والشعر عندهم، إنها ، وإنه، أحْسَنُ ما يحسنون وأعز ما به يباهون ويفتخرون . وقد جاء القرآن الكريم ليتحداهم فى لغتهم التى لا يُتْقِنُونَ شيئًا كما يتقنونها؛ وقد تحداهم فى أكثر من آية . من ذلك : قوله تعالى : ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداء كم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار

---

(١) ومن أسواقهم (فى الجاهلية) سوق مجنَّة وسوق ذى المجاز. وانظر «معجم البلدان» لياقوت الحموى الرومى البغدادى - المجلد الرابع - دار صادر بيروت ص١٤٢ .

(٢) المجلد ٦ - دار المعرفة - بيروت ص٥٤٣ وما بعدها .

(٣) القُبْطيَّة - ثياب من كتان بيض رقاق (المعجم الوسيط).

التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين * وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ...﴾ (1) .

وقد حار فى أمر القرآن – فيمن حار، أحد كبار قريش الراسخين فى تذوق البيان، فقال: «لقد سمعت منه كلامًا ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمُثمر، وإن أسفله لمُغدق، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وما يقول هذا بشر»(2) . ولم يكن هذا الرجل مؤمنًا، ولذلك لم يستطع تعليل هذا القرآن إلا بأنه سحر ساحر .

وفى الآيات الأولى من سورة الأنبياء : **﴿اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون * قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم * بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون * ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم مؤمنون﴾** ؟ (الآيات 1 – 6) .

وفى سورة الحاقة يقول تعالى : **﴿إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين ...﴾** (3) .

ومن سورة الفرقان : **﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، فقد جاءوا ظلما وزورا * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا * قل أنزله الذى يعلم السر فى السمٰوات والأرض، إنه كان غفورا رحيما﴾** (4) .

وهذه الآية – (102 من سورة النحل) **﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين﴾** – لقد زعم كفار مكة أن شاباً روميًا يعلم الرسول الكريم هذا القرآن . إن هذا الشاب أعجمى، لا يعرف العربية ولقد تحداكم القرآن ببلاغته وفصاحته، وعجزتم عن محاكاته، فكيف يصح زعمكم واتهامكم ؟!

وهذه الآية (26 من سورة فُصِّلَتْ) **﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾** .

أقول : إلى هذا الحد وصل عداؤهم، بل غَباؤهم . إنهم يتواصَوْنَ بالافتراء، وباللغو، والتشويش . وهى، وما إليها، وسائل المحجوجين المبطلين المفلسين! ولقد ذهب كفار قريش إلى حيث لا رجعة، وإلى حيث الحساب **﴿وجاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾** (5).

هذا عن لغة القرآن، وعن التحدى والإعجاز .

---

(1) – الآيات 23، 24، 25 (البقرة).
(2) مختار تفسير القرطبى – لتوفيق الحكيم – المقدمة – وانظر فيه الفرق بين السحر والمعجزة، مما نقله عن تفسير القرطبى. وانظر – سابقا – من هذه الأوراق فقرة بعنوان : «فى إعجاز القرآن» ص7 .
(3) – 40 – إلى – 43.   (4) الآيات 4 – إلى – 6.   (5) 81 – الإسراء.

وفى العصور الأخيرة، أخذ العلم فى التطور والتقدم، وكشف عن أشياء لم تكن معروفة عند العرب، ولا عند غيرهم عند نزول القرآن . إنه الإعجاز العلمي . إن الله يعلم ما خفى علينا، وهو كثير . وصدق الله العظيم القائل: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ (١) . والقائل - أيضًا - ﴿وقل رب زدنى علما﴾ (٢).

ولنأخذ فى نقل(٣) بعض الآيات من القرآن الكريم، وما جاء عن بعض ما فيها من أسرار علمية، ظلت خافية عن الناس على مدى قرون وقرون : وإنى هنا - أنقل، وأنقل القليل مما جاء فى التفسير المذكور .

١ - يقول تعالى : ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم...﴾ إلى آخر الآية» (٤) .

فى قوله تعالى : ﴿وأنزلنا عليكم المن والسلوى ...﴾ ذكْرٌ لحقيقة علمية كشفها العلم أخيراً: وهى أن المواد البروتينية التى تكون من أصل حيوانى كلحوم الحيوانات والطيور، ومنها السمان (السلوى) أفضل فى تغذية الإنسان من بروتينات البقول النباتية من حيث التمثيل الحيوى واستفادة الجسم ، كما أن «المن» (٥) أساسه مواد سكرية تُعَدُّ من أهم أسباب قوى النشاط والحركة لجسم الإنسان .

٢ - ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ..﴾ إلى آخر الآية ١٧٣ - البقرة» سبق القرآنُ الكريمُ الطب الحديث بتحريم الميتة لأن ما يموت بشيخوخة أو مرض يكون موته بسبب مواد سامة ضارة تصل إلى من يأكله . وفوق ذلك فإن الموت بالاختناق أو المرض ينحبس فيه الدم (٦)، وفيه مواد ضارة كثيرة يشتمل عليها العرق والبول . والخنزير ينقل الأمراض الخطيرة مثل التنبا، كما أنه الحيوان الوحيد الذى يصاب بالتركينا التى تصيب آكله إذا أكله .

﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ..﴾ نفس الآية - ١٧٣ . «حالة الاضطرار تسوغ ما حَرَّم؛ لأن الموت المؤكد أشد من الضرر المحتمل؛ ولأن الجائع تتنبه أجهزة هضمه فيتغلب على المواد الضارة، ولذا لا يصح للمضطر أن يتجاوز حدَّ الضرورة .

فى تفسير «المنتخب» للآية - ٣ - من سورة المائدة - عودة لنفس الموضوع، بتفصيل أكثر - أنقل منه ما يلى : ... هذا فضلاً عن أن الحيوان الذى يموت دون تذكية.. ينحبس فيه

---

(١) ٨٥ - الإسراء.
(٢) ١١٤ - طه.
(٣) النقل عن «المنتخب فى تفسير القرآن الكريم - الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - بالقاهرة».
(٤) ٥٧ - البقرة.
(٥) (المَنُّ) طَلٌّ ينزل من السماء على شجر أو حجر .. يتعقَّد ويجف جفاف الصمغ، وهو حلو يُؤكل . وفى التنزيل العزيز : «وأنزلنا عليكم المن والسلوى» (عن المعجم الوسيط) .
(٦) الميت بهذا أو ذاك.

الدم، وقد يمضى على موته وقت طويل لا يستطاع تحديده فيتعرض جسمه للتحلل والفساد . و«الدم» هو المجرى الذى تلتقى فيه مواد «الأيض» (أى التمثيل الغذائى) كلها . ففيه ما هو مفيد وما هو ضار مؤذ يكون فى طريقه إلى الأعضاء التى تزيل سمومه أو تُخْرجه من الجسم. هذا فضلاً عن أن الدم تجتمع فيه أيضاً السموم التى تفرزها الكائنات المتطفلة فى الجسم كما أن كثيراً من الطفيليات يمضى فيه مراحل قصيرة أو طويلة دورة حياته فى عائلة . ولهذا كله كان تناول الدم كغذاء محرماً .

أما «الخنزير» فهو معرض للإصابة بعدد كبير من الطفيليات التى تصيب الإنسان من الفيروسات والسبيروكينات (اللبتوسيير) والحيوانات الأولية (البروتوزوا)، والديدان المفلطحة والأسطوانية وشوكية الرأس . هذا ودهن الخنزير يسبب حصى المرارة (وانظر – أيضاً – الآية ١٤٥ – الأنعام) .

٣ – ﴿هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ (١) . تشير الآية الكريمة إلى وجه من الوجوه المعجزة لقدرة البارئ المصور، وهو تحول البويضة المخصبة وهى خلية واحدة ضئيلة الحجم إلى إنسان سوى بكل ما يحويه جسمه من أجهزة وأعضاء وأنسجة بملايين الخلايا وآيات فى البنيان والوظيفة . وسوف تتوالى آيات فى القرآن الكريم تفصل بعض أطوار النمو الجنينى . ولكن الذى تنوه به هذه الآية الكريمة على وجه الخصوص هو المشيئة الإلهية المطلقة فى تصوير الجنين . إذ إن الله يودع فى البويضة الدقيقة الحجم جميع المورثات الچينات التى تُحَدِّد جنس المولود ونصيبه من الخصائص الجسمانية . بل ومواهبه العقلية والنفسية والسمات الرئيسية الشخصية الوارثة(٢)، وإن كانت تسير على قوانين ثابتة إلا أن هذا التحديد لكل فرد بذاته من التقاء بويضة بعينها وحيوان منوى بعينه من بين الملايين من أقرانه هو من دلائل المشيئة المطلقة حتى أنه لا يتماثل فردان فى العالم تماثلاً كاملاً اللهم فى توائم البويضة الواحدة تكاد تتطابق .

٤ – (الآية ٦ – الزمر) **﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ... يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ...﴾** .

تنشأ البويضة فى أحد مبيضى المرأة، حتى إذا اكتمل نضجها انطلقت منه فيتلقفها أحد بُوقَىْ فالوب، ثم تمضى فى قناة فالوب فى طريقها إلى الرحم فلا تصله إلا بعد بضعة أيام قد يقدر لها أثناء ها أن يخصبها الحيوان المنوى من الرجل فتبدأ تواً مراحل تطورها المبكرة . وفى الرحم يمضى الجنين بقية مدة الحمل حيث يكون لنفسه فيها غلافين «السلى» "Charion" ويسهم جزء منه فى تكوين المشيمة والرهل «Awanion» الذى يحيط بالجنين إحاطة مباشرة، وقد اختلفت الآراء فى تحديد «الظلمات الثلاث» .

---

(١) (٦ – آل عمران) .

(٢) هكذا ؟ وربما كانت «الوراثية» .

أ) البطن والرحم والمشيمة (ويقصد بها ما يغلف الجنين بصفة عامة) .

ب) الرحم والسلى والرهل .

ج) البطن والظهر والرحم .

د) المبيض وقناة فالوب والرحم : والظاهر أن الرأى الأخير هو الراجح؛ لأنها ثلاث متفرقات فى أماكن مختلفة، أما الآراء الأخرى فإنها تشير فى الواقع إلى ظلمة واحدة فى مكان واحد تحيط به طبقات متعددة . ولعل الخالق العظيم قد أومأ فى كتابه إلى هذه الحقيقة العلمية فى زمن لم يكن الناس قد اكتشفوا فيه بويضة الثدييات ومسلكها ذاك فى أجسام الإناث بعيداً عن العيون .

٥ - ﴿تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب﴾ (٢٧ - آل عمران) .

فى التعليق العلمي: دورة الحياة والموت هى معجزة الكون وسر الحياة نفسها . والسمات الرئيسية فى هذه الدورة أن الماء وثانى أكسيد الكربون والنتروجين والأملاح غير العضوية فى لتربة تتحول بفضل طاقة الشمس والنباتات الخضراء وأنواع معينة من البكتريا - إلى مواد عضوية هى مادة الحياة فى النبات والحيوان . أما فى الشق الثانى من هذه الدورة فتعود هذه المواد إلى عالم الموت فى صورة نفايات الأحياء ونواتج أيضها وتنفسها . ثم فى صورة أجسامها كلها عندما تموت وتستسلم لعوامل التحلل البكتيرى والكيماوى التى تحيلها إلى مواد غير عضوية بسيطة مهيئة للدخول فى دورة جديدة من دورات الحياة . وهكذا فى كل لحظة من الزمان يخرج الخالق القدير حياة من الموت، وموتًا من الحياة . وهذه الدورة المتكررة لا تتم إلا فى وجود كائن أودعه الله سر الحياة كبذرة النبات مثلاً .

والآية الكريمة تذكّر أولى الألباب بالمعجزة الأولى، وهى خلق الحياة من مادة الأرض الميتة ثم تكرار الدورة كما سبق . وهكذا جاء فى الآية الكريمة إخراج الحى من الميت سابقًا لإخراج الميت من الحى وهذا هو الإعجاز بعينه .

٦ - (الآية ٢٣ - النســاء) - **﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم ... وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ...﴾** .

(التفسير العلمى) - اختصت شريعة القرآن من بين الشرائع القائمة بالتحريم بسبب الرضاعة، لأن الرضيع يتغذى من جسم المرضع كما يتغذى من جسم أمه فى بطنها . فكلاهما يكون أجزاء جسمه، ولا فرق بين تكوين فى الحِجْر وتكوين فى البطن . وفى التحريم بالرضاعة تكون للمرضع إذ تكون كالأم فى التحريم ...

تسبق هذه الآية الشريفة علم الوراثة فيما قررته من تحريم زواج الأقارب . وقد ثبت علمياً أخيراً أن زواج الأقارب يسبب ذرية أفرادها على استعداد للأمراض وبهم عيوب خَلْقيَّة، وأن درجة التناسل تقل حتى تصل إلى العقم . أما زواج الأباعد فإنه يأتى بنتائج على عكس ذلك، كما يزيد عليها نتيجة عُرِفَتْ باسم قوة الخليط . ويُقصد بها أن النسل الناتج من رتبة الأباعد يفوق كلاً من أبويه فى كثير من صفاته؛ كما يمتاز النسل كذلك بزيادة الوزن وقوة مقاومته للأمراض وسرعة النمو وقلة الوفيات .

٧ - الآية (٥٦ - النســاء) **﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما﴾** .

فى الهامش التفسير العلمى : تدل الآية على شدة العذاب الذى يتعرض له أصحاب النار، بدليل ما تقرره الحقيقة العلمية من أن الأعصاب المنتشرة فى طبقات الجلد هى أكثر الأعصاب حساسية لمختلف المؤثرات من حرارة وبرودة .

٨ - **﴿وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون﴾** (٣٨ - الأنعام) .

أنقل - أولاً - من التفسير الذى بالمتن : «ما تركنا فى الكتاب المحفوظ عندنا شيئًا من الأشياء إلا أثبتناه، وإن كانوا قد كذبوا، فيحشرون مع كل الأمم للحساب يوم القيامة» (١) .

وفى هامش المنتخب (حيث التعليق العلمى) - قال : تنتظم الكائنات الحية فى مجموعات يختص كل منها بصفات تكوينية وظيفية وطبائع مميزة . وفى الآية الكريمة تنبيه إلى تباين صور المخلوقات وتباين معيشتها، فكما أن الإنسان نوع له خصائصه فكذلك سائر أنواع الأحياء . وهذا ما يكشفه علم التصنيف كلما تعمق دراسة نوع منها .

٩ - **﴿إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون﴾** (٩٥ - الأنعام) .

---

(١) - وفى أوضح التفاسير - بعد حديث طَلِيٍّ عن مملكة النحل، ودولة النمل . قال عن : «ما فرطنا فى الكتاب» - ما تركنا فى اللوح المحفوظ من شىء لم نثبته ونبينه . ثم إلى ربهم يوم القيامة يحشرون : فيقتص للجماء من القرناء، بل يقتص من بنى الإنسان ما فعله بالحيوان وأحال على (الآية ٤٠ - النبأ)، : «... ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابًا» : وذلك أن الله تعالى يحشر الحيوانات يوم القيامة، فيقتص للجماء من القرناء، وبعد ذلك يصيرها ترابًا، فيتمنى الكافر أن لو كان كذلك . وفى تفسير القرطبى (مجلد ١٩ ص١٨٩) - إذا كان يوم القيامة حُشر الدواب والبهائم والوحوش، ثم يوضع القصاص بين البهائم حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء بنطحتها ...

فى التفسير العلمى (فى الهامش) : من دلائل قدرة الله تعالى خلق الحب والنوى والجنين فى كل مكان منها يشغل حيزاً ضيقاً منها . أما باقى جسم الحبة - أو النواة - فيتكون من مواد مكتنزة غير حية ، وعندما يتنبه الجنين ويبدأ فى الإنبات تتحول هذه المواد المكتنزة إلى حالة صالحة لتغذية الجنين ويبدأ فى النمو، وتتكون الخلايا الحية، هذا طور الإنبات، يليه طور البادرة حيث يبدأ النبات فى الاعتماد على غذائه من الأملاح المذابة فى ماء التربة، التى يمتصها الجذير مع تكون الأوراق الخضراء من مواد كربوايدراتية كالسكريات والنشويات فى وجود ضوء الشمس، وعندما تتم دورة حياة النبات تتكون الثمار - وبداخلها الحب والنوى من جديد .

١٠ - ﴿فالق الإ صباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم﴾(١). دورة الشمس هى التى علمت الناس حساب الأيام والسنين، ودورة القمر هى التى علمتهم حساب الشهور .

١١ - ﴿وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾(٢) . كانت الأجرام السماوية منذ فجر حضارات البشر وما تزال هى المعالم التى يهتدى بها الإنسان فى سفره براً وبحراً . ويستفاد من رصد الشمس والقمر والنجوم الثوابت على الأخص فى تعيين موقع المسافر، وتحديد اتجاه غايته . ومع تقدم العلم أصبحت الملاحة البحرية والجوية فنا دقيقا باستخدام آلات خاصة، وجداول خاصة . وفى الآونة الأخيرة يستخدم رجال الفضاء ويستعينون بالشمس والقمر فى تحديد اتجاهاتهم فى بعض مراحل أسفارهم، وتستخدم بعض مجموعات النجوم كذلك فى تحديد الزمن مثل مجموعة الدب الأكبر . وبذلك تم تعرف الإنسان على المكان والزمان بالنجوم - كما تقرر الآية الكريمة - على أوسع معنى .

١٢ - ﴿وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان(٣) دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ (٩٩ - الأنعام) .

توضح الآية الكريمة :

أ) كيفية خلق تلك الثمار المبينة بالآية، وتطورها ونضجها الكامل . وكل هذا يتكون فى وجود ضوء الشمس عن طريق المادة الخضراء (مادة اليخضور) التى توجد عادة فى المجموع الخضرى للنبات وخاصة الأوراق . المصنع الذى تتكون فيه المركبات المختلفة (السكريات .. إلى آخره) - ومنها توزع على باقى أجزاء النبات بما فيها البذور والثمار .

---

(١) - ٩٦ - الأنعام .
(٢) - ٩٧ - الأنعام .
(٣) ومن طلع النخل عراجين نخرجها محملة بالثمار، سهلة التناول .

ب) الآية الكريمة تقطع بأن ماء المطر هو المصدر الوحيد للماء العذب على الأرض .

ج) وطاقة الشمس هى مصدر طاقات الأحياء جميعاً .

د) ولكن النباتات هى التى تستطيع اختزان طاقة الشمس بواسطة (اليخضور) وتسلمها للإنسان والحيوان فى المواد الغذائية العضوية التى كونتها .

وقد كشف العلم عن حقيقة باهرة تدل على وحدة الخالق: وهى أن مادة الهيموجلوبين اللازمة لتنفس الإنسان وكثير من أنواع الحيوان وثيقة الصلة بمادة اليخضور . فذرات الكربون والإيدروچين والأكسوچين والنيتروچين تكتنف ذرة الحديد فى جُزىء الهيموجلوبين، بينما هى بنفسها تكتنف ذرة الماغنسيوم فى جزىء اليخضور، كما أنه اتضح من البحوث الطبية أن مادة اليخضور عندما يتمثلها جسم الإنسان تندمج فى خلاياه فتقويها وتساعدها على القضاء على جراثيم الأمراض فتتيح لأنسجة الجسم فرصة الدفاع ومكافحة الأمراض . وفى قوله تعالى: ﴿**انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه**﴾ إشارة إلى سبق لعلم النبات الحديث فيما وصل إليه من الاعتماد فى دراسته على مشاهد الشكل الخارجى لأعضائه كافة فى أدواره المختلفة .

١٣ - ﴿**يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**﴾(١) . نحن - كمسلمين - مطالبون بحسن المظهر، وحسن المخبر، أما عن المظهر فبالملابس، وقبل ذلك النظافة، وفى كل اجتماع . أما حسن المخبر والباطن فبالتقوى وخاصة عند الصلاة . ونحن كذلك نأكل ونشرب الطيبات من الرزق دائماً، ونحن منهيون عن الإسراف، والله لا يحب المسرفين .

وعن التفسير العلمى وعن الإسراف (كما جاء فى الآية الكريمة) فقد قرر العلم أن الجسم لا يستفيد بكل ما يلقى فيه من الطعام، وإنما يأخذ مجرد كفايته منه، ثم يبذل بعد ذلك مجهوداً كبيراً للتخلص مما زاد منه عن حاجته . وبجانب هذا تصاب المعدة وسائر الجهاز الهضمى بإرهاق شديد، ويُسلم المرءَ إلى أمراض معينة خاصة بذلك الجهاز . ومن الإسراف كذلك تناول مادة معينة من مواد الطعام بنسبة كبيرة تطغى على النسب اللازمة من المواد الأخرى .. والآية الكريمة تحثنا على أكل الطيبات لتَصِحَّ أبداننا ولنقوى على العمل . وكذلك فإن الإسراف فى الأكل يؤدى إلى البدانة، الأمر الذى يرهق الجسم، وقد يؤدى ذلك إلى ارتفاع ضغط الدم والسكر والذبحة الصدرية .

١٤ - ﴿**واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون**﴾ (٢).

---

(١) - ٣١ - الأعراف .

(٢) - ١٧٥ - ١٧٦ الأعراف .

في التعليق العلمي: أوردت (الآية ١٧٦) ظاهرة مُشَاهدة، وهي أن الكلب يلهث سواء حملت عليه أم لم تحمل . وقد أثبت العلم أن الكلب لا توجد فيه غدد عرقية إلا القليل في باطن أقدامه والتي لا تفرز من العرق ما يكفي لتنظيم درجة حرارة جسمه؛ ولذلك فإنه يستعين عن نقص وسائل تنظيم الحرارة باللهث وهو ازدياد عدد مرات تنفسه زيادة كبيرة عن الحالة العادية مع تعريض مساحة أكبر من داخل الجهاز التنفسي كاللسان والسطح الخارجي من فمه .

١٥ – **﴿إن ربكم الله الذى خلق السمٰوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ..﴾** (الآيات ٣ – ٦ من سورة يونس) .

في التعليق العلمي: خلق الله الكون بأسره في ست مراحل، وتتضمن المرحلة أحقاباً برمتها، وتلك المراحل التي عبر عنها بالأيام الستة تسخير الشمس والقمر والنجوم لفائدة البشر، وكذلك تعاقب الليل والنهار، وأن النهار طارئ على ظلام السماء، وذكر الليل أولاً؛ لأن الظلام هو الأصل، وأما النهار فقد نشأ بسبب تناثر ضوء الشمس في جو الأرض التي تدور حول نفسها وتعرضه للإشعاع الشمسي .

١٦ – **﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الأيات لقوم يتفكرون﴾**(١) .

في التعليق العلمي: تشير هذه الآية إلى حقيقة بدأت تتكشف بوادرها وهي تسخير الإنسان العلم لخدمته، واستطاعته به أن يسيطر على ما يحقق أهدافه حتى إذا ما قاربت هذه الحقيقة الاكتمال وظن الإنسان أنه قد بلغ أوج المعرفة أتى أمر الله .

١٧ – **﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون﴾** (٩٢ – يونس) .

في التعليق العلمي: يظهر أن الآية الكريمة تشير إلى أن جسم فرعون سيبقى محفوظاً ليراه الناس ويعتبروا برؤية ذلك الحطام الرميم لمن كان يعتبر نفسه إلَهًا . ويقول لقومه الخانعين **﴿ليس لكم من إله غيرى﴾** .

هذا، ويلاحظ أن خروج بني إسرائيل من مصر قد وقع في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد في عهد أحد فراعنة الأسرة التاسعة عشرة، وهو منفتاح بن رمسيس الثاني الذي سخر بني إسرائيل في بناء عاصمة ملكه . وقد دلت الكشوف التاريخية الحديثة على أن اسم هذه المدينة المطمورة «بورعمسس» وكان خروج بني إسرائيل مع موسى للدعوة إلى الوحدانية ولخلع ربقة فرعون الذي يسخرهم ويذيقهم سوء العذاب .

أليس هذا دليلاً على أنه من عند الله ؟ .

---

(١) ٢٤ – يونس .

١٨ - ﴿قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون﴾ (٤٧-يوسف) .

فى التعليق العلمى: تتفق هذه الآية مع ما وصل إليه العلم الحديث من أن ترك الحب فى سنابله عند تخزينه وقاية له من التلف بالعوامل الجوية والآفات . وفوق ذلك يبقيه محافظًا على محتوياته الغذائية كاملة .

١٩ - ﴿وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾(١) .

فى التعليق العلمى: تشير الآية الكريمة إلى علوم الأراضى، والبيئة وأثرها على صفات النبات . ومن المعروف علميًا أن التربة الزراعية تتكون من حبيبات معدنية مختلفة المصدر والحجم والترتيب، ومن الماء ومصدره المطر، ومن الهواء، ومن المادة العضوية التى يرجع وجودها إلى بقايا النبات والأحياء الأخرى التى توجد على سطح التربة أو فى داخلها . وفضلا عن ذلك توجد ملايين الكائنات الحية الدقيقة لا تُرى بالعين المجردة، وتختلف أعدادها من عشرات الملايين إلى مئاتها فى كل جرام من التربة السطحية الزراعية .. إن النظرة الشاملة لصفات التربة الطبيعية والكيميائية والحيوية إن دلت على شىء فإنما تدل على قدرة الخالق وروعة الخلق، فالأرض - كما يقول الزراعيون - تختلف من شبر إلى شبر . ومعروف للعلماء أن أى نقص فى إحدى المواد الأساسية للتغذية يتبعه تغيير مميزٌ تظهر أعراضه على النبات . وهذا يعوض بالتسميد . وعوامل البيئة أكثر من أن تُحصى، ولها أثر ملحوظ على الثمر والإثمار، سواء أكان النبات متحد الأصل أم مختلفه فسبحان من بيده ملكوت كل شىء، وهو على كل شىء قدير .

٢٠ - ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾ (١٧ - الرعد وانظر الآية ١٨) .

فى التعليق العلمى: بيَّن الله هنا شبيهين بالحق هما الماء الصافى والمعدن الصافى ينتفع بهما . وبيَّن شبيهين بالباطل هما زبد الماء وزبد المعادن المذابة لا نفع منهما . والزبد هو ما يطفو على سطح هذا أو ذاك . وخلاصة الآية ١٨ ﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له ... مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ .

أقول : ذكرت بعض الآية ١٨، أما التعليق العلمى فطويل وجميل، وجزى الله أصحاب الشروح والتعليقات كل خير .

٢١ - ﴿أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب﴾ (٤١ - الرعد) .

---

(١) ٤ - الرعد ، هذا، - وصنوان وغير صنوان = مجتمعة ومتفرقة . والصِّنْوُ = النظير والمِثْل .

فُسِّر قوله تعالى ﴿ننقصها من أطرافها﴾ (وذلك باستيلاء المؤمنين على أرض أعدائهم كما جاء فى الشرح) .

فى التعليق العلمي: تتضمن الآية حقائق وصلت إليها البحوث العلمية الأخيرة؛ إذ ثبت أن سرعة دوران الأرض حول محورها وقوة طردها المركزى، يؤديان إلى تفلطح فى القطبين، وهو نقص فى طرفى الأرض . وكذلك عُرفَ أن سرعة انطلاق جزيئات الغازات المغلفة للكرة الارضية إذا ما جاوزت قوة جاذبية الأرض لها فإنها تنطلق إلى خارج الكرة الأرضية وهذا يحدث بصفة مستمرة، فتكون الأرض فى نقص مستمر لأطرافها . لا أرض أعداء المؤمنين . وهذا احتمال فى التفسير تقبله الآية الكريمة .

٢٢ -﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون﴾(١٩-الحجر) .

التعليق العلمى: تقرر هذه الآية حقيقة علمية لم تعرف إلا بعد الدراسات المعملية للنبات، وهى أن كل صنف من النبات تتماثل أفراده من الوجهة الظاهرية تماثلاً تامًا؛ وفى التكوين الداخلى نجد أن التناسق تام والتوازن دقيق فى كافة أجهزة النبات المختلفة، وكذلك بين الخلايا لتحقيق الغرض الذى وجدت من أجله . وقد تختلف من نوع لآخر ولكنها ثابتة للصنف الواحد .

٢٣ - ﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾ (٢٢- الحجر) .

التعليق العلمى: سبقت هذه الآية ما وصل إليه العلم من أن الرياح عامل هام فى نقل حبوب اللقاح إلى الأعضاء المؤنثة فى النبات ليتم بذلك عقد الثمار، كما أنه لم يعرف إلا فى أوائل القرن الحالى أن الرياح تلقح السحاب بما ينزل بسببه المطر . إذ إن نويات التكاثف أو النويات التى تتجمع عليها جزيئات بخار الماء لتكون نقطًا من الماء نامية داخل السحب هى المكونات الأولى من المطر تحملها الرياح إلى مناطق إثارة السحاب . وقوام هذه النويات أملاح البحار وما تذروه الرياح من سطح الأرض والأكاسيد والأتربة ونحوها كلها لازمة للأمطار . لقد ثبت من العلم حديثًا أن للمطر دورة مائية تبدأ بتبخر المياه من سطح الأرض والبحر ثم تعود إليه مرة ثانية على نحو ما سلف ذكره . فإذا ما نزل المطر استقى منه كل حى على الأرض كما تستقى منه الأرض نفسها ولا يمكن التحكم فيه، لأنه بعد ذلك يتسرب من الأحياء ومن الأرض إلى التبخر، ثم تبدأ الدورة ثانية بالتبخر وهكذا دواليك . ومن هذا يستبين معنى الآية فى قوله تعالى: ﴿وما أنتم له بخازنين﴾ أى مانعيه من النزول من السماء، ولا التسرب إليها على صورة البخار .

٢٤ - ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾ (٢٦ - الحجر) .

فى التعليق العلمى: الصلصال والحمأ صور من الطين تتفق معه فى التركيب لأنها تتكون كيميائيًا من عناصر التربة مضافًا إليها الماء، وهى المادة التى يتكون منها الإنسان كما ذكر فى الآيات المختلفة من القرآن الكريم .

هذا، وفى الشرح (فى المتن) عن «الصلصال» «طين يابس يُصَوِّتُ إذا نُقِرَ عليه» .

٢٥ - **﴿ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون﴾** (٤٩ - النحل) .

فى التعليق العلمى : تسبق هذه الآية ركب العلم فى تقرير وجود أحياء تدب على بعض الكواكب فى مجموعتنا الشمسية أو خارج نطاقها . وهذا ما يحاول العلم الآن الوصول إلى حقيقته .

٢٦ - **﴿والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون﴾** (٦٥ - النحل) .

فى التعليق العلمى : ينزل الماء من السماء إلى الأرض ليذيب عناصرها التى تمتصها النباتات وتتحول إلى خلايا حية وأنسجة .

٢٧ - **﴿وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين﴾** (٦٦ - النحل) .

فى التعليق العلمى : توجد فى ضروع الماشية غدد خاصة لإفراز اللبن، تمدها الأوعية الشريانية بخلاصة مكونة من الدم والكيلوز، وهو خلاصة الغذاء المهضوم . وكلاهما غير مستساغ طعمًا، ثم تقوم الغدد اللبنية باستخلاص العناصر اللازمة لتكوين اللبن من هذين السائلين . الدم والكيلوز وتفرز عليهما عصارات خاصة تحيلها إلى لبن - يختلف فى لونه ومذاقه عن كل منهما - اختلافًا تامًا .

٢٨ - **﴿ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾** (٦٩ - النحل) .

فى التعليق العلمى : يتركب عسل النحل من كمية كبيرة من الجلوكوز والفرفتوز وهو أسهل أنواع السكريات فى الهضم . وثبت فى آخر الأبحاث الطبية أن الجلوكوز مفيد فى كثير من الأمراض ويُعطى بطريق الحقن والفم والشرج بصفته مقويًا ويعطى ضد التسمم فى مختلف المعادن، وضد التسمم الناشئ عن أمراض الأعضاء مثل التسمم البولى والصفراء وغيرهما . كما ثبت أنه يحتوى على نسبة عالية من الفيتامينات وخصوصًا فيتامين (ب) المركب .

٢٩ - **﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾** (٧٨ - النحل) .

فى التعليق العلمى : أثبت الطب الحديث أن حاسة السمع تبدأ مبكرة جداً فى حياة الطفل فى الأسابيع القليلة الأولى، أما البصر فيبدأ فى الشهر الثالث، ولا يتم تركيز الإبصار إلا بعد الشهر السادس، أما الفؤاد، وهو الإدراك والتمييز فلا يتم إلا بعد ذلك، وهكذا فالترتيب الذى جاء ت به آيات القرآن الكريم هو ترتيب ممارسة هذه الحواس .

٣٠ - ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ (٧٩ - النحل) .

فى التعليق العلمى : الطيور تطير لعدة أشياء فى تكوينها ، أهمها شكل الجسم الانسيابى، والبسطة فى الأجنحة المزّودة بالريش، والعظام المجوفة الخفيفة ، والأكياس الهوائية بين الأحشاء، وهى متعلقة بالرئتين وتمتلئ بالهواء عند الطير فيخف وزن الجسم .

٣١ - ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا﴾ (١٠١ - الإسراء) .

فى التعليق العلمى : هذه الآيات التسع : ١ - العصا، ٢ - اليد البيضاء، ٣ - الطوفان، ٤ - الجراد والضفادع والقُمّل والدم، ٥ - الجدب ونقص الثمار، ٦ - فلق البحر، ٧ - انبجاس الماء من الحجر، ٨ - نتق الجبل كأنه ظلّة، ٩ - خطابه لربه .

٣٢ - قال تعالى : ﴿ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا﴾ (٢٥ - الكهف) .

أقول : إزاء الآية ١٦ من السورة يوجد تعليق علمى (تاريخى) عن قصة أهل الكهف وزمانهم ورجح الباحث (أو الباحثون) أنهم من اليهود، وأنهم تعرضوا لاضطهاد دينى على يد الملك السلوقى أنتيوخس الرابع (حوالى ١٧٦ - ٨٤ ق.م.)؛ وكذلك على يد الإمبراطور الرومانى هادريانوس (١١٧ - ١٣٨) .

وفى التعليق على الآية : ٢٥ - جاء ما يلى : «تشير هذه الآية إلى حقيقة فلكية، وهى أن ثلاثمائة سنة شمسية تقابلها ثلاثمائة وتسع قمرية . وقد سبقت الآية علم الفلك .

٣٣ - قال تعالى : ﴿.. حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا﴾ (٩٣ - الكهف) .

التعليق العلمى : فى التفسير فى المتن : حتى وصل فى رحلته الثالثة - إلى مكان سحيق بين جبلين مرتفعين .. وهناك وجد قوماً لا يفقهون ما يقال لهم إلا فى عسر ومشقة .

التعليق العلمى : (فى الهامش) : السد بين الجبلين المذكورين فى التفسير : هما جبلان: أذربيجان وأرمينية، وقيل هما جبلان فى أواخر الشمال منقطع أرض التركستان .

٣٤ - ﴿الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا﴾ (١٠١- الكهف)

التعليق العلمى : الذين كانت أعينهم فى غفلة عن تدبر مواضع التذكير بى فى السمٰوات والأرض . وبذلك تدعو الآية الكريمة إلى دراسة كل ما يحيط بالإنسان من شواهد دالة على وجود الله .

٣٥ - ﴿وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا﴾ (٢٥ - مريم) .

التعليق العلمى : ثبت أن البلح الرطب يحتوى على المواد الغذائية الرئيسية فى صورة مركزة سهلة الهضم، وأنه - بذلك - يناسب النفساء .

٣٦ - ﴿يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا﴾ (٢٨ - مريم) .

التعليق العلمى : ذُكر فى دائرة المعارف الإنجليزية أن القرآن غلط غلطاً تاريخيًّا حين قال: «يا أخت هارون» مع أن بين مريم وهارون أخى موسى مئات السنين . وقد غفلوا عن أن الأخوة تطلق فى لسان العرب على الأخوة الشبهية، فالمراد يا من أشبهت هارون فى الصلاح والتقوى، ما الذى غير حالك من الصلاح إلى ضده؟! وما كان أبوك امرأ سوءٍ يأتى الخنا، وما كانت أمك امرأة فحش .

٣٧ - ﴿قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾ (٥٠ - طه) .

فى التعليق العلمى : أودع الله فى كل شىء صفاته الخاصة التى تؤهله لأداء وظيفته التى خلق لها فى هذه الحياة، كما أنها سبيل هداية الإنسان .

٣٨ - ﴿أولم ير الذين كفروا أن السموٰات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون﴾ (٣٠ - الأنبياء) . ﴿ وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون﴾ (٣١).﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتنا معرضون﴾(٣٢). ﴿وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون﴾ (٣٣) .

فى التعليق العلمى : (أو لم ير ..) تقرر هذه الآية معانى علمية أيدتها النظريات الحديثة فى تكوين الكواكب والأرض، إذ إن السموات والأرض كانتا فى الأصل متصلة بعضها ببعض على شكل كتلة متماسكة . والحقيقة العلمية المتفق عليها هى أن السموات والأرض كانتا متصلتين واستدل على ذلك بأدلة علمية عديدة . أما الفتق فمعناه الانفصال وهو ما قررته الآية الشريفة وأيده العلم بعد ذلك . وهناك نظريات عديدة تفسر بعض الظواهر فى هذا الشأن، وتعجز عن تفسير الأخرى . لذلك فليس بين هذه النظريات ما هو مقطوع به بين العلماء بالإجماع، وسنذكر - فيما يلى - على سبيل المثال - نظريتين : الأولى ... الخاصة بتكوين المجموعة الشمسية .. أتجاوز ذلك، وأكتفى بالثانية : الخاصة بنشأة الكون عامة، فتتلخص فى أن قوله تعالى ﴿كانتا رتقا﴾ أى مضمومتين ملتحمتين فى كتلة واحدة . وهذا آخر ما وصل إليه البحث العلمى فى نشأة الكون، وهو أنه قبل أن يأخذ صورته الحالية، كان حَشْداً هائلاً متجمعاً فى أبسط صورة لقوى الذرات المتصلة الواقعة تحت ضغط هائل لا يكاد يتصوره العقل وأن جميع أجرام السماء اليوم ومحتوياتها بما فيها المجموعة الشمسية والأرض كانت مكدسة تكديساً شديداً فى كرة لا يزيد نصف قطرها على ثلاثة ملايين من الأميال . وقوله

تعالى : ﴿ففتقناهما﴾ إشارة لما حدث لذلك السائل النووى الأول من انفجار عظيم انتشرت بسببه مادة الكون فيما حولها من أجواء، انتهت بتكوين مختلف أجرام السماء المختلفة المنفصلة بما فيها المجموعة الشمسية والأرض .

﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ تقرر هذه الآية حقيقة علمية أثبتها أكثر من فرع من فروع العلم . وقد أثبت علم الخلية أن الماء هو المكون الهام فى تركيب مادة الخلية، وهى وحدة البناء فى كل كائن حى نباتًا كان أم حيوانًا . وأثبت علم الكيمياء الحيوية أن الماء لازم لحدوث جميع التفاعلات والتحولات التى تتم داخل أجسام الأحياء، فهو إما «وسط»(1) . أو عامل مساعد أو داخل فى التفاعل أو ناتج عنه . وأثبت علم وظائف الأعضاء أن الماء ضرورى لقيام كل عضو بوظائفه التى بدونها لا تتوافر له مظاهر الحياة ومقوماتها .

تعليق الخبراء على الآية (٣١) : ﴿وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون﴾ - لما كان باطن الأرض منصهراً سائلاً؛ فلو فرضنا أن الجبال وضعت فى بعض نواحى الكرة الأرضية كأنها صخور هائلة مرتفعة فإن ثقلها قد يؤدى بالقشرة الأرضية أن تميد أو تنثنى أو تتصدع . لذلك جعل - جل شأنه - الجبال رواسى، أى ذات جذور ممتدة فى داخل القشرة الأرضية إلى أعماق كبيرة تتناسب مع ارتفاعها . فهى كأنها أوتاد كما جعل كثافة هذه الارتفاعات والجذور أقل من كثافة القشرة المحيطة بها كل ذلك حتى يتوزع الضغط على القشرة العميقة بحيث يكون متساوياً فى جميع أنحائها فلا تميد أو تتصدع؛ لأن التوزيع التماثلى للأثقال على سطح كروى يكاد لا يحدث تأثيراً يذكر .

وقد أثبت العلم الحديث أن توزيع اليابس والماء على الأرض ووجود سلاسل الجبال عليها مما حقق الوضع الذى عليه الأرض . وقد ثبت أن الجبال الثقيلة دائمًا أسفلها مواد هشة وخفيفة، وأن تحت ماء المحيطات المواد الثقيلة الوزن، وبذلك تتوزع الأوزان على مختلف الكرة الأرضية . وهذا التوزيع الذى أساسه الجبال دائمًا قُصد به حفظ توازن الكرة الأرضية . ولما ارتفعت الجبال حدثت السهول والوديان والممرات بين الجبال وشواطئ البحار والمحيطات والهضاب وكانت سبلا وطرقًا .

تعليق الخبراء على الآية (٣٢) : ﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون﴾ تقرر هذه الآية الكريمة أن السمٰوات وما فيها من أجرام محفوظة بكيانها متماسكة لا خلل فيها . ومحفوظة من أن تقع على الأرض . والسماء هى كل ما علانا : تبدأ بالغلاف الهوائى الذى يحمى أهل الأرض من كثير من أهوال الفضاء التى لا تستقيم معها الحياة بحال مثل الشهب والنيازك والأشعة الكونية . وفوق الأرض الغلاف الهوائى الذى تحتفظ به الأرض بقوة الجاذبية . ولا سبيل إلى فقده فى خضم «الفناء(2) المتناهى»(3) .

---

(1) هكذا فى الأصل الذى أنقل عنه . والصحيح - فيما أعتقد - وسيط .
(2) هكذا ؟ وأظنها : الفضاء .
(3) قارن برقم ٥٠.

وفوق الغلاف الهوائى أجرام السماء على أبعاد مختلفة تحتفظ بنظام دورانها وكيانها منذ القدم كذلك . « **وجعلنا السماء سقفا محفوظا**»، أى أن الغلاف الجوى وسائر الأجرام السماوية التى تشاهد بمساقطها على القبة التى تبدو لأنظارنا كأنها على سطح هذه القبة السماوية وتظهر لنا كأنها متسعة اتساعًا كبيرًا أفقيًا، بينما يظهر الاتساع الرأسى أقل بكثير من الاتساع الأفقى . وتتمثل هذه الظاهرة عند مشاهدة قرص الشمس أثناء الشروق أو الغروب حيث يظهر أكبر مما هو عليه عندما تكون الشمس فى سمت الرأس . ومصدر ذلك هو الخداع البصرى الذى يجعلنا نقدر المسافات الأفقية بدقة أكثر من المسافات الرأسية . وهذه القبة السماوية تشمل الغلاف الجوى للأرض الذى له مميزات وخصائص تختلف كلما زاد الارتفاع على الأرض، كما تشمل أيضًا سائر الأجرام السماوية التى يقطعها الخط البصرى على القبة السماوية .

تعليق الخبراء على الآية (٣٣) : ﴿**وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون**﴾ . لكل جرم سماوى مداره الخاص الذى يسبح فيه . وأجرام السماء كلها لا تعرف السكون . كما أنها تتحرك فى مسارات خاصة هى الأفلاك، ونحن نرى هذه الحقيقة ممثلة واضحة فى الشمس والقمر . كما أن دوران الأرض حول محورها يجعل الليل والنهار يتعاقبان عليها كأنهما يسبحان .

تعليق الخبراء على الآية (٣٧) : ﴿**خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون**﴾ . إن المقصود بالآيات هى الآيات الكونية الدالة على وجود الله وقدرته . وسيكشف العلم عنها تباعًا بحكم ارتقاء العقل البشرى، وذلك فى مواعيد موقوتة؛ كلما حل أجل آية أظهرها الله أو يسر الله للبشر الوصول إلى إحدى هذه الآيات .

تعليق الخبراء على الآية (٤٤) : ﴿**أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون**﴾ هذه الآية من آيات الإعجاز العلمى للقرآن الكريم : فهى تشير إلى أن الأرض ليست كاملة الاستدارة . ولم يتمكن العلماء من قياس أبعاد الأرض بالدقة إلا منذ (٢٥٠) مائتين وخمسين سنة تقريبًا عندما قامت بعثة من الإخصائيين فى علم المساحة لقياس المسافة الطولية بين عرضين متساويين فى الطول تفصلهما درجة واحدة قوسية وذلك فى مختلف أنحاء العالم . وتبين من هذه القياسات أن نصف القطر الاستوائى يزيد على نصف القطر القطبى بمقدار ٢١,٥ كيلو مترًا تقريبًا، أى أن الأرض أنقصت من أطرافها ممثلة فى القطبين. ومن المعلوم أن شكل الأرض وأبعادها هو الأساس فى رسم الخرائط .

تعليق الخبراء على الآية (٤٧) : ﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾ .

تشير هذه الآية الكريمة إلى أن حبة الخردل تتناهى فى صغر الوزن . وأثبتت التجارب العلمية أن الكيلو جرام من حبوب الخردل يحتوى على ٩١٣ ألف حبة، وتكون الحبة بذلك حوالى جزء من ألف جزء من الجرام، أى ملليجرام تقريبًا، وهذا أصغر وزن لحبة نبات عُرف حتى الآن . وهى تستعمل لذلك فى مقارنة المكاييل بالموازين الدقيقة نوعًا .

٣٩ - ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون» (٤٧ - الحج) .

يسبق القرآن بهذه الآية الكريمة ركب العلم بتقرير أن الزمن نسبى ، وأن فكرة الزمن العالمى المطلق الذى كان يُسلم به الأقدمون قبل ظهور النسبية(١) هى فكرة خاطئة .

٤٠ - ﴿وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ (٨٢ - النمل) .

(الشرح - فى المتن) وإذا قرب أن يتحقق وعد الله بقيام الساعة وأن يقع العذاب على الكافرين - أخرج الله للناس دابة من الأرض تقول لهم من جملة ما تقول : إن الكفار كانوا بمعجزاتنا كلها وباليوم الآخر لا يؤمنون . وقد تحقق الآن ما كانوا به يكذبون .. وها هو ذا وَيْلُ الساعة وما وراء ها .

فى الهامش (التعليق العلمى) : هذا (أى الشرح السابق) تفسير للآية بظاهر ألفاظها وهناك تفسيران آخران تحتملهما الآية : أولهما : أن المراد بالدابة كل ما يدب من الأناسى أو غير الأناسى . وتحمل هنا على الأناسى . ومجيئها قبل القيامة - والمعنى أنه إذا وقع القول عليهم وحق العذاب جاء تهم جموع عظمى من المؤمنين تدب إليهم، وتملأ السهل والربى، وتزلزل أركان الكفر وتهدم بنيانه . ثانيهما : أن تكون كلمة الدابة الأشرار الذين هم من الجهل بمنزلة الدواب - كما قال الأصفهانى فى مقرراته . والمعنى أنه عندما يقرب يوم القيامة يكثر الشر والفساد، وتكون القيامة التى كذّب بها الكافرون ويكون هذا هو القول، وهو بلسان الحال لا بالمقال كالرأى الذى سبق .

٤١ - ﴿خلق السمٰوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار﴾ (٥ - الزمر) .

فى الشرح (بالمتن) - خلق السمٰوات والأرض متلبسا بالحق والصواب على ناموس ثابت يلفُّ الليل على النهار، ويلف النهار على الليل على صورة الكرة، وذلل الشمس والقمر لإرادته ومصلحة عباده، كل منهما يسير فى فلكه إلى وقت محدد عنده، وهو يوم القيامة. ألا هو - دون غيره - الغالب على كل شى ء . فلا يخرج شىء عن إرادته، الذى بلغ الغاية فى الصفح عن المذنبين من عباده .

التعليق العلمى (فى الهامش) : تشير الآية الكريمة إلى أن الأرض كروية تدور حول نفسها؛ لأن مادة التكوير معناها لف الشىء على الشىء على سبيل التتابع، ولو كانت الأرض غير كروية (مسطحة مثلاً) لخيم الليل أو طلع النهار على جميع أجزائها دفعة واحدة .

---

(١) أظنه يقصد نظرية النسبية لأنشتين .

٤٢ - ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون﴾ (٦٧ - غافر) .

التعليق على النطفة والعلقة والمضغة - الآيات (٧ ، ٨ ، ٩ السجدة)، (١٢، ١٣، ١٤ المؤمنون) (٦٧ - غافر) (٥ - الحج) .

النطفة : فى اللغة تطلق على معانٍ منها منى الرجل . وبالرجوع إلى الآية الكريمة ﴿ألم يك نطفة من منى يمنى﴾ . غير أن المقصود بالنطفة جزء خاص من هذا المنى . وقد كشف العلم الحديث عن المقصود، وهو الحيوان المنوى الذى يحمله السائل المنوى، وهذا الحيوان هو الذى يلقح بويضة الأنثى .

العلقة : من معانيها فى اللغة (الدم الجامد - أو السائل - أو الذى اشتدت حمرته) . والمراد بها علمياً خلايا الجنين التى تعلق بجدار الرحم بعد طور تلقيح الحيوان المنوى للبويضة وصيرورتها خلية واحدة تنقسم إلى عدة خلايا وتتكاثر وتتحرك نحو جدار الرحم وتنشب وتستنبطه[1] محدثة نزيفاً من الدم محلياً .

المضغة : هى الجنين فى طور من أطوار تكوينه، يتلو العلقة بعد التصاقها بجدار الرحم، واستدارتها بغير انتظام وإحاطتها بأغشية؛ حيث تبقى المضغة كذلك بضعة أسابيع حتى يبدأ تكوين العظام . والمضغة تحتوى على خلايا مخلقة وهى التى يتكون منها الجنين، وعلى خلايا غير مخلقة، وهى التى تحيط بالجزء المُخَلَّق، ووظيفتها وقايته وإمداده بالغذاء .

العظام : أثبت علم الأجنة أخيراً أن مراكز تكوين العظام تظهر فى الطبقة المتوسطة من خلايا المضغة المخلقة فى مرحلة سابقة لتميز الخلايا العضلية .

٤٣ - ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين﴾ (٩ - فُصلت) .

ذُكر اليوم والأيام فى سور أخرى : ففى سورة الحج ﴿وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ (الآية - ٤٧)؛ وفى (السجدة الآية - ٥) ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ وفى سورة (المعارج الآية - ٤) ﴿تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ .

التعليق العلمى : وحدات الزمن التى يستخدمها الناس مرتبطة بالأرض ودورانها حول محورها وحول الشمس . فإذا ما غادر أحد الأرض إلى جرم سماوى اختلفت هذه الوحدات طولاً أو قصراً، والآيات الكريمة تشير إلى هذه الحقيقة العلمية وإلى أن الزمن نسبى . ولا شك فى أن هناك سنوات فلكية نسبية يمكن التفرقة بينها، فالسنة الشمسية على الأرض تحسب بمقدار الزمن الذى تقطع فيه الأرض دورة كاملة حول الشمس فى نحو ٣٦٥ يوماً شمسية على حين أن السيارات القريبة من الشمس مثل عطارد يقطع دورته حول الشمس فى

---

(١) (هكذا) وأرجح «تستَبْطِنُه» .

٨٨ يومًا . وعلى حين أن بلوتو وهو أبعد الكواكب السيارة من الشمس وأبطؤها يتم دورته حولها في ٢٥٠ سنة من سنواتنا .

٤٤ - ﴿وو صينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها وو ضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ...﴾ إلى آخر الآية ١٥ الأحقاف» .

التعليق العلمي : أقل مدة الحمل ستة أشهر .. كما جاء في هذه الآية، وفي قوله تعالى **«وفصاله في عامين»** (١٤ - لقمان)؛ وقوله : **« والوالدات ير ضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة»** (٢٣٣ - البقرة) - فإسقاط مدة الفصال عن مدة الحمل والفصال يبقى للحمل ستة أشهر . وهذا يتفق مع ما ثبت علميًا من أن الطفل إذا ولد لستة أشهر فإنه قابل للحياة .

٤٥ - ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾ (٣٩ - فُصلت) .

تُبين الآية أن عناصر التربة ومركباتها الميتة عندما ينزل عليها ماء المطر تذوب فيه، فيسهل وصولها إلى بذور النباتات وجذورها، حيث تتحول إلى خلايا وأنسجة وأعضاء حية، وبذلك تبدو حية، ويزيد حجمها بما يتخللها ويعلوها من نبات .

٤٦ - ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب .. ﴾ إلى آخر الآية ٤ - محمد .

عينت الرقاب في هذه الآية الكريمة؛ لأن ضربها أنجع وسيلة للإجهاز السريع على المضروب بغير تعذيب له ولا تمثيل به إذ إنه من الثابت علميًا أن الرقبة حلقة الاتصال بين الرأس وسائر الجسد . فإذا قُطع الجهاز العصبي شُلّت جميع وظائف الجسم الرئيسية، وإذا قُطعت الشرايين والأوردة توقف الدم عن تغذية المخ، وإذا قُطعت الممرات الهوائية وقف التنفس وفي جميع هذه الحالات تنتهي الحياة سريعًا .

٤٧ - ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن .. ﴾ إلى آخر الآية ١٥ - محمد .

التعليق العلمي : توجه الآية الكريمة الأنظار إلى أن الماء الراكد الآسن ماء ضار، وقد قررت الآية الكريمة ذلك قبل كشف المناظير المكبِّرة (ميكروسكوب) - بقرون عدة، حيث تبين أن الماء الراكد المتغير مستودع لملايين البكتريا الضارة وغيرها من الطفيليات التي تصيب الناس والأنعام بأمراض شتى .

٤٨ - ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾ (٦ - ق) .

السماء كل ما يعلونا، وتسبح فيها أجرام مختلفة، منها النجوم والكواكب، وذلك بنظام دقيق وتناسق تام، كما أنها تحتفظ بأوضاعها طبقًا لقوانين الجاذبية فلا يصيبها خلل .

٤٩ - ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ (٧ - ق) .

القشرة الأرضية مرتفعة فى مواضع معينة هى الجبال، ومنخفضة في مواضع أخرى هى قيعان المحيطات - وتتوازن أثقال هذه الأجزاء بعضها مع بعض . ومن قدرة الله وحكمته أن أوجد هذا التوازن، وجعله ثابتًا عن طريق انسياب المواد الأرضية المكونة للقشرة الرقيقة تحت الطبقات السطحية، وذلك من الأثقل إلى المكان الأقل ثقلاً .

٥٠ - ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾ (٤٧ - الذاريات) .

تشير الآية الكريمة إلى معان علمية كثيرة . منها أن الله - سبحانه وتعالى - خلق هذا الكون الواسع بقوة، وهو على ما يشاء قدير . ومعنى السماء فى الآية كل ما علا الجرم (الشيء) وأظله. فكل ما حول الأجرام من كواكب ونجوم ومجموعات شمسية ومجرات (سماء) هذا الجزء المرئى من الكون متسع اتساعًا لا يدركه العقل ولا يتسنى تحديده، إذ المسافات فيه تقاس بملايين السنين الضوئية، والسنة الضوئية، على ما أثبته العلم الحديث فى هذا القرن العشرين هى المسافة التى يقطعها الضوء بسرعة تبلغ ٣٠٠,٠٠٠ ثلاثمائة ألف كيلو مترًا فى الثانيةوعبارة الآية الكريمة « وإنا لموسعون» تشير إلى ذلك، أى إلى تلك السعة المذهلة التى عليها الكون منذ خلقه . كما أنها تشير - أيضًا - إلى أن التوسعة مستمرة على الزمن، وهو ما أثبته العلم الحديث أيضًا، وعرف بنظرية التمدد التى أصبحت حقيقة علمية فى أوائل هذا القرن . وحاصلها أن السدم خارج المجرة التى نعيش فيها تبتعد عنا بسرعات متفاوتة، بل إن الأجرام السماوية فى المجرة الواحدة تبتعد بعضها عن بعض .

٥١ - ﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى﴾ (٤٥ - ٤٦ النجم) .

التعليق العلمى : المقصود بالآية الكريمة الدلالة على قدرة الله تعالى بأنه خلق الذكور والإناث من الناس والحيوانات جميعًا من نطفة يشترك فى إفرازها الذكر والأنثى . وهى على دقة محتوياتها وصغر حجمها ينبوع الحياة ومصدر الأحياء وأن الإعجاز القرآنى - كما يتضح فى الآية الكريمة إذ تذكر أن العالم لم يكن يعلم حتى عهد قريب أن فى سائل الذكر حيوانات منوية وأن فى سائل الأنثى بويضات فإذا التقى حيوان منوى وبويضة واتَّحَدا حدث الإخصاب والحمل، وهذه حقيقة سبق القرآن الكريم إلى ذكرها قبل أن يكشف عنها العلم .

٥٢ - ﴿وأنه هو رب الشعرى﴾ (٤٩ - النجم) .

التعليق العلمى : المراد هنا الشعرى اليمانية وهى ألمع نجم فى كوكبة الكلب الأكبر وألمع ما يرى من نجوم السماء وتشاهَدُ جنوبى الاستواء السماوى بمقدار ١٨ درجة، وتسمى النجم الكلبى، وكانت تعرف بهذا الاسم منذ ثلاثة آلاف سنة . وأشير إليها بكلب فى الآثار الفرعونية. وقد اختصها الله بالذكر لأن بعض العرب كانوا يعبدونها، وكان قدماء المصريين يعبدونها أيضًا، لأن ظهورها من جهة الشرق حوالى منتصف شهر يوليو قبل شروق الشمس يتفق مع

زمن الفيضان في مصر الوسطى، أي مع أهم حادث في العام . وهذا الحادث قد يكون أول تحديد (لطول)[1]؟ السنة في العالم كله لأن ظهور الشعرى قبيل شروق الشمس لا يحدث إلا مرة واحدة في (العالم)[2]؟ فهذا ابتداء عام جديد ؟

٥٣ - ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ (٥ - الرحمن) .

التعليق العلمي : هذا نص على حركة الشمس والقمر طبقًا لنظام دقيق منذ خلقهما الله. ولم نتعرف على تفاصيل هذا النظام الدقيق إلا منذ حوالي ٣٠٠ ثلاثمائة عام، حيث تبين أن حركة الشمس الظاهرية حول الأرض، وحركة القمر حول الأرض - تتمان في مدارات فلكية طبقًا لقوانين الجاذبية، وهي حسابات رياضية في غاية العمق والدقة وخاصة في حالة القمر .

٥٤ - ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ (١٧ - الرحمن) .

قد يكون المراد هنا مشرقا الشمس والقمر ومغرباهما . ومن ثم تكون الإشارة إلى آيتي الليل والنهار (انظر التعليق على الآيات ٧١، ٧٢، ٧٣ - القصص) - ويصح أيضًا أن تكون الإشارة هنا إلى الشمس وحدها - وهي عماد الحياة في هذا الكوكب الأرضي، فيكون المقصود مشرق الشتاء ومغربه ومشرق الصيف ومغربه، كما ذهب كثير من المفسرين .. إلى آخره .

٥٥ - ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ (٣٣ - الرحمن) .

التعليق العلمي : ثبت حتى الآن ضخامة المجهودات والطاقات المطلوبة للنفاذ من نطاق جاذبية الأرض، وحيث اقتضى النجاح الجزئي في ريادة[3] الفضاء لمدة محدودة جداً بالنسبة لعظم الكون - بذل الكثير من الجهود العلمية الضخمة في شتى الميادين الهندسية والرياضية والفنية والجيولوجية، فضلاً عن التكاليف الخيالية المادية التي أنفقت في ذلك وما زالت تنفق، ويدل ذلك دلالة قاطعة على أن النفاذ المطلق من أقطار السموات والأرض التي تبلغ ملايين السنين الضوئية لإنس أو جن مستحيل .

٥٦ - ﴿يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران﴾ (٣٥ - الرحمن) .

التعليق العلمي : النحاس هو فلز يعتبر من أول العناصر الفلزية التي عرفها الإنسان من قديم الزمن . ويتميز بأن درجة انصهاره مرتفعة جداً (حوالي ١٠٨٣ درجة مئوية) فإذا ما صبَّ هذا السائل الملتهب على جسد، مَثَّل ذلك صنفًا من أقسى أنواع العذاب ألمًا وأشدها أثرًا .

(١) هكذا ؟ وربما كان الصحيح : (الفصول) .
(٢) هكذا ؟ وربما كان الصحيح (العام) .
(٣) في الأصل (زيارة) .

٥٧ - ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾ (٦٨ - الرحمن) .

التعليق العلمى : قد يكون تخصيص النخل والرمان هو فضل ثمارهما على غيرهما من الثمار . لما أودع الله فيهما من مزايا أثبت العلم وجودهما فيهما . فبتحليل التمر كيماوياً وجد أنه يحتوى على نسبة عالية من السكريات (٧٥٪ تقريباً) - فمعظمها من سكر القصب، وكذلك السكر المحول (سكر الفاكهة وسكر العنب - الفركتوز والجلوكوز) - وهو سهل الاحتراق ويستفيد الجسم منه فى إنتاج طاقة عالية وسعر حرارى كبير . ولعل ذلك ربما كان وجه الحكمة فى أمر الله للسيدة مريم بتناول الرطب لكى يعوضها عما بذلته وفقدته أثناء المخاض . هذا فضلاً عن أن التمر يحوى أيضاً نسبة عالية من الكالسيوم والحديد والفوسفور الذى يحتاج إليه الجسم، ومقداراً مناسباً من حمض النيكوتنيك (الفيتامين الواقى من مرض البلاجرا)، وفيتامين (أ،ب) ويحتوى أيضاً على نسبة من البروتينات والدهنيات وكل هذه المكونات تجعل من البلح غذاءً كاملاً .

أما الرمان فيحتوى لبه أو عصيره على نسبة مرتفعة (إذا قيس بغيره من الفواكه) من حمض الليمونيك الذى يساعد عند احتراقه على تقليل أثر الحموضة فى البول والدم مما يكون سبباً فى تجنب النقرس وتكوين بعض حصى الكلى - هذا فضلاً عن احتواء عصير الرمان على نسبة لا بأس بها من السكريات (حوالى ١١٪) - السهلة الاحتراق، والمولدة للطاقة، كما أن قشر الرمان به مادة عفصية قابضة (تنينية) تقى الأمعاء مما يصيبها من إسهال، كما أن قشور سيقان أشجار الرمان تستخدم فى القضاء على الدودة الشريطية .

٥٨ - ﴿إذا رجت الأرض رجا * وبست الجبال بسا * فكانت هباء منبثا﴾ (٤ ، ٥ ، ٦ الواقعة)

التعليق العلمى : (أكتفى بما جاء فى الفقرة الأخيرة منه) - إن الله سبحانه وتعالى قد يجعل الأسباب الكونية المعتادة (كالزلازل) - تجتمع بعضها إلى بعض على غير ما عهدنا فيكون تفاعلها الرهيب سبباً مباشراً لتخريب الدنيا - ويكون التفسير العلمى متجاوباً مع الآيات المنذرة بالأهوال الجسام، وكل ذلك من عند الله، ويحصل عندما يأذن الله بتنفيذ قضائه فى دنيانا .

٥٩ - ﴿أفرأيتم الماء الذى تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾ (٦٨ - ٦٩ الواقعة) .

التعليق العلمى : المُزْن هى السحب الممطرة، وعملية الإمطار تتطلب توافر ظروف جوية خاصة، لا يمكن أن يسيطر عليها الإنسان أو يوفرها صناعياً، مثل هبوب تيار بارد فوق آخر ساخن، أو حالات عدم الاستقرار فى الجو . وقد حاول الإنسان استمطار السحب العابرة صناعياً . إلا أن هذه المحاولات لا تزال مجرد تجارب . على أن الثابت علمياً أن نجاح هذه التجارب على نطاق ضيق جداً مع وجوب توافر بعض الظروف الملائمة طبيعياً .

٦٠ - ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ (٧٥ - ٧٦ - الواقعة) .

التعليق العلمي الذي يبين أهمية هذا القسم : النجوم أجرام مضيئة بذاتها . وأقرب النجوم إلينا هي «الشمس» التي تبعد عنا بمقدار خمسمائة سنة ضوئية، فالطاقة التي نستخدمها من الشمس هي المقومات الأساسية للحياة، فلو كان بعد الشمس عن الأرض أقل أو أكثر مما هو عليه الآن، فإن الحياة تصبح قاسية متعذرة، كما أن أحجام النجوم تختلف بعضها عن بعض، فمنها النجوم العمالقة، وهي من الاتساع بحيث تشمل الأرض والشمس على بعدهما . هناك مجموعات من النجوم تسمى بالعناقيد سابحة في الفضاء تخترق المجرة اللبنية من حين لآخر، فإذا صادفت خلال مرورها المجموعة الشمسية واصطدمت بها، فإن في ذلك الهلاك والفناء المحقق، حتى إذا ما اقترب نجم من النجوم من الشمس فإن ذلك يؤدي أيضًا إلى اختلال في التوازن، وإلى الهلاك والفناء! . لذلك فإن آيات العبرة والقدرة تظهر في هذا الكون الذي خلقه الله تعالى ونظمه[1]!

٦١ - ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾(٢٥-الحديد) .

التعليق العلمي : الحديد أحد سبعة عناصر عرفها القدماء، وهي : الذهب والفضة والزئبق والنحاس والرصاص والحديد والقصدير . وهو أكثر الفلزات انتشارًا في الطبيعة، فيوجد أساسًا في الحالة المركبة على هيئة أكاسيد وكبريتيد وكربونات وسليكات، وتوجد كذلك مقادير صغيرة من الحديد الخالص في الشهب والنيازك الحديدية . أشارت الآية إلى أن الحديد ذو بأس شديد ومنافع للناس، وليس أدل على ذلك من امتياز الحديد وسبائكه المتنوعة بخواص متعددة ومتفاوتة الدرجات في مقاومة الحرارة والشّد والصدأ والبلى وفي مرونة تقبل المغناطيسية وغيرها، ولذلك كان أنسب الفلزات لصناعة أسلحة الحروب وأدواتها وأساسًا لجميع الصناعات الثقيلة والخفيفة ودعامة للحضارات .

وللحديد منافع جمة للكائنات الحية، إذ تدخل مركبات الحديد في عملية تكوين الكلوروفيل، وهو المادة الأساسية في عمليات التمثيل الضوئي التي ينشأ عنها تنفس النبات وتكوين البروتوبلازم الحي، وعن طريقه يدخل الحديد جسم الإنسان والحيوان . ويدخل الحديد في تركيب بروتينات النواة (المادة الكروماتينية) في الخلية الحية، كما أنه يوجد في سوائل الجسم مع غيره من العناصر . وهو أحد مكونات الهيموجلوبين (المادة الأساسية في كرات الدم الحمراء) . ويقوم بدور هام في عمليات الاحتراق الداخلي للأنسجة والتمثيل الحيوي بها . والحديد يدخل كذلك في الكبد والطحال والكُلى والعضلات والنخاع الأحمر . ويحتاج الجسد

---

(١) منذ زمن بعيد قرأت كتاب «النجوم في مسالكها» (وهو كتاب مترجم إلى العربية) . ومما قرأته فيه، ولا أنساه، أن «المجموعة الشمسية بكاملها ليست إلا هباءات في الكون العظيم» ! سبحان الله، له الأسماء الحسنى، جلّت أسماؤه، وعزت صفاته . ليتنا نعتبر ونتعظ ؟!

إلى كمية من الحديد يجب أن يزود بها من مصادره المختلفة، فإذا نقصت تعرض الإنسان لعدة أمراض أهمها فقر الدم .

٦٢ - **﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾** (٥ - الملك) .

التعليق العلمي : السماء كل ما علانا فأظلنا . وقال ابن سيده: هي خضم الفضاء بما فيه الأجرام والشهب . والصورة التي يراها سكان الأرض في الليالي الصافية هي القبة الزرقاء، تزينها النجوم والكواكب وكأنها مصابيح، كما ترى الشهب تهوى محترقة في أعالي جو الأرض . وما القبة الزرقاء إلا نتيجة لتلاقي ضوء الشمس والنجوم مع دقائق الغبار العالقة في الهواء وجزيئات الهواء نفسه وتشتته بها . هذا فضلاً عن الظواهر الضوئية الخاصة التي تزين السماء الدنيا مثل الشفق والفجر والأضواء البروجية وأضواء الشمال أو الفجر القطبي؛ وكلها ظواهر متباينة ترجع إلى تفاعل الضوء مع غلاف الأرض الجوي ومجالها المغنيطي .

٦٣ - **﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير﴾** (١٩ - الملك) .

الصفُّ هو أن يبسط الطائر جناحيه دون أن يحركهما . وفي طيران الطيور آيات معجزات لم يفهم بعضها إلا بعد تقدم علوم الطيران، ونظريات الحركة (الليناميكا) الهوائية . ولكن أكبر ما يثير العجب هو أن يمضي الطائر في الجو بجناحين ساكنين حتى يغيب عن الأبصار . وقد كشف العلم أن الطيور الصافَّة تركب متن التيارات الهوائية المساعدة التي تنشأ إما من اصطدام الهواء بعائق مَا، أو بارتفاع أعمدة من الهواء الساخن، فإذا ما كانت الريح هينة ظلت الأعمدة قائمة وصفت الطيور في أشكال حلزونية، أما إذا اشتدت انقلبت الأعمدة أفقيًا فتصف الطيور في خطوط مستقيمة بعيدة المدى . وتتحلَّى الطيور عامة بخصائص منها : خفة الوزن - ومتانة البناء - وعلو كفاءة القلب - وبدورة الدم - وجهاز التنفس - ودقة اتزانها - وانسياب أجسامها . وهي خصائص أودعها فيها العليم البصير لتحفظها في الهواء حين تبسط جناحيها أو تقبضهما . إلا أن الطيور الصافة تتميز على سائر الطيور باختصار حجم عضلات صدرها مع قوة الأوتار والأربطة المتصلة بأجنحتها حتى تستطيع بسطها فترات طوالا

أما الطيور صغار الأحجام التي تعتمد في طيرانها على الدفيف[1]، فإنها تضرب بجناحيها إلى أسفل وإلى الأمام لتوفير الدفع والرفع اللازمين لطيرانها، ثم تقبض أجنحتها، ولكنها تظل طائرة بقوة اندفاعها المكتسبة.

وهكذا يتضافر البناء التشريحي والتكوين الهندسي للطيور بكافة أنواعها على طيرانها وحفظ توازنها وتوجيه أجسامها في أثناء الطيران .

(١) دفَّ دفًا ودفيفًا - سار سيراً ليناً. ودف الطائر = ضرب جنبيه بجناحيه، أو حرك جناحيه، ورجلاه في الأرض . وفي الحديث «كل ما دف ولا تأكل ما صفَّ».

٦٤ - ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون﴾ (٤٠ - المعارج) .

التعليق العلمي : طويل، وفيه الكثير من عبارة : وقد يكون المراد كذا .

أكتفي بما يلي : وظاهرة الشروق والغروب إشارة إذن إلى دوران كرة الأرض . وهذا نعمة كبرى على أحياء هذا الكوكب، فلولا دوران الأرض حول محورها لتعرض نصفها لضوء الشمس مدة نصف سنة، وحرم من الضوء تمامًا النصف الآخر، وهذا مما لا تستقيم معه الحياة كما نعهدها .

وإذا اقتصرنا عند ذكر المشارق والمغارب على تدبير الشمس وحدها دون سائر النجوم والكواكب؛ كانت هذه إشارة إلى التعدد اللانهائي لمشارق الأرض ومغاربها، يومًا بعد يوم في كل موضع على سطح الأرض، أو حتى في لحظة من لحظات الزمان تمر على الكرة الأرضية. فالشمس في كل لحظة غاربة عند نقطة ومشرقة عند نقطة أخرى تقابلها . وهذا من محكم تدبير الله وإعجاز قدرته (انظر - أيضًا التعليق العلمي على الآية ٥ - الصافات و ١٧ - الرحمن) .

٦٥ - ﴿والجبال أوتادا﴾ (٧ - النبأ) .

يبلغ سُمك الجزء الصلب من القشرة الأرضية نحو ٦٠ كيلو مترًا وتكثر فيه الجبال فيرتفع حيث الجبال، وينخفض لتكون بطون البحار وقيعان المحيطات، وهو في حالة من التوازن بسبب الضغوط الناتجة من الجبال ولا يختل هذا التوازن إلا بعوامل التعرية، فقشرة الأرض اليابسة ترسيها الجبال كما ترسي الأوتاد الخيمة (يراجع التعليق على الآية - ٧ - ق) .

٦٦ - ﴿وجعلنا نومكم سباتا﴾ (١) (٩ - النبأ) .

النوم هو توقف نشاط الجزء المدرك الواعي من المخ - أي قشرته، أو هبوط ذلك النشاط هبوطًا كبيرًا متفاوت الدرجات في نشاط كافة أعضاء الجسم وأنسجته مما يترتب عليه انخفاض في توليد طاقة الجسم وحرارته . ثم يأخذ الجسم أثناء النوم نصيبًا من الهدوء والراحة بعد عناء المجهودات العصبية أو العضلية أو كليهما فتهبط جميع وظائف الجسم الحيوية ماعدا عمليات الهضم وإفراز البول من الكليتين والعرق من الجلد فإن في وقف هذه العمليات الأخيرة ضررًا على حياة الفرد . أما التنفس - مثلاً - فيبطئ ويصير أكثر عمقًا، ويكون صدريًا أكثر منه بطنيًا . وتبطئ سرعة النبض ويقل مقدار ما يدفعه من القلب في كل (ضربة) (هكذا وربما كانت «نبضة») ويضعف توتر العضلات ويصير من الصعب الحصول على الحركات العكسية . وكل هذا يسبب الراحة للإنسان أثناء نومه .

---

(١) أي راحة لكم من عناء العمل .

٦٧ - ﴿وجعلنا سراجا وهاجا﴾ (١٣ - النبأ)، المراد بالسراج الوهاج (الشمس) .

وذلك كما ثبت علميًا من أن درجة حرارة سطحها المشع تبلغ ٦٠٠٠ درجة مطلقة ، أما المركز فتزيد فيه درجة الحرارة على ٣٠ مليون درجة بسبب ما تعانيه المواد فيه من الضغوط العالية . وتشع الشمس النسب التالية من الطاقات ٩٪ أشعة فوق البنفسجية؛ ٤٦٪ أشعة ضوئية ٤٥٪ أشعة حرارية، أو تحت الحمراء، ولذلك عبرت عنها الآية الكريمة السراج الذى يطلق الضوء والحرارة معًا .

٦٨ - ﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا﴾ (١٤ - النبأ) .

المطر هو المصدر الوحيد للماء العذب على الأرض . والأصل فى المطر تكاثف أبخرة المياه المتصاعدة من البحار والمحيطات ونحوها على شكل سحب وتحويلها إلى نقط من الماء أو بلُّورات من الثلج أو هما معًا . وتتساقط هذه المكونات عندما تزداد حجومها على هيئة مطر أو بَرَد .

٥٩ - ﴿والسماء ذات البروج﴾ (الآية الأولى من سورة البروج) .

فى الشرح : أقسم بالسماء ذات المنازل التى تنزلها الكواكب أثناء سيرها .

فى التعليق العلمى : البروج هى هذه المجموعات من مواقع النجوم التى تظهر على أشكال مختلفة فى السماء مقسمة إلى اثنى عشر قسمًا تمر خلالها الأرض والكواكب أثناء دورتها حول الشمس . ولما كان مستوى مدار القمر خلال دورته حول الأرض وهى التى تسمى «منازل القمر»، وهى أيضًا مجموعة من النجوم على أشكال مختلفة، فقد جمع الشاعر القديم أسماء هذه البروج الاثنى عشر فى هذين البيتين :

حمل الثور جوزة السرطان ∴ ورعى الليث سنبل الميزان
ورمى عقربًا وقوسًا بجدى ∴ ومن الدلو مشرب الحيتان

٧٠ - ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ (٧ - الطارق) .

فى الشرح بالمتن : يخرج هذا الماء من بين الصُّلب وعظام الصدر فى الرجل والمرأة .

فى التعليق العلمى (بالهامش) : الصلب هو منطقة العمود الفقرى . والترائب هى عظام الصدر وقد بينت الدراسات الجينية الحديثة أن نواة الجهاز التناسلى والجهاز البولى فى الجنين تظهر بين الخلايا الغضروفية المكونة لعظام العمود الفقرى وبين الخلايا المكونة لعظام الصدر . وتبقى الكلى فى مكانها وتنزل الخصية إلى مكانها الطبيعى فى الصفن[1] عند الولادة . وعلى الرغم من انحدار الخصية إلى أسفل فإن الشريان الذى يغذيها بالدم طول

(١) الصَّفَنُ : وعاء الخصية .

حياتها يتفرع من الأورطة عند الشريان الكلوى، كما أن العصب الذى ينقل الإحساس إليها ويساعدها على إنتاج الحيوانات المنوية وما يصاحب ذلك من سوائل يتفرع من العصب الصدرى العاشر الذى يغادر النخاع الشوكى بين الضلعين العاشر والحادى عشر .

وواضح من ذلك أن الأعضاء التناسلية وما يغذيها من أعصاب وأوعية دموية تنشأ من موضع فى الجسم بين الصلب والترائب (العمود الفقرى والقفص الصدرى) .

٧١ - ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ ؟ (١٧ - الغاشية) .

التعليق العلمى : فى خلق الإبل آيات معجزات دالة على قدرة الله ليتدبر فى ذلك المتدبرون. فمن المعروف أن من صفاتها الظاهرة ما يمكنها من أن تكون سفن الصحراء بحق فالعينان ترتفعان فوق الرأس وترتدان إلى الخلف، فضلاً عن طبقتين من الأهداب تقيانها الرمال والقذى .. وكذلك المنخران والأذناب يكتنفهما الشعر للغرض نفسه فإذا ما هبت العواصف الرملية، انقفل المنخران، وانثنت الأذن - على صغرها وقلة بروزها - نحو الجسم . أما القوائم فطوال تساعد على سرعة الحركة، مع ما يناسب ذلك من طول العنق، وأما الأقدام فمنبسطة فى صورة خفاف تمكن الإبل من السير فوق الرمال الناعمة . والجمل كَلْكَلٌ تحت صدره ووسائد قرنية على مفاصل أرجله تمكنه من الرقود فوق الأرض الخشنة الساخنة كما أن على جانبى ذيله الطويل شعراً يحمى الأجزاء الخلفية الرقيقة من الأذى .

أما مواهب الجمل الوظيفية فأبدع وأبلغ : فهو فى الشتاء لا يطلب الماء، بل قد يعرض عنه شهرين كاملين إذا كان الغذاء غضاً رطباً، أو أسبوعين إذا كان جافاً، كما أنه قد يتحمل العطش الكامل فى قيظ الصيف أسبوعاً أو أسبوعين، يفقد فى أثنائها أكثر من ثلث وزن جسمه فإذا ما وجد الماء تجرع منه كمية هائلة يستعيد بها وزنه المعتاد فى دقائق معدودات، والجمل لا يختزن الماء فى كرشه كما كان يُظنُّ، بل إنه يحتفظ به فى أنسجة جسمه، ويقتصد فى استهلاكه غاية الاقتصاد . فمن ذلك أنه لا يلهث أبداً ولا يتنفس من فمه، ولا يخرج من جلده إلا أدنى العرق؛ وذلك لأن حرارة جسمه تكون شديدة الانخفاض فى الصباح المبكر ثم تأخذ فى الارتفاع التدريجى أكثر من ست درجات قبل أن تدعو الحاجة إلى تلطيفها بالعرق والتبخر . وعلى الرغم من كمية الماء الهائلة التى يفقدها الجسم بعد العطش الطويل فإن كثافة دمه لا تتأثر إلا فى حدود ومن ثم لا يقضى العطش عليه . وقد ثبت أن دهن السنام مخزن للطاقة يكفيه غوائل الجوع، ولكنه لا يفيده كثيراً فى تدبير الماء اللازم لجسمه .

وما زال العلماء يجدون فى الجمل كلما بحثوا مصداقاً لحض الله تعالى لهم على النظر فى خلقه المعجز .

٧٢ - ﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾ (٢٠ الغاشية) .

التعليق العلمى : تردد فى القرآن الكريم وصف الأرض بأنها مسطحة وبأنها مبسوطة

والمراد بذلك أن الأرض وإن كانت كروية الشكل تبدو للناظرين مسطحة وهذا لا يخالف ما قرره العلم فى شىء .

٧٣ - **﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم فى تضليل * وأرسل عليهم طير أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول﴾** (سورة الفيل) .

تعليق الخبراء على السورة : تشير السورة الشريفة إلى حملة أبرهة الأشرم الحبشي التي وجهها من اليمن نحو مكة لهدم الكعبة ليصرف عنها حجاج العرب . فقد جرد جيشاً كبيراً به بعض الفيلة . وسار به إلى الحجاز وعسكر بقرب مكة فى مكان يدعى «المغمس» (على بعد ثلثي فرسخ من مكة فى طريق الطائف) . وهناك دارت مناوشات بينه وبين العرب . ولكن حملته باءت بالفشل وذلك بسبب المتاعب الكثيرة التى لاقاها من القبائل اليمنية والحجازية، ولتفشى المرض فى جيشه كذلك على نحو ما تشير إليه السورة الشريفة . فعاد إلى بلده بعد أن هلك معظم جيشه دون أن يحقق هدفه . وقد دخلت هذه الغزوة التى تكون قد وقعت عام ٥٧٠ أو ٥٧١ ميلادية فى تقويم عرب الحجاز قبل الإسلام، وعرفت عندهم بعام الفيل . وقيل إن الرسول عليه الصلاة والسلام ولد فيه .

بعض مما جاء فى «الشرح» (فى المتن) : يلفت الله تعالى رسوله إلى قصة أصحا الفيل وما فيها من عبرة دالة على عظم قدرته تعالى وانتقامه من المعتدين على حرماته . فق أرسل عليهم من جنوده ما قطع أوصالهم وأذهب ألبابهم، ولم يبق منهم غير أثر كأنه غلاف بُ ذهب لبه . لقد سلط الله عليهم من جنوده طيراً أتتهم جماعات متتابعة، وأحاطت بهم من كا ناحية . تقذفهم بحجارة محماة من جهنم فجعلتهم كورق زرع أصابته آفة فأتلفته! .

٧٤ - **﴿إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾** (سورة النصر) .

تعليق الخبراء على السورة : الإشارة فيها إلى فتح مكة فى رمضان من العام الثامن للهجرة ديسمبر ٦٣٠ م .

السبب المباشر: كانت خزاعة فى عهد النبى فهاجمتها قريش، وظاهرت بني بكر عليها.

فتح الرسول صلى الله عليه وسلم مكة مع جيش مكون من نحو عشرة آلاف مقاتل . وفتحها دون إراقة دماء . ومن نتائجها الدينية تحطيم الأصنام التي كانت حول الكعبة . ومن نتائجها العسكرية والسياسية دخول قبائل العرب فى الإسلام أفواجاً .

٧٥ - الكشف عن كواكب جديدة فى مرحلة التكوين : (ص١ أهرام ١٩٩٤/٦/١٥ - الطبعة الثانية) .

واشنطن (وكالات الأنباء) : فيما يعد أقوى دليل يحصل عليه علماء الفلك حتى الآن على أن هناك كواكب جديدة فى مرحلة التكوين فى أماكن أخرى من مجرة «درب التبانة» التى تقع

بها المجموعة الشمسية . كشف تلسكوب الفضاء الأمريكى (هابل) فى صور حديثة أرسلها إلى الأرض عن وجود سحب غازية ضخمة على بعد ١٥٠٠ سنة ضوئية عن الأرض . وكشفت الصور أيضًا عن وجود مجموعات هائلة من الغبار تدور حول ٢٢٦ نجمًا على الأقل فى مجموعة «أوريون» يزيد قطرها عدة مرات على قطر المجموعة الشمسية . ويقول عالم الفضاء الأمريكى «روبرت أودال» من جامعة «رايس» «بهيوستن» أن الصور الأخيرة تثبت إلى حد كبير النظرية السائدة حاليًا عن تكون الكواكب التى نقول بأن السحب الغازية والغبار تتجمع وتتكثف بمرور الوقت لتشكل كواكب جديدة تدور حول النجوم . وقال العالم : إن الصور الجديدة نقلت العلماء من مرحلة التكهنات بوجود كتل غازية وغبارية دائرية الشكل حول النجوم التى تكونت حديثًا إلى مرحلة اليقين بأن معظم هذه النجوم توجد حولها سحب غازية وغبارية ضخمة سوف تتشكل منها كواكب فيما بعد .

وقال العالم : إن هذه السحب تتكون أساسًا من الهيدروچين وذرات غبار دقيقة للغاية من مادة السليكات . وسبحان الخلاّق العظيم .

٧٦ – مراحل العمر : يقول تعالى فى سورة (يس) – الآية ٦٨ : ﴿ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون﴾ ؟ .

التعليق العلمى : ومن نُطلْ عمره نردّه إلى عكس ما كان عليه من القوة فيصبح ضعيفًا؛ وذلك لأن حياة الإنسان تأخذ ثلاث مراحل : نمو – ونضج – وضمور . وتبدأ الشيخوخة بابتداء ضمور النسيج الحشوى فى الكلى والكبد والغدة الدرقية والبنكرياس . وهذا له أثر فى إضعاف الجسم كله . وتبدأ – كذلك – الشرايين فى التصلب والضمور، وبذلك يقل الدم الذاهب إلى جميع أعضاء الجسد فيزيده ضعفًا على ضعف .. ومن أسباب الشيخوخة زيادة قوى الهدم على قوى البناء فى الجسم «Metboism » وذلك أن خلايا الجسم كلها فى تغيرمستمر، وكذلك خلايا الدم ماعدا خلايا المخ والنخاع فإنها لا تتغير مدى الحياة . فإذا كانت نسبة تجدد الخلايا كنسبة هلاكها لا تظهر الأعراض؛ أما إذا زادت نسبة هلاك الخلايا على تجددها فى أى عضو ظهر ضمور هذا العضو . وعلى ذلك فكلما تقدمت السن تضاءلت نسبة التجدد وزادت نسبة الانحلال الخلوى وظهر الضمور العام . وتختلف نسبة التجدد والضمور باختلاف نوع الأنسجة، فالظاهر منها كالبشرة الكاسية للجسم والأغشية المبطنة للقنوات الهضمية وقنوات الغدد تضمر بنسبة أكبر كلما تقدمت السن بالإنسان . وهذا هو السبب المباشر لأعراض الشيخوخة .

الفصل الرابع

استهلال

بند (٧)

يقول تعالى في سورة النحل، الآية ٩٨: ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾ . وفي الآيتين التاليتين (٩٩ – ١٠٠) – يقول – عزّ من قائل : ﴿ **إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون** ﴾ .

«فاستعذ» – هذا أمر بالاستعاذة، عندما يهم الإنسان بالقراءة[١]. وقد اختلفوا حول ما إذا كان هذا الأمر «للوجوب أم لمجرد الندب» ويؤيد الوجوب قوله عليه الصلاة والسلام : إن جبريل عليه السلام، أقرأها له «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**» – والجمهور على أنها للندب . وقد اختلفوا – كذلك – حول ما إذا كان هذا الحكم (الوجوب أو الندب) في الصلاة أم في غير الصلاة، والاختلافات كثيرة، ومنها الخلاف حول الجهر بها أو الإسرار في الصلاة . وقد فصل القرطبي القول في ذلك في اثنتي عشرة مسألة[٢].

وأكتفي هنا بتوجيه النظر والتأكيد على ما جاء في الآيتين سالفتي الذكر (٩٩ – ١٠٠) أن فيهما جوابًا على سبب الاستعاذة وأهميتها . إنها مما يحرص عليه المؤمنون المتوكلون . إنهم الذين يأخذون بالأسباب، ويتدبرون ويتفكرون قبل الفعل، ثم لا يساورهم قلق بعد ذلك، ويتركون «التمام على الله» إنهم أولوا العلم، إنهم أولوا الألباب . أما المشركون فهم فرائس الشيطان والميدان الذي يصول فيه ويجول .

البسملة

بند (٨)

ذكر القرطبي (نفسه ص٩١ وما بعدها) أن فيها سبعًا وعشرين مسألة .

مما جاء في المسألة الأولى : قال العلماء «**بسم الله الرحمن الرحيم**» قَسَمٌ من ربنا أنزله عند رأس كل سورة، يقسم لعباده أن هذا الذي وضعت لكم في هذه السورة حق، وإني أفي لكم بجميع ما ضمنت من وعدي ولطفي وبري. وقال بعض العلماء :إن «**بسم الله الرحمن الرحيم**»

---

(١) المقصود قراءة القرآن (طبعًا وابتداء). وإني أدعو نفسي، وأدعو القارئ إلى الحرص على الاستعاذة والبسملة في كل مكان وزمان، وفي كل الظروف، ففيهما سر عظيم، وخير كثير .

(٢) المجلد الأول – ص٨٦ وما بعدها .

تضمنت جميع الشرع، لأنها تدل على الذات، وعلى الصفات، وهذا صحيح (الكلام للقرطبى، مع إيجاز وتصرف) .

ومما جاء فى المسألة الثانية : قال على بن الحسين فى تفسير قوله تعالى : ﴿وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا﴾ قال معناه : إذا قلت «بسم الله الرحمن الرحيم» وَلَّوْا .. إلى آخره .

ومما جاء فى المسألة الرابعة : روى عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال : البسملة تيجان السور . قلت (أى القرطبى) : وهذا يدل على أنها ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها . وهذا قول مالك . والقولان الآخران : أحدهما : أنها آية من كل سورة، وهو قول عبد الله بن المبارك . والثانى : قال الشافعى هى آية فى الفاتحة؛ وتردد قوله فى سائر السور . فمرة قال: هى آية من كل سورة، ومرة قال ليست بآية إلا فى الفاتحة وحدها . ولا خلاف بين العلماء فى أنها آية من القرآن فى سورة النمل(١) .

وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا قرأتم «الحمد لله رب العالمين» فاقرءوا «بسم الله الرحمن الرحيم» إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها .. إلى آخره .. ثم قال القرطبى : الصحيح فى هذه الأقوال قول مالك؛ لأن القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد، وإنما طريقه التواتر القطعى الذى لا يُختلف فيه . (وهذه هى المسألة الخامسة) .

وفى المسألة الثامنة (ص٩٧) - ندب الشرع إلى ذكر البسملة فى أول كل فعل كالأكل والشرب والنحر والجماع والطهارة وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال . قال تعالى : ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه﴾ وقال: ﴿وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها﴾ . ثم ذكر أحاديث شريفة كثيرة صحيحة عن البركة والشفاء والخير مع قول (بسم الله الرحمن الرحيم). من ذلك قوله - عليه الصلاة والسلام - لعمر بن أبى سلمة: «يا غلام : سَمِّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك» - وهذا من آداب المائدة . والإسلام كله آداب، ونِعْمَ الآداب !

أقول : إننا نقرأ باسم الله؛ وإننا - ونحن المؤمنون - نبدأ كل قول أو فعل أو حركة «باسم الله» تيمنًا وتبركًا وتحصنًا من كل شيطان أو أوهام قد تتسلل إلينا - إن هذا الافتتاح ينزل السكينة على القلب، والطمأنينة على النفس . إن هذا من العبادة، وإن فيه لمثوبة، وخير الدنيا والآخرة . أما هم (أعنى الكفار والمنافقين والفاسقين وعبدة المادة والدنيا) ، فإنهم لا يتعبدون إلا بهما ولهما .. إنهم الضالون . وإلى «الهاوية» و«النار الحامية» مسوقون .

وفى تفسير النسفى لفاتحة الكتاب قال : إنها (أى الفاتحة) مكية، وقيل مدنية والأصح أنها مكية ومدنية(٢). نزلت بمكة حين فرضت الصلاة، ثم نزلت بالمدينة حين حولت القبلة إلى

---

(١) «.. إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم» (الآية - ٣٠) .
(٢) فى ابن كثير أنها نزلت بعد المدثر .

الكعبة وتسمى أم القرآن للحديث «لا صلاة لمن لا يقرأ بأم القرآن»؛ ولاشتمالها على المعانى التى فى القرآن؛ وهى الوافية والكافية لذلك . وتسمى – أيضًا – سورة الكنز لقوله عليه السلام[1] حاكيًا عن الله تعالى : «فاتحة الكتاب كنز من كنوز عرشى»؛ وسورة الشفاء والشافية لقوله عليه السلام «فاتحة الكتاب شافية من كل داء إلا السام» وسورة المثانى لأنها تثنّى فى كل صلاة، وسورة الصلاة لما يروى، ولأنها تكون واجبة أو فريضة وسورة الحمد والأساس لأنها أساس القرآن . قال ابن عباس رضى الله عنهما : «إذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالأساس . وأنها سبع باتفاق». (عن تفسير القرآن الجليل – المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل) لأبى البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى المتوفى سنة ٧٠١ وقِيلَ عشر وسبعمائة .

المثانى

بند (٩)

بعد ذكر قصص بعض الأنبياء، وما كان من أقوامهم معهم، وما أنزله الله بهم؛ قال المولى جل وعزّ : **﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فا صفح الصفح الجميل * إن ربك هو الخلاق العليم * ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم * لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين﴾** (الآيات ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨ – الحجر)[2] .

وعن الآية ٨٧ جاء فى المصحف المفسر – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية : «ولقد آتيناك أيها النبى الأمين سبع آيات من القرآن : هى الفاتحة، التى تكررها فى كل صلاة . وفيها الضراعة لنا، وكمال طلب الهداية . وأعطيناك القرآن العظيم كلّه، وفيه الحجة والإعجاز، فأنت بهذا القوّى الذى يجدر منه الصفح .

سورة الفاتحة

بند (١٠)

سُمِّيت الفاتحة؛ لأن المصحف الشريف يبدأ بها، وهى أول سورة نزلت بتمامها وهى تشتمل على مجمل ما فى القرآن . ومن المألوف فى لغة العرب، وفى القرآن، ذكر المفصل بعد المجمل؛ والمجمل بعد المفصل . ومن أمثلة هذا الأخير قوله تعالى (على لسان موسى عليه السلام): **﴿وما تلك بيمينك يا موسى * قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى﴾** (١٨ – طه) – ومن أمثلة الأول؛ سورة الفلق . وهى **﴿قل أعوذ برب الفلق * من**

---

(١) هكذا، يكتفى بكلمتى «عليه السلام» .

(٢) يقول تعالى «ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين» (الآية ٨٠ من سورة الحجر) وأصحاب الحجر هم ثمود قوم صالح. والحجر واد بين المدينة والشام، عند وادى القرى، – وانظر تفاصيل علمية أكثر فى تفسير (الآية ٧٣ من سورة الأعراف – فى تفسير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية المسمى «المنتخب»).

شر ما خلق * ومن شر غاسق إذا وقب * ومن شر النفاثات فى العقد * ومن شر حاسد إذا حسد﴾
فقوله تعالى: « **من شر ما خلق** » عام ومجمل، وما جاء بعده تفصيل .

وفى كتب التفسير – وكما سبق أن ذكرت – أنها (أى الفاتحة) «أم القرآن» (أى أم الكتاب)، وأنها أساسه، ففيها مجمل مقاصد القرآن، أى مقاصد الشريعة .

ومقاصد القرآن هى : بيان التوحيد. وبيان الوعد والبشرى للذين آمنوا وعملوا الصالحات، أى آمنوا وعملوا فأحسنوا وأتقنوا. وفيه الوعيد والإنذار بما فى الآخرة من سوء المصير للكافر والفاسق والمسىء، وفى القرآن بيان للعبادات والمعاملات، والأحوال الأسرية والشخصية بالذات، وهو كنز الفضائل والآداب . وفيه «أحسن القصص»[1] التى تنطوى على العظة والعبرة . والقرآن، واتباعُهُ هو طريق السعادة فى الدنيا والآخرة . وأعود وأكرر أن فاتحة الكتاب هى مجمل هذا كله . فَسِرُّها عظيم .

وفى حديث أبى هريرة قال : سمعت النبى صلى الله عليه السلام يقول : قال الله تعالى: قسمت الصلاة أى الفاتحة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل . فإذا قال العبد : « **الحمد لله رب العالمين** » قال الله تعالى : حمدنى عبدى. وإذا قال: « **الرحمن الرحيم** » قال الله تعالى : أثنى على عبدى . وإذا قال: « **مالك يوم الدين** » قال : مجدنى عبدى . وإذا قال: « **إياك نعبد وإياك نستعين** » قال : هذا بينى وبين عبدى، ولِعَبْدِى ما سأل . فإذا قال : « **إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم * غير المغضوب عليهم * ولا الضالين** » قال: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل. (والحديث مذكور فى صحاح المصابيح – والنقل عن النسفى) .

« **الحمد لله رب العالمين** »[2] إنه رب العوالم كلها . رب المشارق والمغارب . رب السمٰوات والأرض، وما فيهما، وما بينهما . رب كل شىء . رب المخلوقات، وما أكثر المخلوقات! رب الإنس والجن، رب كل الأحياء من حيوان ونبات، وما أكثرها، لا نُحصى عددها وأصنافها، ما نعرفه منها كثير، وما نجهله وهو أكثر بكثير . على وجه الأرض، وفى أعماق الأنهار والمحيطات والبحار. ﴿**وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم**﴾ (٣٨ – الأنعام) . إن الحصر مستحيل علينا، والله تعالى يقول: ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾ (٨٥ – الإسراء) .

ونِعَمهُ على الإنسان لا تُحصىَ، إنها ظاهرة وباطنة، وإذا كنا نعرف شيئًا عن نعمه الظاهرةَ فالباطنة، وهى كثيرة وكثيرة تخفى علينا . يقول تعالى على لسان خليله إبراهيم عليه السلام ﴿... **إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت**

---

(١) الآية – ٣ – يوسف .

(٢) عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أفضل الذكر. لا إلٰه إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله». والألف واللام فى «الحمد» لاستغراق جميع الحمد وصنوفه لله تعالى . كما جاء فى الحديث «اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك أجناس الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله» (تفسير ابن كثير – مجلد ١ ص٣٨) .

فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين﴾ (٧٧ - ٨٢ الشعراء). والحمد لله دائماً . وفى كل الأحوال، وفى السراء والضراء . والكثير جداً جداً مما يبدو ضاراً، قد يكون مدخلاً لخير . ورب ضارة نافعة « **وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم**» (٢١٦ - البقرة) . ومن شأن المؤمن الرضا (والرضا خير كبير) .

«**الرحمن الرحيم**»(١) إننا قد نصف فلانا من الناس بأنه «رحيم» أما «الرحمن» فهو اسم أو وصف لله وحده . و«رحيم» هو مبالغة من «راحم» والله - جل وعزّ يقول: « **ورحمتى وسعت كل شىء**» (١٥٦ - الأعراف) . وقد « **كتب على نفسه الرحمة**» (١٢ - الأنعام) وما أكثر ما يخفى علينا من رحمة الله ولطفه . إن هذا اللطف يمتد ويمتد إلى ما قد يخطر، وما لا يخطر لنا على بال !

« **مالك يوم الدين**» يوم الجزاء، يوم القيامة، يوم الحساب، والثواب والعقاب والجنة والنار. **﴿يوم ترونها تذهل كل مر ضعة عما أر ضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾** (٢ - الحج) . **﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله»** (١٩ - الانفطار) . « **من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾** (٢٥٥ - البقرة) .

«**إياك نعبد وإياك نستعين**»(٢) « **لا إله إلا هو**» له وحده العبادة . وبه وحده الاستعانة . إنّ عُمْىَ القلوب قد عبدوا الدنيا، وهى لعب(٣) ولهو ومتا ع قليل(٤). أما « **أولوا الألباب**» - فقد أنار الله بصائرهم، فلم يعبدوا إلا الله، ولم يستعينوا إلا به . وهؤلاء هم المفلحون . أما الآخرون فهم الخاسرون إنهم الذين استبدلوا « **الذى هو أدنى بالذى هو خير**» (٦١ - البقرة) .

﴿إهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم * غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ . إنا نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم . نسأله هو، وهو فقط. فالفضل منه وإليه . وفى الصراط المستقيم، صراط الله، يقول تعالى: **﴿وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم و صاكم به لعلكم تتقون﴾** . هذا هو صراط الله، هذا هو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال . إن صراط الله هو صراط الذين أنعم عليهم الله . وليس بعده إلا طريق المغضوب عليهم من الله، إنه طريق الضالين عن هدى الله.

وعن ابن كثير نفسه ص٤٣ : «من اتبع النبى صلى الله عليه وسلم، واقتدى باللذين من بعده أبى بكر وعمر، فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن، وهو كتاب الله، وحبله المتين، وصراطه المستقيم .

---

(١) قال الحسن : «الرحمن اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه، تسمى به تبارك وتعالى» (ابن كثير - مجلد١ - ص٣٧) .

(٢) قال بعض السلف : الفاتحة سر القرآن؛ وسرها هذه الكلمة «إياك نعبد وإياك نستعين» فالأول تبرؤ من الشرك، والثانى تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله عز وجل (ابن كثير، نفسه ص٤١) .

(٣) انظر الآيات ٣٢ - الأنعام، ٦٤ العنكبوت، ٣٦ محمد، ٢٠ الحديد .

(٤) - ١٩٧ - آل عمران .

في صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : «قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك - وفى رواية - غيرك. قال : قل أمنت بالله ثم استقم»(١). أما الإيمان فيعنى مما يعنى - حسن الظن بالله، والثقة بالنفس، وباليوم وبالغد، وبالدنيا والآخرة، أما «الاستقامة» فتعنى التطبيق السليم للإيمان السليم . وهنيئًا له، هذا الذى وفقه الله إلى ما فيه رضاه، وسعادة الدنيا والآخرة .

هذا، وفى ابن كثير (نفسه ص٤٨ - تحت عنوان : فصل - التأمين) . يُسْتَحَبُّ لمن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها : آمين . ويقال : أمين بالقصر أيضًا . ومعناه : اللهم استجب : والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى عن وائل بن حجر قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم قرأ «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» فقال : آمين ومثله عن أبى هريرة .

مع الآيات الخمس الأولى
من سورة البقرة

بند (أ أ)

﴿ألم(٢) (١) ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين(٢) الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون(٣) والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون(٤) أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون(٥)﴾ .

هذه آيات خمس، هى آيات بينات فى الإعجاز، وجوامع الأحكام . إنّ فيها الشرع كله، شرع الله . **﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب﴾** (١٣ - الشورى) .

«ذلك الكتاب» (أى هذا القرآن، كلام الله) - **«لا ريب فيه»** - أى لا شك ولا قول ولا جدال فيه **﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾** (١٥ - الحجرات) .

---

(١) - نقلاً عن القرطبى - فى تفسيره للآية (٣٠ فُصلت) «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا إلى آخر الآية» (مجلد ١٥ ص٣٥٧ وما بعدها) .

(٢) (الم) قيل إنّ المعنى : ألف، لام، ميم. (ذلك الكتاب) - أى أن هذا الكلام البليغ المعجز، مكون من جنس الأحرف التى يتكون منها (كلامكم أيها العرب) - وقيل : إن (الم) - اسم للسورة، وهكذا سائر أوائل السور المكونة من الأحرف . وفى القرطبى (نفسه ص١٥٤ وما بعدها) - قيل : هى سر الله فى القرآن، ولله فى كل كتاب من كتبه سر، فهى من المتشابه الذى انفرد الله تعالى بعلمه إلى آخره . وعن هذا المتشابه يقول تعالى: ﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات مُحكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ (٧ - آل عمران) .

وهو، أى هذا الكتاب «هدى للمتقين» - إنه النور، نور الله، الذى يسعى ﴿بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، ذلك هو الفوز العظيم﴾ (١٢ - الحديد)(١) . إنه «هدى للمتقين» إنه النور فى أبصارهم وبصائرهم؛ إنهم هؤلاء ﴿الذين يصلون ما أمر به الله أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾(٢) . إنهم ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾(٣) . إنهم ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ أى بالذى غاب عن الحواس ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾(٤). نعم! لا تدركه الأبصار، إنما تدركه البصائر والقلوب .

إنه ﴿هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ - إنهم يقيمون الصلاة، تلك المناجاة بين العبد والرب الذى خلقه، وفى أحسن صورة صوّره وركّبه، والذى وهبه ما وهب من عقل، ومن نعم لا تحصى ولا تعد . إنها الكلم الطيب وإنها الخضوع والخشوع واستشعار جمال الله وجلاله . إنها - كفرائض - تتكرر بين العبد والرب - الخالق البارئ - خمس مرات فى اليوم . إنها إذا أُدِّيتْ - كما يحبُّ الله ويرضى - كفيلة بتهذيب النفس، ورياضة الروح، والاقتراب من الله . وهنيئًا لهذا الذى يقترب من الله، الذى جاء عنه فى الحديث القدسى : «إن من اقترب منى شبراً، اقتربت منه ذراعًا، ومن اقترب منى ذراعًا اقتربت منه باعًا» (أو كما قال - إلى آخر الحديث) .

﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ - ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾(٥) . ولقد رزقنا الله أشياء كثيرة كثيرة : منها، وليس أهمها - المال . وعلينا أن ننفق مما رزقنا الله : على المبصر أن يقود غير المبصر ليعبر به الطريق، أو ليصل به إلى مكان الأمان . إنه - كأشياء كثيرة أخرى - عمل يسير، ولكن أجره عند الله كبير . وعلى صاحب الجاه أن يوظفه لخدمة المحتاجين، ولوجه الله، وليس على حساب الآخرين . وعلى العالم أن ينقل علمه - بكل الطرق إلى المحتاج إليه؛ وفى بلادنا - نحن المسلمين - ما أكثر المحتاجين إليه . أما المال، والله هو الذى رزقنا إياه - فعلينا أن نؤدى حقوق الله، والناس فيه . وما أكثر هذه الحقوق ! إن منها «الزكاة» وما فى المال من حق سوى الزكاة (انظر - على سبيل المثال - تفسير القرطبى للآية ١٧٧ - من سورة البقرة)(٦) . وهذا وذاك غير الصدقات التطوعية ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾ (٢٤٥ - البقرة) .

(١) «... يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير» (٨ - التحريم) .
(٢) - ٢١ - الرعد . ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب﴾ (١٩٧ - البقرة) .
(٣) - ١٧٣ - آل عمران .
(٤) - ١٠٣ - الأنعام .
(٥) ٥٨ - الذاريات .
(٦) وسيأتى ذكرها بعد بمشيئة الله .

﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ وفى ذلك يقول تعالى : ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ (٢٨٥ – البقرة) . إننا نؤمن بما أُنزل على رسولنا عليه الصلاة والسلام، ونؤمن بما أُنزل إلى الرسل من قبله، كالتوراة إلى موسى، والإنجيل إلى عيسى .. إلى آخره . وإننا نؤمن موقنين بالآخرة، بالبعث، والحساب، والثواب والعقاب، والجنة والنار . إن هذا كله من «الغيب»، الذى سبق القول فى وجوبه .

هؤلاء هُم «المتقون» الذين يؤمنون بكل ما تقدم، وبه يعملون . أولئك على هدى ونور من ربهم، وأولئك هم المفلحون. وبعد : ففى هذه الآيات البينات الشرع كله كما قلت . ففيها النص الصريح على الإيمان بالغيب، وبما أنزل الله إلى رسولنا، ومما أُنْزِل إليه : الصيام، والحج . وعلى التفصيل المبين فى الكتاب والسنة، أى أن بها كل «قواعد الإسلام الخمس» .

وأعود إلى «ذلك الكتاب» وأضيف : إنه الدواء، وإنه الشفاء، وإنه الحصن الحصين، والركن الركين، ضد كل داء . إن الإيمان على النحو الذى جاء فى هذه الآيات الأولى من سورة البقرة، وهى السورة الثانية بعد فاتحة الكتاب. إن هذا الإيمان اليقينى الذى تؤكده الأعمال من صلاة وإنفاق فى سبيل الله، لا يكون معه قط يأس أو قنوط، أو أى مرض نفسى . إنه «هدى للمتقين» وإنه خسار، أى خسار – للكافرين . اللهم اجعلنا من المفلحين! آمين! .

ابدأ بنفسك !

بند (١٣)

هأنذا أنتقل – بعد الآية الخامسة من سورة البقرة – إلى الآية الرابعة والأربعين منها! . كان بودى أن أتابع القرآن الكريم كله، تفسيراً وتدبُّراً ودعوة، وأن أنقل إلى قارئى شيئًا من انبهارى بسحره وإعجازه، وجماله وجلاله وفيض نوره! إنه الذى قال فيه كبير من كبراء قريش، وهم أهل البلاغة والفصاحة والبيان، والذين نُزِّلَ القرآن تحدياً إياهم أن يأتوا « **بسورة من مثله**»(١). قال : «لقد سمعت منه كلامًا ما هو من كلام الإنس، وما من كلام الجن . وإن له لحلاوة وإنه عليه لطلاوة . وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق . وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وما يقول هذا بشر!» . ولما لم يكن الرجل مؤمنًا، لم يجد ما يعلل به ما تذوق من الفرقان والبيان، إلا بأنه سحر ساحر! أما ما يقول المؤمن، أى مؤمن، ممن تمرس بالعربية وعاشَ حياته معها، ومع القرآن الذى أُنزل بها، فإن جوابه لن يكون إلا «إنما هو الإعجاز، إعجاز القرآن، كلام الله» **﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾**(٢) .

فى الرسالات السابقة، على رسالة نبينا، وهى الرسالة الخاتمة، كان الناس، ومنهم المؤمنون يطلبون من أنبيائهم، أدلة حسية مادية على صدق أقوالهم . وهذا مثال : **﴿إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين* قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين* قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين * قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين﴾**(٣).

إن القرآن الكريم مُعْجز، ومن أركان إعجازه، بل وأول هذه الأركان لغته التى أُنزل بها، والتى تحدى بها المولى جل وعز، من أُنزل إليهم بلغتهم . إنه المعجزة الخالدة إلى يوم الدين . وقد وعد الله بحفظه : **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**(٤).

---

(١) – ٢٣ – البقرة وقد سبق ذكره .
(٢) – ٨٨ – الإسراء .
(٣) – ١١٢ – إلى – ١١٥ – المائدة .
(٤) ٩ – الحجر .

ولقد اعترض البعض على ترجمة القرآن، لأن الترجمة ستفقده أحد أركان الإعجاز، بل أهم هذه الأركان . ولكن لم يكن بدٌّ من الترجمة، ترجمة تفسير له . وأربابه أولى بذلك .

إن الله اللطيف الخبير، العليم الحكيم الرحيم، قد أنزل القرآن معجزًا، ومعجزًا بلغته أولاً حتى يبقى للمؤمنين (الذين تمرسوا بلغته) ويستمر، دليلاً حسيًّا على صدق ما جاء به .

أعود إلى الآيات ٤٤-٤٥-٤٦ من سورة البقرة، وهى : **﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون * واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين * الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون﴾** .

نزلت الآيات الكريمات فى علماء اليهود وأحبارهم . إنهم يقرءون الكتاب، ويعلمون ما فيه من أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر؛ من حض على البر والعطاء الواسع؛ وشجب للبخل والشح، من ترغيب فى الطاعة وترهيب من المعصية .. إلى آخره . إنهم يأمرون، ولا يأتمرون بما به يأمرون . وإذا كانت الآيات قد نزلت - كما قيل - فى دعاة اليهود، فَدُعَاتُنَا كذلك بذلك مأمورون ومطالبون . إن من يدعو - إلى سبيل ربه - أو إلى غير ذلك من مذاهب الفكر عامة - يجب أن يبدأ بنفسه . إن الناس لا يتأثرون بما يقال بقدر ما يتأثرون بِمَنْ قال : إن العبرة بالقدوة . **﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾**(١) .

وإن مانحن فيه - نحن المسلمين - من حال لا نُحسد عليها - راجع - فى الأساس - إلى فريقين، فريق الولاة، وفريق الدعاة - فإذا فسدا أو قصرا فعلى الدنيا السلام .

إن سلفنا الصالح لم ينتصر وإن حضارتنا الإسلامية لم تزدهر إلا بالإيمان : لا باللسان فحسب، ولكن بالقلب أيضًا وأولاً، وبالفعل أيضًا وأولاً . قدموا أموالهم وأرواحهم فى سبيل الله، وعن طيب خاطر . لقد نصروا الله فنصرهم وأعزهم .

وهذه أبيات - أظنها للإمام الشافعى رضى الله عنه وأرضاه، قال :

يــا أيهـــا الرجــل المعلــم غيــره ∴ هــلاَّ لنفســك كــان ذا التعليمُ
تصف الدواء لذى السقام وذى الضَّنَا ∴ كيمــا يصــح به وأنت ســقيمُ
ابــدأ بنفسـك فانهَهَـا عــن غَيِّهـــا ∴ فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ (٢)

وهذه أبيات أخرى، مما ذكره القرطبى عند تفسير نفس الآية قال أبو العتاهية:

وصفت التُّقى حتى كأنك ذو تُقى ∴ وريح الخطايا من ثيابك تسْطَعُ

---

(١) ٢١ - الأحزاب .

(٢) هذه أبيات شبيهة بما ظننته للشافعى، ونسبها القرطبى (مجلد ١ ص٣٦٧) إلى أبى الأسود الدؤلى :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله ∴ عار عليك إذا فعلت عظيمُ
وابدأ بنفسك فانهها عن غَيِّها ∴ فإن انتهت عنه فأنت حكيمُ
فهناك يُقبل إن وعظت ويقتدى ∴ بالقول منك وينفع التعليمُ

وقــال آخــر :

وغير تقي يأمر الناس بالتُّقى ∴ طبيبٌ يداوي والطبيب مريض

وقال سَلْم بن عمرو :

ما أقبح التزهيد مــن واعظ ∴ يُزَهِّدُ النـــاس ولا يَزهــد
لو كان في تزهيده صــادقًا ∴ أضحى وأمسى بيته المسجد
إنْ رفضَ الدنيا فمــا بالــه ∴ يستمنح النــاس ويَسْترفِد
والرزق مقسوم على من ترى ∴ ينــالــه الأبيــض والأســود

وتُختمُ (الآية ٤٤) بقولـه تعالى : ﴿أفلا تعقلون﴾ أليـس لكم عـقـول تردكُم عن هذا الغَيِّ الذي تَتَردَّون فيه؟ إن لـهم عقولاً، لكنها لا تفقه، إنها عليلة كليلة قد سيطرت عليها الشهوات، وحب الدنيا .

وتأتي (الآيتـان ٤٥ - ٤٦) ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين* الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون﴾ . إنه توجيه من المولى سبحانه وتعالى - بالاستعانة «بالصبر والصلاة» إن الصبر هو مجاهدة النفس إنه الجهاد الأكبر . ويا ويلنا إن لم يتداركنا الله بلطفه ويلهمنا الصبر والجَلَدَ في حياتنا اليومية، وفي ممارساتنا المختلفة، وفي المواقف الصعبة، والأزمات العاتية، والحديث في «الصبر طويل» وأرجو أن أعود إليه[1]. ويكفي أن أذكِّر هنا بقوله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ (١٠ - الزمر) .

أما «الصلاة» ففيها قال الحكيم العليم: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾ (٤٥ - العنكبوت) . هذا قول الله، وقوله الحق : ﴿ومن أصدق من الله قيلا﴾؟! (١٢٢ - النساء) . فإذا كان «فلان» من الناس «يصلي» ويرتكب الفحشاء والمنكر، فذلك هو أحد الذين قال الله فيهم: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا* مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا﴾ إنهم - وكما جاء في صدر الآية (١٤٢) (المنافقون) : ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة ..﴾ (١٤٢-١٤٣ النساء).

أعود وأقول : إنما الصلاة هي صلاة «الخاشعين» ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون﴾ (٢ - الأنفال) . إنهم المتواضعون لله وللناس، إنهم الأتقياء الأصفياء، إنهم الراسخون في العلم الذين يدركون قوله تعالى : ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ (٨٥ - الإسراء) . إنهم ﴿الذين يظنون[2] أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون﴾ إنهم الموقنون بلقاء الله، والرجوع إليه .

---

(١) انظر ما سيأتي عن الصبر وغيره - تحت عنوان «فضائل إسلامية» .
(٢) «يظنون» هنا - بمعنى «يوقنون» - وقد جاء نفس اللفظ «يظنون» بمعنى «يوقنون» في آية أخرى من نفس السورة «قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله» (٢٤٩). وانظر - فيما سيأتي - نقلاً عن الشيخين محمد عبده ورشيد رضا - بأخذ «يظنون» على وجهها ودون تأويل فالظن الراجح يحل محل اليقين .

إنه يوم الدين، يوم الجزاء . وفى التنزيل الحكيم آيات كثيرة فى الترهيب منه، والترغيب فى الجنة ونعيمها ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ (١٨ - الرعد) . ومن نفس السورة أنقل هذه الآيات ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب * والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ (الآيات ١٩ - ٢٤) .

الصلاة

بند (١٣)

الصلاة : الدعاء، يقال : صلى صلاةً .. والصلاة : عبادة مخصوصة مؤقتة، تبين حدودها في أوقاتها في الشريعة . والصلاة : الرحمة. والصلاة : بيت العبادة لليهود . قال تعالى :﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم يبعض لهدمت صوامع وبيع و صلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا** ﴾ (٤٠ - الحج) . (المعجم الوسيط) .

وفي الآيات الأولى من سورة البقرة يقول تعالى :﴿ **ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ...﴾ إلى آخر الآيات .

وفي الآية (١٧٧ من نفس السورة) : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم والآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة** .. ﴾إلى آخر الآية.

وفي الآيات الأولى من سورة المؤمنون يقول تعالى : ﴿ **قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** ﴾ (الآيات من ١ - ١١) .

وفي سورة المعارج :﴿ **إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين في أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غير مأمون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم بشهاداتهم قائمون * والذين هم على صلاتهم يحافظون * أولئك في جنات مكرمون** ﴾ . (الآيات ١٩ - ٣٥) .

في صدر الآية (١٧٧ من سورة البقرة) يقول تعالى : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب**..﴾ وفي هذا إشارة إلى الصلاة والقبلة التي يُوَلِّي المسلمون وجوههم شطرها . وبالمثل يمكن القول :إن الصلاة ليست «حركاتها أو حركات المصلِّي فيها وأثناء ها»

من قيام وركوع وسجود وقعود . إنها كذلك شكلاً، فالرسول عليه أفضل الصلوات والتسليمات هو القائل: «صلوا كما رأيتمونى أصلى» هذا، أمر، وهو صحيح ومُسَلَّمٌ، لكنه ليس هو اللب والجوهر . إن اللب والجوهر هو الخشوع، والخشوع محله القلب، ثم يأتى بعد ذلك خشوع الجوارح وسكونها . إننا فى الصلاة، ونحن بين يَدَىِ الله، يجب أن نستحضر جلاله وعظمته وقدرته، ونستشعر فضله ورعايته ورحمته . هذا فضلاً عن الحرص على أداء الصلوات فى أوائل أوقاتها، ومع الجماعة ما أمكن . وفى قوله تعالى : ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ (٩ – المؤمنون)، وقوله : ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ (٢٣ – المعارج)، ثم فى الآية ٣٤ من نفس السورة ﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾ – يجب أن تفسر بأوسع المعانى «الإيمانية» لتشمل – فضلاً عن الخشوع – جميع أركان الصلاة وفرائضها وسننها وآدابها – وهذه بعض الآثار النبوية فى هذا كله .

فى تفسير ابن كثير لقوله تعالى :﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين* الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون»﴾ (٤٥ – ٤٦ البقرة) – نقل عن «الخاشعين» أقوال المفسرين القدامى من السلف الصالح : قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس : يعنى المصدِّقين بما أنزل الله . وقال مجاهد : المؤمنين حقًّا . وقال أبو العاليه : إلا على الخاشعين الخائفين . وقال مقاتل بن حيان : إلا على الخاشعين يعنى به المتواضعين : وقال الضحاك : (وإنها لكبيرة) قال : إنها لثقيلة إلا على الخاضعين لطاعته، الخائفين سطواته، المصدقين بوعده ووعيده . وهذا يشبه (والكلام لابن كثير ما جاء فى الحديث «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه»)(١) .

قال ابن جرير : معنى الآية : واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب، بحبس أنفسكم على طاعة الله، وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقربة من رضا الله، العظيمة إقامتها إلا على المتواضعين لله(٢)، المستكينين لطاعته، المتذللين من مخافته هكذا قال : والظاهر أن الآية وإن كانت خطاباً فى سياق إنذار بنى إسرائيل، فإنهم لم يُقْصَدوا على سبيل التخصيص، فإنها عامة لهم ولغيرهم .

ومن السنة فى تفسير ما يتصل «بالخشوع» و«المحافظة» و«الدوام» فى آيات سورة المؤمنين، وآيات «المعارج» ... الخشوع محله القلب، فإذا خشع خشعت الجوارح كلها لخشوعه إذ هو مَلِكُها . وكان الرجل من العلماء إذا أقام الصلاة، وقام إليها يهاب الرحمن أن يمد بصره إلى شيء، أو أن يحدث نفسه بشيء من الدنيا . وقال عطاء : هو ألا يعبث بشيء من جسده فى الصلاة. وأبصر النبى صلى الله عليه وسلم رجلاً يعبث بلحيته فى الصلاة فقال : «لو

---

(١) أى لقد سألت عن أمر كبير خطير ثقيل صعب، لكن هذا كله سينقلب يسيراً سهلاً لمن أراد الله ذلك له . والقاعدة أنه لا صعب على مجتهد، ولا سهل على كسول . ومن جدَّ وجد .

(٢) نقلاً عن تفسير الطبرى ٢/١٧ .

خشع قلب هذا الرجل لخشعت جوارحه» وقال أبو ذر، قال النبى صلى الله عليه وسلم : «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الرحمة تواجهه فلا يُحركَنّ الحصى» (رواه الترمذى) . وروى أبوعمران الجَوْنى قال : قيل لعائشة رضى الله عنها، ما كان خُلق رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: أتقرء ون سورة «المؤمنون»؟ قيل : نعم. قالت : اقرء وا؛ فَقُرِئَ عليها : «**قد أفلح المؤمنون - حتى بلغ**[1] - **يحافظون**» وقد اختلف الناس فى الخشوع، هل هو من فرائض الصلاة أم من فضائلها ومكملاتها على قولين : والصحيح[2] الأول، ومحله القلب .

﴿**والذين هم على صلواتهم يحافظون**﴾ . والمحافظة على الصلاة إقامتها والمبادرة إليها أوائل أوقاتها، وإتمام ركوعها وسجودها . والصلاة لا تصح إلا بشروط وفروض . وأذكر هنا حديث أبى هريرة فى الرجل الذى علمه النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة لما أخل بها فقال له : «إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء، ثم استقبل القبلة، ثم كبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، ثم افعل ذلك فى صلاتك كلها»، (خرجه مسلم) ، إلى آخره . وأضيف : إن الصلاة التى يريدها الله، ويحبها من عبده، هى أن تكون مصحوبةً دائماً بالتأنى والاطمئنان والتدبر .

وعن قوله تعالى: ﴿**الذين هم على صلاتهم دائمون**﴾ (٢٣ - المعارج) . أى على مواقيتها . وقال عقبة بن عامر : هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا يميناً ولا شمالاً . والدائم الساكن . وقال ابن جريج والحسن : هم الذين يكثرون فعل التطوع منها (القرطبى مجلد ١٨ ص٢٩١) . وبنفس المرجع ص٢٩٢ . الدوام خلاف المحافظة، فدوامهم عليها أن يحافظوا على أدائها لا يخلون بها، ولا يشتغلون عنها بشىء من الشواغل؛ ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها، ومواقيتها، وإقامة أركانها، ويكملوها بسننها وآدابها، ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم . فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات، والمحافظة على أحوالها .

---

(١) أى أن ما تضمنته هذه الآيات، وهى من جوامع الكلم - كان خلقه عليه الصلاة والسلام . وفى حديث آخر أنها سئلت نفس السؤال فقالت «كان خلقه القرآن» .

(٢) والكلام للقرطبى .

الفصل السابع

فضائل وآداب إسلامية

المبحث الأول

فضائل إسلامية

بند (١٤)

يقول تعالى: ﴿... لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون * فما يكذبك بعد بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ (الآيات الأخيرة من سورة «التين») . وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿و صوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات..﴾ (٦٤ - غافر) . ويقول - عزّ وَجَلَّ - ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ولهم أعين لا يبصرون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ (١٧٩ - الأعراف) .

وقيل ذلك فى الآيتين ١٧٥، ١٧٦ من نفس السورة ﴿واتل عليهم نبأ[١] الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتذكرون﴾ .

أقول : سبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله : خلق الإنسان كأحسن ما يكون الخلق، ثم ردّه وأرجعه إلى الدّرك الأسفل من الانحطاط، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فلهم جزاء غير مقطوع ولا ممنوع، ولا متبوع بالمن . هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة، فيكون الجزاء الأوفى : فالأرذلون فى الدرك الأسفل من النار، أما الصالحون ففى النعيم والرضوان . وعن آية غافر، أنقل هنا ما جاء فى نهاية الآية ٦١ من نفس السورة . ﴿إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ . (والآية ١٧٩ - الأعراف) تدق أجراس الخطر . خلق الله للناس القلوب والعقول لكى تدركَ وتعيَ وتميزَ، وخلق لهم السمع والبصر، لكن الغافلين منهم صاروا صمًا بُكمًا عميًا . أولئك كالأنعام، بل أضل من الأنعام .

لقد خلق الله الآيات : فى الآفاق، وفى الأرض والسموات، وفيما بينهما، وفى أنفسنا[٢] إلى آخره ولكن الغافلين، الذين انسلخوا عن الآيات، واتبعوا الهوى والشياطين وأخلدوا إلى الأرض؛ مثلهم كمثل الكلب، فى أسوأ أحواله، إنه يلهث دائماً، زجرته أم تركته . «متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد[٣]».

---

(١) رجل من بنى إسرائيل .

(٢) «وفى أنفسكم أفلا تبصرون» (٢١ - الذاريات) . (٣) ١٩٧ - آل عمران .

إن الإسلام لا يكبت الغرائز، ولا يهملها . ولا رهبانية فيه . إن الإسلام ومكارم الأخلاق مترادفان . وطريقته، وهي الوُسْطَى والمُثْلى – هى السمو بالغرائز والتعلق بالفضائل «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين»(١). وأساس الفضائل كلها فى عقيدة التوحيد، فى الإيمان بالله واليوم الآخر . وفى القصص القرآنى وفى سيرة الرسول وصحبه، والصالحين عامة عظة وعبرة . والاستقامة على صراط الله، هى السبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة .

بند (١٥)

وأبدأ بفضيلة التواضع : بقوله تعالى : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾(٢) . قال المولى – جل وعزّ – للملائكة: «اسجدوا لآدم فسجدوا» أى أطاعوا أمر الربّ، إلا إبليس اللعين، رأس الكفر، وكبير الشياطين. يقول تعالى فى سورة الأعراف(٣) : ﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ...﴾ إن الاستكبار (أو التكبر) هو الخطيئة الكبرى إنّ «المتكبر» هو الله وحده . يقول تعالى فى سورة الحشر ﴿هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ (٢٣ – ٢٤ الحشر) .

إن «المتكبر» أو «المستكبر» شيطان لعين، لكأنه يدّعى الألوهية(٤) فى الأرض؟! والصفة الحميدة المضادة لرذيلة التكبر هى «التواضع» .

يقول تعالى مخاطباً الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم * لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين﴾(٥) .

وفى البر بالوالدين يقول تعالى : ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا﴾(٦) .

ومن الحديث الشريف: «من تواضع لله رفعه الله» (لأبى نعيم فى الحلية عن أبى هريرة).

ويروى عن الصديق رضى الله عنه أنه بعد أن بويع بخلافة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكان يقيم بعيداً عن وسط المدينة، ورأى أصحابه أن هذا هو المكان الأنسب له ففعل،

---

(١) ٥٥ – الذاريات .
(٢) ٣٤ – البقرة .
(٣) الآيات ٢٢ وما بعدها .
(٤) انظر : تتكبر – ويتكبرون – و – استكبر، وما يشتق منها جميعها فى القرآن الكريم، وما جاء فيه من الوعيد للمتكبرين والمستكبرين والله «لا يحب المستكبرين» (٢٣ – النحل) .
(٥) ٨٧ – ٨٨ الحجر و٢١٥ الشعراء .
(٦) ٢٤ الإسراء .

وأسف جيرانه فى المنزل الذى غادره، ومما قالوه له : «ومن الذى يحلب لنا الغنيمات؟!» فكان جوابه : «أنا» رضى الله عنه وأرضاه! .

وهذه قصة، أو واقعة سمعتها فى أحد البرامج التى تقدمها الإذاعة المصرية المسموعة . رأى سفير إحدى الدول لدى حكومة اليابان - هو وزوجته، وكانا يسكنان - كالعادة - فى أحد الأحياء الراقية - رأيا رجلاً يابانياً يمر أمام منزلهما، ورجحا أنه «بستانى»؛ فعرضا عليه أن ينسق لهما حديقة المنزل . فاستجاب، وفعل . وجاء التنسيق رائعًا - فطلبا إليه أن يستمر فى عمله عندهما كبستانى، فاعتذر، ولما سألاه عن السبب؟ أجاب . إنه مرتبط بعمل آخر وسألاه ، ما هو ؟ قال : إنى أستاذ مادة إنشاء الحدائق وتنسيقها بالجامعة! نقل اليابانيون - مما نقلوا - عن العالم المتقدم أشياء كثيرة، فنهضوا وسبقوا من نقلوا عنهم، أما التواضع فلعله عادة متأصلة فيهم ؟! .

وأعود إلى الصديق وأقول : لا عجب أن يكون هذا خلقه . إنه التلميذ الأول فى مدرسة الرسول القائل: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» وفيه، عليه الصلاة والسلام يقول تعالى : «وإنك لعلى خلق عظيم»[(١)] . لقد تأدب عليه الصلاة والسلام بالقرآن . ولقد أجابت عائشة رضى الله عنها عندما سئلت عنه فقالت : «كان خلقه القرآن» وبالقرآن أدب عليه الصلاة والسلام أصحابه .

بند (١٦)

الحلم : كما فى مثل دارج - «سيد الأخلاق» ونقيض الحلم هو الحُمق «والحمق داء عضال». والحلم صفة من صفات الله تعالى؛ وجاء هذا فى آيات كثيرات من الذكر الحكيم مثل قوله تعالى : **﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم﴾**[(٢)].

وبالحلم وُصفَ إبراهيم عليه السلام فى قوله تعالى : **﴿فلما تبين له أنه**[(٣)] **عدو لله تبرأ منه، إن إبراهيم لأواه حليم**[(٤)]**﴾ ﴿.. إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾**[(٥)].

وكان نبينا عليه الصلاة والسلام مضرب المثل فى الحلم . ويروى أن يهودياً كان له على الرسول دين، فأمسك بتلابيبه، وأفحش فى القول فهم أحد الصحابة بالنيل منه، فقال عليه

---

(١) ٤ - القلم .

(٢) ٢٢٥ - البقرة (انظر - كذلك وعلى سبيل المثال - ٢٣٥ - ٢٦٣ منها، ١٥٥ - آل عمران .. إلى آخره. وفى آية آل عمران يقول تعالى : «إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنكم إن الله غفور حليم» .

(٣) الضمير عائد على والد إبراهيم .

(٤) - ١١٤ - التوبة .

(٥) ٧٥ هود ﴿إن تقرضوا الله قرضًا حسنًا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم﴾ (١٧ - التغابن) .

الصلاة والسلام : «كان الأولى بك أن تأمره بحسن الطلب، وأن تأمرني بحسن الأداء» (أو كما قال) . والغضب (كالحمق) هو أحد أضداد الحلم . ويروى أن أحد الناس طلب إلى النبى صلى الله عليه وسلم أن ينصح له، فقال له «لا تغضب» قال الرجل ثم ماذا؟ قال «لا تغضب» وكرر الرجل نفس السؤال للمرة الثالثة، وكان الجواب هو نفس الجواب (أو كما قال)؛ وفى حديث آخر «الغضب من الشيطان، والشيطان خُلق من النار، والماء يطفئ النار، فإذا غضب أحدكم فليغتسل» (ابن عساكر عن معاوية) وفى المثل «معظم النار من مستصغر الشرر». وكم من مشاكل، أو معارك أو حروب، نشبت بسبب كلمة أو عبارة نابية . وفى الحديث الشريف : «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب» (البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده - عن أبى هريرة) .

وأضيف : إن «الحلم» نعمة . والنعم تستوجب الشكر، بل وتستوجب الزكاة عنها . ومن هنا كان من واجب أهل الحلم، أن يؤدوا زكاة هذه النعمة، فلا تستفزهم حماقات الحمقى، بل يجب الدفع بالتى هى أحسن ﴿**ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم**﴾[1] - وهذا نوع من التعليم بالقدوة، فيصبح - أو قد يصبح - الأحمق والغضوب، أحسن حالاً، ويرجعان عن الغَىِّ إلى الرشد .

إن «الغضب ريح تهب فتطفئ سراج العقل» وهذا يعنى - مما يعنى - أن من يغلبه الغضب لا يحسن التصرف . وفى أحد البرامج فى الإذاعة المسموعة سمعت، أن فى أمريكا مصحات لعلاج الغضب . ومما يفعلونه أخذ صورة «للمريض» عند دخول المصحة، وأخرى عند الخروج منها وقد عوفى مما كان به، ولعل فى المقارنة بين الصورتين درسًا يُستَفاد به . وقد قرأت منذ زمن بعيد للكاتب الساخر المرحوم إبراهيم عبد القادر المازنى، مقالاً ينصح فيه من ينتابه الغضب - أن يخرج لسانه ويحركه وهو ينظر فى المرآة، ساخراً من نفسه، فيبرأ فى الحال مما به . وقد كان معاوية رضى الله عنه ممن يضرب بهم المثل فى الحلم . ومن أقواله - على ما أذكر : إنه إذا كان أحد اثنين بينهما خيط، فإنه لا ينقطع قط، فإذا شد الطرف الآخر، أرخى، وإذا أرخى شد . ويُنسب إليه - كذلك - أنه استُثير وهو فوق المنبر، فنزل عنه إلى الحمام حيث صب على نفسه الماء، وعاد إلى المنبر، وقال : إن الغضب من الشيطان إلى آخر الحديث الذى سبق ذكره .

ويقول تعالى فى صفات المؤمنين المتقين: ﴿**والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون**﴾ . ويقول : ﴿**إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون**﴾ .

وفى الحديث الشريف «عجبًا لأمر المؤمن . إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر، وكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً» (رواه أحمد ومسلم عن صهيب) .

(١) ٣٤ - فُصِّلَتْ .

أقول : إن المؤمنين محصنون ضد الأمراض، وخاصة ضد الأمراض النفسية . ولنا فى القرآن نور، ولنا فى الرسول صلى الله عليه وسلم - قدوة وأسوة، فى هذا الأمر وفى كل أمر.

بند (١٧)

العمل : يقول تعالى : **﴿وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾**(١) . وظاهر (الآية - ٥٦) - أنه - جل وعزّ - ما خلق الجن والإنس لشىء يعود عليه بالنفع، وإنما خلقهم لعبادته والعبادة نفع لهم . وهو - وكما تشير الآيتان التاليتان هو الرزاق، وهو يُطعِمُ ولا يُطْعَمُ، إنه المعطى الوهاب، وإنه القوى الذى لا يعجزه شىء .

وأقول مرة أخرى: إن ظاهر (الآية - ٥٦) تفيد أنه سبحانه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه. وأداة الاستثناء «إلا» تفيد أنه ما خلقهم إلا لهذا، ولهذا فقط . ولكن : كيف، والإسلام لا رهبانية فيه . إن هذا يعنى - فيما أذهب إليه - أن العمل نفسه يجب أن يكون - وفى أى موقع من مواقعه - عبادة . ولن يكون عبادة إلا إذا كان عملاً «صالحًا» - ولا تفاضل بين هذه الأعمال الصالحة إلا بالكمِّ والجودة معًا، أى بالكثرة فى الإنتاج، وإتقان هذا الإنتاج، ولا تفاضل بين العاملين إلا بالتقوى . «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»(٢) . و «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»(٣). وفى الآية الكريمة (٧٥ - طه) **﴿ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى﴾** .

وفى آيات كثيرة من الكتاب الكريم نجد أن الله - سبحانه وتعالى - يَعِد « **الذين آمنوا وعملوا الصالحات**» أو ما يحمل هذا المعنى، ولو بلفظ أو ألفاظ أخرى،(٤) - يعدهم خيرًا .

من ذلك قوله تعالى : **﴿إن الذين أمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا * خالدين فيها لا يبغون عنها حولا﴾**(٥) .

وأضيف هنا هذه الأحاديث الشريفة :

---

(١) ٥٦ - إلى ٥٨ الذاريات .

(٢) لأحمد فى مسنده، وآخرين - عن أبى ذر .

(٣) للبيهقى فى شعب الإيمان عن عائشة .

(٤) مثل قوله تعالى : «بلى من أسلّم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه» (١١٢ - البقرة) .

(٥) (١٠٧ - ١٠٨ الكهف) وقوله : «وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحًا فأولئك لهم جزاء الضِّعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون» (٣٧ - سبأ) .

١ – «ما أكل أحد طعامًا قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده» (أحمد فى مسنده والبخارى – عن المقدام) .
٢ – «ما أكل العبد طعامًا أحب إلى الله من كد يده ومن بات كالاً من عمله بات مغفوراً له» (ابن عساكر، عن المقدام بن معد يكرب) .
٣ – «ليتكلف أحدكم من العمل ما يُطيق، فإن الله تعالى لا يمل حتى تملّوا، وقاربوا وسددوا»(١).

أقول : فى الحديث الشريف «ومن بات كالاً من عمله بات مغفوراً له» فيه ترغيب فى العمل الصالح، سواء كان عملاً ذهنيًا أم يدويًا . وعلينا أن نعمل ما وسعنا الجهد، وتحملت الطاقة . والجزاء على ذلك ما مثله جزاء، وهل يطمع العامل فى أكثر من أن يبيت وقد غفر الله له ذنوبه؟ إن هذا جدير بأن يُذهب عنه التعب، ويملأ نفسه بالرضا، وقلبه بالسعادة . فإذا كان هذا شأنه دائمًا فهو من سعداء الدنيا والآخرة جميعًا . وهذا ما وعد به الله عباده الصالحين .

هذا هو باب الرحمة الواسع، هذا هو باب الجنة، وفيه، وإليه، يجب أن يتنافس المتنافسون.

وموضوع «العمل» يثير قضايا كثيرة، منها : –

أن يكون العامل المناسب فى المكان المناسب . وهذه قاعدة مقررة ولا جدال حولها . وإذا قيل بأن هذا من واجبات الدولة، فهو قول صحيح . لكنها كثيراً ما تعجز، بل إنها قد لا تحاول، بل إنها قد تفعل العكس . ففى مصر مثلاً يوضع المعينون – أحيانًا – حيثما اتفق . وما أكثر الأماكن المزدحمة «بالعاملين الذين لا يعملون» (وهذا ما يسمى بالبطالة المقنّعة) – والخاسر فى النهاية هو الشعب .

إنى أدعو إلى حب العمل . وحب الآلة والأداة – وحبهما – بداهة – يؤدى إلى المحافظة عليهما – وإنى أدعو إلى عدم الضيق بوقت العمل . وهذا كله لا يتأتى إلا مع الحب – حب العمل؛ فهل نفعل ؟ إننا لن نستطيع، وعلى الوجه الأكمل، إلا عندما تكون الحرفة، أو المهنة – هى – فى نفس الوقت – الهواية المتمكنة من القلب .

وعلى العامل (الطموح) أن يفعل، وأن يسعى، وأن يبذل الجهد والجهد لكى يكون فى العمل الذى يحب . إننا لا نحيا مرتين . وإننا نسىء إلى أنفسنا، بل ونضيع حياتنا إذا استسلمنا لظروف لا تلائمنا . والأبواب كثيرة، منها العمل على الحصول على مؤهلات تؤدى بنا فى النهاية إلى ما نحب، ومنها تعلم لغة أو أكثر، ومنها الانتساب إلى مراكز التدريب . وعلى الدولة أن تشجع وتُرغِّب . ففى صلاح الفرد، صلاح الأسرة والمجتمع . وهذه هى رسالة

---

(١) لأبى نعيم فى الحلية، ونص الحديث متفق مع قوله تعالى «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها...» (٢٨٥ –البقرة).

الحكومات الرشيدة . هذا وإلا سيضيع المستقبل، كما ضاع الماضى : فى الحرث فى البحر! .
وأعود إلى مسئولية الفرد المسلم، فكل تقصير منه نحو نفسه، ونحو مجتمعه، ونحو أمته سيسأل عنه أمام الله . فإذا كان العمل الصالح، وبذل الجهد فيه يغفر الذنوب، فإن الكسل، أو التقصير، ينشئها ويزيدها .

بند (١٨)

الصبر : الصبر أحلى ما يتحلى به المرء، وأعظم - أو من أعظم - ما يتصف به وهو أجدر شىء بالطلب والحرص؛ أو هو من أجدرها بذلك .

وفى سورة «العصر»[(١)].. وعلى سبيل المثال - يقول تعالى: ﴿**والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾ . ولندرة الصبر الحقيقى، والصابرين الحقيقيين - عبرت الآية الكريمة بأن الناس فى خسر (أى فى هلاك) - وجاء الباقون على سبيل الاستثناء . وهؤلاء الناجون هم الذين آمنوا (الإيمان الحقيقى اليقينى) - (وعملوا)[(٢)] الصالحات وتواصوا بالحق) ، (والحق قيمة[(٣)] عليا تعنى الخير كله) «**وتواصوا بالصبر**» بشعبه الكثيرة، ومعانيه العديدة والعميقة، التى سأحاول ذكر بعضها بعد .

إن كلمة «التواصى» تعنى التفاعل، أى تبادل الفعل مع عديدين . إنه «كالنصح» و«الدين النصيحة» . وأول ما يوصى الإنسان، يوصى نفسه . وعلى المرء أن «يتكلف» المكارم حتى تصبح عادة متأصلة عنده، وطبعاً فيه، وبعضاً منه . إنها كلمات على اللسان، وإيمان فى القلب، وتصديق بالعمل، والدأب فيه، وبلا انقطاع . والصبر ضرورى فى حياتنا اليومية . إننا لا نصنع الظروف التى تحيط بنا، ولا نختار الناس الذين نجاورهم، أو نزاملهم، أو نصادفهم فى الطريق أو فى غيره . ونحن نرتبط بروابط عديدة، منها روابط الأسرة أو الحرفة أو المهنة أو غيرها . ونحن لا نستطيع أن «نصنع» الناس كما نحب . فلنبدأ بأنفسنا، ولنحاول أن تكون، كما يجب أن تكون، وفى المقدمة، وفى قمة ما نحاوله : «التحلى بالصبر» .

وإذا كان هناك ما لا نستطيع أن نصنعه أو نحاوله، فهناك «القضاء والقدر» وأمرهما بيد الله . والدعاء يقول : «اللهم إنا لا نسألك ردَّ القضاء، ولكنا نسألك اللطف فيه . ادفع عنا الأذى إنك على كل شىء قدير» . ومن الأدعية القرآنية : ﴿**ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين**﴾[(٤)] .

---

(١) مكية . وآياتها ثلاث . ورقمها فى المصحف ١٠٣ .
(٢) وفى فقرة سابقة تكلمت عن «العمل، والعمل الصالح» .
(٣) - وهو - أيضاً - من أسماء الله .
(٤) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة، وهى الأخيرة منها .

وفى الآية (٣٩ من سورة الرعد)، يقول تعالى : ﴿**يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب**﴾ وفى أوضح التفاسير عن هذه الآية : « **يمحو الله ما يشاء** » - ينسخ ما يشاء نسخه، « ويثبت » ما يشاء إثباته مكان الذى نسخ؛ أو يمحو ذنب المذنبين إذا أنابوا، وكفر الكافرين إذا آمنوا «ويثبت» لهم الحسنات مكان السيئات . والمحو والإثبات عام فى الرزق والأجل، والسعادة، والشقاوة . فقد أخرج ابن سعد، وغيره عن الكلبى أنه قال : يمحو الله تعالى من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، وقد ذهب شيخ الإسلام «زكريا الأنصارى» إلى صحة ذلك . وقد ورد أن الصدقة وبر الوالدين وصلة الرحم تنسأ فى الأجل(١) . وقد كان عمر رضى الله تعالى عنه يقول، وهو يطوف بالبيت : اللهم إن كنت كتبت على شقوة أو ذنبًا فامحه، واجعله سعادة ومغفرة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب . حتى القضاء الأزلى يمكن محوه وتغييره؛ أليس هو الفعال لما يريد؟! وليس أدل على المحو والإثبات مما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى القنوت؛ فإن فيه : «وقنى شر ما قضيت» ولا ينقلب الشر خيرًا إلا بمحوه وتغييره، وإثبات الخير مكانه . ولولا جواز المحو والتبديل وإمكانه لأصبح الدعاء لغوًا، لا طائل وراءه . وقد قال تعالى : ﴿**ادعونى أستجب لكم**﴾ . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لا ينفع الحذر من القدر، ولكن الله تعالى يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر .

﴿**وعنده أم الكتاب**﴾ - أصله الذى لا يتغير، وهو علم الله تعالى الأزلىّ اللدنى الذى لا يدركه محو ولا تبديل ولا تغيير . (انظر الآية ٢٢ من سورة البروج)(٢) . وأضيف : إن علينا أن ندعو الله، وأن نكثر من الدعاء . فالدعاء مخ العبادة . وعلينا أيضًا، وقبل ذلك أن نجاهد ونجاهد لنكون من المتقين ﴿**.. إنما يتقبل الله من المتقين**﴾(٣) .

والنصوص القرآنية والنّبوية فى «الصبر» كثيرة جدًّا . مع ملاحظة أنه قد جاء فى التنزيل الحكيم آيات كثيرة تعنى «الصبر»، وليس فيها لفظ «الصبر» مثل قوله تعالى : ﴿**فلعلك باخع(٤) نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا**﴾، وقوله تعالى : ﴿**فلعلك باخع(٥) نفسك ألا يكونوا مؤمنين**﴾ .

ومثل قوله تعالى : ﴿**فلا تك فى ضيق مما يمكرون**﴾(٦) .

---

(١) أى تؤخره، والمعنى أنها تطيل العمر .

(٢) «بل هو قرآن مجيد * فى لوح محفوظ» (٢١ ، ٢٢ من السورة) .

(٣) ٢٧ - المائدة .

(٤) (٦ - الكهف) . وفى المعجم الوسيط : بخع نفسه = قتلها غيظًا أو غمًّا، ومنه قوله تعالى : «فلعلك باخع نفسك على آثارهم ....» .

(٥) (٣ - الشعراء) .

(٦) (١٢٧ - النحل) .

وقوله تعالى : ﴿وإن كان كبر عليك إعرا ضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ...﴾[1] . إلى آخره - والمخاطب فى هذه الآيات هو رسولنا عليه الصلاة والسلام - والمراد أمته .

أعود وأقول : إن ما ورد من نصوص قرآنية ونبوية فى «الصبر» تكاد تربو على الحصر . وأبدأ ببعض النصوص النبوية، ففى بعضها إشارات إلى تعدد صور «الصبر» : «الصابر الصابر عند الصدمة الأولى» (للبخارى فى التاريخ عن أنس) . «الصبر ثلاثة : فصبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر على المعصية . فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض؛ ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجتين كما بين تخوم الأرض إلى منتهى الأرضين السبع؛ ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجتين كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش مرتين» (ابن أبى الدنيا فى فضل الصبر، وأبو الشيخ فى الثواب - عن علىّ) .

«الصبر رضًا» (الحكيم وابن عساكر عن أبى موسى) «الصبر عند الصدمة الأولى والعبْرة لا يملكها أحد صبابة[2] المرء على أخيه» (السعيد بن منصور فى مسنده عن الحسن - مرسلاً) . «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد» . (للديلمى فى مسند الفردوس - عن أنس) «الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله» (لأبى نعيم فى الحلية عن ابن مسعود) «الصبر والاحتساب أفضل من عتق الرقاب، ويدخل الله صاحبهن الجنة بغير حساب» (للطبرانى فى الكبير عن الحكيم بن عمير الثمالى)[3] «والاحتساب»، القول : « حسبنا الله ونعم الوكيل» (١٧٣ - آل عمران) .

وللصبر - فى اللغة - معانٍ كثيرة : هذه بعضها : صبر، يصبر، صبراً = تجلد ولم يجزع . وصَبَّر = انتظر فى هدوء واطمئنان . ويقال : صبر على الأمر = احتمله ولم يجزع . وصبر عنه = حبس نفسه عنه . وصبّر نفسه = حبسها وضبطها . ومنه قوله تعالى : ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه﴾ ... أصْبَرَ الطعامُ ونحوُه = صار مراً . وصابرهُ مصابرة = غالبه فى الصبر . قال تعالى : ﴿اصبروا و صابروا ورابطوا﴾ . وصَبَّرَ البُرَّ = صبره . وصَبَّر الجثة = صنع فيها ما يقيها الفساد إلى وقت مّا؛ وكانوا - قديماً - يستعملون الصبر فى ذلك (مولّد) . واصطبر = اصبر . قال تعالى: ﴿فاعبده واصطبر لعبادته﴾ . و ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾ . تَصَبَّر = حمل نفسه على الصبر . وتصبر = تكلف الصبر . والتَّصبيرة = ما يتناوله الجائع يستعين به على الصبر حتى ينضج الطعام أو يحين وقته (محدثة) وهى اللُّهْنَة والسلْفة .

---

(١) (٣٥ - الأنعام) .
(٢) الصَّبابة = الشوق، أو رقته، أو حرارته - فهو : صَبٌّ، وهى : صَبَّة .
(٣) هذه الأحاديث كلها عن الفتح الكبير للنبهانى جـ٢ ص٢٠٠، ٢٠١ .

والصبَّار = الشديد الصبر . قال تعالى :﴿إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ . والصَّبَّارُ = نبات صحراوى عصارته شديدة المرارة، وأوراقه عريضة ثخينة دائمة الخُضرة، كثيرة الماء، فيها أشواك . ومنه نوع يثمر ثمرةً حلوة ذات أشواك تعرف فى مصر بالتين الشوكى . والصُّبَّار = حمل شجرة شديدة الحموضة ويعرف بالتمر الهندى ... والصبور = المعتاد الصبر القادر عليه و«الصبور» اسمٌ من أسمائه تعالى، ومعناه أنه لا يعاجل العصاة بالانتقام مع قدرة عليه .

فى العرض المتقدم لبعض ما جاء عن الصبر فى اللغة – ما يشير إلى أنه مر وشديد، ولا يتحمله إلا أولوا العزم . ومن هنا كان الأجر عليه كبيراً فى الدنيا والآخرة . وتؤكدُ الآيات التالية المعنى المتقدم . فطبيعة الإنسان أدنى إلى الجزع عند العسر، والمنع والشح عند اليسر . أما العلاج فهو فى العبادة وأدائها كما يجب أن تُؤَدَّى . يقول تعالى : ﴿إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين* الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربهم مشفقون* إن عذاب ربهم غير مأمون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم بشهاداتهم قائمون * والذين هم على صلاتهم يحافظون * أولئك فى جنات مكرمون﴾(1) .

(الآيات ١٩ – ٢٠ – ٢١) (مما تقدم من آيات كريمة) – تبين لنا طبيعة الإنسان، الهلوع الجزوع إذا أصابه شر – هذا هو الداء . وإذا كان «الصبر» ونعيمه دنيا وأخرى هو القمة – فنقيضه، (وهو الهلع والجزع) فى الدرك الأسفل . ولانتشال الإنسان وإنقاذه من هذا الدرك إلى «الصبر» فسبيله هو ما جاء فى الآيات – ٢٢ وما بعدها . فالناجون والمكْرَمون هم المصلون: المداومون على الصلاة، والمحافظون عليها من كل شىء يشوبها كالرياء أو غيره . هذه الصلاة – صلاة الخشوع والإجلال لله، لابد أن يواكبها أداء الحق المعلوم « للسائل والمحروم»، ولابد أن يصاحبها كذلك «الإيمان بالغيب والتصديق بيوم الدين» (بالبعث والحساب، والثواب والعقاب) – إنهم «من عذاب ربهم مشفقون». و« عذاب ربهم غير مأمون» – إنه إذا كان أحد الصحابة الأجلاء يقول : إنه إذا كانت إحدى قدمى فى الجنة، والأخرى خارجها، ما أمنت مكر الله ! فما أجدرنا أن نقتدى به . والفضائل التى ترتقى بالمسلم، وتؤهله لنعيم الدنيا والآخرة (وهذا النعيم فى الصبر) – هذه الفضائل كثيرة – أشارت الآيات إلى بعضها – وهى المحافظة على الفروج – وهو أمر عظيم – والزواج هو الطريق الشرعى إلى هذه المحافظة . وأداء الأمانات واحترام العهود والوعود من أركان الدين . وكذلك أداء الشهادات على وجهها، فإن كتمانها ذنب كبير . إن الإسلام يعترف بمادية الإنسان وبسلطان الغرائز، وإنه يسمو بها، بالطريق الذى اختاره . إنه الطريق المستقيم وفى ذلك يقول تعالى فى فاتحة الكتاب :﴿اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم * غير المغضوب عليهم * ولا الضالين﴾ .

---

(1) الآيات من ١٩ – ٣٥ من «المعارج» .

وأعود إلى الأحاديث السابق ذكرها : الصابر، والصابر بحق، هو من يتلقى الصدمة المفاجئة بالتسليم والصبر. والجزاء على هذا عظيم ومبين فى الحديث . والممنوع والمحرم هو أن نقول أو أن نفعل ما لا يرضى الرب . لقد حزن نبينا عليه الصلاة والسلام على ابنه إبراهيم الذى رزق به بعد أن تقدم به العمر وقد دمعت عيناه، ومما قاله : إنا عليك يا إبراهيم لمحزونون. والحزن، والعبرات (الدموع) تملأ العيون وتجرى على الخدود مما لا نملكه .. وأقول مرة أخرى إن المحرم هو الصياح والنياح، وقيام النائحة، أو النادبة بذكر محاسن الميت مما يهيج النساء ويدفعهن إلى ماحرمه الرسول القائل: «ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية» (أحمد فى مسنده عن أبى هريرة) .

والصبر على الطاعة : الصبر على الصلاة وسائر التكاليف ليس بالأمر الهين وفى هذا يقول تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة * وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين * الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون**﴾[1] .

والصبر على المعصية : إن حب الشهوات، وتسلط النزوات، وتحكّم الأطماع، غرائز فى البشر، فمن طاوعها فهو الشقى، ومن قاومها وصبر عنها هو السعيد . وقصة امرأة العزيز مع نبى الله يوسف عليه السلام معروفة .. وفى حديث شريف إشادة وتزكية لرجل عرضت نفسها عليه امرأة ذات جمال، فقال : إنى أخاف الله ! .

ومن الأحاديث التى سبق ذكرها قوله عليه الصلاة والسلام : «الصبر الرضا» كلمتان بسيطتان، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان[2].

وفى ذات هذا الكتاب «مع الله ...» بند بعنوان «فى سعادة الدنيا» وخاتمة ما جاء فيه أن سعادة الدنيا فى الرضا، وهذا الرضا هو الجسر إلى سعادة الآخرة أى أن فى الصبر (وهو فى الحديث مرادف للرضا) سعادة الدارين . وهنيئًا للراضين، وهنيئًا للصابرين – والأحاديث الأخرى واضحة، مما يغنى عن التعليق .

بند (١٩)

العلم : حفل[3] القرآن الكريم والسنة الشريفة بالعلم والحض على طلبه والبذل من أجله؛ كما أنه كرّم العلماء وأعلى منزلتهم فى أمتهم وفى دنياهم وآخرتهم . وفى مطلع سورة القلم قال تعالى : ﴿ **ن * والقلم ومايسطرون...**﴾[4] إنه – سبحانه وتعالى يقسم هنا بالقلم، رمز الكتابة والعلم، وهو تكريم كبير للعلم، وحملة العلم، والساعين فى طلبه، والعاملين به . ولفظ «اقرأ ..» أول ما نزل من كتاب الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم . والقراءة فى

---

(١) (٤٥ – ٤٦ البقرة) .

(٢) كفة الحسنات، حين توزن الأعمال يوم القيامة .

(٣) حفَل الشىء والأمر، وبه : عُنى وبالى .

(٤) الآية الأولى من السورة .

الإسلام باسم الله، وليس تحت أى اسم، أو هدف آخر ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾[1] . والعلماء - كما جاء فى الحديث الشريف - ورثة الأنبياء[2] . و﴿هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[3] . ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾[4] .

وأنقل - هنا - بعضًا من بعض الآيات التى جاء فيها لفظ «العلْم» : قال تعالى : ﴿والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يتذكر إلا أولوا الألباب﴾(٧ - آل عمران). وقال :﴿شهد الله أنه لا إلّه إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط﴾ (١٨ - آل عمران). وقال : ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ (٢٥٢ - الأعراف) . وقال: ﴿وإنه[5] لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (٦٨ - يوسف) وقال: ﴿نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم﴾ (٧٦ - يوسف) . وقال :﴿قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾[6] (٤٣ - الرعد) . وقال :﴿قال الذين أوتوا العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين﴾ (٢٧ - النحل) - وقال :﴿قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» (٨٥ - الإسراء) . وقال : ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا...﴾ (١٠٧ - الإسراء) . وقال: ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به ...﴾ (٥٤ - الحج) .. إلى آخره فإذا تابعنا مشتقات كلمة «العلم»، وما يتضمن معنى العلم، فإن الأمر يربو على الحصر .. ولنأخذ فى ذكر بعض الأحاديث الشريفة فى العلم والعلماء :

قال عليه الصلاة والسلام : «علْمٌ لا يُقَالُ به كَكَنْز لا يُنْفَق منه» (ابن عساكر عن ابن عمر). وقال : «العالم إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شىء، وإذا أراد أن يكثر به الكنوز هاب من كل شىء» (للديلمى فى مسند الفردوس عن أنس) وقال : «العلم أمين الله فى الأرض»، (ابن عبد البر فى العلم عن معاذ) . وقال «العالم سلطان الله فى الأرض، فمن وقع فيه فقد هلك» (للديلمى فى مسند الفردوس عن أبى ذر) وقال : «العالم والعلم والعمل فى الجنة، فإذا لم يعمل العالم بما يعلم كان العلم والعمل فى الجنة وكان العالم فى النار» (للديلمى فى مسند الفردوس عن أبى هريرة) . وقال : «العالم والمتعلم شريكان فى الخير، وسائر الناس لا خير فيه» (للطبرانى فى الكبير عن أبى الدرداء) . وقال «العلم أفضل من العبادة، وملاك الدين الورع» (للخطيب وابن عبد البر فى العلم عن ابن عباس). وقال: «العلم أفضل من العمل، وخير الأعمال أوسطها»...إلى آخر الحديث» (للبيهقى فى شعب الإيمان عن بعض الصحابة). «العلم ثلاثة : كتاب ناطق، وسنة ماضية، ولا أدرى» (للديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عمر).

---

(١) الآيات ١ - ٥ من سورة «العلق» .
(٢) ابن النجار عن أنس (النبهانى ج٢ ص٢٥١) .
(٣) (٩ - الزمر) .
(٤) (٢٨ - فاطر) .
(٥) الضمير عائد على يوسف عليه السلام .
(٦) أى علماء أهل الكتاب الذين أسلموا، وقيل : المراد الله تعالى. وقيل : هو جبريل عليه السلام .

«العلم ثلاثة، وما سوى ذلك فهو فضل : آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة» (لابن ماجه وغيره عن ابن عمرو)؛ «العلم حياة الإسلام، وعماد الإيمان، ومن أتم علمًا أتم الله له أجره، ومن تعلم فعمل علمه الله ما لم يعلم» (أبو الشيخ عن ابن عباس) . «العلم خزائن ومفتاحها السؤال، فَسَلُوا يرحمكم الله، فإنه يؤجر فيه أربعة : السائل، والمعلم، والمستمع، والمحب لهم» (لأبى نعيم فى الحلية عن على)؛ «العلم خليل المؤمن، والعقل دليله، والْعَمَلُ قيِّمُهُ، والحلم وزيره، والصبر أمير جنوده، والرفق والده، واللين أخوه» (للبيهقى فى السنن - عن الحسن مرسلاً)؛ «العالم من يعمل بعلمه» (أبو الشيخ عن عباده - من حديث طويل)؛ «العلم دين، والصلاة دين، فانظروا عمن تأخذون هذا العلم، وكيف تصلون هذه الصلاة، فإنكم تسألون يوم القيامة» (للديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عمر)؛ «العلم علمان فعلم فى القلب، فذلك العلم النافع، وعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم» . (الحكيم عن الحسن مرسلاً)؛ «العلم فى قريش، والأمانة فى الأنصار» (الطبرانى فى الكبير عن ابن جزء)؛ «العلم ميراثى، وميراث الأنبياء من قبلى» (للديلمى فى مسند الفردوس عن أم هانئ)؛ «العلم والمال يستران كل عيب، والجهل والفقر يكشفان كل عيب» (للديلمى فى مسند الفردوس - عن ابن عباس)؛ «العلم لا يحل منعه» (للديلمى فى مسند الفردوس - عن أبى هريرة)؛ «العلماء أمناء الرسل، ما لم يخالطوا السلطان، ويداخلوا الدنيا، فإذا خالطوا السلطان وداخلوا الدنيا، فقد خانوا الرسل فاحذروهم» (الحسن بن سفيان - عن أنس)؛ «العلماء أمناء الله على خلقه» (القضاعى وابن عساكر عن أنس)؛ «العلماء أمناء أمتى» (للديلمى فى مسند الفردوس عن عثمان)؛ «العلماء قادة، والمتقون سادة، ومجالستهم زيادة» (ابن النجار عن أنس) ، «العلماء مصابيح الأرض وخلفاء الأنبياء، وورثتى وورثة الأنبياء» (لابن عَدىً فى الكامل عن على)؛ «العلماء ورثة الأنبياء، يحبهم أهل السماء، وتستغفر لهم الحيتان فى البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة» (ابن النجار عن أنس).. (النقل عن النبهانى مادة علم - ص٢٣١ وما بعدها وص٢٥ وما بعدها وعنه مادة ط ص ٢١١) .

«طالب العلم بين الجهال كالحى بين الأموات» (العسكرى فى الصحابة عن أبى سنان مرسلا) . «طالب العلم تبسط له الملائكة أجنحتها رضًا بما يطلب» (ابن عساكر عن أنس) - «طالب العلم طالب الرحمة، طالب العلم ركن الإسلام، ويُعْطى أجرُه مع النبيين» (للديلمى فى مسند الفردوس - عن أنس)؛ «طالب العلم لله أفضل عند الله من المجاهد فى سبيل الله» (للديلمى فى مسند الفردوس - عن أنس)؛ «طالب العلم لله كالغادى والرائح فى سبيل الله» (للديلمى فى مسند الفردوس - عن عمار وأنس) .

أقول : هذا قليل من كثير مما ورد فى الكتاب والسنة عن العلم ومكانه فى الإسلام وعن الأجر والثواب عليه دنيا وأخرى .

وعن «العلم والجهل، وقد مَرت أحاديث شريفة فى ذلك - عنهما - يقول الشاعر العربى :

العلم يرفع بيتًا لا عماد له .·. والجهل يهدم بيت المجد والشرف

وهذا المعنى قائم على تجربة ومشاهدة تتكرران كثيراً .

هذا شأن العلم فى الدنيا، وفى الأحاديث الشريفة السابق ذكرها نصوص كثيرة عن شأنه وشأن صاحبه فى الآخرة، إذا طلبه لوجه الله، وعمل به لوجه الله، ونشره بين الناس - وبقدر الطاقة - لوجه الله . والعلم خليل المؤمن وَنِعْمَ الخليل الذى يُرجى منه كل خير، وليس فيه شر قط.

وأقول : هناك ارتباط وثيق بين التثبت والتمكن والرسوخ فى العلم، والعقول السليمة المتميزة فى وعيها وإدراكها، والحكمة أم الخير كله، والتى يُؤتيها الله من يشاء - هذه كلها فروع لشجرة واحدة، أصلها ثابت وفرعها فى السماء. تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .. والله يشهد بأنه - جل وعز - وملائكته «وأولى العلم» هم القوامون بالقسط، والعدل بين سائر الخلق - وهذا تكريم من الله للعلماء، ماله من مثيل . وأولوا العلم والورع هم الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع من خشية الله، وهم الذين إذا ذُكرَ الله وجلت قلوبهم، وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا، وعلى ربهم يتوكلون، وهم الذين إذا تلى عليهم القرآن يخرون للأذقان سجداً لجلال الله . والعالم والعلم والعمل فى الجنة مادام العالم يعمل بما يعلم . والعالم والمتعلم شريكان فى الخير دون سائر الناس، وفى هذا إدانة للجهل ما بعدها إدانة، وفيه حفز للهمم لطلب العلم الذى كتب الله لطالبه لوجه الله ثوابا أكثر من ثواب المجاهد، وأكثر من ثواب العابد . ومن العلم أن يقول الإنسان «لا أدرى» ومن قال : لا أدرى فقد أفتى . وهذا تحذير من ادعاء العلم . والعلم حياة الإسلام، وعماد الإيمان . ومن تعلم فعمل علمه الله ما لم يعلم، أى زاده علمًا من لدنه، وفى أحد الأحاديث حث على السؤال، والسائل والمجيب والمستمع والمحب لهم كلهم مأجورون. ومجالس القرآن والعلم والفقه تحفها الملائكة ..

أعود وأقول : إن الأمم المتقدمة، الغنية القوية، ما كانت لتكون كذلك إلا بالعلم، أو بعبارة أدق بعوامل عدة على رأسها العلم . والعلم يأتى بالتعلم . ولا تقدم لأمّة تتفشى فيها الأمية . وعندى اهتمام خاص بالمرحلة الأولى، مرحلة التعليم الأساسى، ولى فى ذلك كتاب صدر منذ حوالى نصف قرن، وكان ثمرة لتكليف من «وزير المعارف» وقتئذ . وقبل ظهور هذا الكتاب بحوالى عشرين عامًا، اهتمت الدولة «بالتعليم الإلزامى» (أى الإجبارى) - وكان على رأس الجهاز القائم على أمر هذا التعليم، رجل مجاهد كبير - عرف السجن والنفى قبل ذلك فى سبيل مصر واستقلالها هو المرحوم «الشيخ عبد العزيز جاويش» . ولو كانت لنا سياسة ثابتة فى هذه المسألة الأساسية، لقضينا على الأمية وآثارها الوبيلة من زمن بعيد، ولصرنا فى صف الدول الناهضة المتقدمة . وحكامنا منذ حركة الضباط عام ١٩٥٢ يتحملون الجزء الأكبر من المسئولية[(١)]، كانت البداية مع المغامرات التى جرنا إليها أعداؤنا، والتى فقدنا فيها الرجال والمال والتراب الغالى الذى ما زال بعضه فى أيدى العدو حتى اليوم (ومنه القدس والمسجد الأقصى)!

إن الأمية المتفشية فى مصر وغيرها كانت[(٢)] وما زالتْ تؤرقنى .

---

(١) حكموا حتى الآن ٤٢ عامًا .　　(٢) انظر فى ذلك للمؤلف «صفحات من اليوميات» (ص٣٥ وما بعدها) .

في تحقيق بالصفحة السابعة من أهرام ١٩٩٤/٧/٢ : التحقيق بعنوان (صدق أو لا تصدق) ١٢ مليون طفل أمي في مصر ٦٥٪ من أطفال مصر أميون . ونسبة الأمية في مصر أعلى بكثير جداً بين الإناث[1] منها بين الذكور .

أعود مرة ثالثة أو رابعة وأذكر بما أثبته عن مكان العلم في الإسلام وإذا كان هذا هو دستورنا، القائم على كتابنا وسنة نبينا، فلماذا، ومن أين جاء سوء أحوالنا، هذه الأحوال التي تسيء إلى ديننا؟! أما الجواب فهو في أننا أدرنا إلى ديننا ظهورنا منذ وقت مبكر، منذ استبد الولاة وآثروا الدنيا على الآخرة . وفي الحديث الشريف الذي مرّ ذكره أن «العلماء أمناء الرسل، ما لم يخالطوا السلطان، ويداخلوا الدنيا، فإذا خالطوا السلطان وداخلوا الدنيا، فقد خانوا الرسل فاحذروهم»! . يا للخسارة ! إن وسائل الإعلام والاتصال، وتأثيرها الآن واسع وخطير، هذه الوسائل في يد الحكام، وصنائعهم في الدول المتخلفة، ونحن - مع الأسف - جزء من هذه الدول المتخلفة . لكن الظلام أخذ يطوي سدوله، وأنوار الفجر والإشراق تملأ الآفاق - ونحن من المتفائلين .

ونسأل الله أن يسدد على طريق العلم الخالص لوجهه خطانا، وأن يأخذ بأيدينا إلى سواء السبيل! .

المبحث الثاني

آداب إسلامية

آيات من سورتي الإسراء ولقمان

بند (٢٠)

يقول تعالى (من سورة الإسراء - الآيات ٣٦ - ٣٩) : ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا * ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا * كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها * ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلٰها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا**﴾ .

ومن (سورة لقمان - الآيات - ١٢ - ١٩) - يقول تعالى : ﴿**ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم * وو صينا الإنسان بوالديه حملته * أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير * وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما و صاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون * يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أوفي السموات أو في الأرض**

---

(١) وأظنه شاعر النيل حافظ إبراهيم يرحمه الله هو القائل (من قصيدة طويلة) .

الأم مدرسة إذا أعددتها ∴ أعددت شعباً طيب الأعراق

يأتي بها الله إن الله لطيف خبير * يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر وا صبر على ما صابك إن ذلك من عزم الأمور * ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور * واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ .

أقول : يقول الله تعالى - وهو يعظنا، وينبهنا إلى ما فيه الخير لنا في دنيانا وأخرانا - إنه سبحانه وتعالى - هو خالقنا ورازقنا، ومن نعمه العظيمة علينا نعم السمع والبصر والفؤاد - ويكفي لكي نقدر جلال هذه النعم وجمالها أن ننظر إلى من حرم منها أو من بعضها . أرأيت إلى الأصم الأبكم؟! أرأيت إلى الأبله؟! إن تذكرهم، وتذكر أحوالهم، وعذابهم، وعذاب ذويهم وعذاب المجتمع بهم، يغني عن أي كلام! إن الله - جل وعز - غني عنا - « **ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه**»[1] - وهو بنا - الرءوف الرحيم، اللطيف الخبير . وإنه يريد منا أن نوظف نعمه علينا فيما يرضيه عنا، وهذا التوظيف، وعلى هذا النحو - هو - في نفس الوقت - يفيدنا، ويفيد القريبين والبعيدين عنا . فإن لم نفعل، فما أثقل مسئوليتنا ! علينا ألا نتحدث إلا بما نعلم، وليس هذا فحسب، وإنما يجب ألا يكون في هذا الحديث أي إساءة لسوانا . وعلينا - كذلك، ودائما، ألا نصغي للغو، ولا للغيبة، وإلا كنا شركاء في الإثم . والله يقول : **﴿قد أفلح المؤمنون* الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون﴾**[2] ويقول : **﴿ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ... !﴾**[3] .

إن السمع والبصر والفؤاد قد خُلقتْ لوظائف، وعلينا أن نوجهها إلى هذه الوظائف، وأن نردّها عما عداها مما حرمه الله . ومما أمرنا الله به غض البصر **﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ...﴾**[4] **﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن..﴾**[5] .

لقد عشت فترة بين غير مسلمين، ولم أر فيهم هذا الفضول الكريه، النظرات المتهمة إلى الغادي والرائح[6] !

أما «القلب» و«العقل» فيجب أن تبقى دائمًا «أوعيةً» للمشاعر النبيلة، والأفكار البنَّاءة . وليس الأحاسيس الخسيسة، والأفكار الهدامة ! ما لنا كلما دعانا ديننا إلى سماء الفضائل أثاقلنا[7] إلى الأرض؟! . إن الإسلام يهدف إلى السمو بنا . وسَنُسْأَل عن كل تقصير في بلوغ هذا الهدف .

إننا نمشي في الأرض، ولابد لنا من أن نَمْشِيَ وأن نسعى . **﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ..﴾**[8] - علينا أن نمشي، لكن بالقصد والاعتدال، وليس بالتلكُّؤ والتسكع، وليس بالتكبر والخيلاء والافتخار . فمهما فعلْنَا فلن نَخْرِقَ الأرض، ومهما تطاولْنَا، فأين نحن وأعالي الجبال؟!.

---

(١) ٦ - العنكبوت . (٢) ١،٢،٣ المؤمنون. (٣) ١٢ - الحجرات .
(٤) ٣٠ - النور (٥) ٣١ - النور . (٦) صفحات من اليوميات للمؤلف ص٢٥٤ - ج .
(٧) انظر الآية ٣٨ - التوبة . (٨) ١٥ - الملك .

إننا – وعلى سبيل المثال – نقفو بحوثنا العلمية، ونتابع تجاربنا المعملية . ونسهر على واجباتنا الوظيفية والمهنية والأسرية والإنسانية إلى آخره . وكل هذا محمود، لكن السيئ منه – كمتابعة عورات الغير، والمشي بتكبر ... إلى آخره، مكروه عند الله والناس . ومن الحكمة التى أوحى الله إلى رسولنا صلى الله عليه وسلم – المأمورات والمنهيات، والخيرات والشرور، السابق ذكر أمثلة لها فيما تقدم . وأكبر الشرور الشرك بالله . و﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾[1] . ومن يشرك بالله، يلقى فى جهنم ملوماً عند نفسه وعند غيره، هالكاً مطرودا من رحمة الله .

لقمان

جاء عنه (بالصفحة ١١٣٧ هامش ٢)[2] : «عرف العرب بهذا الاسم شخصين : أحدهما لقمان بن عاد، وكانوا يعظمون قدره في النباهة والرياسة والدهاء .. وكثيراً ما ضربوا به الأمثال.. أما الآخر فهو لقمان الحكيم الذى اشتهر بحكمه وأمثاله، وسميت باسمه سورة فى القرآن الكريم . وكانت حكمه شائعة بين العرب .. وقد ذكر الإمام مالك كثيراً من حكمه فى «الموطأ» . وفى بعض كتب التفسير والأدب ألوان من حكمه . والآراء مختلفة فى حقيقته . فمن قائل بأنه من أهل أيلة، أو أنه حبشى، أو من سودان مصر أو عِبْرِيّ . ولم يكن عربيًّا . ولا نبيًّا..

وفى (الآية ١٢ من السورة) يقول تعالى : ﴿**ولقد آتينا لقمان الحكمة ...**﴾ و«الحكمة» هى قمة العلم، وثمرته، ومن هذه الثمار السداد فى القول، والصدق فى النصح، والحرص كل الحرص على أن تكون للآخرين فيه (أى فى أى حكيم) القدوة والأسوة الحسنة . ومن كان – كذلك – كان أعرف الناس بنفسه، وبفضل الله عليه، وشكره على ما ميزه به، وما أعطاه من نعم لا تكون إلا للمصْطَفَين من عباده . إن الله – سبحانه وتعالى – «لا يرضى لعباده الكفر»[3] ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه، ومن يكفر بنعم الله عليه، فقد جنى على نفسه . وفى الحديث الشريف : «عجباً لأمر المؤمن . إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، وكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً» (رواه مسلم وأحمد – عن صهيب) . وفى هؤلاء الذين تَطير نفوسهم فزعًا وجزعًا عند الضراء والانطواء على الشر ضد الآخرين يقول تعالى : ﴿**من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ**﴾[4] . (وهذا من شأن الكفار) .

وفى الآية التالية (١٣) قال لقمان لابنه، وهو يعظه: ﴿**يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك**

---

(١) ١١٦ – النساء .

(٢) – من المجلد الثانى – من «المنتخب – فى تفسير القرآن الكريم» من وضع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة .

(٣) يقول تعالى : «إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم» (٧ – الزمر).

(٤) ١٥ – الحج .

لظلم عظيم﴾ إنه ظلم عظيم للنفس، وإنه ظلم عظيم للغير، وأسوأ الظلم ظلم المرء لنفسه . إن الدنيا تسود فى وجهه، وفى أعماقه . إنه هالك لا محالة . وفى الشرك ظلم للغير . إن الشرك والتقوى لا يجتمعان، ومن لا يتقى الله تختلط عليه الأمور، ويُخْشَى منه على الآخرين . ومما يقوله - سبحانه وتعالى - فى أهل الشرك - « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا»(١) . وعن الآيات من ١٤ - ١٩ أقول (وبإيجاز) . ﴿وو صينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير﴾ . فى البر بالوالدين آيات كثيرة فى كتاب الله . وفيها يأتى الأمر ببرهما بعد النهى عن الشرك بالله . من ذلك : ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا...﴾(٢) . ومنه قوله تعالى : ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا﴾(٣) . وتنوه الآية الكريمة من سورة لقمان بمتاعب الأم ومعاناتها وآلامها أثناء الحمل والولادة والرضاعة التى تستمر عامين، وتوصى فى خاتمتها بالوالدين جميعًا، وبوجوب الشكر لهما ولله، فإليه نصير، ونجد جزاء ما قدمنا من خير أو شر .

وفى الآية ١٥ - وإن حاول الوالدان أو أحدهما، واستخدما الضغط عليك بطريقة أو بأخرى، على أن تشرك بالله ما لا تعلم، أو تقترف المعاصى، فلا تطعهما، إذ إنه «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» . وفى كل الأحوال صاحِبْهُما فى الدنيا معروفًا، ولا تقصر فيما لهما عليك من حقوق البر والصلة والمودة والمعاملة الحسنة . ولا تتبع أبداً غير سبيل المتقين المنيبين إلى الله، أهل التوحيد والإخلاص . إن مرجعنا جميعًا إلى الله، وسيُنَبِّئنا بما عملنا ويجازينا إن خيراً فخير، وإن شراً فشر .

يا بُنَىَّ، إن أيَّة فعلَة، حسنة أم سيئة، وإن كانت صغيرة كحبة الخردل، وإن كانت فى جوف صخرة، أو فى السموٰات أو فى الأرض، فإنها لا تخفى على الله الذى لا تخفى عليه خافية، والخبير بكل الحقائق ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور﴾(٤) .

يا بنىّ : ﴿أقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾(٥) . ﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر﴾ فأمتنا أمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر(٦) . وفى الحديث الشريف : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» (لمسلم وغيره عن أبى سعيد) . «والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» هما وظيفة الحكومة الإسلامية كما يقول ابن تيمية على صدر كتابه «الحسبة» .

---

(١) ٢٣ - الفرقان .
(٢) ٣٦ - النساء .
(٣) ٢٣ - ٢٤ الإسراء .
(٤) ١٩ - غافر . (٥) ٤٥ - العنكبوت .
(٦) يقول تعالى «لُعنَ الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون» (٧٨ - ٧٩ المائدة) .

« **واصبر على ما أصابك**» – لا أحد يسلم من أن تصادفه الشدائد والأزمات . والحكيم هو الذى يتلقاها بالصبر . ونحن فى دعائنا نقول : «اللهم إنا لا نسألك ردَّ القضاء، ولكنَّا نسألك اللطف فيه . ادفع عنا الأذى، إنك على كل شىء قدير» .

أقول : إن هذه كلها، من «إقام الصلاة» إلى «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»؛ إلى «الصبر عند الشدائد والمكاره» – إن هذه كلها مما يجب التمسك بها، والعضُّ عليها بالنواجذ .

يا بنى : يجب أن تلقى الناس بوجه بشوش، لا أن تلقاهم بخدٍّ معرضٍ عنهم، غطرسةً وتكبُّرًا . وعليك دائمًا بالقصد فى المشى، بلا مرح ولا خيلاء ولا تفاخر .

يا بنى : اخفض من صوتك، إن أقبح الأصوات صوت الحمير، أوله، مما يُكْرَهُ وهو الزفير، وآخره أقبح وأقبح، إنه الشهيق(١) .

أقول : إن الصوت المعتدل مطلوب دائمًا . والله – جل وعزّ – يقول : ﴿**ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا**﴾(٢) .

ومن الآداب الإسلامية، قوله تعالى فى سورة الحجرات: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون * إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم**﴾(٣) . وهذا نفسه واجب علينا، وخاصة مع الآباء والأساتذة وذوى الفضل .

الحيـــاء

بند (٢١)

يقول تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه**(٤) **ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما**﴾ (٥٣ – الأحزاب) .

ويقول – جل وعز – ﴿**يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث**

---

(١) وبمفهوم المخالفة يجمل بنا أن نطلب الأصوات الحسنة، كأصوات قراء القرآن بالتطريب، وكأصوات الكروان والطيور ذات الأصوات الحسنة .
(٢) ١١٠-الإسراء .
(٣) الآيتان ٢،٣ .
(٤) أى غير منتظرين نضج الطعام .

عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم * وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم﴾ (٥٨ - ٥٩ النور) .

ومن الحديث الشريف «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» . (رواه مسلم وآخرون عن أبى هريرة) (الفتح الكبير - الشيخ يوسف النبهانى) (المجلد الأول - ص٥١٠) .

أقول : (عن الآية ٥٣ - الأحزاب) - كان للعرب فى الجاهلية عادات درجوا عليها كدخول بيوت بعضهم البعض دون إذن، وانتظار الطعام حتى ينضج، وقد يفرض بعضهم نفسه على صاحب البيت، فيمدون الجلوس بعد الطعام يتجاذبون أطراف الحديث وأكثر ما كان يحدث ذلك فى بيت رئيس العائلة، أو رئيس الرهط أو شيخ العشيرة أو القبيلة وقد استمرت هذه العادات فى ظل الإسلام، وفى بيت الرسول عليه الصلاة والسلام . وكان ذلك كله يسبب حرجًا له وضيقًا، وليس له فقط، بل ولنسائه (أمهات المؤمنين كذلك) . وكان - صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى فى كل الفضائل، ومنها فضيلة الحياء . لقد كان هذا الذى ذكرت يؤذيه، ولكنّه لشدة حيائه لا يتكلم . وفى هذا جاءت الآية الكريمة، وفيها **﴿إن ذلك كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق﴾** . وفى ذات الآية فُرِضَ الحجاب، ولم يكن مفروضًا قبلها **﴿فإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما﴾** . إن البيوت كانت بيوت الرسول، واللائى فيها هن زوجاته (أمهات المؤمنين) الطاهرات القانتات الصالحات . أما زُوّارُهُ فهم صَحْبُهُ الكرام، عليه وعليهم الصلاة والسلام . لقد نزلت الآيات، وجاءت الأحكام لتغيير ما كان إلى ما يجبُ أن يكون فى ظل الإسلام ليلتزم به المسلمون والمسلمات على مدى الزمان فالاحتشام والتعفف من فضائل الإسلام وآدابه، ولا «حياء» إلا مع التجمل بالتعفف والاحتشام.

وننتقل إلى كل ما جاء فيما تقدم من نصوص : فالمؤمنون جميعًا مخاطبون بألا يدخلوا بيوت النبى إلا فى حال إذنه لهم لتناول الطعام - فإذا أكلوا فليتفرقوا، فإذا لم يفعلوا، واستمروا فى تجاذب أطراف الحديث، فإن هذا مما يحرج المضيفين(١) . وهو أمر يجب أن يتجنبه المؤمنون .

روى البخارى عن أنس بن مالك قال: بَنَى(٢) النبى - صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش بخبز(٣) ولحم . فأُرسلت(٤) على الطعام داعيًا، فيجىء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجىء قوم فيأكلون ويخرجون . فدعوت حتى ما وجدت أحدًا أدعوه . فقلت: يا رسول الله، ما

---

(١) والمضيف هو الذى يدعو الضيوف ويقْرِيهم (أى يطعمهم) .
(٢) دخل بها زوجًا لها؛ أو زُفّتْ إليه زوجةً له، عليه الصلاة والسلام .
(٣) أى أولم وليمةً فيها خبز ولحم احتفالاً بهذه المناسبة .
(٤) أى أرسل الرسول أنس بن مالك .

أجد أحداً أدعوه . قال : «ارفعوا طعامكم» وبقى ثلاثة رهط يتحدثون فى البيت فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق إلى حجرة عائشة - رضى الله عنها فقال : «السلام عليكم - أهل البيت - ورحمة الله وبركاته» . قالت : وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك يا رسول الله؟ بارك الله لك، فتقرى[1] حُجَرَ نسائه، كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن كما قالت عائشة . ثم رجع النبى صلى الله عليه وسلم، فإذا ثلاثة رهط فى البيت يتحدثون . وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - شديد الحياء . فخرج منطلقًا نحو حجرة عائشة فما أدرى أخبرته[2] أم أخبر أن القوم خرجوا . فرجع حتى إذا وضع رجله فى أُسْكُفَّة[3] الباب داخله والأخرى خارجه، أرخى الستر بينى[4] وبينه، وأنزلت آية الحجاب .

وفى القرطبى (مجلد ١٤ ص٢٢٤) أن أولئك الرهط (السابق ذكرهم) كانوا يتحدثون وزوجته (زينب) مُوَلِّيَةً وجهها إلى الحائط، فثقلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس (فى سبب نزول الآية): أنزلت فى ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبى صلى الله عليه وسلم، فيدخلون قبل أن ينضج الطعام، فيقعدون إلى أن ينضج، ثم يأكلون ولا يخرجون . وقال إسماعيل بن أبى حكيم، وهذا أدبٌ أدب الله به الثقلاء .

وأما قصة الحجاب فقال أنس بن مالك وجماعة : سببها أمر القعود فى بيت زينب (القصة المذكورة آنفًا) وقالت عائشة رضى الله عنها وجماعة : سببها أن عمر قال : قلت : يا رسول الله، إن نساء ك يدخل عليهن البار والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن . فنزلت الآية . وروى ابن عمر قال : قال عمر : وافقت ربى فى ثلاث : فى مقام إبراهيم، وفى الحجاب، وفى أسارى بدر. (وفى رابعة ستأتى بعد) .

وكل ما جاء نهى عنه فى أمر تحين طعام النبى، وانتظاره، والتحادث بعد تناوله - هو نهى ملزم لسائر المؤمنين. إنه أدب الله تعالى لهم .

أقول مرة أخرى : إن الآية الكريمة نزلت فى بيوت النبى ودخولها . وزوجاته (أمهات المؤمنين) مثال الطهر والعفة وغض البصر . أما أصحابه الكرام رضى الله عنهم فالظن بهم هو حسن القصد، فترددهم على بيوت النبى، والظَّفر بلقائه والنظر إلى وجهه، والتلقى مباشرة من فمه، كل هذا خير وشرف يتنافس فيهما المتنافسون . ولقد جاء ت الآية الكريمة للتنظيم، والتغيير إلى الأفضل . والإسلام دين حضارى وأدب ربانى؛ وإذا كان المشار إليهم فى الآية الشريفة الرسول وزوجاته وأصحابه فالمراد - أساسًا - أمته - على مدى الدهور والقرون . وليتنا نلتزم!. والإسلام - كما قلت، وأقول مراراً - هو ومكارم الأخلاق مترادفان والأمم الأخلاق .

---

(١) تابع .

(٢) شك أنس، فلم يدر : أهو الذى أخبر الرسول أم غيره .

(٣) الأسْكُفَّة : عتبة الباب .

(٤) أى أرخى ساتراً بينه وبين أنس، ولم يكن يفعل ذلك من قبل . وهذا يعنى بدء فرض الحجاب .

وفى الآية الكريمة، ومن مقتضى الحجاب «وإذا سألتموهن متاعا» (عارية أو ماعونًا، أو نحو ذلك) «فاسألوهن من وراء حجاب» فذلكم أطهر للقلوب، قلوب الرجال وقلوب النساء على السواء. إنهم هناك يتبارون فى العُرى[1] وعندهم نواد للعراة، ومن هذه النوادى، نوادى النساء. ﴿قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين﴾.

وأعود إلى ختام الآية: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما﴾. فى القرطبى (ص٢٢٩ وما بعدها) «يروى أن رجلاً من المنافقين قال: حين تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة بعد أبى سلمة، وحفصة بعد خنيس ابن حذافة ما بال محمد يتزوج نساء نا! والله لو قد مات لأجلنا السهام على نسائه، فنزلت الآية فى هذا. فحرّم الله نكاح أزواجه من بعده. وجعل لهن حكم الأمهات. وإن من استحل ذلك كان كافراً.

وأنتقل إلى الآيتين الكريمتين ٥٨ - ٥٩ - من سورة النور، وهما لصيقتان بموضوع «الحياء». إنهما تتحدثان عن عدم جرح الحياء داخل الأسرة، نعم «الأسرة» فالتربية تبدأ منها، وهى القدوة، والركيزة الأولى لتربية الناشئة، والغلمان والخدم الذين يعملون معها وبداخلها، والخطاب للذين آمنوا، نعم للذين آمنوا، فهم مرآة للأسرة خارجها، إنهم مرآة للجيران والأقربين والأبعدين من المواطنين. وهم مرآة للمسلمين خارج بلاد المسلمين، وخير دعاية للإسلام بين هؤلاء. إن الإسلام يدعو إلى كل خير، ويأمر بكل برٍ والأعمال والعادات والصالحات تشدُّ انتباه الأجانب إلينا. وما أكثر هؤلاء الأجانب الذين دخلوا فى ديننا، من غير أن ندعوهم، وإنما لأننا عشنا حياة طيبة طاهرة بينهم[2].

تخاطب الآيتان الكريمتان الذين آمنوا، الذين يجب أن يكونوا مرآة نقية لدينهم فى كل زمان ومكان، وفى كل القضايا، والمبادئ والقواعد والآداب والفضائل، ومنها آداب الأسرة، أن يأمروا غلمانهم وخدمهم وأولادهم الذين لم يبلغوا حد البلوغ - أن يستأذنوا عليهم، قبل أن يقتحموا سترهم فى أوقات ثلاثة - وهى: قبل صلاة الفجر، ووقت القيلولة (حين يضعون ثيابهم من الظهيرة) وبعد صلاة العشاء حين يتهيأون للنوم. فى هذه الأوقات الثلاثة يتخففون، وقد تكون الملابس غير ساترة لما يجب ستره، أى مما لا ينبغى لمن سبق ذكرهم أن يروه. إنها

---

(١) وخاصة فى الصيف، وعلى شواطئ البحار بالذات. ويرحم الله مصطفى صادق الرافعى فلقد قرأت له مقالاً، فى (الرسالة - فى أوائل الثلاثينات - على الراجح) جعل عنوانه:
«ياحوم البحر، سلخك من جلودك جزار» - وهو يقصد اللائى ينزلن إلى مياه الشواطئ، وهن شبه عاريات. لقد مضى على ذلك نحو ستين عاماً. والتحشم الآن واضح حتى فى الشواطئ.

(٢) - انظر - على سبيل المثال - كتابى «الإسلام والدولة» ١٩٨٢ ص «و» هامش ١٢ من المقدمة.

ثلاث عورات[1]، فى ثلاثة أوقات، ليس فى غيرها من حرج على الخدم والصبية إذا دخلوا بغير استئذان، لأنهم – فى العادة – طوافون عليهم، أى كثيرو التردد على حُجراتهم، الخدم لإنجاز ما يجب عليهم نحو مخدوميهم، والصبية لينهلوا من حنان أبويهم .

أما عن الآية ٥٩ (السابق ذكرها) فإن الأطفال قد أمروا بالاستئذان (فى الآية السابقة ٥٨) فى الأوقات الثلاثة المبينة فيها، وفيما عدا هذه الأوقات فالباب مفتوح أمامهم، ولا حرج عليهم فى الدخول دون استئذان . أما فى الآية ٥٩ فالحكم يختلف، وقد صاروا فى حد البلوغ، وعليهم ما على الرجال من الاستئذان فى كل الأوقات .

وعن أسباب نزول الآية ٥٨ قال مقاتل (القرطبى – مجلد ١٢ ص٣٠٢) – نزلت فى أسماء بنت مَرْثَد، دخل عليها غلام لها كبير، فاشتكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية وقيل[2] : إن سبب نزولها دخول مدلج على عمر رضى الله عنه . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرسله إليه ظهيرة ليدعوه، فوجده نائمًا قد أغلق الباب . فدق عليه الغلام الباب، فناداه، ودخل فاستيقظ عمر وجلس فانكشف منه شيء . فقال عمر : وددت أن الله نهى أبناء نا ونساء نا وخدمنا عن الدخول علينا فى هذه الساعات إلا بإذن . ثم انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد هذه الآية قد أنزلت . فخر ساجداً شكرا لله – ! وهى مكية .

---

(١) فى نفس السورة (النور) يقول تعالى (الآيات ٢٧ – ٢٩) : «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكّرون * فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم * ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتًا غيرمسكونة فيها متا ع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون» هذا؛ وحتى تستأنسوا : أى تطلبوا الإذن من ساكنيها، ويؤذن لكم بالدخول . وتسلموا = أى تلقوا تحية السلام على من فيها . ولا حرج، ولا ضرورة للاستئذان عند دخول أماكن عامة، كمحال التجارة، والفنادق، والمدارس، ومحال العبادة ... إلى آخره . وهذه الآيات هى الأخرى تبين الآداب والسلوكيات – التى يجب على المسلمين التزامها عند زيارة الآخرين لمجاملة أو مصلحة أو غيرهما . وفى قوله تعالى : «وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم» هو صمام أمان لرد الثقلاء ! .

(٢) نفسه ص٣٠٤ .

الفصــل الثامن

«... هـل مـن مدكـر؟»

بند (٢٢)

يقـول تعـالى فى سـورة الكهف (الآيات ٣٢ – ٤٤): **﴿وا ضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا * كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا * وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا* ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا * وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا * قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا * لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا * ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا * فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا * أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا * وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا * ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا * هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا﴾**.

أقول : إنهما جنتان، أو بستانان، أو حديقتان، من أعناب، تقوم على حوافهما خطوط النخيل، وبين الجنتين زرع . وفجّر الله – المعطى الوهاب – خلال الجنتين نهراً، تتدفق فيه المياه. يالها من صورة بالغة الجمال، صورها الله الجميل، والذى يحب كل جميل. إنه تجسيد لتحفة رائعة، فيها الخضرة، وفيها الماء، وفيها الثمار الكُثار . إنها جاء ت – بفضل الله – على النحو الذى يتمناه كل مالك، وكل زارع، بل وكل ناظر، وكل متأمل، ولو لم يكن بمالك ولا بزارع . إن أجمل ما فى الوجود من أرض خضراء، أو أنهار يتدفق فيها الماء، موهوب لكل الناس، ما أجمل التأمل فى هذا الجمال وهذه الظلال، وهى كلها من خلق الله!.

وأعود وأقول : إنهما رجلان، يتحاوران، إنه مثل، وليتنا نتعظ بما يضربه لنا الله من أمثال! قال أحدهما، وهو صاحب الجنتين، الذى نسى وغفل عمن أعطى ووهب، والذى – إذا شاء – منع ومحق: قال لصاحبه: (الذى لم تتسلط عليه شهوات الفانية، والذى شغلته وغلبت عليه هموم الآخرة) قال الذى ركبه الغرور، وانغلق قلبه دون كل نور: أنا أكثر منك مالا، ولى عشيرة، تضيف – إلى مالى – منعةً وعزّةً وفخراً! ودخل هذا الأخير إحدى جنتيه، فبهره رواؤها وثمرها، وأعماه هذا الانبهار عن كل شىء. إنه أوغل فى الطريق المظلم، وإنه لم

يَظـْـلم – أول ما يَظـْـلِم – إلا نفسه. قال – ما قاله كل متكبر جبار – من قبله ومن بعده: ما أظن أن الهلاك سيمتدَ إلى هذه أبداً أبداً. وما أظن الساعة قائمة، وما أظنها آتية. وحتى لو قامت، ورُدِدْت إلى ربى لأجدنَّ خيراً منها منقلبا، لن أجد عنده (كما قال نظراء[1] لـه) إلا الحسنى.

كبرت كلمة تخرج من فيه، ومن أفواه غيره . لقد استكثروا على الفقراء الضعفاء[2] نعْيم الآخرة! هل اتخذوا عند الله عهداً، فلن يُخْلفَ الله عهده؟! مرات ومرات ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم** ﴾، ومرات ومرات، بئس ما استولىَ على قلوبهم وشغل بالهم، وأعمى أبصارهم، وأصم آذانهم! قال له صاحبه المؤمن : أكفرت بالذى خلق أباك آدم من تراب، وخلقك أنت، وكل أبناء آدم من نطفة؟ أكفرت بالذى سواك رجلا، وجعل لك سمعا وبصراً وفؤاداً وعقلا! ليتك – إذ دخلت جنتك قلت: « **ما شاء الله لا قوة إلا بالله** » ليتك ما اعتززت بالمال والولد، فهما وأنت إلى زوال. ثم يقول الرجل المؤمن « **فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك** » أى نعيم الآخرة الخالدة الباقية. أما جنتك، هذه التى بهرتك، فعسى ربى أن يرسل عليها الصواعق فتحرقها وتبيدها، فتصبح أرضا قحلاء جرداء . « **أو يصبح ماؤها غورا** » تغيض به الأرض، ولا حياة دون الماء! وأحاط الدمار بجنته وثمره، وأصبح يضرب كفا بكف، حزنا وهما ﴿ **على ما أنفق فيها هى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا** ﴾. ولم تكن له فئة، ولم تكن له عشيرة تحميه مما أنزله الله به! وفى الآخرة، لن تكون الولاية، والسلطان، إلا لله وحده! والآخرة، ونعيم الآخرة، هو نعم الثواب، ونعم المصير والعاقبة! هل من متعظ؟

لا نجاة، ولا سعادة، فى الدنيا والآخرة، إلا بالوقوف عند حدود الله ، وأداء فرائضه، والانصياع لأمره، والانتهاء عما نهى عنه وفى هذا الخير:

الخير فى العاجل والآجل. وهنيئًا هنيئًا لمن آثروا الآخرة. وسعادة الدنيا فى إيثار الآخرة[3]!

---

(١) «ولئن أذقناه رحمةً منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رُجِعت إلى ربى إن لى عنده للحُسْنىَ فلنُنبئنَّ الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ» (فُصلت – ٥٠).

(٢) وفيهم الصالحون.

(٣) يقول تعالى فى سورة التين: « .. لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون * فما يكذبك بعد بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين» (الآيات ٤ – ٨).

ويقول فى سورة القمر: (الآية ٢٢) : «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكِّر».

الفصل التاسع

الطغاة والطواغيت وحزب الشيطان

المبحث الأول

الطغـاة والطواغـيت

بند (٢٣)

نحن الآن فى العام الخامس عشر بعد الأربعمائة وألف من هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة إلى يثرب (المدينة المنورة) - وإذا استثنينا أبا بكر رضى الله عنه، فإن الثلاثة الراشدين من بعده (عمر وعثمان وعلى - رضى الله عنهم) قد استشهدوا بأيد غادرة . كان عمر رضى الله عنه، مضرب المثل فى العدل، والشدة فى الحق . وفى هذا وذاك وفى غيرهما من الفضائل كان يبدأ بنفسه وبأهله . ولم يكن يتخذ الحراس، فهيأ هذا المسلك السبيل إلى الغدر به. قتله أبو لؤلوة المجوسى . وما من ريب فى أنه كان وراء هذا المجوسى أيد خفية تحركه وتدفعه . وخلفه عثمان ذو النورين . وكتاب السِّيَر مجمعون على أنه كان موفقا فى الست سنوات الأولى من حكمه[1]، بل إن الكثيرين قد سعدوا به وبلينه بعد شدة عمر . ولما تألب عليه المتألبون، وأحاطوا ببيته، وهم شراذم من أرجاء الدولة الإسلامية الواسعة وقتئذ - ونصح له الناصحون بالتنازل عن الحكم، واتخاذ إجراءات البيعة الخاصة ثم البيعة العامة «لانتخاب» من يخلفه، يُنْسَبُ إليه رضى الله عنه أنه قال (وكان فى نحو الثمانين من العمر) : «إنى لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله» - فى السنوات الست الأخيرة من حكمه، لم يكن يعانى من تقدم العمر فحسب، بل ومن حاشية السوء من أقارب قريبين جداً له، كانوا هم الحكام الحقيقيين فى السنوات الست الأخيرة من عمره ومن حكمه . ولم يكونوا على المستوى الدينى والخلقى الذى تميز به صحابة الرسول عامة، والراشدون خاصة . بعد السنوات الست الأولى من حكم ذى النورين، كان قد مضى عشرون عاما، أو تزيد قليلا، على وفاة سيد الخلق عليه الصلاة والسلام . لقد صار الناس - فى جملتهم - غير الناس! وانتهى الأمر بأن اعتلى بعض الأفاقين منزل عثمان وقتلوه . مات شهيدا رضى الله عنه . ورفع الصحابى الجليل، وأحد كتبة الوحى معاوية قميص عثمان، وطلب محاكمة قاتليه، وتوقيع الجزاء الرادع عليهم . طلب هذا من أمير المؤمنين على رضى الله عنه وكرّم الله وجهه، وكان الناس قد اختاروه أميرا عليهم بعد عثمان . لكن هذا لم يكن متيسرا، وقد تفرق دم عثمان بين الشراذم الآتية من آفاق مختلفة . وحارب علياً كثيرون منهم أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، وحاربه بعض الصحابة وكان معاوية قد استمر والياً على الشام لفترة طويلة جداً، واستطاع أن يجيّش من الشام جيشاً

(١) وقد حكم اثنى عشر عاما.

قابل به أمير المؤمنين فى صفين، وكاد النصر أن يكون للإمام وجيشه . لكن الفريق الآخر (وكان فيه عمرو بن العاص رضى الله عنه) حملوا المصاحف على أسنة السيوف . وتوقف القتال، وكان التحكيم، وظهر الخوارج الذين دبروا لقَتل ثلاثة هم الإمام ومعاوية وعمرو بن العاص . وتمكنوا من الأول ونجا الآخران . ونتجاوز بعض وقائع التاريخ لننتهى إلى أن أمر الحكم قد صار إلى معاوية . رأس الدولة الأموية وأول خلفائها.

ومهما كانت إنجازات معاوية، فإن التاريخ لن يغفر له أنه هو الذى جعل رئاسة الدولة فى الإسلام بالوراثة بعد أن كانت بالبيعة الحقيقية و (الانتخاب بما يناسب العصر).

وسارت الأمور، وعلى مدى القرون على النحو السالف الذكر . وفى مصر – وعلى سبيل المثال – وفى أعقاب ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول، وصدور دستور ١٩٢٣ كثمرة لها، كان نجاح الوفد بزعامة سعد ثم مصطفى النحاس فى كل الانتخابات الحرة كاسحا . ولكن كثيراً ما ألغيت الانتخابات فى ظل الملكية المستبدة، والإنجليز الذين كانوا هم أصحاب السلطة الفعلية وقتئذ . وقد وجد الملك ووجد الإنجليز من المنشقين عن الوفد، والخارجين على إرادة الأمة، كثيرين من الذين حكموا مصر (مع الملك والإنجليز) معظم الربع الثانى من هذا القرن، باليد الحديدية تارة، وتغيير الدستور تارة، وتزييف إرادة الأمة وتزوير الانتخابات دائما. ومازال الطغيان سائدا فى معظم البلاد الإسلامية حتى اليوم.

وقبل أن أكتب عن الطغيان فى اللغة والقرآن – أنقل ما يلى عن كتابى (الإسلام وحقوق الإنسان – دراسة مقارنة – طبعة ثانية ص ١٦١ وما بعدها) – وعنوان الفرع الذى أنقل عنه هو «عن المسلمين حين ينسون مبادئ الإسلام» . فى هذا الفرع صفحة من تاريخ (إحدى الدول الإسلامية – مصر) بعد أن ذهبت عنها، وعن سياستها معانى الإسلام الحقيقية – والموضوع عن الإقطاع وكيف كان حين انقطعت الصلة – أو كادت – بين الحكام المسلمين وبين مبادئ الإسلام فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) أسرف المستبدون بشئون الخلافة العباسية فى أمور الإقطاع وبالغوا . فلم يقفوا فى ذلك عند حد إقطاع البلاد والقرى، بل أقطعوا كذلك حقوق بيت مال المسلمين لأنصارهم وحواشيهم... الأملاك الخاصة تعرضت للإقطاع أحيانا .. وكذلك الأوقاف الإسلامية والذمية .. يقول القلقشندى (٧٥٦ – ٨٢١ هـ) – معبرا عن فساد الحال فى زمانه: إن الأمور قد خرجت عن القواعد الشرعية ... وعانى الفلاحون – فى ظل الإقطاع وقاسوا شرّ ما يقاسيه إنسان مستعبد، وعبد مستذل، قال المقريزى: «ويسمى المزارع المقيم بالبلد فلاحا قراريا، فيصير عبداً لمن أُقطع تلك الناحية . إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق، فهو رق ما بقى، وأولاده كذلك . وإذا هرب الفلاح فراراً من الظلم والقهر أعيد قسراً» . وكانت دولة المماليك التى حكمت مصر وغيرها قروناً هى الدولة الإقطاعية التى قامت فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ... استأثر المماليك بالمال والثروة وانفردوا بالسلطة ... ومنذ الفتح العثمانى جرت الأمور على تمليك أرض الدولة لفريق من البطانة أو الخاصة بثمن اسمى، وقد صاحبت ذلك أيضا أعمال السخرة ... وعاون خطباء

المساجد على ترسيخ الظلم، وخاصة فى خطبة الجمعة بالكلام فى القناعة، وطاعة الحكام، والرضا بالقضاء والقدر ... إلى آخره.

الطغيان فى اللغة:

طَغَى يطغى طغيانًا = جاوز الحد المقبول، وطَغَى فلان غلا فى العصيان. وطغى = تجبر وأسرف فى الظلم. قال تعالى: ﴿**فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى**﴾. و(أطْغَاه) المال والسلطان = جعله طاغيًا.

والطاغوت = الطاغى المعتدى أو كثير الطغيان. و- الطاغوت كل رأس فى الضلال يصرف عن طريق الخير - والطاغوت الشيطان والكاهن والساحر . والطاغوت كل ما عُبِدَ من دون الله من الجن والإنس والأصنام. قال تعالى : «**فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى**». والطاغوت بيت الصنم يستوى فيه الواحد وغيره والمذكر والمؤنث . والجمع طواغيت.

و (الطاغية) = العظيم الظلم الكثير الطغيان . إلى آخره .. (عن - المعجم الوسيط).

فى القرآن الكريم:

﴿**اذهب إلى فرعون إنه طغى**﴾ المخاطب موسى عليه السلام (٢٤ - طه).

﴿**... وفرعون ذى الأوتاد * الذين طغوا فى البلاد**﴾ (١٠و١١ الفجر).

﴿**كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى**﴾ (٦ و ٧ - العلق).

﴿**أتوا صوا به بل هم قوم طاغون**﴾ (٥٣ - الذاريات).

﴿**هذا وإن للطاغين لشر مآب**﴾ (٥٥ - ص).

﴿**إن جهنم كانت مر صادا * للطاغين مآبا**﴾ (٢١و٢٢ النبأ).

﴿**ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون**﴾ (٧٥ - المؤمنون).

﴿**لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم**﴾ (٢٥٦ - البقرة).

﴿**الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾ (٢٥٧ - البقرة).

﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت**(١) **والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا * أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا**﴾ (٥١ و٥٢ النساء).

---

(١) الجبت كل ما عبد من دون الله و - الكاهن و - الساحر و - السحر.

﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا﴾ (٦٠ - النساء).

﴿الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾ (٧٦ -النساء).

﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون * قل هل أونبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل﴾ (٥٩ و٦٠ - المائدة).

﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ (٣٦ - النحل).

﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾(١).

فى الآية ٢٤ طه - يأمر المولى جل وعزّ - كليمه موسى: أن اذهب إلى فرعون، إنه طغى، وبغى وادعى الألوهية، وعلى لسانه - يقول تعالى: « إنى أنا ربكم الأعلى» وهو «الذى استخف قومه فأطاعوه، وهو الذى ذبّح أبناء بنى إسرائيل واستحيا نساءهم، لقد جاءت فى جبروت فرعون آيات كثيرة فى القرآن الكريم، وفى كثير من جبابرة العصور الأولى ، من ذلك هذه الآيات من سورة الفجر ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد* وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذى الأوتاد * الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد* فصب عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك لبالمرصاد﴾. (٦ - ١٤ من السورة).

هؤلاء جميعا، وغيرهم كثيرون كثيرون، إنهم الملوك ، وإنهم الذين استغنوا ، فبطروا النعمة، وساندهم - دائما أو غالبا طواغيت من نوع آخر، إنهم الكهنة والسحرة، وسدنة الأوثان . وهم جميعا، لم يخل منهم زمان ولا مكان، وكانوا فى الطغيان والجبروت سواء، وفى ذلك يقول تعالى فى سورة «الذاريات» :﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾ (٥٢ و٥٣ - الذاريات).

إن الجبابرة والطواغيت كانوا ومازالوا، وإنّ خطرهم، وفسادهم، وإفسادهم طويل عريض، وبلا حدود ولا قيود . والويل كل الويل للشعوب . وواجب الصالحين والقادرين من المؤمنين، ومن العلماء العاملين، وواجب الأحرار فى كل مكان وزمان، ألا يدَعُوا الميدان للشيطان. ﴿الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾ (٧٦ - النساء وقد سبق ذكرها).

---

(١) ١٧ و١٨ - الزمر.

ووطننا مصر، وقومنا من العرب ، وإخوتنا فى الإسلام، فى كل مكان، دائما فى خاطرى، ودائما فى البال، بل - إننى كمسلم - أحمل هموم الإنسان فى كل زمان ومكان . والضعفاء أولى بالمعاضدة والاهتمام. إن ما يسمىّ بالعالم الثالث (ونحن كعرب ومسلمين جزء منه) - يعانى - غالبا - من حكامه، ويعانى من الدول الغنية القوية و **﴿إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى﴾** إنهم (هؤلاء الأغنياء الأقوياء) - لا يعرفون الله، ولا يتقونه فينا. وأمثال هؤلاء (من المستبدين مصاصى الدماء)، ليست لهم قلوب نُخاطبها، ولا يحملهم على احترامنا إلا قوتنا. وأشهد - والله على ما أقول وكيل. إنه لو أن دولتنا الإسلامية الكبرى قد قامت ، وعادت سيرتها الأولى، لتنشر راية العدل والإنصاف فى كلّ مكان وكل ذلك لخير الإنسانية كلها. ولكن نيل المطالب ليس بالتمنى، وإنما باتخاذ الأسباب. إننا كعرب وكمسلمين عددنا كبير. (عدد المسلمين الآن يجاوز البليون (ألف ألف نسمة)، لكن كغثاء السيل. إننا كجهلاء وضعفاء نحطم أنفسنا، ويقاتل بعضنا بعضا فى أكثر من مكان. وهذا مما أطمع أعداء نا فينا. وفى الأثر «كما تكونوا يُولّ عليكم» وقد تنبأ رسولنا عليه الصلاة والسلام بما نحن فيه حيث قال: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم. وليقذفن فى قلوبكم الوهن. فسأل سائل بمجلس الرسول صلى الله عليه وسلم: أو من قلة نحن يا رسول الله حينئذ؟ قال: لا. إنكم حينئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل. وسأل سائل آخر فقال : وما الوهن يارسول الله؟ قال: حب الدنيا، وكراهية الموت».

أقول : لن نعود إلى سابق عهدنا، ولن تعود إلينا قوتنا، إلا بأن نستأنف سيرتهم وإيمانهم ويقينهم، فلا تشغلنا الدنيا عن الآخرة، وأن نُقْبل - كما فعلوا على الموت مادام فى سبيل الله. والقتال من أجل الضعفاء فى سبيل الله! **﴿وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا﴾** (٧٥ - النساء).

وأقول مرة أخرى: نيل المطالب ليس بالتمنى، ولكن بالعمل المخلص الدءوب . علينا أن نعلن التعبئة العامة لمحو الأمية ورفع مستوى التعليم الأساسى، ويزامن ذلك ويواكبه: تثبيت عقيدة التوحيد: لا إله إلا الله، لا عبادة لمال، ولا لدنيا، ولا لشىء قط إلا الله. علينا تعميم التربية الدينية فى جميع المراحل التعليمية، بل، وأيضا، بين الكبار. ولا يأس من روح الله، **﴿إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾** (٨٧ - يوسف).

المبحث الثانى

حزب الشيطان

بند (٢٤)

لم يكن قارونُ وحده هو الذى استبد به الغرور، وتسلط عليه الشيطان حين قال: **﴿إنما أوتيته على علم عندى﴾** (٧٨ - القصص).

لقد قال ذلك آخرون[١] من قبله، وآخرون من بعده[٢]. وما جاء من أشباهه فى التنزيل الحكيم إلا أقل القليل: من ذلك ما جاء فى قوله تعالى: **﴿فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون * قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون * فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ماكسبوا وما هم بمعجزين * أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾** (الآيات ٤٩ و٥٠ و٥١ و٥٢ الزُمَر).

ومن ذلك أيضا ما جاء فى سورة (فُصلَت) : قال تعالى: **﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط * ولئن أذقناه رحمة من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ * وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض * قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد * سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد * ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط﴾** (الآيات من ٤٩ إلى ٥٤[٣]).

أقول عن آيات الزُّمَر السابقة الذكر : هكذا الإنسان، أى أكثر الناس : إذا مسهم الضُّر دَعَواْ ربهم . وفى ذلك يقول تعالى : **﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين * قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾**[٤] . ويقول : (وعلى سبيل المثال) **﴿هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا**

---

(١) و (٢) إنهم الأكثر، وفى القرآن الكريم: «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا ولكن أكثر الناس لايعلمون» (٢٨ - سبأ) انظر - على سبيل المثال - الآيات ٢٤٣ - البقرة و ١١٦ - الأنعام و ١٧ - هود و ٢١ و ٣٨ و ٤٠ و ٦٨ و ١٠٣ - يوسف، إلى آخره.

(٣) انظر ما سبق بعنوان : «هل من مدّكر؟».

(٤) ٦٣ و ٦٤ الأنعام.

أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين * فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون﴾(١).

﴿**ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ..**﴾ فإذا ما ذهب الضّر وجاءت النعمة والرحمة والفضل من الله، قال: إن هذا من علم عندى، إنها تجاربى، إنها خبرتى ومهارتى. ﴿**ومر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه**(٢)﴾.

﴿**بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾ . إنها الفتنة، إنها الابتلاء والاختبار بالضر والنفع، بالفقر والغنى، بالمرض والصحة . والسعيد هو من جاوز هذه الاختبارات بنجاح، فصبر على الضر والفقر والمرض، وشكر على النعمة والنفع والرحمة والغنى : ﴿**لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد**(٣)﴾. إنه إذا كانت النعمة فى صورة مال – على سبيل المثال – وعرف صاحب المال حقوق الله والناس فيه، فإذا كان إيمانه قويا، وضميره الدينى واعيا حيا كانت سعادته بالعطاء لا توصف، إنها أكبر وأعمق من سعادة الأخذ، فإذا كان هذا شأنه فهو ممن رضى الله عنهم وأرضاهم. ﴿**ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون**(٤)﴾ .

إن قولهم : إنما أُوتيتُه على علم، أو هذا لى، ومن كفاءتى . كل هذا أو أشباهه قاله من سبقهم ممن هم على شاكلتهم، فلم يفْلتوا من عذاب الله . والذين يرددون مثل هذا فى يومهم أو غدهم – سيصيبهم ما أصاب من قبلهم . إن الله يبسط الرزق ويوسعه على من يشاء من عباده، ويضيقه ويقلله على من يشاء منهم . لحكمة يعلمها . ﴿**ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر مايشاء إنه بعباده خبير بصير**(٥)﴾ ﴿**كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى**(٦)﴾.

وعن الآيات (٤٩ – ٥٤ فصلت) أقول : إن الإنسان إذا تسلطت عليه الدواعى الجسدية، وسيطرت عليه أطماع الدنيا وشهواتها، فإنه لا يَمَلّ ولا يكف عن طلب «الخير» خير الدنيا ومتاعها كالمال والجاه والأولاد والنساء ... فإذا فاته شيء من ذلك، أو كل ذلك، أو وقع له عكس ذلك، استبد به اليأس و ﴿**إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرين**﴾(٧) . فإذا هبطت عليه النعماء بعد الضراء، يردّ هذا إلى كفاءة وجدارة فيه، يستحق بهما هذا وأكثر منه. ولا يحمد الله ولا يشكره ولا يذكره! إنه فى مرْية (شك) من لقاء ربه: فإذا كانت الأخرى، وهى قيام الساعة، فهو يعتقد أنه لن يجد إلا الحَظْوة والخير كلّه . إن هذا وأمثاله يرون أن من يكون سعيدا فى الدنيا والحال، يكون سعيدا فى الأخرى والمآل، سيتحقق هؤلاء من كذب أوهامهم . إن العذاب الغليظ ينتظرهم! وإذا أنعم الله – فى الدنيا – على واحد من هؤلاء، ملأ الدنيا ادعاءً واستكباراً وغروراً . فإذا أصابه شر من مرض أو فقر عاد إلى الشكوى والدعاء الكثير.

---

(١) ٢٢ و ٢٣ – يونس . (٢) ١٢ – يونس . (٣) ٧ – إبراهيم .
(٤) ٤١ – النحل . (٥) ٢٧ – الشورى . (٦) ٦ و ٧ – العلق.
(٧) ٨٧ – يوسف .

ويخاطب الله رسوله : قل لهم : إن كان هذا القرآن من عند الله وكفرتم به . فمن أبعد عن الصواب من هذا الذى ضل عن الصدق والحق؟!، سنريهم آياتنا، وقدرتنا، في كل الآفاق، فى السموات والأرض والمشارق والمغارب، وفى أنفسهم أيضا، على صدق خاتم رسله، وما أنزل الله عليه، وسيكون له الغلبة والنصر. « والله غالب على أمره» وهو بكل شيء محيط، وعلى كل شيء شهيد! أولئك الذين إذا جاءتهم النعمة جحدوا، وإذا نزلت بهم النقمة يئسوا، أولئك هم الذين ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون[1]﴾. أما أولئك الذين كتب الله ﴿فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح[2] منه فإنه يدخلهم جناب تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون[3]﴾.

(١) ١٩ - المجادلة .

(٢) و (٣) الآية ٢٢ من نفس السورة .

الفصل العاشر

المحكمات والمتشابهات

بند (٣٥)

يقول تعالى : ﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ (آل عمران – ٧) .

خرَّج مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : «تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية «..» قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم» .

أقول : من هؤلاء يجب أن نحذر ، فهم – وكما جاء فى الآية الكريمة : فى قلوبهم زيغ ، ويتبعون المتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وهو مما لايعلم تأويله إلا الله. والأعمال بالنيات ، وهؤلاء يريدون الفتنة قصدا وعمدا . و«الفتنة» – كما جاء فى القرآن الكريم – «أشد من القتل» (البقرة – ١٩١) . وماأكثر الأفراد والجماعات التى تأولت وتقولت ، ويقصد تمزيق الأمة الإسلامية إلى شيع وفرق متخاصمة ومتعادية – على مدى التاريخ الإسلامى ، قديمه وحديثه ، وكانت الأيدى الأجنبيه من ورائهم ، تدفعهم وتؤيدهم . و«الفتنة» وأقولها مرة أخرى «أشد من القتل» صدق الله العظيم .

وأعود إلى القرطبى الذى أنقل عنه (مجلد ٤ ص ٨ وما بعدها) ، قال : اختلف العلماء فى المحكمات والمتشابهات على أقوال عديدة ، فقال جابر بن عبد الله ، وهو مُقْتَضَى قول الشعبى وسفيان الثورى وغيرهما : المحكمات من آى القرآن ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره . والمتشابه مالم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه. قال بعضهم : وذلك مثل قيام الساعة ، وخروج يأجوج ومأجوج[(١)] والدجال وعيسى ، ونحو الحروف المقطعة فى أوائل السور .

قلت : (أى القرطبى) «هذا أحسن ما قيل فى المتشابه» . وعن الربيع بن خيثم أن الله تعالى أنزل هذا القرآن فاستأثر منه بعلم ما شاء . وقال أبو عثمان : المحكم فاتحة الكتاب التى لاتجزئ الصلاة إلا بها . وقال محمد بن الفضل : سورة الإخلاص ، لأنه ليس فيها إلا

---

(١) « خروج يأجوج ومأجوج والدجال وعيسى » محل نظر . انظر للمؤلف كتاب «الجهاد» ١٤٠٩ هـ ص ١٣ والهامش .

التوحيد فقط . و[قد] قيل : القرآن كله محكم لقوله تعالى « كتاب أحكمت آياته»(1) . وقيل : كله متشابه ، لقوله « كتابا متشابها»(2) .

قلت : (أي القرطبي) وليس هذا من معنى الآية في شيء ، فإن قوله تعالى « كتاب أحكمت آياته» أي في النظم والرصف وأنه حق من عند الله . ومعنى « كتابا متشابها» أي يشبه بعضه بعضا، ويصدق بعضه بعضًا . وليس المراد بقوله «آيات محكمات» «وأخر متشابهات» هذا المعنى. وإنما المتشابه في هذه الآية من باب الاحتمال والاشتباه . من قوله « إن البقر تشابه علينا» أي التبس علينا ، أي يحتمل أنواعًا كثيرة من البقر ، والمراد بالمحكم ما في مقابلة هذا ، وهو ما لا التباس فيه ولايحمل إلا وجها واحدا .. قال النحاس : «أحسن ما قيل في المحكمات والمتشابهات أن المحكمات ما كان قائما بنفسه لايحتاج أن يُرجَع فيه إلى غيره . نحو : ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾(3) والمتشابهات نحو ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعا﴾(4) يرجع فيه إلى قوله جل وعلا ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾(5) .

ولنذكر بعد – بعض الآيات ، وبعض ماقيل فيها من آراء :–

يقول تعالى (في الآيات الأولى من سورة الأحزاب) : ﴿ ياأيها النبي اتق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما * واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا * وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا﴾ (الآيات 1، 2، 3) .

في أوضح التفاسير :– الخطاب للرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، والمراد به أمته . إذ ليس في البشر جميعا أتقى منه لمولاه عليه صلوات الله تعالى وتسليماته ، أمدنا الله تعالى بنفحة منه تقربنا إليه ، وتدنينا من رحمته !

وفي القرطبي (مجلد 14 ص 114 وما بعدها) – قيل – مما ذكر الواحدي وغيره – إنها نزلت في أبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور عمرو بن سفيان، نزلوا المدينة على عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس المنافقين – بعد أحد. وقد أعطاهم النبي الأمان على أن يكلموه فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وطعمة بن أُبَيْرِق ، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ، وعنده عمر بن الخطاب . ارفض ذكر آلهتنا .. وقل إن لها شفاعة ومنعة لمن عبدها وندعك وربك . فشق على النبي صلى الله عليه وسلم ما قالوا . فقال عمر : يارسول الله : ائذن لي أضرب أعناقهم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إني قد أعطيتهم الأمان .. فنزلت الآية . وعن التفسير جاء في القرطبي «ياأيها النبي اتق الله» أي خَف الله «ولاتطع الكافرين» من أهل مكة : يعني أبا سفيان وأبا الأعور وعكرمة و«المنافقين» من أهل المدينة يعني: عبد الله بن أُبيّ وعبد الله بن سعد بن أبي سرح فيما نهيت عنه ، ولاتمل إليهم «إن الله كان

---

(1) 1 – هود . (2) 23 – الزمر . (3) 4 – الإخلاص .
(4) 53 – الزمر . (5) 48 – النساء .

عليما» بكفرهم «حكيما» فيما يفعل لهم ... ودل بقوله «إن الله كان عليما حكيما» على أنه كان يميل إليهم استدعاء لهم إلى الإسلام ، أى لو علم الله عز وجل أن ميلك إليهم فيه منفعة لما نهاك عنه . لأنه حكيم – ثم قيل : الخطاب له ولأمته . «واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا * وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا» «واتبع مايوحى إليك من ربك» أى القرآن . وفيه زجرٌ عن اتباع مراسم الجاهلية ، وأمرٌ بجهادهم ومنابذتهم . وفيه دليل على ترك اتباع الآراء مع وجود النصّ . والخطاب له ولأمته «وتوكل على الله ..» أى اعتمد عليه فى كل أحوالك، فهو الذى يمنعك ولايضرك من خذلك . وكفى بالله حافظا .

أقول : والأدنى إلى القبول عندى القول بما قال به صاحب «أوضح التفاسير» بأن الخطاب له ، والمراد أمته .

وفى تفسير النسفى للآية الأولى من «الأحزاب» لم يقل المولى جل وعز (يامحمد) كما قال: (ياآدم) (ياموسى) وإنما قال «ياأيها النبى» تشريفا له وتنويها بفضله . «اتق الله ..» اثبت على تقوى الله ودم عليه وازدد منه فهو باب لايُدرك مداه ، ولاتساعدهم على شيء واحترس منهم فإنهم أعداء الله والمؤمنين . وروى قصة أبى سفيان وعكرمة وأبى الأعور السلمى السابق ذكرها..

وفى تفسير الجلالين «ياأيها النبى اتق الله ...» دم على تقواه «ولاتطع الكافرين والمنافقين» فيما يخالف شريعتك «إن الله كان عليما» بما يكون قبل كونه «حكيما» فيما يخلقه ..

وعن «ظلال القرآن» للشهيد سيد قطب . قال :

التوجيه الأول فى السورة التى تتولى تنظيم الحياة الاجتماعية للمسلمين بتشريعات وأوضاع جديدة هو التوجيه إلى تقوى الله . وكان القول موجها إلى النبى صلى الله عليه وسلم القائم على تلك التشريعات والتنظيمات «ياأيها النبى اتق الله» فتقوى الله والشعور برقابته واستشعار جلاله هى القاعدة الأولى وهى الحارس القائم فى أعماق الضمير على التشريع والتنفيذ ، وهى التى يناط بها كل تكليف فى الإسلام وكل توجيه . وكان التوجيه الثانى هو النهى عن طاعة الكافرين والمنافقين «ولاتطع الكافرين والمنافقين» وتقديم هذا النهى على الأمر باتباع وحى الله ، يوحى بأن ضغط الكافرين والمنافقين فى المدينة وما حولها كان عنيفًا وقتئذ ، فاقتضى هذا النهى عن اتباع آرائهم والخضوع لضغطهم ، ثم يبقى هذا النهى قائما فى كل زمان ومكان ، وكل بيئة ، يحذر المؤمنين أن يتبعوا آراء الكافرين والمنافقين إطلاقا . وفى أمر العقيدة وأمر التشريع وأمر التنظيم الاجتماعى بصفة خاصة ، ليبقى منهجهم خالصا لله ، غير مشوب بتوجيه من سواه «إن الله كان عليما حكيما» وماعند البشر إلا قشور وإلا قليل .

والتوجيه الثالث والمباشر «واتبع مايوحى إليك من ربك» (الوحى إليك بهذا التخصيص والمصدر من ربك بهذه الإضافة ..) إلى آخره .

أقول : إن الشهيد سيد قطب لم يفته - عند تفسير هذه السورة ، ومطلعها ، لم يفته لفت النظر إلى المناخ الذى كان يعيش فيه الرسول والمؤمنون عند نزول هذه السورة . الأعداء محيطون ، وكيدهم وألاعيبهم لاينقطعان . إننا الآن نحاط بعداوات المخالفين فى الدين ، وبضغوطهم علينا بمختلف الوسائل . وكيد المنافقين (من العَالْمَانيين ، وألاعيبهم أشد خطورة ، إنهم يحملون أسماء إسلامية ، ومن حيث لايدرون ، أو يدرون يشاركون فى الهجوم على الإسلام والمسلمين . والقوم (أعنى الأجانب فى الغرب والشرق) لايخفون أنهم بعد تفكك الدول الشيوعية، فإن عدوهم الأول والأخطر فى الحاضر والمستقبل هو الإسلام والمسلمون . وسيهديهم الله إلى الإسلام . والله غالب على أمره . وعلينا جميعا أن نتحرك وأن نعمل . والتعبئة العامة واجبة .

عن المنتخب :

١ - ياأيها النبى ، استمر على ما أنت عليه من تقوى الله ، ولاتقبل رأيا من الكافرين والمنافقين، إن الله محيط علما بكل شىء ، حكيم فى أقواله وأفعاله .

٢ - واتبع الوحى الذى ينزل عليك من ربك ، إن الله الذى يوحى إليك خبير بدقائق ما تعمل أنت وما يعمل الكافرون والمنافقون .

٣ - وفوض جميع أمورك إلى الله ، وكفى بالله حافظا، موكولا إليه كل أمر .

يقول تعالى :

١ - ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون﴾ (يونس - ١٩) .

عن المنتخب : وما كان الناس فى تكوينهم إلا أمة واحدة بمقتضى الفطرة ، ثم بعثنا إليهم الرسل لإرشادهم وهدايتهم بمقتضى وحى الله تعالى . فكانت تلك الطبيعة الإنسانية التى استعدت للخير والشر سببا فى أن يغلب الشر على بعضهم ، وتحكم الأهواء ونزعات الشيطان ، فاختلفوا بسبب ذلك ، ولولا حكم سابق من ربك بإمهال الكافرين بك أيها النبى ، وإرجاء هلاكهم إلى موعد محدود عندى لعجل لهم الهلاك والعذاب بسبب الخلاف الذى وقعوا فيه كما وقع لأمم سابقة .

٢ - ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون﴾ (البقرة - ٦٢) .

عن المنتخب : إن الذين آمنوا من الأنبياء من قبل ، واليهود والنصارى ، ومن يقدسون الكواكب والملائكة ، ومن آمن برسالة محمد بعد بعثته ووحد الله تعالى ، وآمن بالبعث والحساب يوم القيامة ، وعمل الأعمال الصالحة فى دنياه ، فهؤلاء لهم ثوابهم المحفوظ عند ربهم ، ولايلحقهم خوف من عقاب ، ولاينالهم حزن على فوات ثواب ، والله لايضيع أجر من أحسن عملاً.

٣ – ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد﴾ (الحج – ١٧) .

عن المنتخب : إن الذين آمنوا بالله وبرسله جميعا ، واليهود المنتسبين إلى موسى ، وعباد النجوم ، والملائكة ، والنصارى المنتسبين إلى عيسى، والمجوس عباد النار، والمشركين عباد الأوثان . إن هؤلاء جميعا سيفصل الله بينهم يوم القيامة ، بإظهار الحق من المبطل منهم لأنه مطلع على كل شيء عالم بأعمال خلقه ، وسيجازيهم على أعمالهم (عن المنتخب) .

٤ – ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا * إذا لأذقناك ضعف الحياة و ضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرا * وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لايلبثون خلافك إلا قليلا * سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولاتجد لسنتنا تبديلا﴾ (الإسراء – ٧٣، ٧٧) .

عن المنتخب : وإن المشركين يتفننون فى محاولة صرفك عن القرآن لتطلب غيره من المعجزات ، وتكون كالمفترى علينا ، وحينئذ يتخذونك صاحباً لهم . وإن هذه المحاولات قد تكررت وكثرت ، وكان من شأنها أن تقربك مما يريدون ، ولكنك رسولنا الأمين (٧٣) .

وقد شملك لطفنا ، فصرفناك عن الاستجابة لهم ، وثبتناك على الحق ، ولولا ذلك لأوشكت أن تميل إلى استجابتهم ، طمعا فى أن يكمل إيمانهم يوما إذا دخلوا فى أوائل الإسلام (٧٤). ولو قاربت الركون إليهم لجمعنا عليك عذاب الدنيا وضاعفناه، وعذاب الآخرة وضاعفناه ، ثم لاتجد لك نصيراً علينا يمنع عنك العذاب . ولكن لايكون ذلك أبداً لأنه ممتنع على رسولنا الأمين (٧٥) . «ولقد حاول كفار مكة وكادوا أن يزعجوك من أرض مكة بعداوتهم ومكرهم، ليخرجوك منها، ولو تحقق منهم ذلك لا يبقون بعد خروجك منها إلا زمنا قليلا. ثم يغلبون على أمرهم وتكون الكلمة لله (٧٦) . وذلك كطريقتنا فى الرسل ، من إهلاك من أخرجوا نبيهم ، ولن تجد لطريقتنا تبديلا (٧٧) .

٥ – عن الآية ١٩ يونس – نقلا عن أوضح التفاسير :

«وما كان الناس إلا أمة واحدة على دين واحد هو الإسلام ، من لدن آدم إلى نوح عليهما السلام . أو المراد بالناس : نوح ومن نجا معه فى سفينته «فاختلفوا» فأرسل الله تعالى إليهم رسله وأنبياء ه . وقيل : كانوا أمة واحدة على الكفر، فأرسل الله إليهم النبيين لهدايتهم ، أو المراد أنه يولد من يولد على الفطرة ، ثم أبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه «فاختلفوا عند بلوغهم» . «ولولا كلمة سبقت» هى تأخير الجزاء إلى يوم القيامة «لقضى بينهم» لعجل عقابهم فى الدنيا .

٦ – (البقرة – ٦٢)(١) «إن الذين آمنوا» بالله تعالى وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم «الذين هادوا» – اليهود من هاد إذا تاب ورجع إلى الحق ، وهم قوم موسى عليه

---

(١) عن أوضح التفاسير .

السلام «والنصارى» وهم قوم عيسى عليه السلام ، قيل : سُموا نصارى لتناصرهم وتآلفهم على دينهم ، وقيل : نصراني نسبة إلى نصورية ، وهى قرية بالشام . «والصابئين» الخارجين من دين إلى آخر . من صبأ إذا مال . وقيل : هم قوم عبدوا الملائكة . وقيل : إنهم كانوا يعبدون الأنجم والكواكب . وقيل : إنهم قوم على ملة نوح عليه السلام استمروا على الإيمان به ولم يقبلوا اتباع من أرسل بعده من الرسل «من آمن» إيمانا كاملا حقيقيا من هؤلاء الذين آمنوا بمحمد أو آمنوا بموسى ، أو آمنوا بعيسى، أو آمنوا بنوح ، من آمن منهم ، «بالله» وعظمته وقدرته ووحدانيته «واليوم الآخر» القيامة ، ومافيها من عقوبة للعاصين ومثوبة للطائعين «وعمل صالحا» فى دنياه تقربا إلى مولاه ؛وذلك لأن الإيمان لا ينفع ولا يجدى إلا إذا كان مقرونا بالعمل الصالح «فلهم أجرهم» أى فلهؤلاء المذكورين جزاؤهم على إيمانهم .

٧ – عن الآية ١٧ – الحج – نقلا عن «أوضح التفاسير»

«والذين هادوا» = اليهود . «والصابئين» قوم زعموا أنهم على دين نوح عليه السلام ، أو أنهم كل من صبأ أى خرج من دين إلى دين آخر «والمجوس» عبدة النار . (أقول : هذا ماكتبه عن هذه الآية مكتفيا بما كتبه عن الآية ٦٢ – البقرة) .

٨ – نفس المصدر السابق : عن الآيات ٧٣ – إلى – ٧٧ الإسراء

«وإن كادوا» أى قاربوا «ليفتنونك» يُزيلونك «عن الذى أوحينا إليك» من القرآن . قيل عن هذه الفتنة : قيل إن قريشا منعت الرسول عليه الصلاة والسلام من الطواف بالبيت واستلام الحجر الأسود : حتى يلم بآلهتهم ، فحدث الرسول نفسه فى ذلك : فنزلت عقابا له صلى الله عليه وسلم – على ما هجست به نفسه . ونزل قوله تعالى : «ولولا أن ثبتناك» على ما أنت عليه من الحق «لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلا» لأنه قال : وما علىّ أن ألمّ بآلهتهم بعد أن يدعونى أستلم الحجر ، والله يعلم أنى كاره لها مبغض . وقيل : إنهم طلبوا من الرسول عليه الصلاة والسلام الكف عن ذم آلهتهم «إذًا» لو فعلت ما طلبوه «لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات» أى لعذبناك عذابا مضاعفا فى الحياة ، وبعد الممات . وحاشاه صلى الله عليه وسلم أن يركن إليهم ، وإنما ورد هذا على سبيل التهديد للكفار ، ولمن تحدثه نفسه بالركون إليهم كما يفعل مسلمو اليوم . «وإن كادوا ليستفزونك» ليُزعجونك ويفزعونك «وإذًا» إذا أخرجوك من أرضك «لايلبثون خلافك إلا قليلا» خَلْفَكَ وبعدك إلا قليلا ثم يهلكهم الله «سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا» أى هذه طريقتنا: أن نهلك من يعادون رسلهم ويخرجونهم .

٩ – ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾ (الأنعام – ٣٥) .

ماجاء عنها فى المنتخب : وإن كان قد شق عليك انصرافهم عن دعوتك فإن استطعت أن تتخذ طريقا فى باطن الأرض ، أو سلما تصعد به إلى السماء فتأتيهم بدليل على صدقك ، فافعل! وليس فى قدرتك ذلك ، فأرح نفسك واصبر لحكم ربك ، ولو شاء الله هدايتهم لحملهم

جميعا على الإيمان بما جئت به قسرا وقهرا ، ولكنه تركهم لاختيارهم فلا تكونن من الذين لايعلمون حكم الله ، وسنته فى الخلق .

وهذه آيات من سورة هود :

١٠ - **﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك و ضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾** (هود - ١٢) .

عن المنتخب : لا تحاول أيها النبى إرضاء المشركين لأنهم لا يؤمنون ، وعساك إن حاولت إرضاء هم أن تترك تلاوة بعض ما يوحى مما يشق سماعه عليهم ، كاحتقار بعض آلهتهم ، خوفًا من قبح ردِّهم واستهزائهم ، وعسى أن تحس بالضيق وأنت تتلوه ، لأنهم يطلبون أن ينزل الله عليك كنزًا تنعم به كالملوك ، أو يجيء معك مَلَكٌ يخبرنا بصدقك ، فلا تبال أيها النبى بعنادهم ، فما أنت إلا منذر ومحذر من عقاب الله من يخالف أمره . وقد فعلت فأرح نفسك منهم، واعلم أن الله على كل شيء رقيب ومهيمن، وسيفعل بهم ما يستحقون .

١١ - **﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك فى مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾** (١٧ من نفس السورة) .

عن المنتخب : أفمن كان يسير فى حياته على بصيرة وهداية من ربه ، ويطلب الحق مخلصا ، معه شاهد بالصدق من الله ، وهو القرآن ، وشاهد من قبله ، وهو كتاب موسى الذى أنزله الله قدوة يُتَّبع ما جاء به ، ورحمته لمتبعيه . كمن يسير فى حياته على ضلال وعماية، فلا يهتم إلا بمتاع الدنيا وزينتها ؟! أولئك الأولون هم الذين أنار الله بصائرهم يؤمنون بالنبى والكتاب الذى أُنزل عليه . ومن يكفر به ممن تألبوا على الحق ، وتحزبوا ضده ، فالنار موعده يوم القيامة . فلا تكن أيها النبى فى شك(١) من هذا القرآن إنه الحق النازل من عند ربك ، لايأتيه الباطل، ولكن أكثر الناس تضلهم الشهوات فلا يؤمنون بما يجب الإيمان به .

١٢ - **﴿قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ماليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين﴾** (هود - ٤٦) .

أقول : فى الآيات السابقة على هذه الآية (٤٦) نصوص عن «الطوفان» و«السفينة» التى حملت نوحا والذين آمنوا معه ، ولم يكن منهم ابن نوح ، ولا امرأته (لقد كانا من الغابرين) . ونادى نوح ابنه «يابنى اركب معنا» قال «سآوى إلي جبل يعصمنى من الماء» «وحال بينهما الموج فكان من المغرقين» «ونادى نوح ربه فقال ربِّ إن ابنى من أهلى ، وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين» (٤٥)، فجاء الرد فى الآية ٤٦ سابقة الذكر. وفى الآية ٤٧ «قال ربِّ إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم وإلا تغفر لي وترحمنى أكن من الخاسرين». وأعود إلى «المنتخب» وما جاء فيه عن الآية ٤٦ .

---

(١) إن الرسول عليه الصلاة والسلام ، هو الذى نزل عليه القرآن ، وأول من آمن بربه - ويقال هنا إن الخطاب للنبى، والمراد أمته ، أى من يمكن أن يراوده أى شك منهم .

قال الله سبحانه وتعالى : إن ابنك ليس من أهلك ، إذ إنه بكفره وسيره مع الكافرين قد انقطعت الولاية بينك وبينه، وقد عمل أعمالا غير صالحة ، فلم يَصِرْ منك، فلا تطلب مالاتعلم ، أهو صواب أم خطأ، ولا تَسرْ وراء شفقتك. وإنى أرشدك إلى الحق لكيلا تكون من الجاهلين الذين تنسيهم الشفقة الحقائق الثابتة.

١٣ - **﴿فلا تك فى مرية مما يعبد هولاء مايعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾** (١٠٩ من نفس السورة) .

ماجاء عنها فى المنتخب : «وإذا كان أمر الأمم المشركة الظالمة فى الدنيا ثم فى الآخرة ، هو ماقصصنا عليك أيها النبى ، فلا يكن عندك أدنى شك فى مصير عباد الأوثان من قومك : إن استمروا على ضلالهم، لأنهم كالسابقين من آبائهم الذين قصصنا عليك قصصهم من قبل: كلهم مشركون ، وإنا لموفو هؤلاء الكفرة استحقاقهم من العذاب كاملا على قدر جرائمهم، لا ينقصون منه شيئًا .

أقول : إنه التفسير الحرفى لما درج عليه «المنتخب» . وأدنى إلى القبول القول بأنه، وإن كان الخطاب للرسول الذى أنزل عليه القرآن ، فالمقصود من عسى أن يقع فى وهم، أو يراوده شك من أمته فى مصير عباد الأوثان. والكل مثاب . والله أعلم !

وأقول : ما ذكرته فيما تقدم من آيات القرآن الكريم ، ليس إلا أمثلة من آيات كثيرة قد تتعدد معانيها، واحتمالات المقصود منها . وأعود وأثبت هنا الآية ٧ من سورة آل عمران وقد سبق الكلام عنها (١) **﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومايعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب * ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب * ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه إن الله لايخلف الميعاد﴾** فالآيات المحكمات - كما جاء فى الآية الكريمة (٧) - هن أم الكتاب، والأصل والأساس . إنها محددة المعنى ، واضحة المقاصد. أما الأخر ، أى المتشابهات ، فإنها مما يدق معناه على أذهان كثير من الناس ، وتصعب، وتعزّ ، وتستعصى على غير الراسخين فى العلم . ولم يكن المولى جل وعز لينزل هذه الآيات إلا لحكمة ، بل حكَم ، منها حفز الأذهان والأفهام على البحث والنظر والاجتهاد فى الدين . وهذا مطلوب ، بل إنه فرض على القادرين المتخصصين . ولم نكن لنرث هذا التراث الفقهى الإسلامى ، الغنى جدا جدا، والذى تتعدد فيه الآراء ، منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وحتى اليوم ، وغدا بإذن الله. وتعدد الآراء - فى ذاته - نعمة ورحمة. ولم تكن الشريعة الإسلامية ، وهى صالحة لكل زمان ومكان إلا لمرونتها ومراعاتها للمتغيرات المكانية والزمانية ، ومتابعة رجالها للتطورات المتلاحقة فى هذا العالم الواسع وتجاربه فى مختلف الشئون ، شئون السياسة والاقتصاد وغيرهما ،

---

(١) ثم أضيفت الآيتان التاليتان لها (٨، ٩) مع تعليق عليها .

وإننا نستفيد كثيرا من الأطروحات والرسائل التي تتصدى للمقارنة بين الشريعة الإسلامية والنظم المعاصرة . ونسأله تعالى – أن يجنبنا الهوى والزيغ. إنه من وراء القصد ، وهو السميع العليم المجيب.

يقول سبحانه وتعالى ، فى الآيات الأخيرة من سورة القصص (الآيات ٨٥ – ٨٨) **﴿إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين (٨٥) وماكنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك * فلا تكونن ظهيرا للكافرين (٨٦) ولايصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين (٨٧) ولاتدع مع الله إلّها آخر لا إلّه إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾** (٨٨) .

ما جاء عن هذه الآيات فى المنتخب .. الله – سبحانه – هو الذى أنزل عليك القرآن ، وأمرك بتبليغه ، وهو رادك إلى معاد «يوم القيامة» ليفصل بينك وبين مكذبيك، وهو أعلم بمن منحه الهداية، وبمن وقع فى الضلال. «وماكنت – أيها الرسول ، تأمل وتنتظر أن ينزل عليك القرآن ، ولكن الله أنزله عليك من عنده رحمة بك وبأمتك ، فاذكر هذه النعمة، وثابر على تبليغها ولاتكن أنت ولا من اتبعك عونا للكافرين على مايريدون . (الآية ٨٦) . «ولايصرفنك الكافرون عن تبليغ آيات الله والعمل بها ، بعد أن نزل الوحى بها عليك من الله وأصبحت رسالتك ، وثابر على الدعوة إلى دين الله ، ولاتكن أنت ولا من اتبعك من أنصار المشركين بإعانتهم على مايريدون» (٨٧) . «ولاتعبد من دون الله إلها سواه ، إذ ليس هناك إلّه يُعبَد بحق غيره كل ماعدا الله هالك وفانٍ ، والخالد الباقى إنما هو الله الذى له القضاء النافذ فى الدنيا والآخرة ، وإليه – لامحالة – مصير الخلق أجمعين» (٨٨) .

خلاصة موجزة لما جاء عن هذه الآيات «فى ظلال القرآن» بعد انتهاء ماجاء من قصص فى سورة «القصص» جاء الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، ومن خلفه القلة المسلمة التى كانت يومها بمكة ، كان مطارداً من قومه، وهو فى طريقه إلى المدينة لم يبلغها بعد . كان حزينا على ترك بلده، لكن الدعوة وتبليغها فوق كل اعتبار . إن الذى فرض عليك الدعوة ، ورادك إلى يوم القيامة ، ليس بتاركك للمشركين بمكة يستبدون بك ويفتنون أصحابك ، إنك اليوم مُخْرجٌ مطارد ، ولكنك عائد إليها (مكة) غداً منتصرا . إن الله ليس بتاركك ، تماماً كما لم يترك موسى وغيره من الأنبياء من قبلك . ووعد الله قائم وأمره نافذ لكل من اتخذ طريقه ، واتخذ كذلك الأسباب . فامضِ وأنت مطمئن إلى نصر الله الذى لاتستريب فيه. إن اختيارك للرسالة نعمة ماكنت تتوقعها، ولكن الله يعلم حيث يجعل رسالته . ولهذا يأمره ربه ألا يكون ظهيراً للكافرين. ويحذّره أن يصدوه عن عقيدة التوحيد ، وعليه بنبذ الشرك والمشركين.

«إنه الإيقاع الأخير فى السورة ، يفصل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وطريقه ، وما بين الكفر والشرك وطريقه ، ويبين لأتباع الرسول طريقهم إلى يوم القيامة . فلا يمكن أن يكون هناك تناصر بين الفريقين ، منهجاهما مختلفان. إنهم حزب الله ، والآخرون حزب الشيطان . إلى آخره .

حول تفسير الآية ١٤٥ - البقرة :

يقول تعالى : ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين﴾.

تفسير «المنتخب للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية» «وما كان إنكار أهل الكتاب عليكم لشبهة تزيلها الحجة، بل هو إنكار عناد ومكابرة . فلئن جئتهم أيها الرسول بكل حجة قطعية على أن قبلتك هى الحق ماتبعوا قبلتك . وإذا كان اليهود منهم يطمعون فى رجوعك إلى قبلتهم ويعلقون إسلامهم على ذلك فقد خاب رجاؤهم وما أنت بتابع قبلتهم ، وأهل الكتاب أنفسهم يتمسك كل فريق منهم بقبلته ، فلا النصارى يتبعون قبلة اليهود، ولا اليهود يتبعون قبلة النصارى . وكل فريق يعتقد أن الآخر ليس على حق، فاثبت على قبلتك ولاتتبع أهواءهم . فمن اتبع اهواءهم بعد العلم ببطلانها والعلم بأن ماعليه هو الحق، فهو من الظالمين الراسخين فى الظلم .

تفسير أوضح التفاسير «ولئن أتيت الذين أوتو الكتاب» من اليهود والنصارى «بكل آية» بكل معجزة يقترحونها وبرهان يطلبونه «ماتبعوا قبلتك» لإصرارهم على الكفر والعناد ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم إنك إذًا لمن الظالمين - علم الله تعالى أن رسوله صلوات الله تعالى وسلامه عليه - ليس بتابع قبلتهم ، ولا بمتبع أهواءهم ، ولكنه خطاب موجه لسواد الأمة الإسلامية ، ونهى لكل من يؤمن بالله واليوم الآخر عن اتباع الأشرار والفجار واتخاذهم أولياء. وهو كنهى الملك لقائده وتهديده أمام جنده بقصد حثهم على الاستقامة ، وتحفيزهم على الطاعة. وكل ما جاء فى الكتاب الكريم من الآيات بهذا المعنى ، فهو لهذا المرمى .

أقول : إن تفسير المنتخب تفسير حرفى ، لكنه متحفظ وملتزم ، ولم يفته التعبير الأنسب فقال : فمن اتبع أهواءهم (وهى عامة) ، ولم يقل ، فإن اتبعت أهواءهم - كما جاء فى النص الكريم . كلاهما مصيب ومثاب . لكن تفسير صاحب أوضح التفاسير ، له - عندى - وقع أحسن أثرا ويجزى الله الجميع - أحياءً وأمواتا - كل خير .

وهذا هو ماجاء عن نفس الآية فى تفسير القرطبى :

قوله تعالى : «ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذًا لمن الظالمين» الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، والمراد أمته ممن يجوز أن يتبع هواه فيصير باتباعه ظالما، وليس يجوز أن يفعل النبى صلى الله عليه وسلم ما يكون به ظالما ، فهو محمول على إرادة أمته لعصمة النبى صلى الله عليه وسلم ، وقَطْعِنَا أن ذلك لايكون منه . وخوطب النبى صلى الله عليه وسلم تعظيما للأمر ، ولأنه المنزل عليه .

و «فى ظلال القرآن» للشهيد سيد قطب :

«ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ماجاءك من العلم إنك إذًا لمن الظالمين»

قال : ونقف لحظة أمام هذا الجد الصارم ، من هذا الخطاب الإلهى من الله سبحانه وتعالى إلى نبيه الكريم الذى حدثه منذ لحظة ذلك الحديث الرفيق الودود . إن الأمر هنا يتعلق بالاستقامة على هدى الله وتوجيهه. ويتعلق بقاعدة التمييز والتجرد إلا من طاعة الله ونهجه . ومن ثم يجيء الخطاب فيه بهذا الحزم والجزم، وبهذه المواجهة والتحذير .. «إنك إذاً لمن الظالمين» إن الطريق واضح ، والصراط مستقيم ، فإما العلم الذى جاء من عند الله ، وإما الهوى فى كل ماعداه . وليس للمسلم أن يتلقى إلا من الله، وليس له أن يدع العلم المتيقن إلى الهوى المتقلب. وماليس من عند الله فهو الهوى بلا تردد . وإلى جانب هذا الإيحاء الدائم نلمح كذلك أنه كانت هناك حالة واقعة من بعض المسلمين ، فى غمرة الدسائس اليهودية ، وحملة التضليل الماكرة ، تستدعى هذه الشدة فى التحذير ، وهذا الجزم فى التعبير.

أقول : يبدو أن الشهيد سيد قطب كان فى غنى عن أن يقول : إنه وإن كان الخطاب لرسول الله صلى عليه وسلم فالمراد أمته . وسياق عبارة صاحب الظلال واضحة فى أن المسلمين هم المقصودون بل أنه يُلَمِّح أن كان من بعضهم ما كان فى هذا الموقف، من التأثر بتشويش أعدائهم !

الفصل الحادى عشر

الصدقات فى الكتاب والسنة(١)

مدخل للدراسة

هذه بضاعتنا، ونحن بها أولى

بند (٣٦)

انحرف المسلمون - إلا من عصم الله - عن دينهم، وقيمهم الإسلامية منذ وقت مبكر. وشيئًا فشيئًا، وعلى مدى القرون، وبدلا من أن يمضوا إلى الأمام، مضوا، وبصفة عامة إلى الوراء! نعم! لقد ازدادوا عن عقيدتهم وشريعتهم بعداً، حتى صاروا غرباء أو شبه غرباء عنها. لقد غلبهم حكامٌ لهم على أمرهم، وعتّموا عليهم أهم مبادئهم! لقد كان هؤلاء الحكام، أحيانا منهم، وأحيانا أخرى من غيرهم. ورفع هؤلاء وهؤلاء فوق رقاب الشعوب سيف الترهيب وأغْرَوْا ضعاف النفوس بالترغيب. وفى هذا المناخ - وكالعادة - ظهر المنافقون على السطح، ولاذ الكثيرون بالصمت. ومضى الطغاة والجبابرة بالشعوب إلى دنيا الظلام والحرمان ومتاهات الضلال! غلبت الدنيا على قلوب القوم، واستبد بهم الهوى(٢)، وكان ما كان، ودفعت الشعوب الثمن باهظًا!.

وَأَنْتَقِلُ عبر القرون - إلى «الحملة الفرنسية» على مصر(٣). قال بعضهم: «إن الحملة الفرنسية» كانت حملة علمية أكثر منها عسكرية. ومن المحقق أنهم لم يأتوا إلينا بأساطيلهم وأسلحتهم الحديثة، ومنها الثقيلة والخفيفة - لينشروا العلم بيننا، وينقلوا مبادئ «الإخاء والحرية(٤) والمساواة» إلينا!

لقد كانت هذه الحملة هى البداية فى تاريخنا الحديث، التى لَوَتْ أذرعنا وأعناقنا، وجرّتنا، وما تلاها من حكم أجنبى إلى نظم غريبة(٥) عنا، ودخيلة علينا، وما زالت - حتى اليوم - وإلى حد كبير سائدة فينا. وكالعادة أيضا - عاونهم نفر منا علينا!.

---

(١) الكلام فيما يلى - يشمل «الزكاة»، «وما فى المال من حق سوى الزكاة» ثم «كل إنفاق فى سبيل الله» (أى الصدقات عامة، ومنها التطوعية).

(٢) انظر قوله تعالى: «أرأيت من اتخذ إلهه هواه؟!» (٤٣ - الفرقان).

(٣) نزلت بأرضنا فى يوليو ١٧٩٨م، ورحلت بعد سنوات قليلة (١٨٠١).

(٤) وهى مبادئ ثورتهم.

(٥) كموضوع «الزنى»، فى الجنائى، «والربا» فى المدنى والتجارى.

لو كان الأمر بيد الشعوب، لكان الحكم لصالح الشعوب، ومن أجلها، وأجلها وحدها، ولكان من المكن الاستفادة من تجارب الغير، وعدم الانغلاق دونه، ودون ما لديه من علم وتقدم وخبرة مع تطويع هذا كله، بل وتأسيسه، على كتابنا وسنة نبينا . ولست بحاجة إلى القول بأننا قد سبقناهم بقرون وقرون، إلى ما يمارسونه اليوم فى الشئون السياسية والدستورية والاقتصادية والعلمية والفنية وغيرها من كل مقومات الحضارة والتقدم . إن شئوننا فى هذه النواحى فى عهود الازدهار، لم تكن ترتكز على العلم وحده، بل – وفى المقام الأول – على الدين والأخلاق ابتداءً وانتهاءً ودائماً .

الـزكـــاة

بند (٣٧)

الزكاة : البركة والنماء . والزكاة : الطهارة . والزكاة : صفوة الشيء . والزكاة – فى الشرع : حصة من المال ونحوه يوجب الشرع بذلها للفقراء ونحوهم بشروط خاصة . (المعجم الوسيط).

والزكاة قاعدة من قواعد الإسلام الخمس . وهى عبادة ذات طابع اجتماعى تظهر آثارها فى المجتمع ككل . والمجتمع المسلم هو مجتمع التضامن والتكافل . إنه المجتمع المتراص الذى يشد بعضه بعضاً، والذى لا يدع فى بنائه ثغرة ينفذ منها الحقد أو الصراع . إنه – وكما يجب أن يكون – المجتمع الذى لا يوجد بين أفراده عوز . وكيف يوجد فيه العوز ، ونفقة العاجز فيه واجبة على أقاربه(١)، فإن لم يوجدوا أو لم يستطيعوا – كانت على بيت المال . وفى الحديث الشريف : «من ترك كلاًّ فإلينا»(٢) .

فى المال حق سوى الزكاة

بند (٣٨)

الأمّة (أو الشعب) كما تنص الدساتير الحديثة – هى مصدر السلطات (أو الولاية العامة بالمصطلح الإسلامى) – وهذا يعنى أن الحكومة والحكم منها وبها وإليها . إن الحكومة سواءً كانت الحكومة المركزية، أم الهيئات الإدارية اللامركزية (محلية كانت أم مرفقية) ، فى خدمة الشعب . وطموحات الشعوب وحاجاتها المتعددة والمتجددة لا تعرف الحدود . ونفقات الدفاع بالذات صارت فى عصرنا جد باهظة . والهيئات الإدارية المحلية تحتاج إلى موارد مالية تنفق منها على المرافق العامة المطلوب منها القيام بها .

---

(١) انظر – فى نفقة الأقارب – على سبيل المثال – البدائع للكاسانى ج ٤ – ١٣٩٤ بيروت، ص ٣٠ وما بعدها. هذا ونفقة الأقارب مقدرة بالكفاية من مأكل ومشرب وملبس وسكنى ورضاع ، إن كان رضيعا، ومن جملة الكفاية الخادم الذى يحتاج إليه المُنفَق عليه . (المرجع نفسه ص ٣٨) .

(٢) الكَلُّ : العيال والثقل . والكَلّ : أيضا – اليتيم . وفى لسان العرب : مادة كَلَّ : «من ترك كلاًّ فإلىّ وعلىّ».

وللزكاة مصارف معروفة[1]، منها مصرف «في سبيل الله» فإذا لم يف هذا المصرف بالمصالح[2] (أو المرافق العامة) - فهل لوليّ الأمر أن يفرض في مال الأغنياء ضرائبَ مع الزكاة - للانفاق على هذه المرافق ومنها (بل وفي مقدمتها) مرفق الدفاع؟

وفي تفسير القرطبي للآية ١٧٧ من سورة البقرة، وهي : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**﴾ قال « ... **وآتى المال على حبه** ...» - استدل به من قال : إن في المال حقا سوى الزكاة . وقيل : الزكاة المفروضة . والأول أصح لما خرجه الدارقطني عن فاطمة بنت قيس، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن في المال حقا سوى الزكاة» ثم تلا هذه الآية : « **ليس البر** ...» وأخرجه ابن ماجه في سننه ، والترمذي في جامعه . يقول القرطبي: والحديث وإن كان فيه مقال ، فقد دل على صحته معنى ما في الآية نفسها من قول الله تعالى: « **وأقام الصلاة وآتى الزكاة**» فذكر الزكاة مع الصلاة ، وهذا دليل على أن المراد بقوله «**وآتى المال على حبه**» ليس الزكاة المفروضة، فإن ذلك كان يكونُ تكراراً . واتفق العلماء على أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة يجب صرف المال إليها . قال مالك رحمه الله : يجب على الناس فداء أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم . وهذا إجماع أيضا ، وهو يقوّي ما اخترناه[3] .

وأعود وأقول : إن الحق المشار إليه في حديث : «في المال حق سوى الزكاة» ليس مجرد صلة ومكرمة ، وإنما هو واجب ، وهذا يعني جواز فرض ضرائب مع الزكاة، ولكن بشروط، منها ألاّ تُفرض إلا لضرورة أو حاجة، من ذلك تمويل المرافق العامة، وفي مقدمتها، وعلى رأسها مرفق الدفاع كما سبقت الإشارة إلى ذلك . ويجب الاهتمام كل الاهتمام بهذا المرفق

---

(١) انظر الآية (٦٠ - التوبة) .

(٢) انظر تفسير القرطبي للآية ٦٠ - التوبة، وقد ذكر أنه يُعْطَى من الزكاة في الكُرَاع والسلاح وما يحتاج إليه من آلات الحرب وكف العدو عن الحوزة . وانظر في تفسير المنار لنفس الآية ، وقد جاء فيه أنّ مصارف الصدقات (الزكاة) قسمان : أشخاص ومصالح . ومصرف «في سبيل الله» يشمل سائر المصالح الشرعية العامة (المرافق العامة)، التي هي ملاك أمر الدين والدولة.

(٣) انظر بنفس المعنى «في ظلال القرآن» لسيد قطب رحمه الله (تفسير الآيتين ٣ و ١٧٧ من سورة البقرة) ، وتفسير المنار لهذه الآية الأخيرة (١٧٧) : وفيه أن إيتاء المال على حبه غير إيتاء الزكاة . وهو (أي إيتاء المال على حبه) ركن من أركان البر ، وواجب كالزكاة (وانظر لكاتب هذه السطور : الإسلام وحقوق الإنسان - دراسة مقارنة - طبعة ثانية - بند ٢٠٣ وما بعده). هذا وفي المال حقوق أخرى : مثل حق الضيف، وحق الزرع (١٤١ الأنعام) وحقوق الأنعام والخيل ، وحق الماعون . (انظر : الحسبة لابن تيمية ص ٣٨ - الناشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة) .

حتى ولو لم نكن فى حالة حرب؛ ذلك لأن الاستعداد للحرب أنفى للحرب[1] . وفى البلاد ذات الموارد الطبيعية العظيمة، (كبلاد البترول فى زماننا) تتضاءل الحاجة إلى فرض ضرائب، بل قد تنعدم هذه الحاجة . ومن الشروط الواجب الإشارة إليها (وهو ما تنص عليه الدساتير عادة) - ألا يقرر هذه الضرائب، ولا يُقرّها إلا مجلس الشورى (البرلمان)، وكذلك المجالس الشعبية المحلية فى الأقاليم، بشرط أن تكون مفوضة فى ذلك، وفى حدود هذا التفويض . وفى سائر الأحوال تجب مراعاة العدل فى توزيع أعباء هذه الضرائب، ومراعاة العدل والانضباط فى إنفاقها، فلا تنفق إلا فى مصالح عامة تعود بالخير على الدين والدولة، والمقيمين على أرضها جميعا .

هذا، وقضية الضرائب قضية معقدة، لكنه - وفى سائر الأحوال - يجب مراعاة التوازن بين مصلحة الممول، ومصلحة الدولة . علينا أن نجتهد، وقد نخطئ، وإرضاء الطرفين صعب، إن لم يكن من المستحيل . وهناك أمران مرفوضان تماما: وتحت مختلف النظم : الأمر الأول : التعسف من جانب الدولة، والثانى : التهرب من جانب الممول . إن الضريبة لم تعد مجرد وسيلة لإمداد الخزانة العامة بالمال اللازم للإنفاق على المرافق العامة، وإنما أصبحت - إلى جانب ذلك - أداة فعالة لتحقيق العدل الاجتماعى وتقليل الفروق بين الدخول (أعلاها وأدناها)- بقدر الاستطاعة . فصاحب الدخل الأكبر يدفع أكثر، وصاحب الدخل القليل يؤدى القليل، أو يُعْفَى كُلِّيَّة .

والضريبة - كعلم وفن - وفى جميع مراحلها - من التشريع إلى التطبيق - شديدة التعقيد - كما سبق القول - وكثيرا ما نجدها إذا أفادت فى ناحية أضرت فى ناحية أخرى . ولنكتف - كمثل على ذلك - «بالتعريفة الجمركية» والكلام لمحمود صالح الفلكى[2] قال : للسياسة الجمركية - بصفة عامة - وظائف مالية واقتصادية واجتماعية هامة، أبرزها توفير إيرادات طائلة للدولة تقابل بها مصروفاتها العامة، كما أنها تُستَخْدَم لتوفير حماية جمركية ملائمة للصناعات القائمة، فضلا عن تشجيع قيام صناعات جديدة يُرجى لها النجاح فى المستقبل . والواقع أن بعضًا من هذه الوظائف أو الأهداف يصطرع بعضها مع بعض : فمثلا إذا توسعنا فى اعتبار الحصيلة فإن ذلك يصطدم باعتبارات التنمية، وتهبط بالحصيلة ذاتها فى نهاية المطاف . وإذا توسعنا فى اعتبار الحماية للصناعات المحلية بفرض رسوم جمركية مُغَالًى فيها على السلع الواردة (التامة الصنع) فإن ذلك يهبط بمستوى السلع المحلية ويرفع تكاليفها وأسعارها لانعدام المنافسة الخارجية، ويقع عبء ذلك كله على المستهلك . ومن ناحية ثالثة إذا

---

(١) أذكر هنا بعض الآيات الكريمة التى وردت فى هذا المعنى : يقول تعالى فى سورة الأنفال (الآية ٦٠) : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون» . ويقول جل وعزّ - فى سورة البقرة : «وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين» (الآية ١٩٥) - وأظهر الأقوال فى قوله تعالى : «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ...» أى بالتقصير فى الاستعداد، ففى هذا هلاك لكم، إذْ تذهب ريحكم ويقوى عدوكم ويطمع فيكم .

(٢) انظر كتابى : «الإسلام - والإدارة والاقتصاد» والمراجع المشار إليها فيه ص ٣١٤ وما بعدها .

توسعنا كثيراً فى تحقيق هدف العدالة الاجتماعية – مثلا – فإن هذا قد يؤدى إلى إعاقة النمو الاقتصادى، وربما إلى توقف عمليته تماما دون مراعاة لمصالح المجتمع ككل . لهذا يتعين المواءمة بين هذه الأهداف جميعها حتى لا يطغى أحدها على الآخر، وحتى يتحقق أكبر قدر مستطاع من النفع العام .. وللضريبة – كذلك – مخاطرها فى الربط والتحصيل، وخاصة فى حالة ما يعرف بالتقدير الجُزاف . وكثيراً ما يُغْلق الحرفيون الصغار أبوابهم بسبب سوء استعمال السلطة في هذا التقدير .

وبمناسبة الكلام عن «الضريبة» أشير إلى أن الدولة قد تقيم بعض المنشآت لهدف مالى، فتكوِّن لنفسها احتكاراً . وإذا كانت دولة أو أخرى تبيح هذا لنفسها فإن الاحتكار (على هذا النحو) مرفوض ديانة . والدين – فى الإسلام – هو الأساس وبه تساس شئون الدنيا والآخرة.

إننا ندعو إلى الدولة الإسلامية، أو – بعبارة أخرى– وبصفة مرحلية – إلى حكومة مدنية، تطبق الشريعة الإسلامية، وتقيم بناء ها على عقيدتنا النقية، وفلسفتنا السياسية الإسلامية القائمة على التعبد لله، ولله وحده . يومئذ تنتشر أعلام الحرية والعدل والسلام على كل أرجاء الأرض . وهذا – فيما أذهب إليه – هو المهدى المنتظر ..!

هذا، وعن نفس الآية (١٧٧ من سورة البقرة) – جاء فى تفسير ابن كثير (مجلد ١ ص ٢٩٦ وما بعدها) أن الله تعالى لما أمر المؤمنين بالتوجه إلى بيت المقدس، ثم حولهم إلى الكعبة شق ذلك على نفوس من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله بيان حكمته فى ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجه واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل . إن هذه الآية – كما قال الكثيرون – دليل قوى على أن الإسلام لا تعنيه المظاهر بقدر ما تعنيه الحقائق . إن البر هو فى الإيمان وتوابعه من الأعمال الصالحة التى عددتها الآية، وليس البر فى التوجه إلى جهة ما فى الشرق أو الغرب .

وعن قوله تعالى « **على حبه**» جاء فى القرطبى : الضمير فيه اخْتُلِفَ على عَوْدِه . ومما قيل فى ذلك : إنه يعود على المال، ونظيره قوله تعالى : ﴿ **ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا**﴾ (راجع للقرطبى جـ ١٩ ص ١٢٦) – أى على حب الطعام ... (وانظر أيضا تفسير ابن كثير : نفس المجلد ص ٢٩٧) قال : أى أخرجه وهو محب له راغب فيه . نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف، كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة مرفوعا «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر» (أى قبل أن تصبح فى خريف العمر) (ففى سن الشباب تكون الآمال والأمانى) – وانظر قوله تعالى : « **... وغرتكم الأمانى ...**» (الآية ١٤ – الحديد) وبعد أن ذكر ابن كثير قوله تعالى : « **ويطعمون الطعام على حبه ...**» وقوله ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾ وقوله تعالى : ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾. قال : فهؤلاء آثروا بما هم مضطرون إليه، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبون له.

أقول : هذا مما كان عليه سلفنا الصالح من الإنفاق مع الحاجة، والإيثار مع الاضطرار لقد تحملوا ما تحملوا فى دنياهم، فما أعظم سعادتهم بأخراهم، لم تكن الدنيا أكبر همهم، ولا غاية علمهم، فأكرمهم الله فى الدنيا بحسن الذكر، وفى الآخرة بحسن المصير . إنها منزلة رفيعة. ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ (٣٥ - فُصلت) .

التزكية والتطهير

بند (٣٩)

يقول تعالى فى سورة التوبة (الآيات ١٠٢ إلى ١٠٤) : ﴿وآخرين اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم * خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها و صل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم * ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم﴾.

« وآخرون» من المنافقين «اعترفوا بذنوبهم» بأن تابوا منها وأقلعوا عنها . ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم بها﴾ من دنس الشح والبخل والإثم « وتزكيهم» تنمّى أعمالهم وحسناتهم « و صل عليهم» ادع لهم « إن صلاتك سكن لهم» رحمة وسلام وطمأنينة . ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾ يغفر لهم ذنوبهم . « ويأخذ الصدقات» يتقبلها ويجزى عليها (وانظر : أوضح التفاسير) .

هذا، وقد جاء فى تفسير القرطبى : هذا نص صريح فى أن الله هو الآخذ لها(١) والمثيب عليها . وأن الحقّ له جل وعزّ . والنبى صلى الله عليه وسلم واسطة، فإن تُوُفّىَ فَعَامِلُهُ هو الواسطة بعده . والله - سبحانه وتعالى - حى لا يموت .. وهذا يبين أنّ قوله - سبحانه وتعالى -: « خذ من أموالهم صدقة» ليس مقصورا عليه (أى على النبىّ) روى الترمذى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره حتى أن اللقمة لتصير مثل أحد . وتصديق ذلك فى كتاب الله « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات» . « ويمحق الله الربا ويربى الصدقات»- قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى صحيح مسلم : «لا يتصدق أحدكم بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه - فى رواية - فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل» - الحديث. ورُوِى : «إن الصدقة لتقع فى كف الرحمن قبل أن تقع فى كف السائل، فَيربيها، كما يربى أحدكم فَلُوَّه (ولد الفرس)، أو فصيله(٢)، « والله يضاعف لمن يشاء» . يقول القرطبى : قال

---

(١) أقول : هذا يذكر بالحديث الشريف : «كل عمل ابن آدم يُضاعفُ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله . قال الله - عزّ وجل - إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به . يدع شهوته وطعامه من أجلى..» إلى آخر الحديث . وأقول : وفى الزكاة يدع مُؤدّيها شهوته للمال (على حبه)، ويغالب فى نفسه الشح والبخل، ويذكر حق الله والناس عليه . (والحديث السابق ذكره فى هذا الهامش رواه مسلم عن أبى هريرة) .

(٢) الفصيل = ولد الناقة أو البقرة . بعد فطامه وفصله عن أمه .

علماؤنا رحمة الله عليهم فى تأويل هذه الأحاديث : إن هذا كناية عن القبول والجزاء عليها، كما كَنى بنفسه الكريمة المقدسة عن المريض تعطفا عليه بقوله : «يابن آدم مرضت فلم تعدنى . قال: يارب : كيف أعودك وأنت ربّ العالمين؟ قال : أما علمت، أن عبدى فلانا مرض فلم تعده . أما علمت أنك لو عُدْتَه لوجدتَنى عنده» .

البركة والنماء

فى الإنفاق فى سبيل الله

بند (٣٠)

يقول تعالى فى سورة البقرة (الآيات ٢٦١ ومابعدها) : **﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم* الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لايتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون* قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم * يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين * ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مر ضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير﴾** (٢٦١ – ٢٦٥) ومن نفس السورة (الآية ٢٧٦) يقول تعالى : **﴿يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم﴾** ومن سورة الروم (الآية ٣٩) يقول تعالى : **﴿وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾** ومن سورة سبأ (الآية ٣٩) يقول تعالى : **﴿قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾**.

أكتفى بهذا القدر، مشيراً إلى أن ما جاء فى ذات المعنى كثير فى الكتاب الكريم . فى هذه الآيات الكريمة، يضرب الله لنا الأمثال، ويلْفتنا إلى آياته وآثاره فى خلقه وفى أنفسنا، وفى الآفاق، وفى الكون العظيم : فالذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاته، وتثبيتًا من أنفسهم، وإخلاصا من أعماق قلوبهم، ويقينًا بما وعد الله، هؤلاء هم «المحسنون» الذين يؤتيهم الله ثواب الدنيا والآخرة . ففى مقابل القليل الذى أَعْطَوْا من كسب مشروع فى وجه أو وجوه مشروعة، يؤتيهم الله البديل فى الدنيا مضاعفا : فالحبَّة بسبعمائة، وقد تزيد، وفى الآخرة غُرفٌ فى أعلى درجات الجنات . إن خزائنه لا تنفد، وإن عطاءه غيرُ مجذوذ ولا مقطوع ، إنه يضاعف لمن يشاء وهو الواسع العليم، الغنى الحميد .

إن المال مال الله، قد جعلنا مستخلفين فيه، بفروضه وشروطه هو، ومن فروضه الزكاة، ومن شروطه البراءة من الرياء، ومن المنّ والأذى، وإنما السماحة والمغفرة، والبرّ فى وجوه البر، وما أكثر وجوه البر! والأعمال – فى الإسلام بالنيات، ولكل امرئ ما نوى . والله يعلم إعلاننا

وإسرارنا وما تخفى صدورنا . إن المولى – جل وعزّ – يقول : إنه « يمحق الربا»، إنه يسحقه ويهلكه . أما «الصدقات» فإنه يربيها ويضاعفها . إن العطاء لله، وما كان لله يجب ألا تشوبه شائبة! وفى الحديث : أنّ ملَكَيْن يصيحان كل يوم . يقول أحدهما : «اللهم أعط ممسكا تلفا» ويقول الآخر : «اللهم أعْط مُنفقًا خلفا» ومن أقواله صلى الله عليه وسلم : «أنفق بلالُ، ولا تخش من ذى العرش إقلالاً[1]».

حدود الله ..!

واجبات على كل الأطراف

بند (٣١)

يقول تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه والله غنى حميد * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم﴾** (٢٦٧ و ٢٦٨ – البقرة).

يأمر المولى – جل وعزّ – المؤمنين بأن ينفقوا من طيبات ما كسبوا، ومما أخرج الله لهم من الأرض ولا يعمدوا إلى الخبيث الردىء ينفقون منه . إنهم – لو قُدِّم إليهم هذا الخبيث لرفضوه وزهدوا فيه . إن هذا الذى يقدِّم إلى الله ما لا يرضاه لنفسه فى قلبه زيغ . ليت هذا وأمثاله يدركون أنهم لا يقدمون لزيد ولا لعمرو إنما يقدمون لأنفسهم، والله – سبحانه – غنى عنهم.

وأنقل هنا بعض ما جاء فى القرطبى عن هذه الآية (٢٦٧) (مجلد ٣ ص ٣٢٥ وما بعدها من التفسير) : كان أناس فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصدون إلى الخبيث ينفقون منه . روى الدارَقطنى عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال : أمر النبى صلى الله عليه وسلم بصدقة، فجاء رجل من هذا السُّحَّل بكبائس[2]، يعنى الشِّصَّ . فقال عليه الصلاة والسلام: «من جاء بهذا؟» . وكان لا يجىء أحد بشىء إلا نُسِبَ إلى الذى جاء به . فنزلت الآية : **« ولا تيمموا... »** إلى آخر الآية . وعن قوله تعالى : **« ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه»** أى لستم بآخذيه فى ديونكم وحقوقكم من الناس إلا أن تتساهلوا فى ذلك وتتركوا من حقوقكم، .. أى فلا تفعلوا مع الله ما لا ترضونه لأنفسكم ... وفى قول آخر : ولستم بآخذيه إذا وجدتموه فى السوق يباع إلا أن يُهْضَم لكم من ثمنه ... وفى قول ثالث «ولستم بآخذيه..» لو أهدى إليكم إلا أن تغمضوا فيه، أى تستحى من المُهْدِى فتقبل منه ما لا حاجة لك به، ولا قدر له فى ذاته . قال ابن عطية : وهذا يشبه أن الآية فى المتطوع . **« واعلموا أن الله غنى حميد»** أى لا حاجة به إلى صدقاتكم، فمن تقرب وطلب مثوبة فليفعل ذلك بِمَالَهُ قَدْرٌ وَبَالٌ .

---

(١) انظر فى هذه الأحاديث : تفسير ابن كثير للآية ٣٩ من سورة سبأ (مجلد ٦ ص ٥٠٨ وما بعدها).

(٢) السُّحل (بضم السين وفتح الحاء مشددة) : الرطب الذى لم يتم إدراكه وقوته، والكبائس جمع كِباسه، وهى القِنْوُ التام من النخل بشماريخه وبُسْرِه .

أقول : وهذا ما أرجحه، فمن أراد الادخار عند الله فلينفق من طيبات ما كسب فى الفرض والتطوع جميعا .

وعن الآية ٢٦٨ أقول : إن الشيطان يوسوس لبعض المنفقين ويوهمهم أن العطاء يُفقرهم، وأن الإنفاق من الجيد يرهقهم . والشيطان عدو للناس وعدو للمؤمنين يخوفهم من الفقر، ويأمرهم بكل فحش . والشح فُحش . والله – جل وعزّ – هو الذى يعطى المنفق خلفا ، والشحيح تلفا، وعنده – سبحانه – الفضل والمغفرة .

وأقول : إنه الشيطان أيضا الذى يوسوس للجابى فيعمد إلى كرائم الأموال وينتقيها، ويأبى أن يأخذ سواها . إنه ظالم، ومن الجباة ظلمة وطغاة . فى هؤلاء جاء الحديث الشريف الذى رواه الجماعة عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم حين بعث معاذًا إلى اليمن، قال له : «إن الله فرض عليهم فى أموالهم صدقة، تُؤْخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم . فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم . واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

وأقول : هذا هو الإسلام الذى يأمر بكل فضيلة، وينهى عن كل رذيلة . هذا هو الإسلام الذى يأمر دائما بمكارم الأخلاق ومروءات الرجال فى كل المواقف . إن الله سبحانه وتعالى يأمر بالعدل والإنصاف بين كل الأطراف . فعلى صاحب المال أن يكون عادلا وأن يكون منصفا لغيره، ولو من نفسه . وخاصة إذا كان الغير هو الدولة، هو الأمة، هو المصلحة العامة، هو حقوق الله، هو الزكاة، وكل إنفاق فى سبيل الله . وعلى الدولة، وعلى رجالها وجُبَاتها، عليهم هم الآخرون ألا يتعدوا حدود الله، وخاصة فى هذه الفريضة، التى هى عبادة فيها معنى المئونة والتكليف المالى . ﴿ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ (١).

إنه إذا شاع وانتشر هذا التصرف التعسفى فى التقدير والتحصيل من جانب «الإدارة» فستكون له نتائج وخيمة على الزكاة ذاتها، أيا كان وعاؤها وأيا كانت مصارفها . وأضرب هنا مثلا «بالضرائب»، فمبالغة العاملين فى مجالها فى التقدير والتحصيل، كثيرًا ما ترتب عليها وقف أنواع من النشاط الاستثمارى والحرفى . وهذا يؤثر فى النهاية على حصيلة الضرائب ذاتها .

الحكمة

بند (٣٢)

يقول تعالى : ﴿**يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب**﴾ (٢٦٩ – البقرة) .

«والحكمةُ بالكسر، العدل، والعلم، والحلم، والنبوة، والقرآن. وأحْكَمَهُ أى أتقنه فاستحكم، ومنعه عن الفساد» والحكمة معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم . والحكمة الكلام الذى يقل

(١) ٢٢٩ – البقرة . وانظر – أيضا – الآية الأولى من سورة «الطلاق» : «ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه» .

لفظه ويجل معناه (القاموس المحيط والمعجم الوسيط) . ومما ينبغى التنويه به أن تأتى هذه الآية الكريمة بين آيات فى الإنفاق فى سبيل الله، من الطيبات، وبالليل والنهار، وسراً وعلانية . إن هذا الإنفاق هو عين الحكمة، فالإنفاق ، واق من الهلاك (١٩٥ – البقرة)، والإنفاق يدفع البلاء، وهو يُربى المال، ويسعد القلب[1] والبال . هو هذا، وأكثر من هذا فى الدنيا . والذين يفعلون ﴿لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (٢٦٢ – البقرة) . إنهم – بحق أولوا الألباب، الذين « يرجون تجارة لن تبور» . ﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور * ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور﴾ (٢٩ و ٣٠ – فاطر) . ومما يجب ذكره أن هذه الآية الكريمة (٢٦٩ – البقرة) غير مكررة فى أى مكان آخر من القرآن العظيم .

القـــروض

بين الشريعة الإسلامية والشرائع الوضعية

بند (٣٣)

مازلنا مع آيات من سورة البقرة (٢٧٨ – ٢٨١) يقول تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون * وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون * واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ .

أقول : إن المؤمنين حقا وصدقا مَدْعُوُّون إلى ترك ما بقى من الربا، فإن لم يفعلوا فليأذنوا بحرب من الله ورسوله، وإن تابوا فلهم رءوس أموالهم لا يَظلمون ولا يُظلمون . وإن كان المدين فى عُسرة فنظرة إلى مَيسَرة . وأنقل هنا (عن الآية ٢٨٠) ما جاء فى كتابى «الإسلام وحقوق الإنسان – دراسة مقارنة – طبعة ثانية – بند ٣١» – أنقله هنا بإيجاز وتصرف :

فأقول :– نقلا عن الشاطبى[2] وغيره : إنه ما من حق للعبد إلا وفيه حق لله . ومن هنا ظهر التكليف حتى فيما يسميه القانون الوضعى «الحقوق المالية» . وهذا مثال يبيّن ما تقدم، ويبرز – فى نفس الوقت – الطابع المختلف فى الشريعة الإسلامية عنه فى الشرائع الوضعية .

هذا زيد من الناس قد بسط الله له فى الرزق، وهذا عمرو يمر بضائقة مالية . ذهب عمرو إلى زيد يطلب منه قرضاً .

---

(١) و«إن الحسنات يُذْهبن السيئات» (١١٤ – هود) . وفى المثل «اللُّقَمُ تمنع النِّقَم» و«عالجوا مرضاكم وأنفسكم بالصدقة» .. إلى آخره وقد قال صلى الله عليه وسلم «لا يزيد فى العمر إلا البر، ولا يردّ القدر إلا الدعاء» (ص ٢٢ من مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية) – لرفاعة رافع الطهطاوى – (طبعة ١٢٨٦هـ) – أقول : إن سعادة المعطى فى الدنيا أكبر من سعادة الآخذ . ولأجر الآخرة أكبر! .

(٢) بيان المراجع – وبتفصيل – مذكور فى كتابى المبينٌ بالمتن .

أولا : من واجب زيد – ديانةً – أن يُقرضَ عَمْراً، وإلا كان مانعا للماعون . (الآية ٧ من سورة الماعون)، ومعطلا لأحادث شريفة كثيرة (انظر – على سبيل المثال –) «الإحياء للغزالى» (جـ ٥ ص ٩٥٢ وما بعدها) – طبعة كتاب الشعب، وانظر – أيضا – «رياض الصالحين للنووى» (طبعة عبد الرحمن محمد – باب النهى عن البخل والشح، وباب حقوق المسلمين، وباب قضاء حوائج المسلمين) .

ثانيا : القرض فى الإسلام قرض حسن، أى بلا ربا ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ (٢٧٥ – البقرة) .

ثالثا : إذا حل موعد السداد، وكان المدين معسرا، فعلى الدائن أن ينتظر حتى الميسرة . وإن تصدق فهو خير له (الآية ٢٨٠ من نفس السورة) (وانظر فى تفسيرها – على سبيل المثال – القرطبى جـ ٣ ص ٣٧١ وما بعدها) .

رابعا : على المدين إذا أيسر أن يسارع إلى السداد بغير مطل . يقول تعالى : ﴿لا تظلمون ولا تظلمون﴾ (٢٧٩ من نفس السورة) – وفى الحديث الشريف : «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله» وفى حديث آخر : «مطل الغنى ظلم» (انظر النووى – المرجع نفسه – باب تحريم مطل الغنى) (والحديثان الشريفان رواهما البخارى وغيره عن أبى هريرة) .

ومن هذا المثال، ومن هذه النصوص، نرى أن حق الله ظاهر على الطرفين جميعا . (على المُقْرِض والمُقْتَرِض معا) .

أقول : إن الدنيا عند المؤمن ليست أكبر الهمّ[1] ولا مبلغ العلم . إن الآخرة خير وأبقى . و «الدين المعاملة» كما جاء فى الحديث الشريف . والدين هو الأساس، ومنه المنطلق . إن واجب المسلم هو الامتثال للأمر والنهى، وهذا هو حق الله . إن الدنيا – فى الإسلام – تساس بالدين، أى بالتقوى، أى بمكارم الأخلاق . وفى ذلك صلاح الفرد وصلاح المجتمع وسعادة الدنيا والآخرة.

والأمر غير ذلك فى الشرائع الوضعية : فالرأسمالى غير ملزم بإقراض من يطلب منه قرضا، وهو لا يُقرض – إذا شاء – إلا المليء . وإذا أقرض فبالربا، والربا الفاحش إذا استطاع، وكثيرا ما استطاع، مستغلا ضعف الطرف الآخر وحاجته . وكثيراً ما خربت بيوت، وانهارت عائلات[2] بسبب الربا الفاحش .

---

(١) «من جعل الهموم هما واحداً – همّ المعاد – كفاه الله سائر همومه . ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا، لم يبال الله فى أى أوديتها هلك» (ابن ماجه عن ابن مسعود).

(٢) انظر لصاحب هذه السطور : «الإسلام والقضاء» «لجنة تسوية الديون العقارية» ص ١٦٢، وما بعدها .

وأداؤها ... حبًا في الله

بند (٣٤)

في الحديث الشريف : «بُنِيَ الإسلام على خمس : شهادة أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا»

أقول : إن «طينية الإنسان» و «جسديته» ونزواته وشهواته وأطماعه هي التربة التي نبتت فيها شروره . لكن الإنسان ليس «جسداً» فحسب . إنه أيضا - روح وعقل . إن الله - سبحانه وتعالى - هو الذي خلقه وسواه ونفخ فيه من روحه[1]. وقد كرم الله سبحانه وتعالى الإنسان . وفي ذلك يقول : ﴿**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**﴾[2] . وأفضل ما في الإنسان هو «العقل»، إنه هو الذي كرمه الله به، وفضله على كثير من خلقه . لكن العقل، إذا لم يستضئ بنور الله، ضلّ وأضلّ.

والإنسان كلّه لله، أي أنه ليس ملْكًا لنفسه . ولذلك - وبخلاف الشرائع الوضعيّة - ليس له أن يؤذي نفسه، أو ينتحر، أو يشَرع في الانتحار . إنه - إن فعل، وبخلاف الشرائع الوضعية - يؤاخذ في شريعتنا وديننا . ﴿**ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون**﴾[3] . ومن نفس المنطلق ليس للإنسان أن يستسلم لغرائزه وشهواته باسم الحرية، كما يفعل قوم - بل أقوام - هناك .

ما أمر الإسلام بشيء قط، إلا وفيه نفع، وما نهى عن شيء إلا وفيه ضُرّ . ومن هنا قولهم: «اسأل قلبك!» إن «لأهل الإنسان وذويه» وإن «للمجتمع» الذي يعيش فيه حقوقًا عليه، إنّ لهم ديونا في رقبته . فعليه أن يصون نفسه، بل إن عليه أن يقويها حتى يكون قادرًا على أداء هذه الديون، وعلى خير وجه . وفي الحديث الشريف : «المؤمن كيّس فطن حذر» (القضاعي عن أنس) وفي حديث آخر : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف... إلى آخر الحديث» (رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة) . وللعبادات جميعها دورها ووظائفها في النهي عن الفحشاء[4] والمنكر، وتطهير النفوس[5]، والسمو بالروح . والناس في هذا وذاك درجات . ﴿**وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾[6] . ولنتأمل هذه الآيات من سورة المائدة : يقول تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين * يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم * إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون**﴾ (٥٤ و٥٥ و٥٦ من

---

(١) انظر الآيتين ٩ - السجدة، و ٢٩ - الحجر
(٢) ٧٠ - الإسراء .
(٣) ٢٦ - الزمر .
(٤) ٤٥ - العنكبوت .
(٥) ١٠٣ - التوبة .
(٦) ٢٦ - من المطففين .

السورة). إنهم قوم يحبهم الله ويحبون الله. وهم إذ يحبون الله لذات الله، يضعون هذا الحب فوق كل حب، حتى الولد والأهل وأقرب الأقربين. ومن باب أولى فوق حب المال وغيره من شهوات الدنيا. إن الله قد أمر بأشياء، ونهي عن أشياء، والأمر والنهي درجات . وفي كل الدرجات يجب أن نكون عند أمره ونهيه : فمن فرط في المندوب، قد يجره هذا إلى التفريط فيما هو أقوى من المندوب، ومن اقترف المكروه، يُخْشَىَ عليه من ارتكاب المحرم. و«المعاصي حمى الله، من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه» (من حديث شريف) . ومن أحب الله، والله وحده، وأحبه الحب الذى يبتغى لجلاله سما بنفسه فوق كل السيئات والشبهات . والحذَرَ الحذَر من الإفراط في حب المال والأهل والولد . إن علينا أن نعمل للدنيا، لكن مع الترفع عن كل دنيّة، وعدم المساس بحقوق الله والناس. ولنحذرْ أيضًا خشية الناس، فالله أحق أن نَخْشى، كما جاء في حديث شريف . ومن أقوال الصوفية:

ليت الذى بيني وبينك عامر ∴ وبيني وبين العالمين خراب

وأعود وأقول : هل آن لنا أن نتأدب بأدب القرآن، وبسيرة إمامنا وأسوتنا نبينا عليه الصلاة والسلام؟ هل لنا أن نحاول أن يكون حبنا لله هو غاية الغايات وفوق كل المقاصد والأغراض؟ إننا في هذه المنزلة من السمو والقُرب من الله سنؤثر غيرنا من ذوى الحاجات على أنفسنا، وسنعطى ونعطى، وننفق وننفق في دنيانا ليتنامى رصيدنا، وتربو مدخراتنا، وتثقل موازيننا، يوم الحساب والثواب والعقاب ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ (٨٩ - البقرة) .

إن حال المسلمين اليوم مثير للأسى، وأعمق الأسى، مالنا لا نتحرك إزاء ما يفعله الصرب، ومن ورائهم أوربا (غربيها وشرقيها)، وأمريكا بثقلها ونفوذها؟! مالنا لا نتحرك إزاء إخوة لنا (من المستضعفين) في البوسنة والهرسك؟! إن هؤلاء المتآمرين عليهم هم أعداء لنا، هم أعداء للإسلام، ديننا وملاذنا؟ إن الشعوب الإسلامية تلتهب حسرة وقلقًا[1] وتحفزًا، لكن ما عساها تفعل ومعظم حكامها قد جعلوا كيدهم[2] بينهم، وجعلوا الحكم والدنيا غاية غاياتهم، لقد استسلموا للأقوياء وداروا في فلكهم!.

---

(١) عن ص ٨ من ملحق الجمعة الأهرام ١٩٩٤/٨/١٢ أنقل ما يلي:

سيدى .. ذئب البلقان!

شعر : إبراهيم الترزى
أمين عام مجمع اللغة العربية

سيدى الذئب المفدى ∴ سيدى الذئب المبجل
يا فتى الصرب المرجّى ∴ يا فتى الروس المدلّل
بل فتى الدنيا المدلل ∴ صاحب الجاه المؤثل

أمرك الأمر وما استعصى على الأمر يُذَلّل
وإذا ترنو بعينيك إلي شىء يُعَجَّل
ما على غدرك حظر فاسطُ واغنم لستَ تُسأل

=

وبعد : «فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين» .

﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما﴾ (٢٩ الفتح) . .

وأشهر المخلب والنابَ على البوسنة واغتلْ
سيدى يا صاحب الأمجاد والسطو المبين
تركوا البوسنة فى ساحتكم ملك اليمين

* * *

لا يهولنك منها ∴ أنها لا تستكين
لك منها كل ما تهو ∴ اه يا ابن الأكرمين
صرت لا تطعم إلا ∴ من جسوم المسلمين

مجلس الأمن إذا أصفاك عتبا يتجمَّل
وإذا ناشد أنيابك لطفا يتذلل
وإذا أرسل وفدا قبَّل الأرض وأقبل

* * *

ابق م البوسنه ما شئت وبالعفو تفضل

* * *

سيدى الذِّئب المفدى صار غدرك سيد الأخلاق بين العالمين

سيدى الذئب لَقد صار عواؤك ∴ يطرق الأسماع خلاب الرنين
سيدى الذئب لَقد صار لواؤك ∴ فى ربوع الأرض مرفوع الجبين
ومضى شرقا وغربا خافقا ∴ يبقر الآفاق يستاق المنون
ظله الدامى على أجنادكم ∴ يتعاوون إليكم مهطعين

* * *

رقصت أفريقيا تحت لوائك ∴ رقصة الحرب على لحن عوائك
فى رواندا قرع الغدر الطبولا ∴ روّعت نزوانك النيل الجميل

* * *

ويح كابول التى تغتالها ∴ ويح هايتى قد عوت أغلالها
شاه وجه الأرض غدراً ودما ∴ سيدى الذئب غزوتَ العالَما

(٢) فى عموده الأسبوعى «نبضات» كتب الدكتور نعمان جمعة فى عدد ١٩٩٤/٨/١١ ص ٢ من «الوفد» ناقدا السياسة الخارجية المصرية ، وضرب لذلك أمثلة ، منها موقف مصر من أزمة اليمن، فقد وقفت موقفا غامضا فى بداية الأزمة، وصدرت بعض التصريحات الرسمية التى تقول: أن الوحدة لا تفرض بالقوة . وكان على مصر أن تعلن بوضوح أن أحداث اليمن عبارة عن مشكلة داخلية ، وأن من حق الحكومة الشرعية أن تقاوم التمرد الذى يحاول الانفصال . وكانت دول الخليج عدا قطر قد وقفت نفس الموقف الذى وقفته مصر . وينصر الله العرب والمسلمين فى كل مكان .

بند ٣٥

فى هذه الآية الكريمة يقول تعالى : إنه قد هدى الإنسان وبين له طريق الخير وطريق الشر. وفيهما يقول تعالى : **﴿وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم و صاكم به لعلكم تتقون﴾** (١٥٣ - الأنعام) . إنهما طريقان ، إنهما خياران لا ثالث لهما . أما أولُهما فهو صراط الله . إنه الطريق المستقيم، إنه الحبل المتين . إنه الحق المبين . « **وماذا بعد الحق إلا الضلال**»؟ (٣٢ - يونس) . ويأمرنا الله أن نتبع صراطه ، وأن نلتزم سبيله ، وإلا تفرقت بنا السبل، وتشعبت بنا الشعب .

وأعود وأقول : إنّهما حرثان : حرث الآخرة وحرث الدنيا . وفيهما يقول تعالى : **﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب﴾** (٢٠ - الشورى) ، ويقول أيضا : **﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض * وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾**(٢) (١٨- ٢١ - الإسراء). إننا نُذَكِّر، و« **الذكرى تنفع المؤمنين**» (٥٥ - الذاريات) . «**وما يذكر إلا أولوا الألباب**» (٢٦٩ - البقرة) . فما « **متاع الدنيا فى الآخرة إلا قليل**» (٣٨ - التوبة) . إن الدنيا زائلة ، والأخرى أبدية باقية . إنه لا يستبدل الدنيا بالآخرة إلا من استسلم لنزواته وشهواته . إنه الذى استبد به الشيطان .

---

(١) بنفس المعنى يقول تعالى : «ونفسٍ وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها» (٧ و ٨ الشمس) ويقول : «من يَهْدِ الله فهو المهْتَدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون» (١٧٨ - الأعراف) وفى نفس المعنى كثير من آيات الكتاب الكريم .

(٢) وانظر - على سبيل المثال - قوله تعالى : «ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها...» (١٤٥ آل عمران).

أقول : إن المولى - جل شأنه قد يمهل ، لكنه لايهمل . وفى هذا المعنى يقول تعالى فى سورة الأعراف : «والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملى لهم إن كيدى متين» (١٨٢ و ١٨٣ - الأعراف) .

وفى سورة القلم : «فذرنى ومن يكذّب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملى لهم إن كيدى متين» . وفى الآية ١٧٨ من سورة آل عمران «ولا يحسبّن الذين كفروا أنما نملى لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين».

وفى سورة الأنعام يقول تعالى : «فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتُوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون * فقُطِع دابرُ القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين» (الآيتان (٤٤ و ٤٥).

وأعود إلى سورة البلد، وإلى الآية العاشرة منها، مضيفًا إليها بعضًا مما جاء بعدها : **﴿وهديناه النجدين * فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة * أو إطعام فى يوم ذى مسغبة * يتيما ذا مقربة * أو مسكينا ذا متربة * ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة * أولئك أصحاب الميمنة﴾** .

وقبل قوله تعالى : « **وهديناه النجدين**» يقول – جلَّ وعزَّ – فى الآيتين ٨ و ٩ من نفس السورة «**ألم نجعل له عينين * ولسانا وشفتين**»؟!

هذه بعض نعم الله على الإنسان، فهلاَّ اقتحم العقبة؟ هلاَّ تغلب على ما فى النفس من شح وبخل وكَزَازَة؟ هلاَّ تجاوز العوائق والعقبات، هلاَّ انْخَلَعَ من دنيا الطمع والإمساك وقبض اليد إلى سماحة البذل والعطاء؟ هلاَّ عتق الرقبة، هلاَّ أطعم اليتيم والفقير والمسكين والذين يعيشون حياة الضيق والشدة؟ وهلاَّ تواصى بالصبر والمرحمة، والحضّ على إطعام المساكين، وتقديم العون للمحتاجين؟! هذا هو الإسلام ، وهذا هو الطريق إلى الجنّة والرضوان، فى الدارين جميعا!

حب المال والشهوات

بند (٣٦)

يقول تعالى : **﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب * قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد * الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار * الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾** (١٤ – ١٧ – آل عمران).

= جاء فى أوضح التفاسير (بتصرف) : فلما لَم يعملوا بما ذُكِّروا به كأنهم لم يعرفوه من قبل – قَوَّينا جسومهم ، ووسعنا أرزاقهم، وبذلنا لهم المزيد من الخيرات والنعم استدراجًا لهم . وفرح القوم بما أُوتُوا فرح بَطَر وكفران ، لا فرح شكر وإيمان ، أخذناهم بالعذاب فجأة . وفى الحديث الشريف: «إذا رأيتم الله تعالى يعطى العباد ما يشاءون على معاصيهم ، فإنما ذلك استدراج منه لهم» ثم تلا عليه الصلاة والسلام: «فلما نسوا ... إلى آخر الآية» . هذا ، والإبلاس = القنوط واليأس . ومنه سُمِّىَ «إبليس» . وفى الكافرين والمشركين والمنافقين يقول تعالى : «قل أنفقوا طوعًا أو كَرْهًا لن يُتَقَبَّل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين * وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاةَ إلاَّ وهم كُسَالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون * فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون» (٥٥ التوبة) . ومن نفس السورة (الآيتان ٨٤ و ٨٥) «ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون * ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون» .

أقول : ما أكثر الأشقياء المعذبين فى الدنيا، بأولادهم وأموالهم، وليست نادرة حوادث الانتحار بينهم .

ويقول : ﴿وآتى المال على حبه ذوى القربى ...﴾ (إلى آخر الآية ١٧٧ - البقرة) ويقول : ﴿وتأكلون التراث أكلا لما (١) * وتحبون المال حبا جما﴾ (١٩ و ٢٠ - الفجر) . وفي مثل هذا المعنى من حب المال ، والطعام . والدنيا ، ومتاعها ، والأولاد ، والقصور الضخمة الفخمة ، والضياع والحدائق الواسعة ... إلى آخره .. في مثل هذا المعنى الكثير من آيات الكتاب المبين . والله - سبحانه وتعالى الذى خلق الإنسان وصوّره وركّبه(٢) على النحو الذى شاءه وأراده يعلم مايجرى فى بدنه ولحمه ودمه من شهوات ، ومنها شهوة المال . والشهوة طبيعة وغريزة . وقد لا يفرق الإنسان الذى تسلطت عليه شهواته ونزواته بين الحلال والحرام من المال الذى تمتد عيناه ويداه إليه .

وهنيئًا له هذا الإنسان الذى استضاء عقله وروحه بنور الله ، وسنة رسول الله . والآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة التى ترمى إلى تربْية العقل ، والسمو بالروح إلى ما فوق الغرائز تربو على الحصر : ومن ذلك : قوله تعالى :﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا﴾ (٤٦ - الكهف) .

وقوله : ﴿وآتوهم من مال الله الذى أتاكم ...﴾ (٣٣ - النور) .
وقوله : ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ (٨٨ - الشعراء) .
وقوله : ﴿وما يغنى عنه ماله إذا تردى﴾ (١١ - الليل) .

وقوله : ﴿وسيجنبها الأتقى * الذى يؤتى ماله يتزكى * وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى﴾ (١٧ - إلى - ٢١ الليل) .

إن سورة «الليل» بأكملها ترغب فى الإعطاء ابتغاء مرضاة الله ، وتنفر من البخل والشح. وكذلك الشأن فى الأحاديث الشريفة ، والسير العظيمة العطرة . إن فى الهدى النبوى (وهو مستمد من الهدى القرآنى) - الكثير والكثير فى نفس المعنى . وفى هذا وذاك من قرآن وحديث ووعد ووعيد يهدفان إلى تهذيب هذه الشهوة إلى المال .

إن قيام مجتمع سليم ، مجتمع إسلامى حقيقى ، متعاون متكافل متحاب لا يكون إلا بالعمل بالكتاب والسنة . إن الإسلام ومكارم الأخلاق مترادفان . ومن الهدى النبوى قوله عليه الصلاة والسلام : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(٣) . و«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»(٤) . و«المؤمنون كرجل واحد ، إن اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»(٥) .

---

(١) انظر تفسير الآية ١٩ - الفجر .
(٢) يقول تعالى فى سورة الانفطار : «يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم * الذى خلقك فسواك فعدلك * فى أى صورة ما شاء ركّبك» (الآيات : ٦ و ٧ و ٨) .
(٣) متفق عليه . عن أنس .
(٤) متفق عليه عن أبى موسى .
(٥) رواه مسلم عن النعمان بن بشير .

أنفقوا مما رزقناكم

حث... ووعيد

بند (٣٧)

يقول تعالى :: **﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾** (٢٥٤ - البقرة).

فى تفسير القرطبي : قال الحسن : هى الزكاة المفروضة . وقال جريج وسعيد بن جبير : هذه الآية تجمع الزكاة المفروضة والتطوع . قال ابن عطية : وهذا صحيح . وأمر الله سبحانه وتعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم وأنعم به عليهم، وحذّرهم من الإمساك إلى أن يجيء يوم لا يمكن فيه بيع ولا شراء ولا استدراك نفقة . كما قال تعالى : **﴿فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين * ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون﴾** (١٠ و ١١ من سورة المنافقين) .

هذا ، والخُلَّة = خالص المودة . وقد ذكر القرطبي مَعانى أخرى كثيرة لها . ويمكن لمن شاء الرجوع إليها .

وعن نفس الآية فى «أوضح التفاسير» «أنفقوا» أى زكّوا وتصدقوا . **﴿من قبل أن يأتي يوم﴾** هو يوم القيامة «**والكافرون هم الظالمون**» أى والتاركون للزكاة « **هم الظالمون**» بدليل قوله تعالى : **﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون﴾** (٦ و ٧ فُصّلت) . وكفر تارك الزكاة لا يحتاج إلى دليل ، فقد قاتل الصديق رضى الله عنه مانعيها . والمؤمن لا يجوز مقاتلته إطلاقا . فيؤخذ من ذلك أن أبا بكر حكم بخروجهم من الإسلام لمنعهم الزكاة . وقد قال، «والله لو منعونى عقَالا بعير لقاتلتهم عليه» . ومن أولى بالاقتداء من أبى بكر(١) ؟!

«... وقهم السيئات»

يقول تعالى : **﴿... وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم﴾**. (٩ - غافر)

وفى تفسير ابن كثير : «**وقهم السيئات**» أى فعلَها أو وبالَها(٢) ممن وقعت منه . «**ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته**» - المقصود باليوم (يوم القيامة) ، والرحمة تعنى اللطف به ،

---

(١) المعلوم أن الذى لا يؤدى الصلاة أو الزكاة أو غيرهما من الفرائض مع عدم الجحد بها كفرائض يُعتبر عاصيا ، وعسى أن يتوب الله عليه . أما الكافر فهو الذى لا يؤديها جحوداً وإنكاراً . أما عن «المرتدين ومانعى الزكاة » فالكلام حولهم كثير . والخير كل الخير فيما رآه أبو بكر وشرح له صدور الآخرين - رضى الله عنهم جميعا . ثم إنه واضح أنهم منعوها جحداً وكفراً .

(٢) الوبال = الفساد . والوبال = الشدة . والوبال = الثِّقل . والوبال = سوء العاقبة. وفى التنزيل الحكيم «فذاقت وبال أمرها» (المعجم الوسيط) .

والنجاة من العقوبة « وذلك هو الفوز العظيم» . وفى «أوضح التفاسير» « وقهم السيئات» أى عقوبتها . وفى تفسير القرطبى : «وقهم السيئات» – قال قتادة : أى وقهم ما يسوؤهم . وقيل : التقدير . أى وقهم عذاب السيئات . وهو «أمْر» من وقاه الله يقيه وِقايةً بالكسر أى حفظه . «ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته» أى بدخـول الجنة « وذلك هو الفوز العظيم» أى النجاة الكبرى.

ويقول تعالى : (٣١ و ٣٢ – النجم) : ﴿ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى * الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم[1] إن ربك واسع المغفرة وهو أعلم بكم...﴾ (إلى آخر الآية ٣٢) . هذا ، والكبائر – كما جاء فى «أوضح التفاسير» – لا تُعَد ولا تحدّ : وأكبرها الشرك بالله ، وقتل النفس (بغير حق) ، وعقوق الوالدين ، والزنا ، وشرب الخمر ، وقول الزور ، والفرار يوم الزحف . وقد قالوا : لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار . وفى سورة النساء – الآية ٤٨ «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» أى مع التوبة النصوح .

أقول : مما يتصل بالمعنى المستفاد من قوله تعالى : « وقهم السيئات ...» ، قوله تعالى فى سورة آل عمران – الآية ٣٦ على لسان امرأة عمران ، إذ قالت : ﴿... وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ . ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا ...﴾ (الآية ٣٧ من نفس السورة) – فالإنسان – أى إنسان – إذا وقاه الله السيئات ، أو أعاذه من الشيطان ، فهذا أعظم لطف من الرحمن بالإنسان . إنهّ يكون – فى الدنيا – معصوما ، أو قريبا من المعصوم ، وسيكون قلبه – دائما – عامرا بالإيمان ، وستكون جوارحه – دائما – مشغولات بالطاعات وفعل الحسنات. ومن كان كذلك فى الدنيا ، ومع القبول من الله ، فإنه سيكون فى الآخرة من «المقربين» . وفى المقَربين يقول تعالى : ﴿فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم﴾ . (٨٨ و ٨٩ – الواقعة) .

ومن الهدى النبوى ، أذكر هنا قوله عليه الصلاة والسلام : «اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال» .

أعود وأقول : إن السيئات منها الصغائر ومنها الكبائر ، كما أنه كما تكون السيئات بالفعل تكون بالترك ، وبالامتناع عن الفعل . فإذا كان هذا الترك أو الامتناع عن الفعل (المأمور به) مصحوبا بالجحد فهو عين الكفر ، أما إذا كان غير مصحوب بالجحد فهو من المعاصى ، والمعاصى إذا شاعت وذاعت ، ولزمها الناس ، وتحولت فى أنظارهم وكأنها ليست بمعاصٍ ، فهذا يعنى أن الفساد قد عم وطم . فإذا بلغت الحال هذا الحد سقطت الدول ، وهلكت الأمم . وترك الفريضة والواجب–حتى مع عدم الجحد–كما هى الحال فى ترك الصلاة ، أو التهرب

---

(١) اللمم كما جاء فى «أوضح التفاسير» صغار الذنوب كالنظر إلى الأجنبية واللغو من القول . أو هو ما يلم بالإنسان من الذنوب فجأة وبدون قصد .

من الزكاة – فهذا من الكبائر . فما بالنا بقوم قد بطروا النعمة ، وباتوا متخمين ، وبات جيرانهم جائعين ، وهم يعلمون .

إنه من الخلل(1) الاجتماعي أن ينقسم المجتمع أى – مجتمع – إلى مترفين ومعدمين ، إنه ليس وراء ذلك إلا الزلازل التي تدمر الجميع . ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ (25 – الأنفال) .

وبعد : فإن الله سبحانه وتعالى قد جعل لكل داء دواء ، والوقاية خير من العلاج . والوقاية والعلاج جميعا فى ترك السيئات ، وفعل الطاعات ، والاستجابة – دائما ، وفى السر والعلن – لما أمر الله به ، ولما نهى عنه .

حبس المال وكنزه

بند (38)

يقول تعالى : فى سورة التوبة (الآيتين 34 و 35) : ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون**﴾ .

ويقول تعالى فى سورة الحشر : ﴿**ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل**(2) **كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب * للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون * والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم**﴾ (7 و 8 و 9 و 10).

وعن قوله تعالى : ﴿**كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم**﴾ – جاء فى «أوضح التفاسير» أى حتى لا يكون الفيء دُولةً بين الأغنياء منكم خاصة . والمراد حتى لا تتداوله الأغنياء منكم ، وتتكثّر به ، مع حاجة الفقراء إليه ، واضطرارهم له .

---

(1) وقد فرضت الزكاة لمعالجة هذا الخلل .

(2) هذه مصارف الفيء ، أمّا الآية 41 – الأنفال – : «واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل...» . فقد بينت مصارف الغنيمة .
وانظر أيضا القطب طبلية «الإسلام وحقوق الإنسان – دراسة مقارنة – ص 365 وما بعدها» (طبعة ثانية) (فى الغنيمة والفيء) .

وبنفس المعنى ما جاء فى المنتخب فى تفسير القرآن (للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية)، وكذلك مصحف الشيخ زايد الذى نقل عن المنتخب حرفًا حرفًا .

وفى تفسير «النسفى»[١] : (تكون دُولةٌ) يزيد ، على كان التامة . والدُولة والدَولة ما يدول للإنسان ، أى يدور من الجد . ومعنى قوله : ﴿كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ كى لا يكون الفىء، الذى حقّهُ أن يُعطى الفقراء ، ليكون لهم بلغة ، جداً بين الأغنياء يتكاثرن به .

وفى القرطبى (جـ ١٨ ص ١٦ وما بعدها) . مما جاء فيه « كى لا يكون دولة» . قراءة العامة «يكون بالياء ودُولةً بالنصب ، أى كى لا يكون الفىء دولةً . وقرأ أبو جعفر ... – عن ابن عامر ... «تكون» بتاء «دُولةٌ» بالرفع ، أى كى لا تقع دُولَةٌ . فكان تامة و «دُولَةٌ» رفع على اسم كان ولا خبر له . ويجوز أن تكون ناقصة ، وخبرها « بين الأغنياء منكم» . وإذا كانت تامة فقوله « بين الأغنياء منكم» متعلق «بدولة» على معنى تداول بين الأغنياء منكم ، ويجوز أن يكون « بين الأغنياء منكم» وصفا لدولة ... وقال أبو عمرو بن العلاء «الدَّولة» بالفتح ، الظفر فى الحرب وغيره ، وهى المصدر . وبالضم اسم الشىء الذى يُتَداول . والدُّولة الفعل . ومعنى الآية فعلنا ذلك فى هذا الفىء ، كى لا تقسمه الرؤساء والأغنياء والأقوياء بينهم دون الفقراء والضعفاء ، لأن أهل الجاهلية ، كانوا إذا غنموا أخذ الرئيس ربعها لنفسه ، وهو المرباع ، ثم يصطفى منها بعد المرباع ما شاء .

وفيها قال شاعرهم : لك المرباع منها والصفايا ∴ وحكمك والنشيطة[٢] والفضول

يقول : كى لا يعمل فيها كما كان يعمل فى الجاهلية ، فجعل الله هذا لرسوله صلى الله عليه وسلم يقسمه فى المواضع التى أمر بها ...

وفى ابن كثير (مجلد ٨ ص ٩٢) « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم» أى جعلنا هذه «المصارف» لمال الفىء لئلاً يبقى مأكلةً يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء ، ولا يصرفون مَنها شيئًا للفقراء .

و «فى ظلال القرآن لسيد قطب» (مجلد ٦ ص ٣٥٢٤ ما بعدها) « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى...» هذه الآية تضع قاعدة كبرى من قواعد التنظيم الاقتصادى والاجتماعى فى المجتمع الإسلامى « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم» ، كما تضع قاعدة كبرى فى التشريع الدستورى للمجتمع الإسلامى ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا...﴾ .

والقاعدة الأولى – قاعدة التنظيم الاقتصادى ، تمثل جانبا كبيرا من أسس النظرية الاقتصادية فى الإسلام . فالملكية : الفردية معترف بها فى هذه النظرية ، لكنها محددة بهذه

(١) المجلد الثالث : «رتبه ، ورقمه ، وصححه وضبطه لغة وقراءات : الشيخان : محمود أحمد البطراوى بك الأستاذ بدار العلوم سابقا – وشرف الدين محمود خطاب المفتش بالوزارة .

(٢) النشيطة ما أصاب الرئيس فى الطريق قبل أن يصل إلى مجتمع الحى . والفضول ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير والفرس ونحوهما .

القاعدة ، قاعدة ألا يكون المال دولة بين الأغنياء ، ممنوعا من التداول بين الفقراء . وعلى أساس هذه القاعدة فُرض نظام «الزكاة» ، وجعل حصيلتها في العام ٢,٥٪ من أصل رءوس الأموال النقدية ، وعشرة أو خمسة في المائة من جميع الحاصلات ، وما يعادل ذلك في الأنعام، وجعل الحصيلة في الركاز «وهى كنوز الأرض» مثلها في المال النقدى ، ثم جعل أربعة أخماس الغنيمة للمجاهدين فقراء وأغنياء ، بينما جعل الفيء كله للفقراء ، وجعل نظامه المختار في إيجار الأرض هو المزارعة ... وجعل للإمام الحق في أن يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها على الفقراء ، وأن يوظف في أموال الأغنياء عند خلو بيت المال . وحرم الاحتكار وحظر الربا ، وهما الوسيلتان الرئيسيتان لجعل المال دولة بين الأغنياء ، (يراجع : فصل «سياسة المال» في كتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام» (سيد قطب – دار الشروق) .

وأعود إلى الآيتين الكريمتين ٣٤ و ٣٥ من سورة التوبة ، وهما في «الكنز» أى حبس المال عن التداول ، ومنعه – بالتالي – من الإنفاق في سبيل الله . إن الذى جعلنا مستخلفين في ماله ، وأجاز لنا الملكية الفردية ، فإنما استخلفنا وأجاز لنا ما أجاز بشروطه هو – سبحانه وتعالى . وهى شروط ترمى إلى بناء مجتمع سليم . إنه إذا كانت الأرض أو المصنع أو غيرهما ملكا لزيد أو لعمرو من الناس ، فإن لمستأجريهما ، والعاملين فيهما أو في غيرهما من تجارة أو غيرها حقوقا ثابتة ، يجب الوفاء بها .

جاء في تفسير القرطبى[1] للآية ٣٤ : اختلف الصحابة في المراد بهذه الآية ، فذهب معاوية إلى أن المراد بها أهل الكتاب ، وإليه ذهب الأصم ، لأن قوله « **والذين يكنزون**» مذكور بعد قوله : ﴿**إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل**﴾ وقال أبو ذر وغيره : المراد بها أهل الكتاب وغيرهم من المسلمين وهو الصحيح ، لأنه لو أراد أهل الكتاب خاصة لقال : ويكنزون بغير «والذين» ... فالذين يكنزون كلام مستأنف . روى البخارى عن زيد بن وهب قال : مررت بالربذة[2] ، فإذا أنا بأبى ذر فقلت له : ما أنزلك منزلك هذا؟ قال : كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في ﴿**الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله**﴾ فقال معاوية : نزلت في أهل الكتاب . فقلت : نزلت فينا وفيهم . وكان بينى وبينه في ذلك (ما كان)[3]. فكتب إلى عثمان يشكونى فكتب إلىَّ عثمان أن اقدم المدينة ، فقدمتها ، فكثر على الناس حتى كأنهم لم يرونى قبل ذلك ، فذكرت ذلك لعثمان فقال : إن شئت تنحيت فكنت قريبا ، فهذا الذى أنزلنى هذا المنزل ، ولو أمّروا علىّ حَبَشياً[4] لسمعتُ وأطعتُ ...

---

(١) مجلد ٨ ص ١٢٢ وما بعدها .

(٢) مكان قريب من المدينة .

(٣) (ما كان) إضافة منى . والعبارة تعنى أن الخلاف قد أشتد بينهما ، وأثار الفقراء ضد الأغنياء مما حمل معاوية وعثمان على النحو المبين بالمتن . ويؤيد هذا – أيضا ما روى عن أبى ذر من أن الناس قد كثروا عليه حتى كأنهم لم يروه قبل ذلك .

(٤) هذا مأخوذ من حديث شريف .

واختلف العلماء فى المال الذى أُدِّيتْ زكاته ، هل يسمى كنزا أم لا ؟ قال قوم : نعم . مُسْتَندين إلى ما رُوِىَ عن علىٍ رضى الله عنه . قال علىّ : أربعة آلاف فما دونها نفقة ، وما كثر عَن ذلك فهو كنز وإن أُديت زكاته . ولا يصح . قال قوم : ما أُدِّيت زكاته منه أو من غيره عنه فليس بكنز . قال ابن عمر : ما أُدّى زكاته فليس بكنز ، ومثله عن جابر . وهو الصحيح . (أى فى رأى القرطبى) .

سُئِلَ ابن عمر عن الآية « والذين يكنزون ...» قال : من كنزها فلم يؤدّ زكاتها فويل له . إنما كان هذا قبل أن تنزل[1] الزكاة ، فلما أُنْزِلَتْ جعلها الله طهراً للأموال . وقيل : الكنز ما فضل عن الحاجة . رُوِى عن أبى ذر ، وهو مما نقل من مذهبه ، وهو من شدائده ، ومما انفرد به رضى الله عنه .

قلت (أى القرطبى) : ويحتمل أن يكون مجمل ما روى عن أبى ذر فى هذا ، ما روى أن الآية نزلت فى وقت شدة الحاجة ، وضعف المهاجرين وقصر يد الرسول عن كفايتهم ، ولم يكن فى بيت المال ما يسعهم وكانت السِّنون الجوائح هاجمة عليهم ، فَنُهُوا عن إمساك شىء من المال إلا على قدر الحاجة . ولا يجوز ادخار الذهب والفضة فى مثل ذلك الوقت .

وقيل : الكنز ما لم تُؤدّ عنه الحقوق العارضة ، كفك الأسير وإطعام الجائع وغير ذلك . وهذه نبذ مما جاء فى تفسير المنار للآية ٣٤ من التوبة (جـ ١٠ ص ٣٤٩ وما بعدها) قال : والكنز فى اللغة جمع الشىء ورصّه بعضه على بعض . ومنه كنيز اللحم ومكتنزه أى صلبه وشديدة ... وقال الراغب : الكنز جعل المال بعضه على بعض وحفظه .. والمراد هنا خزن الدنانير والدراهم فى الصناديق أو دفنها فى التراب وإمساكها ، وما يلزمه ويترتب عليه من الامتناع عن إنفاقها فيما شرعه الله من البر والخير .

عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : لما نزلت هذه الآية « والذين يكنزون ...» كبر ذلك على المسلمين ، وقالوا : ما يستطيع أحد منا أن يدع لولده مالا يبقى بعده ، ولما نُقِلَ ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله ما فرض الزكاة إلا لكى يطيب بها ما بقى من أموالكم ، وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم .. وقال صلى الله عليه وسلم : (لعمر الذى نقل إليه ما حاك فى صدور المسلمين) «ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ : المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب حفظته» .

وأورد صاحب المنار بعض الأخبار والآثار ثم قال : إنها تدل على أن الكنز المتوعد عليه فى هذه الآية (٣٤ – براءة) هو ما لم تُؤدّ زكاته كما نقله الحافظ عن ابن عبد البر عن

---

(١) قارن بالمنار جـ ١٠ ص ٣٥١ ، وانظر – أيضا – الإسلام وحقوق الإنسان – نفسه ص ٣٧٥ وما بعدها (أبو ذر الغفارى والعدل الاجتماعى) .

الجمهور . قال ، ويشهد له حديث أبى هريرة مرفوعًا : «إذا أَدَّيْتَ زكاة مالكَ فقد قضيت ما عليك» .

أقول (والكلام لصاحب المنار) وكذا النفقات الواجبة التى لا تجب الزكاة إلا فيما زاد من المال عليها .

وعن نفس التفسير (ص ٣٥١ جـ ١٠) قال ابن عبد البر : وردت عن أبى ذر آثار كثيرة تدل على أنه كان يذهب إلى أن كل مال مجموع يفضل عن القوت وسداد العيش فهو كنز يُذم فاعله ، وأن آية الوعيد نزلت فى ذلك ، وخالفه جمهور الصحابة وَمَنْ بعدهم وحملوا الوعيد على مانعى الزكاة . وأصح ما تمسكوا به حديث طلحة وغيره فى قصة الأعرابى ، حيث قال : هل علىّ غيرها؟ (يعنى الزكاة) – قال صلى الله عليه وسلم : «إلا أن تطوع » ... وقد استدل ابن بطال له بقوله تعالى : ﴿ **يسألونك ماذا ينفقون قل العفو**﴾ (٢ : ٢١٩) أى ما فضل عن الكفاية ، فكان ذلك واجبا أول الأمر ثم نسخ ، والله أعلم . ا هـ .

ذكر صاحب التفسير (ص ٣٥٢) ما سبق ذكره عن زيد بن وهب الذى قال : «مررت بالربذة، فإذا أنا بأبى ذر ...» ثم قال : ذكر الحافظ فى شرح هذا الحديث أن مُبْغضى عثمان كانوا يشنعون عليه بأنه نفى أبا ذر ، وقد بين أبو ذر بأن نزوله بهذا المكان (الربذه) كان باختياره ثم قال : نعم أمره عثمان بالتنحى عن المدينة لدفع المفسدة التى خافها على غيره من مذهبه المذكور فاختار الربذة . وفى طبقات ابن سعد أن ناسا من أهل الكوفة قالوا لأبى ذر وهو بالربذة : إن هذا الرجل فعل بك وفعل فهل أنت ناصب لنا راية؟ يعنى : فنقاتله ، فقال : لا. لو أن عثمان سيرنى من المشرق إلى المغرب لأطعت .

يقول صاحب المنار : إن فى قصة أبى ذر رضى الله عنه عبرة بما كان من دسائس الشيعة فى الخروج على عثمان (رضى الله عنه) . وفيه حجة على أن حرية العلم والرأى ، واحترام العلماء – كانا على عهد الصحابة رضى الله عنهم فى أعلى درجات الكمال : قال الحافظ فى فوائد حديث أبى ذر : وفيه ملاطفة الأئمة للعلماء ، فإن معاوية لم يجسر على الإنكار عليه حتى كاتب من هو أعلى منه فى أمره . وعثمان لم يحنق على أبى ذر مع أنه كان مخالفا له فى تأويله . وفى حديث أبى ذر – إلى ما تقدم – التحذير من الشقاق والخروج على الأئمة ، والترغيب فى الطاعة لأولى الأمر . وأمر الأفضل بطاعة المفضول خشية المفسدة ، وجواز الاختلاف فى الاجتهاد ، والأخذ بالشدة فى الأمر بالمعروف ، وإن أدى ذلك إلى فراق الوطن ، وتقديم دفع المفسدة على جلب المصلحة لأن فى بقاء أبى ذر بالمدينة مصلحة كبيرة فى بث علمه فى طالب العلم ، ومع ذلك رجح عند عثمان دفع ما يتوهم من المفسدة من الأخذ بمذهبه الشديد فى هذه المسألة . ولم يأمره بالرجوع عنه لأن كلا منهما كان مجتهدا . ا هـ .

ومن أخبار أبى ذر ما رواه الأحنف بن قيس «... قال أبو ذر : قال لى خليلى . قلت: ومن خليلك؟ قال : النبى صلى الله عليه وسلم : «يا أبا ذر ، أتبصر أحدا»؟ قال : فنظرت إلى

الشمس ما بقى من النهار ، وأنا أرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسلنى فى حاجة له . قلت : نعم . قال : «ما أحب أن لى مثل أحد ذهبا أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير»(١) .

يقول صاحب تفسير المنار : إن هذا الحديث لا يدل على وجوب إنفاق كل ما زاد على الحاجة ، وإنما هو فى الزهد فى المال – وإنما الزهد من صفات النفس ، وتفضيل إنفاقه فى وجوه البر على إمساك ما فضل عن الحاجة . وهو عزيمة الخواص الذين ليس لهم عيال ، لا المشروع لكل الناس ، فإن نصوص الكتاب والسنة ، تنافى إنفاق كل ما يملك المرء كما تقدم ، وتأمر بالقصد والاعتدال . فمن الآيات قوله تعالى : ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما**﴾ (٢٥ : ٦٧) و ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا**﴾ (١٧ : ٢٩) ومن الأحاديث الصحيحة المشهورة حديث نهيه صلى الله عليه وسلم لسعد ابن أبى وقاص رضى الله عنه عن التصدق بجميع ماله وإجازته بالثلث ، مع قوله : «والثلث كثير».

وقد أخرج أحمد والطبرانى عن شداد بن أوس قال : كان أبو ذر يسمع عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) : الأمر فيه الشدة، ثم يخرج إلى باديته ، ثم يرخص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ، فيحفظ أبو ذر رضى الله عنه فى ذلك الأمر ، أما الرخصة فلا يسمعها ، فأخذ أبو ذر بالأمر الأول الذى سمعه قبل ذلك . ا هـ .

يقول صاحب التفسير : والسبب الحقيقى لتشدده استعداده الفطرى للأخذ بالعزائم ، واحتمال الشدائد واحتقار التنعم والسعة فى الدنيا . وعرف هذا التشدد عن أفراد من الصحابة رضى الله عنهم ونهاهم عنه صلى الله عليه وسلم .

وقد اختَبَرَ معاوية أبا ذر فأرسل إليه مالا كثيراً فلم يلبث أن تصدق به . وأرسل إليه صهيب بن سلمة وهو أمير بالشام ثلاثمائة دينار ، وقال استعن بها على حاجتك فردها ، وقال لرسوله: ارجع بها إليه ، أما وجد أحداً أغَرَّ بالله منا؟ مالنا إلا الظل نتوارى به ، وثلاثة من غنم، تروح علينا ومولاة لنا تصدق علينا بخدمتها ، ثم إنى لأنا أتخوف الفضل .

يقول السيد رشيد رضا صاحب المنار رحمه الله : وقد أطلت فى هذه المسألة لما فيها من العبرة فى هذا المقام . والفصل بين اعتدال الشريعة وغلو بعض الزهاد . والتذكير بأنه قد قلَّ بين المسلمين الزهاد والمقتصدون . وكثر فيهم البخلاء والمسرفون الذين يفسدون فى الأرض بمالهم ولا يصلحون !.

---

(١) فى الهامش علق صاحب المنار وقال : هكذا أورد البخارى هذا الحديث فى كتاب الزكاة ، وفيه اختصار واستثناء ثلاثة دنانير . وقد أورده تاما فى كتاب الرقاق بلفظ «ما يسرنى أن عندى مثل أحد هذا ذهبا ، تمضى على ثالثة وعندى منه دينار إلا شيئًا أرصده لدين – إلا أن أقول به فى عباد الله هكذا وهكذا وهكذا، وعن يمينه وعن شماله ومن خلفه ، ثم مشى ثم قال : «إن الأكثرين هم المقلون يوم القيامة ، إلا من قال : هكذا وهكذا وهكذا ... وقليل ما هم.»وله تتمة فى معنى آخر ، ومعنى قال به هكذا وهكذا إلخ . أنفقه فى كل ناحية من نواحى البر .

جـزاء الشـح

«كذلك العذاب، ولعذاب الآخرة أكبر!»

بند (٣٩)

بعد آيات كريمات في هؤلاء الذين ضلوا عن سبيل الله (الآيات ٥ – إلى – ١٦) من سورة «القلم» ، قال تعالى : ﴿...**إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين* ولا يستثنون* فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون* فأصبحت كالصريم* فتنادوا مصبحين* أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين* فانطلقوا وهم يتخافتون* أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين* وغدوا على حرد قادرين* فلما رأوها قالوا إنا لضالون* بل نحن محرومون* قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون* قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين* فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون* قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين* عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون* كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون* إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم**...﴾(الآيات – ١٧ – ٣٤) .

تفسير بعض الألفاظ :

«**إنا بلوناهم**» : أي اختبرناهم وامتحناهم ، «**أصحاب الجنة**» أي أصحاب الحديقة أو البستان. وقيل : إن مكانه كان بقرية باليمن ، وقيل : بالحبشة ، وقيل : إنما هي الطائف بالحجاز . «**أقسموا**» (حلفوا) ، «**ليصرمنها مصبحين**» (ليقطعن ثمرها وقت الصبح) ، «**ولا يستثنون**» (أي ولم يقولوا : إن شاء الله)[1] . «**فطاف عليها طائف من ربك**» (أي أنزل عليها آفة سماوية فأحرقتها) . «**فأصبحت كالصريم**» (أي كالليل المظلم – أو – كالشيء المصروم وهو المقطوع[2] . «**فتنادوا**» (أي نادى بعضهم بعضا) «**أن اغدوا**» (بكروا) . «**صارمين**» (أي قاطعين للثمر) ، «**فانطلقوا**» إلى جنّتهم «**وهم يتخافتون**» – (أي يتحدثون سرا حتى لا يسمعهم أحد . (فيتبعهم ويطلب منهم شيئًا) .

«**ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين**» (أخذوا يتناصحون محذرين من أن يدخلها عليهم مسكين[3]، فيسألهم شيئًا من الثمار) .

«**وغدوا على حرد**[4] **قادرين**» (أي بكروا مسرعين ، إلى بستانهم قبل أن يكشفهم نور النهار. «**فلما رأوها**» (أي جنتهم وما أصابها) . «**قالوا : إنا لضالون**» (أي ضللنا طريقنا إلى جنتنا، وهذه التي نرى حديقة أخرى) (فلما تحققوا أنها هي هي حديقتهم قالوا «**بل نحن محرومون**» (أي قضى الله عليهم بالحرمان من ثمار الكد والبذل طول العام) .

---

(١) وقيل : لم يقولوا : (سبحان الله ... تقديسا وحمداً وشكراً لله على ما وهبهم من نعم ومال) . وقيل : إن معنى «ولا يستثنون» أي لم يتركوا شيئا من الثمر يسد حاجة المسكين والفقير .

(٢) وأقول : إن الأرض إذا عريت مما كان فيها من غرس أو زرع (لسبب أو لآخر) فإنها تبدو سوداء ، وخاصة إذا كانت الأرض طينية .

(٣) أضيف : أو فقير أو قريب . وفي الصدقة على القريب ثوابان : ثواب الصدقة وثواب الصلة .

(٤) أي على منع وقبض لليد عن أي عطاء . وانظر في ابن كثير معاني أخرى لكلمة (حرد – مجلد ٨ ص ٤٢٢).

« **قال أوسطهم** » (أى أعدلهم وأخيرهم)، « **ألم أقل لكم لولا تسبحون** » (أى تقدسون وتشكرون المنعم الذى اختصكم دون كثيرين غيركم).

« **قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين** » . وأخيرا ، اعترفوا بذنوبهم، وظلمهم، بحبس حقوق المستحقين فى أموالهم وثمارهم.

وفى تفسير القرطبى (جـ ١٨ ص ٢٣٨ وما بعدها) - يريد الله تعالى بقوله « **إنا بلوناهم** » أى أهل مكة الذين أعطاهم الله أموالا فلم يشكروا ، لكنهم بَطِروا ، وعادوا رسول الله وآذَوْه ، وقد ابتلاهم الله بالجوع والقحط كما ابتلى أهل الجنة المعروف خَبرها عندهم .

وأعود وأقول : إن هذه القصة ذات النسيج البيانى الربانى المعجز والتى وقعت بقرية باليمن أو بالحبشة أو بالطائف أو غيرها - كانت تقع مثيلات لها منذ الزمن السحيق ، ومازالت تقع فى كل مكان وزمان وحتى اليوم . إن فى الناس الصالح والطالح ، والمهدى والضال . فيهم من أعماه الطمع والجشع ، واتبع هواه . ومنهم ذو النفس اللَّوَّامة ، الذى يحاسب نفسه ، قبل أن يحاسبه الله . وقد قيل فى أصحاب القصة أنفسهم ، أنه قد كان لهم أب صالح ، من أهل الكتاب . وخَلَفَ من بعده خَلْفٌ ، أضاعوا الحسنات ، واتبعوا الشهوات .. ولله فى خلقه شئون .!

قال بعض العلماء : عَلَى من حصد زرعا أو جنى ثمراً ، أن يواسى منه من حَضَرَهُ . وذلك معنى قوله : « **وآتوا**[1] **حقه يوم حصاده** » (١٤١ - الأنعام) . وهذا الحق غير الزكاة . وفى المال حق - بل حقوق - سوى الزكاة . وقال بعضهم : عَليه تركُ ما أخطأه الحصَّادون . وكان بعض العباد يَتَحَرَّوْنَ أقواتهم من هذا (أى مما فات الحصادين) . قال ابن عباس : إنه (فى عهد الأب الصالح) كان للمساكين كل ما تعداه المِنْجَل فلم يجذه من الكرْم . فإذا طُرِحَ على البساط ، فكل شىء سقط عنه فهو - أيضا - للمساكين . فإذا كان حصاد الزرع ، فكل شىء تعداه المنجل فهو للمساكين ، فإذا درسوا كان لهم كل شىء انتثر . وفى حياة الأب كان اليتامى والأرامل والمساكين يعيشون على ذلك ، على ما يُتيحه لهم هذا العبد الصالح .

وعن قوله تعالى : « **أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين** » (أى عازمين على الجذاذ والحصاد). قال القرطبى (نفسه ص ٢٤١) فى هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان ، لأنهم عزموا على أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم .

وأقول - مضيفا إلى ما تقدم : إنه لما فُتِنَ الورثة ، أو افتُتِنُوا ، ووقعت الواقعة الساحقة الماحقة التى لم تذر شيئًا ، أى لَم تترك شيئًا لهذا «الأوسط» (على فرض أنه كان معارضا ومستنكرا منذ البداية) ففى هذا يقول تعالى : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ (٢٥ - الأنفال) .

ومما جاء فى السنة الشريفة . قَوْلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إياكم والمعاصى،

---

(١) وانظر بهذا العنوان فى ذات الموضوع بند ٤٠ (وآتوا حقه يوم حصاده).

إن العبد ليذنبَ الذنب ، فيحرم به رزقا كان هيِّئَ له . وتلا « **فطاف عليها طائف من ربك...** » (الآيتين – ذكره القرطبي جـ ١٨ ص ٢٤٤ عند تفسير الآيتين ٢٦ و ٢٧ من السورة) .

وقال صلى الله عليه وسلم : «ثلاث مهلكات ، وثلاث منجيات ، وثلاث كفارات ، وثلاث درجات . فأما المهلكات : فشح مطاع ، وهوى متَّبَع ، وإعجاب المرء بنفسه ... وأما الدرجات : فإطعام الطعام ... إلى آخره» (للطبراني في الأوسط) (عن ابن عمر) . (منقول عن – النبهاني – جـ ٢ ص ٤٩ و ٥٠) .

وعن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم» (رواه مسلم) ، (عن رياض الصالحين للنووى) ، (باب النهى عن البخل والشح) ، (وانظر – على سبيل المثال – هذا المرجع الأخير – ص ٢٣٢ وما بعدها ، باب الكرم والجود والإنفاق فى وجوه الخير ثقةً فى الله تعالى) .

هذا عن الشح وأهل الشح ، أما المتقون – كما جاء فى الآية ٣٤ – فيقول الله تعالى : « **إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم** » وفيهم يقول المولى – جل وعز فى الآيات الأولى من سورة البقرة : ﴿ **الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ (وانظر فى تفسير هذه الآيات – سابقا – بند ١١) .

أما عن قوله تعالى : « **إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم** » فأقول : إن جنات الآخرة ليس فيها إلا النعيم والرضوان الخالصان . وكان كفار قريش – ككثيرين غيرهم – يرون عظيم حظهم فى الدنيا ، وضآلة حظوظ المسلمين منها . وكانوا يقولون : لو صح أننا سنبعث ، كما يزعم محمد ومن معه ، لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هى فى الدنيا ..! ويرد العزيز العليم عليهم بقوله : « **أفنجعل المسلمين كالمجرمين** »؟ إلى آخر الآيات ٣٥ وما بعدها من سورة القلم .

وآتوا حقه يوم حصاده(١)

بند (٤٠)

يقول تعالى : (الأنعام – ١٤١) : ﴿ **وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾ .

وفى كتب التفسير : إن الله هو الذى خلق لكم حدائق ذات أفنان وظلال، وخلق النخل والزرع مختلفا أُكُله ، أى أن ثمره الذى يؤكل يختلف فى الطعم ، فهذا حلو وهذا حامض ، وهذا وهذا .. وكلُّها من « **صنع الله الذى أتقن كل شىء** » (٨٨ – النمل) وهو هو الذى خلق الزيتون والرمان متشابهًا وغير متشابه كذلك فى الطعم ، وفى الخلقة والشكل والأوراق .

وأقول : إنه مختلف كذلك – فى أشياء كثيرة أخرى – منها القيمة الغذائية ، فبعضها يشتمل على عناصر ومواد غير موجودة فى البعض الآخر ، أو موجودة ، ولكن ليس بنفس القدْر. ومن هنا كان التنويع والتنقل ، بين الأصناف ، واجبا للحصول على وجبة غذائية كاملة .

(١) وقارن بص ١٦٧ .

وإنه وإن كان استعمال البدائل وارداً ، ولكن من المحقق أن بعضه لا يغنى عن سائره . وقد عاش كاتب هذه السطور فترات ، طويلة أحيانا ، وقصيرة أحيانا أخرى «على طعام واحد» وتبين له من التجربة أن التنويع فى الأطعمة واجب (وانظر له صفحات من اليوميات ص ١٣٨).

وعن قوله تعالى : ﴿**وآتوا حقه يوم حصاده**﴾ أى أخرجوا زكاته يوم حصاده دون تأخير . فقد وجب حق الفقير بالحصاد . وهو حق ثابت مأمور به مثاب على فعله ، معاقب على تركه . وهل يستسيغ مؤمن أن ينعم وعياله برزق الله دون أن يُؤْتِى منه عيال الله .

ولا يجوز فى الإسلام ، ولا يصح فى الأديان ، أن يبيت المؤمن ممتلئ البطن ، والفقير بجواره طاوى الكشح (ما بين الخاصرة والضلوع) . إن هذا يثير حقد الفقراء ، وضيقهم بالأغنياء وقد جاءت فريضة الزكاة ليسود السلام الاجتماعى بين الجميع . وقد ذهب بعض الصوفية إلى القول : إن فى كل نعمة حقا ، وأن مرتب الموظف تستحق زكاته يوم قبضه (الذى هو يوم حصاده) .

وعن قوله تعالى : ﴿**ولا تسرفوا**﴾(١) أقوال ، أحدها ، ألا تسرفوا بحبس الزكاة عن أربابها ، والحقوق عن أصحابها ، فهذا كله من البخل والشح . وهما مما شدّد الله ورسوله فى النهى عنه.

ومن هذه الأقوال : أن المراد بالإسراف الخطأ فى العطية ، بأن تُعْطَى لغير مستحقّها . وقد زعم البعض أن المراد بالإسراف تجاوز القدر فى الإعطاء . وهذا مردود عليه بأنه لا سرف فى الخير . وقد فات هذا البعض أن الله سبحانه وتعالى أعقب ذلك بقوله : «**إنه لا يحب المسرفين**» وليس بمعقول ولا مقبول أن الباذل ماله بسخاء ابتغاء مرضاة الله ، يتعرض لغضب الله ! إن هذا يتناقض مع آيات كثيرات ، منها قوله تعالى : «**وآتى المال على حبه**... إلى آخر الآية ١٧٧ - البقرة» وقوله : ﴿**ويطعمون الطعام على حبه** ... ﴾ إلى آخر الآية - ٨ - الإنسان» . وأن قوله تعالى : ﴿**هو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات** ...﴾ إلى آخره» - يجب أن يعلم المؤمن أن الله - جل وعّز - هو الذى أنشأ هذا كله ، وغير هذا كله ، وهو الذى أنشأ الإنسان نفسه ، ومكّن له .. إنه القادر على كل شيء ولا تحد قدرته حدود إنه هو الذى أنْشَأَ ، ولَسْنَا نحن، بحرث الأرض ، ووضع البذر .. إنها أسباب ، وقد أمرنا الله بالأخذ بالأسباب ، والأمر كله إليه من قبل ومن بعد . إنه - لو شاء لجعلها (أى الأرض) قاحلة مجدبة، بإمساك المطر عنها مثلا ، ولو شاء لأتلفها بالآفات والحشرات . وقانا الله من هذا كله، فالفضل منه(٢) وإليه .

وأضيف : إنه إذا كان منع الزكاة ، والتصدق عامة يذهب بالسلام الاجتماعى والاستقرار فى الداخل ، فإنه لا سلام ولا استقرار أيضا على المستوى العالمى مع استمرار الدول الغنية

---

(١) وانظر فى هذا ، وعلى سبيل المثال - أوضح التفاسير .

(٢) وانظر فى ذات المعنى ، وعلى سبيل المثال - قوله تعالى فى سورة الواقعة (الآيات ٦٣ وما بعدها) «أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون * إنا لمغرمون * بل نحن محرومون» .

القوية فى ابتزاز موارد البلاد الفقيرة الضعيفة . إن هذا قد يؤدى إلى الحرب - وقد أدى إلى الحرب فعلا بين الأغنياء والأغنياء بسبب تنافسهم وأطماعهم فى بلاد الفقراء، كما أنه أدى ويؤدى فعلا إلى انتفاضات الفقراء الضعفاء ضد الأغنياء الأقوياء .

ليتنا ، وليت هؤلاء وهؤلاء يتعظون ويهتدون برسالات السماء . ولا سلام إلا بالالتزام بما جاءت به هذه الرسالات ! .

فى التكافل الإجتماعى

بند (٤١)

مع صعوبة حصر النصوص القرآنية والنبوية الواردة «فى التكافل الاجتماعى فى الإسلام» - أقول : إنه يترجح عندى بقدر اطلاعى وما توارد على ذهنى أن النصوص الواردة فيما جعلته عنوانا لهذا البند تربو على ما جاء فى الكتاب والسنة - عن أى موضوع آخر .

ومما يستوجب التأمل والتفكير مجيء الآية ١٧٧ من سورة البقرة « ليس البر...» على النحو الذى جاءت به ، فبعد أن ذكرت أن من أهل البر ، هذا الذى «**آتى المال على حبه ذوى القربى.. إلى آخره**» عادت فذكرت «**وأقام الصلاة وآتى الزكاة .. إلى آخره**» .

أعود وأقول : إن الآيات الكريمة التى تأمر بالزكاة ، وتحضُّ على الإنفاق فى سبيل الله ، كثيرة كثيرة فى كتاب الله . وقد تأتى الآية متضمنة ذلك دون ذكر لفظ «الزكاة» ولا عبارة «الإنفاق فى سبيل الله» . والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ، قوله تعالى : ﴿**من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون**﴾ (٢٤٥ - البقرة). ومن الآيات الكريمة التى جاءت بنفس الألفاظ والمعانى ، أو بألفاظ مقاربة (الآيات ١٢ المائدة و ١١ و ١٨ الحديد و ٧ التغابن و ٢٠ المزمل). وفى هذه الآية الأخيرة يأتى ذكر «القرض» بعد الأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . ومن الآيات الكريمة التى تتضمن الإنفاق فى سبيل الله بألفاظ أخرى قوله تعالى : ﴿**إن المصدقين والمصدقات**﴾ (١٨ الحديد) (انظر - أيضا - ١٨ يوسف و٣٥ الأحزاب). وانظر - كذلك ألفاظ : «فأصَّدَّق» (١٠ من المنافقين)، - «لنصدَّقنَّ» (٧٥ التوبة إلى آخره) .

ومنها - أيضا - «الحض على إطعام المسكين» ونحوه ، (٣ - الماعون) . ثم الآيات التى جاءت فى الكفّارات : «**فمن تصدق(١) به فهو كفارة له**» .

وفى الكفارة عن اليمين ٨٩ من نفس السورة ﴿**فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ..**﴾ إلى آخر الآية» ، وانظر أيضا - الآية ٩٥ من نفس السورة : ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق**

(١) أى تجاوز عن حقه فى الاقتصاص من المعتدى ، فذلك التجاوز تكفير لبعض ذنوب المعتدى عليه إلى آخره .
وانظر - أيضا - الآية ٦٧ - التوبة «المنافقون والمنافقات ... ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم ... » إلخ.

وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام...﴾ . ثم ما جاء فى الهدى والنذور إلى آخره .. (والهدى الذبائح المهداة للحرم) .

إنى أريد أن أنتهى من ذلك (ومن النهى عن الشح والبخل على الخير) إلى آخره وهو كثير - إلى أن ماجاء فى كتاب الله عن «التكافل الاجتماعى» يربو على ما جاء فى أى موضوع[1] آخر، كما سبق أن قلت .

هذا هو ديننا ، فإذا كان حالنا فى حاضرنا مما يُدْمِى القلوب ، فَلأننا نسينا الله فنسينا، وأنْسَانا أنفسنا !.

على عيوننا غشاوة ، وفى آذاننا وقر . أما القلوب فعليها أقفال وأقفال! واللوم - فى المقام الأول - على الدعاة والولاة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !.

من سورة المجادلة - (مناجاة الرسول)

بند (٤٣)

يقول تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم * أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات فإن لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون﴾ (١٢ و ١٣ من السورة) .

(أ) فى أوضح التفاسير : يا أيها الذين آمنوا إذا أردتم محادثة الرسول سراً لأمر يهمكم «فقدموا بين يدى نجواكم صدقة» - وهو حث على التصدّق عند طلب الحاجة من الله تعالى أو من رسوله عليه الصلاة والسلام . وذلك كقوله صلى الله عليه وسلم : «داووا مرضاكم بالصدقة» وهى نعْمَ الدواء عن تجربة . فإن لم تجدوا ما تتصدقون به عند مناجاة الرسول، أو عند الدعاء ، فإن الله غفور لكم رحيم بكم .

(ب) وفى تفسير القرطبى (مجلد ١٧ ص ٣٠١ وما بعدها) : مماجاء فيه (بمعنى أن هناك أقوالاً أخرى) : قال ابن عباس : نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على الرسول صلى الله عليه وسلم حتى شَقوا عليه . فأراد الله أن يخفف عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلما قال ذلك كف كثير من الناس ، ثم وسع الله عليهم بالآية التى بعدها (الآية ١٣) ، (وقد سبق ذكرها) .

(جـ) مما جاء فى ابن كثير (مجلد ٨ ص ٧٥ وما بعدها) : أمر الله عبادَهُ المؤمنين - إذا أراد أحدهم أن يناجى رسول الله صلى الله وسلم - أن يقدّم بين يدى ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام . ولذلك قال : « ذلك خير لكم وأطهر» ثم قال : « فإن لم

---

(١) انظر - على سبيل المثال ما جاء فى البند المعنون «آيات من سورة الحديد» ص١٤٩ وما بعدها .

تجدوا» أى إلا من عجز عن ذلك لفقده ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ فما أُمرَ بها إلا من قدر عليها . ثم قال : ﴿أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات﴾ أى : أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﴿ فإذا لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون﴾ فنسخ وجوب ذلك عنهم .

(د) و«فى ظلال القرآن» (لسيد قطب) ، (مجلد ٦ ص ٣٥١٢) . من الآداب القرآنية فى علاقة المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الذى جاءت به الآية ١٢ من «المجادلة» – يقول صاحب الظلال : يبدو أنه كان هناك تزاحم على الخلوة برسول الله صلى الله عليه وسلم – ليحدثه كل فرد فى شأن يخصه ، ويأخذ فيه توجيهه ورأيه ، أو ليستمتع بالانفراد به مع عدم التقدير لمهامّ الرسول الجماعية ، وعدم الشعور بقيمة وقته ، وبجدية الخلوة به ، وأنها لا تكون إلا لأمر ذى بال ، فشاء الله أن يشعرهم بهذه المعانى بتقرير ضريبة للجماعة من مال الذى يريد أن يخلو برسول الله صلى الله عليه وسلم – ويقتطع من وقته الذى هو من حق الجماعة ، فى صورة صدقة يقدمها قبل أن يطلب المناجاة والخلوة. ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم﴾ .

وقد عمل بهذه الآية الإمام على كرم الله وجهه . فكان معه دينار – كما رُوِىَ عنه – فصرفه دراهم . وكان كلما أراد خلوة برسول الله صلى الله عليه وسلم – لأمر تصدق بدرهم ! ولكن الأمر شق على المسلمين ، وعَلِمَ الله ذلك منهم . وكان الأمر قد أدى غايته ، وأشعرهم بقيمة الخلوة التى يطلبونها ، فخفف الله عنهم ونزلت الآية التالية (١٣) – برفع هذا التكليف ، وتوجيههم إلى العبادات والطاعات المُصلحة للقلوب . «أأشفقتم ... إلى آخر الآية» ، وفى هاتين الآيتين (والكلام لصاحب الظلال) – والروايات التى ذَكَرَتْ أسباب نزولهما – نجد لونا من ألوان الجهود التربوية لإعداد هذه الجماعة المسلمة فى الصغير والكبير من شئون الشعور والسلوك!.

أقول : فيما تقدم بعض مما جاء فى بعض كتب التفسير عن الآيتين ١٢ و ١٣ من سورة المجادلة بشأن مناجاة الرسول عليه الصلاة والسلام . وأضيف ما يلى :

إن الآية الثانية (١٣) قد نسخت الآية الأولى : نسختها ، ونسخت ما جاء بها من فرضيَّة الصدقة ووجوبها كمقابل لمناجاة الرسول ، لكنها لم تنسخها كصدقة تطوعية . إنها تزكّى المتصدق وتطهره . وما أحوجنا – دائما – إلى هذا التَّزكِّى والتطهر! . إن فى هذا – إلى ما تقدم – شفاءً ودواءً للنفس وللبدن كما جاء فى الحديث الشريف السابق الذكر!. إننا – دائما – أصحاب حاجات عند الله ، وإننا – دائما – ندعوه لقضاء حوائجنا ، فما أجدرنا أن نَقْرِنَ الدعاء بالصدقة ، أى نزاوج بينهما ونجمع !

الإسلام دين اليسر ودفع المشقة عن المؤمنين ، وهذا ما قررته الآية الثانية (١٣). إننا غير مكلّفين بما لا نملك ، وبما لا نستطيع . وهذا مقرر فى كثير من آيات الكتاب الكريم ،

والسنة الشريفة . ومن الصور التطبيقية لهذا المعنى ، ما جاء فى الآية (١٢) من السورة : « **فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم** » . ومرة أخرى ، بل ومرات ، أعود إلى «الصدقة» مفروضةً كانت أم تطوعية . إن نِعَمَ الله علينا لا تُحْصَى ، إنها ليست المال فقط ، إنها - أيضا - الصحة والسمع والبصر والفؤاد «والبسطة فى العلم والجسم[1]» .. إلى آخره ، وعلينا أن نزكى عن هذه كلها ، وأن نبذل لكل من كان فى حاجة إليها ، وإلينا ..!

وأضيف - إلى ما تقدم - بشأن المناجاة - قوله تعالى : ﴿**لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما**﴾ (١١٤ النساء) .

إن المُسَارَّة (محادثة النفس أو الغير) سرًا وخُفْية ، كثيرا ما تكون مما لا خير فيه؛ لأن الشر كثيرا ما يبيض ويفقس ويُفرخ فى الخفاء . إنما تُمْتَدَح المُسارة ، إذا سلَكَتْ مَسالكَ الخير والبر كالعزم على إخراج صدقة وما أهم الصدقة ، وما أعظم جدواها ، وما أسمى أهدافها للجميع : للمعطى والآخذ ولوجوه البر وما أكثر وجوه البر . وما أعم ما فى النجوى من بركة للهامس بها وسامعها وللناس كافة إذا دارت حول الأمر بالمعروف أو إصلاحٍ بَيْنَ الناس . إننا أمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وما أجزل ثواب هؤلاء الذين يسعون بإصلاح ما بين الناس .

وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (مجلد٢ ص ٣٦٤ وما بعدها) أحاديث شريفة كثيرة فى معنى هذه الآية أختارُ منها هذا الحديث : قال الإمام أحمد: حدثنا ... أن حميد بن عبد الرحمن ابن عوف ، أخبر أن أمه أم كلثوم بنت عقبة أخبرته أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «ليس الكذَّاب الذى يصلح بين الناس فيقول خيرا .. وقالت لم أسمعه يرخص فى شىء مما يقوله الناس إلا فى ثلاث : فى الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها» . قال : «وكانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتى بايعن رسول الله صلى الله عليه وسلم» . (مسند أحمد ٦/٤٠٣) .

أقول : (وكما جاء فى الآية) ما أجزل أجر الذى يفعل ما جاء فى الآية ، لا لشىء إلا ابتغاء مرضاة الله ! .

آيات من سورة الحديد

بند (٤٣)

عدد آيات السورة تسع وعشرون آية ، والتى سأذكرها بعد منها (وهى ليست قليلة) تحض على الإنفاق فى سبيل الله ، وعلى ما يتصل بموضوع هذا الإنفاق .

يقول تعالى :﴿**آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير**﴾ (الآيــة ٦) . ﴿**وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السمٰوات**

(١) انظر الآية (٢٤٧ - من سورة البقرة) .

والأرض لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير﴾ (الآيـة ١٠) ، **﴿من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم﴾** (١١) ، **﴿إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم﴾** . (١٨) ، **﴿... والله لا يحب كل مختال فخور * الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد * لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز﴾** (٢٣ و ٢٤ ، ٢٥) .

وفى السورة آيات ليس فيها لفظ «الإنفاق» ولا مايرادفه فى المعنى (كالتّصدق والإقراض) - ومنها (الآية ٢١) وفى صدرها « **سابقوا إلى مغفرة من ربكم...** » ، وهل هناك ما يمحو السيئات كالإنفاق فى سبيل الله ، إنه ليس إنفاقا لزيد أو لعمرو من الناس ، إنما هو إقراضٌ لله ! والفضل فضله « **يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** » (نفس الآية - ٢١) ، وكذلك الآية (٢٠) « **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو .... وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ...** » و« **أولوا الألباب** » هم الذين يبيعون الدنيا بالآخرة ، حيث المغفرة والرضوان من الله . والإنفاق لله هو المفتاح لهذا النعيم .

وكذلك الآية (٢٥) التى لم يُذكر فيها لفظ «الزكاة» ولا لفظ «الصدقة» ولا لفظ «الإنفاق» - ومع ذلك فإنها - كما سنرى بعد - فى صميم الموضوع . ألاَ إن فى الإنفاق فى سبيل الله (وهى عبارة عامة) - نجاة . وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى : **﴿وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾** (١٩٥ البقرة - وقد سبق ذكرها) . الآية الكريمة تنبهنا وتحضنا على هذا الإنفاق ، فإن لم نفعل فالتهلكة ! التهلكة فى الدنيا والآخرة : **﴿ذلك هو الخسران المبين﴾** (١١ - الحج).

ماذا يمكن أن يكون لو أمسكنا عن الإنفاق فى سبيل الله ، وأحدِّد بالذات أحد وجوه الإنفاق ، وهو الإعداد لمواجهة ما يمكن أن يقع من الأعداء ، وما أكثر الأعداء ! ها نحن أولاء نراهم يدبرون ويتآمرون فى السر والعلن ، وفى الجهر والخفاء ، حتى لا نخرج عن «فلكهم ودائرتهم» ، حتى نستمر أسرى الحاجة إليهم ، وخاصة فى هاتين السلعتين الأساسيتين (الخبز وقطعة السلاح) . وها نحن أولاء نراهم يحاولون تكرار مأساة الأندلس فى البوسنة والهرسك ضد إخوة لنا فى الإسلام . وما كيد القوم وتآمرهم عليهم إلا لأنهم مسلمون ! لقد ضاعت الهيبة، ولا هيبة إلا بالاتحاد ، ولا هيبة إلا فى القوة(١)!.

وأعود وأقول : إن لله ميراث السموات والأرض ، والمال ماله ، وما نحن إلا مستخلفون فيه وبشروطه هو ، الغنى الحميد . وفى هذه الآيات من سورة الحديد بيان لهذه الشروط ، أو أهم هذه الشروط . وفيها الوعد والبشرى دنيا وأخرى ، وفيها - كذلك - الوعيد !

---

(١) لقد تفكك الاتحاد السوفيتى (كما كان يُسمى) ، وكان - قبل التفكك إحدى الدولتين الأعظم ، وما كان كذلك إلا «بترسانته النووية» . لقد تبين أنه كان «ضعيفًا اقتصاديًا» وقد تخلفت عنه «دول» تتعثر اقتصاديًا . !

وأقف عند الآية ٢٥ من السورة ، وفيها أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل الرسل **﴿لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾** (١٦٥ – النساء) . وقد أرسلهم بالبينات ، مبشرين ومنذرين . وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط (أى بالعدل) والعدل صور وأنواع، ومنه ما نسميه العدل الاجتماعى . ووسيلته حسن توزيع العائد العام على الجميع . ومن المصلحة المشتركة أن يكون هذا العائد (وهو الدخل القومى) كبيراً . ولن يكون كذلك إلا بالإنتاج الكبير . إن المطلوب منا كأفراد ، كمواطنين ، وقبل ذلك وبعده ودائما «كمسلمين» . إن المطلوب منا جميعا– العمل، العمل الجاد ، وبكفاءة وإخلاص . إن المطلوب منا البذل ما استطعنا ، ثم التواضع فى الاستهلاك فى نفس الوقت . وبذلك نجدد سنة الصحابة الكرام الذين قال فيهم نبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام : «إنكم تكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع» .

وأعود إلى عبارة «العدل فى التوزيع»[1] وأقول : إن وسيلتنا إلى ذلك هى الزكاة وما فى المال من حق سوى الزكاة . إنهما يؤخذان من الأغنياء ، ويردان على الفقراء . وقد بينت الآية ٦٠ من سورة التوبة مصارف الزكاة ، ومنها «فى سبيل الله» ، أى فى الجهاد ، وفى الدفع عن البيضة والحوزة ، ثم يلى ذلك الإنفاق على كل مرفق فيه نفع لعامة الناس.

يقول العليم الحكيم ، وفى نفس الآية **﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز﴾** .

أقول : إن المولى – جلّ وعزّ – يمنّ علينا هنا – ويذكرنا «بالحديد» كنعمة من نعمه علينا التى لا تعد ولا تُحصى . وأقول : إن استخدام الإنسان البدائى للحديد ، كأداة منزلية كالسكين، وكأداة زراعية كالفأس ، كان مَعْلَماً من معالم تقدمه فى عصور ما قبل التاريخ . هذا ، وفى تفسير القرطبى لقوله تعالى : « **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس** » ... قال أهل المعانى: أى أخرج الحديد من المعادن ، وعلمهم صنعته بوَحْيه . « **فيه بأس شديد** » يعنى السلاح والكُراع والجنّة . « **ومنافع للناس** » قال مجاهد : يعنى : جُنّة . وقيل : يعنى انتفاع الناس بالماعون مثل الإبرة ونحوها .

أقول : هذا ما كان ومازال . وفى عصر البخار صار للحديد شأن أى شأن : بواخر تمخر عباب البحار والمحيطات ، وقطارات تنهب الأرض نهبا وتقرب المسافات . ثم جاء عصر الكهرباء والطيران والصواريخ وسفن الفضاء ، وتطور وسائل المواصلات والاتصال . الذى جعل كوكبنا «الأرض» كمدينة صغيرة ، ينتشر فيها الخبر والصورة من أقصاها إلى أقصاها فى نفس اللحظة . وللحديد ، ومنتجات الحديد ، ونحوه ، دور كبير ، والقافلة تسير . **﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾** (٨ – النحل) .

---

(١) لا يفوتنى أن أنوه هنا بأن كل أخذ من الأغنياء ، وردّ على الفقراء ، سواء فى حالة الزكاة ، أم الضرائب ، أو ما شابهَ ، يؤدى إلى تقليل الفوارق بين أفراد الشعب وطوائفه وفئاته ، وهو هدف اجتماعى بالغ الأهمية.

وتنتهى الآية بقوله تعالى : ﴿وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز﴾ يقول تعالى : ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ (٧ - محمد) . ونحن نؤمن بالله ورسله « لانفرق بين أحد من رسله» (٢٨٥ - البقرة) . ومن جانبنا كبشر ، وكمسلمين يكون نصر الله بالإيمان اليقينى به ، وبكتبه ورسله واليوم الآخر .. ويكون بتنفيذ أوامر الله واجتناب نواهيه و«عمل الصالحات» بصفة عامة . والنصر للرسل نصر لله . و ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ (٨٠ - النساء) والجهاد فى سبيل الله نصر للحق ونصر لله.

وتَخْتِمُ الآية (آية الحديد ، والقوة والعزة) بقوله تعالى : ﴿إن الله قوى عزيز﴾ . وفى الحديث الشريف : «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ... إلى آخر الحديث» (رواه مسلم وغيره عن أبى هريرة) .

إن ما يصيبنا من شر هو منا . إن الإسلام هو دين العقل والعلم و«القرءاة والقلم» وهو دين القوة والعزّة ، فإذا كان حالنا على ما يرى القريب والبعيد ، فذلك لأننا انحدرنا إلى وادٍ غير وادينا ! إلى متاهات !.

وأضيف هنا ما ذكره ابن تيمية عن قوله تعالى : ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ فمن عدل عن الكتاب قُوِّم بالحديد . ولهذا كان قوام الدين المصحف والسيف وقد رُوِى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما . قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن نضرب بهذا - يعنى السيف - من عدل عن هذا ، يعنى المصحف . والسياق والألفاظ واضحة فى أن الحديث عن الدولة وسلطانها على المقيمين على إقليمها . فالقرآن هو الدستور والإمام فى الأحكام . فمن خالف ذلك حوكم وعوقب بالعقوبة المناسبة (وانظر : السياسة الشرعية لابن تيمية - حققه على سامى النشار وآخر . الناشر دار الكتاب العربى ١٩٥١ ص ٢٤) .

وكَتَبَ المودودى فى كتاب «نظرية الإسلام وهديه» - (دار الفكر ١٩٦٧ ص ٤٤ وما بعدها) - تحت عنوان «غاية الدولة الإسلامية» قال : إن الله قد ذكر هذه الغاية فى كتابه فى مواضع عديدة منها قوله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا ... الآية ٢٥ - الحديد» فالمراد من «الحديد» فى الآية هو القوة السياسية ، أى قوة السلطان الذى يمنع بعض الناس عن بعض كما قال الغزالى . والآية قد بينت ما تُبْعَثُ الرسل لأجله ، وهو أن الله قد أراد ببعثهم أن يقيم فى العالم نظام العدالة الاجتماعية "Socialjustice" على أساس ما أنزله من «البينات» وما أنعم به عليهم من «الميزان» أى نظام الحياة الإنسانية العادل . وقال الله سبحانه وتعالى فى موضع آخر: ﴿الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ (٤١ - الحج) . وقال : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ (١١٠ - آل عمران) . إن الدولة التى يريدها القرآن ليست لها غاية سلْبية «Negative» فقط، بل لها غاية إيجابية «Positive» أيضا ، أى أن رسالتها ليست المحافظة على الأمن الداخلى والخارجى فحسب ، بل الحق أن هدفها الأسمى هو نظام العدالة الاجتماعية الصالح الذى جاء به كتاب الله : ففى تحقيق هذا الغرض (أو الغايات) - تُسْتَعْمَلُ

القوة السياسية تارةً ، ويستفاد من منابر الدعوة ووسائل الإعلام تارة ، والتربية والتعليم والإعداد طوراً ، ويُستعمل - كذلك الرأى العام والنفوذ الاجتماعى طوراً آخر ، كما تقتضيه الظروف والأحوال ... إلى آخره ..

أقول: المودودى نهر فياض ، ومفكر إسلامى مجتهد . والمجتهد قد يصيب وقد يخطئ ، لكنه مثابٌ دائما لأنه صادق اللهجة ، عميق الإخلاص .

وأضيف قائلا : إن المال فى كل دولة هو عصبها . ومن موارد المال - فى الدولة الإسلامية الزكاة ، وما فى المال من حق (بل ومن حقوق) سوى الزكاة . ولا يفوتنى أن أضيف أن من بين الموارد «الصدقات التطوعية» . وما أكثرها وما أغزرها من هؤلاء الذين أعطاهم الله المال الكثير، والإيمان الأقوى والأكثر . والدعاة والعلماء لهم دورهم فى الدعوة والبيان ، والدولة لها دورها ضد المقصرين والغشاشين والمتهربين . ولنا فى الصديق رضى الله عنه وعن الصحابة جميعا - قدوة وأسوة . لقد حاربوا المرتدين ومانعى الزكاة . وفى هذه الحرب ، بل الحروب ، استشهد الكثيرون منهم ، وفيهم الفقهاء والعلماء وحفظة القرآن، ومن أقواله رضى الله عنه وعنهم وأرضاهم جميعا : «والله لو منعونى عقال بعير كانوا يعطونه رسول الله لقاتلتهم عليه» . إن هذا هو سيف الدولة وسلطانها تنزله على من خرج على قوانينها! .

أنتقل إلى «أبى عبيدة[1] وكتابه «الأموال»[2] وأقول : إنه خصص فى كتابه هذا حوالى مائتى صفحة للكلام فى الصدقة وأحكامها وسننها . وأفرد من ذلك بابا فى «ذكر العاشر وصاحب المكس وما فيه من الشدة والتغليظ» . وتحت هذا الباب أثبت أحاديث شريفة كثيرة منها قوله عليه الصلاة والسلام «إن صاحب المكس[3] فى النار» وقوله : «إذا لقيتم عاشرا فاقتلوه» (يعنى بذلك الصدقة يأخذها بغير حقها) . وتكلم أبو عبيد بعد ذلك عن «صدقة الأموال التى يُمَرّ بها على العاشر من أهل الإسلام والذمة والحرب ، وأشار إلى ما كانت عليه سنة ملوك العرب والعجم جميعا الذين كانوا يأخذون - عن طريق ولاتهم وعمالهم - عشر أموالهم إذا مروا بها عليهم .

وقد أبطل الله ذلك بالإسلام ، وجاءت فريضة الزكاة بربع العشر، فإذا زاد (الجابى أو العاشر) فى الأخذ على ربع العشر فقد أخذها بغير حقها . وإذا كان يأخذ الزكاة من المسلمين إذا أتوه بها طائعين غير مكرهين فليس بداخل فى هذه الأحاديث (التى جاءت بتغليظ العقوبة) ، فإن استكرههم عليها لا آمن أن يكون داخلا فيها ، وإن لم يزد على ربع العشر ، لأن سنة الصامت أن يكون الناس مؤمّنين عليه. وقد كان أولو الأمر فى صدر الإسلام يسألون عن الزكاة عند الأعطية قبل أن تُقبضَ ، فإذا قُبِضَتْ وَحيزَتْ فهى أماناتهم[4] . وأما الصدقة التى يُكره عليها الناس ويجاهدون على منعها فهى صدقة الماشية والحرث والنخل.

---

(١) توفى عام ٢٢٤ هـ .

(٢) رقم ١٦٥٧ وما بعده .

(٣) المكس : الضريبة يأخذها المكاس ممن يدخل البلد من التجار (المعجم الوسيط) .

(٤) من أقوال خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز (رضى الله عنهم جميعا) : «من جاءك بصدقة فاقبلها ، ومن لم يأتك فالله حسيبه» .

أقول : إن الزكاة عبادة . إنها علاقة بين العبد والرب . إنها بهذا المعنى كالصلاة سواء بسواء . ولا اجتهاد فى أصول العبادات وجوهرها[١] . إن الزكاة عبادة . وتجب مراعاة هذا الوصف تحت كل الظروف . لا يصح ولا يجوز أن نستكتب «الأغنياء» إقرارات كتلك التى تطلبها أجهزة الضرائب عند استحقاقها من المولين . إن الممول هنا – إلا من عصم الله – يحاول التهرب بتقليص المطلوب منه إلى أدنى حد . ولا ينبغى نقل هذا ولا تطبيقه ، ولا تطبيق ما يشبهه فى العبادة . إن السلف الصالح كان يتلقى الزكاة إذا جاءه بها المسلم راضيا لا مكرها ، ولا ينبغى الخروج عن منهجهم ، وإلا كنا نبتدع ، وهذا محظور . ولا يقبل هنا القول بأن الضرورات تبيح المحظورات ، لأنه لا توجد هنا ضرورة ، وإنما توجد مندوحة ومخارج كثيرة : ففى المال حق سوى الزكاة . وتحت هذا النص، تُفْرَضُ الضرائب . أما الزكاة فيجب أن تبقى كما هى يخرجها المسلم الغنى على من يعرفهم ويعرف حاجتهم ، فإن لم يوجدوا أو لم يعرف المحتاجين منهم ، فأمامه وجوه البر ، وما أكثرها ، وما أجزل الثواب لمن يمد المحتاجين . أو وجوه البر هذه (أو كليهما) مما أمده الله به. **﴿إن تبدو الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾** (٢٧١ – البقرة) .

وهنا أسأل : لماذا هذا التشديد على ولاة الأمور ، والتغليظ عليهم وتوعدهم بالنار (وبئس المصير) إذا هم جاوزوا فرض الزكاة ، وأنشأوا على المسلمين فروضا أخرى من ضرائب أو مكوس (بغير حق أو بغير حاجة)؟ والضرائب عبء ثقيل ، وإذا تعددت الضرائب ، أو ارتفع سعرها فإن ذلك يرجع بالخسارة على النشاط الاقتصادى عامة ، وعلى حصيلة الضريبة ذاتها فى النهاية . وفى الحكام الصالحون ، وفيهم الطالحون ، وكثيرا ما يندفع هؤلاء – وخاصة فى الأنظمة الاستبدادية وراء نزوات وشهوات وطموحات شخصية . وتدفع الشعوب الثمن ولعدة أجيال مقبلة . وحياة البذخ والترف والمظاهر الكاذبة – التى عاشها الخديوى إسماعيل (أحد ولاة مصر فى أواخر القرن الماضى) وما أدت إليه من سوء الحالة المالية (ومنها السياسة الضريبية البالغة الفوضى)[٢] ، والتى انتهت بالتدخل الأجنبى ، ومهدت للاحتلال الإنجليزى لمصر – نقطة سوداء فى تاريخ هذه البلاد التى رزئت طويلا بحكام الفساد والسوء . وأشد ما يكون هذا تحت حكم الفرد كما أشرت .

والظلم قديم ، مارسه كثيرون من الحكام العرب والعجم . فكانت سنتهم – كما يقول أبوعبيدة – أن يأخذوا من التجار عشر أموالهم إذا مرّوا بها عليهم . ولقد أبطل الله ذلك بالإسلام وبرسول الإسلام .

ولقد حرم الله الظلم والبغى ، وأمر بعدم السكوت على ظلم الظالم وبغى الباغى . وفى

---

(١) فى الوضوء مثلا خلاف بين الأئمة بين ما هو فرض وما هو سنة منه . وخلاف – كذلك – حول ما يمسح من الرأس ، أهو الكل أم البعض ، ثم ما المراد بالبعض؟ أما الوضوء ذاته فهو محل إجماع .

(٢) انظر الدكتور زكى عبد المتعال – علم المالية ص ٤٣١ .

الكتـاب الكريم : ﴿**والله لا يحب الظالمين**﴾ (١٤٠ – آل عـمـران) ، ﴿**ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين**» (١٥١ – من نفس السـورة) ، ﴿**قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق**﴾ (٣٣ – الأعراف) . فى سورة الشورى ، يقول جل وعزّ : « **والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون**» (الآية ٣٩) ﴿**ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم * ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور**﴾ (٤١ و ٤٢ و ٤٣) . والآيات الكريمة واضحة فى الانتصار من الظالم ، وعلى الجماعة من الناس إذا أصابهم البغى – أن يتضافروا عليه حتى يزيلوه عنهم ويدفعوه . والصبر والغفران إنما يكون فى الفلتة ، ولمن يعترف بالزلّة ويَسْأَلُ المغفرة ، وهذا يؤكد ما جاء فى الحديث الشريف الذى سبق ذكره ، والذى يهدر دم العاشر الذى يأخذ الصدقة بغير حقها ، أى يأخذها ظلما وبغيا ، وعوداً إلى سنة الجاهلية . وقد أطال الفقهاء والكتاب القدامى فى الظلم يقع على أهل الخراج ، ومن ذلك ما كتبه أبو يوسف فى كتابه «الخراج» ، فقال – مخاطبا الرشيد – : ورأيت ألا تقبل شيئًا من أرض السواد ولا غير السواد من البلاد . فإن المتقبل (الملتزم) يعسف أهل الخراج ويظلمهم ويكلفهم ما لَيس عليهم . فيضر ذلك بهم ، فيخربوا ما عمروا .. فينكسر الخراج . وفى ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك العباد .

أشرت – فيما تقدم – إلى أن المبالغة فى الضريبة مضر فى النهاية بحصيلة الضريبة . ولا تفرض الضرائب إلا لضرورة أو حاجة ، ومن ذلك تمويل المرافق العامة ، وفى مقدمتها مرفق الدفاع (حتى ولو لم نكن فى حالة حرب؛ ذلك أن الاستعداد للحرب أنفى للحرب) ، كما سبق القول .

وفى البلاد ذات الموارد الطبيعية العظيمة (كبلاد البترول) – تصبح الضرائب – فى هدفها الأساسى – وهو إمداد الخزانة العامة بالمال – غير ذات موضوع . وإنما تفرض الضرائب فى البلاد التى لا تستطيع تمويل خزانتها وتسيير مرافقها إلا بهذه الضرائب . وفى هذه الحالة لا مفر من فرض هذه الضرائب ، ولكن بشروط : فلا يقررها إلا مجلس الشورى (البرلمان) وذلك فضلا عن مراعاة العدل فى توزيع أعبائها ، ومراعاة العدل – كذلك – فى إنفاقها ، والالتزام بألا يكون هذا الإنفاق إلا فى مصالح عامة تعود بالخير على الدين والدولة .

وانظر لصاحب هذه السطور : فى «الشورى» – (الإسلام وحقوق الإنسان – دراسة مقارنة – طبعة أولى ص ٦٢٣ وما بعدها) .

بند (٤٤)

من مصارف الزكاة ، مصرف «فى سبيل الله» ، وهو يعنى ، فيما يعنى الإنفاق على المرافق العامة التى ينتفع بها سائر الناس ، وعلى رأس هذه المرافق وفى مقدمتها الإنفاق على التسليح وتدريب الجيش .

ومما جاء فى سورة البقرة قوله تعالى : ﴿**وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**﴾ (الآية ١٩٠) وقوله ﴿**فلا عدوان إلا على الظالمين**﴾ (الآية ١٩٣) ، وقوله ﴿**وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**﴾ (١٩٥) ، وأظهر الأقوال وأقواها فى معنى هذه الآية الأخيرة هو أننا إذا قصرنا فى الإنفاق على الاستعداد للحرب فى سبيل الله ، وحمايةً للبيضة والحوزة ، فسيصيبنا الوهن ، وسنُغْرى العدو بنا . والنتيجة معروفة ، الذل والهلاك المحقق ، والهوان على الناس ، وهذا يؤكد أن الاستعداد للحرب أنفى للحرب! .

أقول – أيضا : إن الإسلام دين السلم ﴿**يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين**﴾ (٢٠٨ من نفس السورة) ، ومن سورة الأنفال أنقل قوله تعالى: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون**﴾ ، ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم**﴾ (الآيتان ٦٠ و ٦١) .

إننا نحن المسلمين لسنا عدوانيين ، بل إننا مدعوُّون إلى الدخول فى السلم كافة ، وإلى العدل مع الجميع حتى المخالفين لنا فى الدين « **وأمرت لأعدل بينكم** » (١٥ – الشورى) وإلى برهم ﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين**﴾ (٨ – الممتحنة) . وإننا – وفى نفس الوقت ، وبنفس القوة من الدفع والحض، مطالبون بالإعداد ، وبكل قوة وإصرار، لما عسى أن يقع ضدنا من عدوان وحرب، فإن الحرب وأقولها مرارا – أنفى للحرب . إن الإعداد ، وبأقوى وأحدث أسلحة الحرب كفيل بإرهاب العدو ، فلا تجرى بخاطره فكرة العدوان علينا كدولة أو دول إسلامية ، ولا على أى أقلية إسلامية فى أى مكان فى الأرض . إنما أغراهم بنا ضعفنا . إن القوة ، وبكل عناصرها، ومنها الاتحاد – هى مطلبنا وهدفنا ودرعنا . وعلينا – إلى ذلك – أن نبذل الأموال وعلى رأسها الزكاة وإلا هلكنا .

«... والأرض وضعها للأنام»

بند (٤٥)

أولا : عن كتاب «محمود فوزى = الشيخ الشعراوى وفتاوى العصر» ص ١٠٠ من الطبعة الثالثة .

السؤال من «محمود فوزى إلى الشيخ» لماذا الخلل الاقتصادى دائما فى مجتمعنا»؟ .

يعنينى من الإجابة قول الشيخ : السبب الحقيقى فى الخلل الاقتصادى فى العالم أن هناك بلاداً فيها كثافة سكانية ، وقلة خبرة . وبلاد فيها خيرات كثيرة ، ولا يوجد بها بشر كثيرون . أى رجال بلا أرض . وأرض بلا رجال . ولهذا فقد قلت لهم فى الولايات المتحدة الأمريكية حين ذهبت إليهم فى هيئة الأمم المتحدة . قلت لهم علانية : طبقوا مبداً قرآنيًا واحداً وهو ﴿الأرض و ضعها للأنام﴾ .

فإذا أردتم ألا تكون هناك مشكلة على ظهر هذه الأرض : طبقوا : كل الأرض .. لكل الأنام . فالذى[1] لديه رزق فى مكان يأتى إلى مكان آخر ، لكنكم - للأسف ، تقيمون حواجز.

ثانيا : أعرض بعد هذا - ما جاء فى بعض كتب التفسير عن هذه الآية الكريمة (ورقمها - ١٠ - من سورة الرحمن) .

(أ) صاحب أوضح التفاسير تجاوزها دون أن يقول عنها (فى الشرح) شيئًا .

(ب) فى النسفى - المجلد الثالث (ص ٤٥٣) : قال : خَفَضَها مدحُوةً على الماء . (للأنام) أى للخلق ، وهو كل ما على ظهر الأرض من دابة - وعن الحسن : الإنس والجن ، فهى كالمهاد لهم يتصرفون فوقها .

أقول : (مدحوة) من قوله تعالى : ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ (٣٠ النازعات) فى أوضح التفاسير عن هذه الآية الأخيرة : (بسطها أو جعلها كالدحية ، وهى البيضة . ويؤيده ما ذهب إليه الفلكيون والجغرافيون من كروية الأرض ، وانبعاجها كالبيضة) .

(جـ) فى تفسير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة : والأرض بسطها مهدها للخلائق ينتفعون بها .

(د) عن تفسير القرطبى (جـ ١٧ ص ١٥٥) : «الأنام» الناس - عن ابن عباس؛ الحسن : الجن والإنس . الضحاك : كل ما دبّ على وجه الأرض . وهذا عام .

---

(١) هكذا فى الأصل . وأعتقد أن صحة العبارة : «فالذى ليس لديه إلى آخره» والكتاب مع الأسف ملىء بالأخطاء المطبعية ، ثم إن الشيخ يستخدم العامية . وكتب الشيخ - وهو هو صاحب المكانة المرموقة فى تفسير القرآن الكريم يجب ألا يكون فيها شىء مما ذكرت .

(هـ) مما جاء «فى ظلال القرآن» (للشهيد - سيد قطب - دار الشروق - مجلد ٦ ص ٣٤٥٠ وما بعدها) . « **والأرض وضعها للأنام». ﴿فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام * والحب ذو العصف والريحان﴾ .﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾** (١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ من الرحمن) .

نحن لطول استقرارنا على هذه الأرض ، وألفتنا لأوضاعها وظواهرها ، ولوضعنا نحن كذلك عليها ، لا نكاد نحس يد القدرة التى «وضعت» هذه الأرض للأنام . وجعلت استقرارنا عليها ممكنا وميسورا إلى الحد الذى لا نكاد نشعر به .. إلا بين الحين والحين حين يثور بركان، أو يمور زلزال ... وهنا ننتبه إلى نعمة الاستقرار ! ولقد يسر الله فيها «للأنام» الحياة .. التى قدر فيها أقواتها ..« **فبأى آلاء ربكما تكذبان**» ؟ وهذا سؤال للتسجيل والإشهاد . فما يملك إنس ولا جان أن يكذب بآلاء الرحمن فى مثل هذا المقام ! .

أقول : «وضع» الله الأرض «للأنام» ، أى لكل الخلائق من إنس وجان وحيوان وطيور وغيرها ، ومنها الأحياء التى تعيش فى أعماق البحار والمحيطات والأنهار . وهذه وتلك فى تنوعها وعجائبها تتجاوز قدرات الفكر والخيال ، وهو هو الله الذى خلقها وقدّر فيها الأرزاق لكل هؤلاء وهؤلاء . ويجب أن ننتبه - أيضا - إلى أن هذه الأرض ، وهذه المجموعة الشمسية التى تنتمى الأرض إليها ، ليست إلا هباءات فى الكون العظيم ، وسبحان الخلاق العظيم .

ويجب أن ننتبه - كذلك إلى هذه النصوص ، وهى قليل من كثير مما ورد فى الكتاب والسنة . يقول تعالى : **﴿وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم[١] أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون﴾** (٣٨ - الأنعام) .. **﴿وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ...﴾** (من الآية ٤٤ - الإسراء).

إن الطيور - على سبيل - المثال - تبدأ يومها ونشاطها مبكرة ، وإنها تذهب إلى حيث قدر الله لها الأرزاق (وهى خماص) فتلتقط ما تلتقط ، وتعود بطانا إلى أعشاشها وأفراخها .

وفى معنى هذه الآية العاشرة من سورة الرحمن ، فى هذا المعنى ، أو فيما هو قريب منه أذكر قوله تعالى : « **هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا[٢] ...**» (٢٩ - البقرة)، وقوله **﴿وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾** (١٣ - الجاثية) ، (وانظر الآيات التى ورد فيها لفظ «سخر» وهى كثيرة فى كتاب الله) .

---

(١) سمعت فى إحدى الإذاعات أنه إذا كانت للفصيلة من فصائل الحيوان (كالضفادع مثلا) لغة مشتركة ، فإن لها - كذلك لهجاتها المحلية المختلفة من مكان إلى مكان . وقد سمعت نقيق الضفادع فى مصر والسودان ، ولاحظت أنها فى السودان أعلى وأغلظ صوتا .

(٢) أقول : لم أجد فيما اطلعت عليه من كتب التفسير من ذهب إلى المعنى الذى ذهب إليه شيخنا الشعراوى عن «والأرض وضعها للأنام» ، وأقول أيضا إن الآية ٢٩ - البقرة تعنى نفس المعنى للآية ١٠ الرحمن ، وتعنيه - وفيما أرى - بنفس المعنى الذى ذهب إليه شيخنا .

وأعود إلى قول الشيخ الفاضل ، والمفسر الكبير للقرآن الكريم ، أعود إلى قوله – مخاطبا الدول الغنية القوية ، والتى تملك الأراضى الواسعة ، التى يمكن أن تستوعب ضعف من فيها ، وربما أضعافهم ، مثل كندا وأستراليا . لكنها – مع ذلك – تقيم الحواجز وتشترط الشروط . إن الأبواب ليست مفتوحة لكل من هب ودب ، ولكن لخبرات معينة ونوعيات محددة ، فضلا عن السلوكيات والخلو من أمراض معينة .. وهى – فى جملتها – شروط لها ما يبررها. ومالنا – فيما يتعلق بالكثافة السكانية – نذهب بعيداً ، إن فى بعض البلاد العربية والإسلامية متسعا لكل الزائد من السكان فى بعض البلاد العربية والإسلامية كمصر مثلا ، فلماذا لا «نتكامل» بشريا واقتصاديا ، ثم نخطو نحو الوحدة السياسية . إنها أمل كل شعوبنا . إنها القوة التى يعمل أعداؤنا بكل السبل للحيلولة دون قيامها . فَلْنَلْتَفَّ حول «منظمة المؤتمر الإسلامى» ولندفعها – بكل قوانا – إلى الأمام دائما . ولنحذر التكسات والإعلام الغربى والكيد الغربى . ولنا فيما جرى، ويجرى فى البوسنة والهرسك عظة ! .

«ذوو القـــربى»

بند (٤٦)

أنقل عن التنزيل الحكيم الآيات التالية التى ورد فيها شىء عن «ذوى القربى» ، ووجوب «صلتهم» والاهتمام بشئونهم وشجونهم .

﴿ وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس[1] حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون﴾ . (البقرة ٨٣)

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين...﴾ إلى آخر الآية ١٧٧ – البقرة .

﴿ وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا﴾ (٨ – النساء) .

﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا﴾ (٣٦ – النساء) .

﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ..﴾ إلى آخر الآية – ٤١ الأنفال.

---

(١) تحت عنوان : «وقولوا للناس حسنا» انظر للمؤلف كتاب «محمد فريد وجدى وحسن استعمال الحرية» ص١٥ وما بعدها ط. ١٤١٥ هـ.

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾ (٩٠ - النحل) .

﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل...﴾ (٢٦ - الإسراء) .

﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى ...﴾ (٢٢ - النور) .

﴿فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل﴾ (٣٨ - الروم) .

﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى ...﴾ (٢٣ - الشورى) .

﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى﴾ (٧ - الحشر) .

﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين﴾ (١٨٠ - البقرة) .

ولنبدأ بهذه الأخيرة . وبما جاء عنها فى تفسير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية : قال : هذا مما جاء فى الشريعة الغراء مما فيه صلاح الأسرة وحفظ كيانها . فعلى من ظهرت أمامه أمارات الموت وعلم أنه ميت لا محالة ، وكان ذا مال يعتد به ، أن يجعل من ماله نصيبا لمن يدرك من والديه وأقاربه الأقربين غير الوارثين . وليراع فى ذلك ما يحسن ويُقْبَلُ فى عرف العقلاء ، فلا يعطى الغنى ويدع الفقير ، بل يؤثر ذوى الحاجة ، ولا يُسَوِّى إلا بين المتساوين فى الفاقة . وكان ذلك الفرض حقا واجبا على من آثر التقوى ، واتبع أوامر الدين .

أقول : إن الوصية عطاء مالىٌّ ، وما يقال هنا عنها يقال فى كل عطاء مالى ، وهو تقديم الوالدين والأقربين ، وأقرب الأقربين من هؤلاء الأقربين . وهذه القاعدة مقررة فى كل الآيات السابق ذكرها ، ولذات الأسباب فالوالدان والأقربون مقدمون على من سواهم من غير الأقربين من فقراء ومساكين إلى آخره .

وعن الآية ٨ - النساء - أنه إذا حضر قسمة التركة أولوا القربى من اليتامى والمساكين من غير الورثة ، فأعطوهم شيئا منها تطييبا لنفوسهم ، ونزعًا للحقد والحسد من صدورهم . والأفضل أن يُتْبَعَ هذا بكلمات طيبة لهم .

وفى قوله تعالى : ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا...﴾ (٣٦ النساء) - جاء الأمر بالإحسان للوالدين والأقربين ، بعد الأمر بعدم الشرك بالله . وهذا تكريم من الله لهم ، وأمر منه إلينا ، بعدم ارتكاب أى تقصير أو إزعاج لهم . وفى نفس الآية عودة إلى الجار ذى القربى، وتقديمه على غيره من الجيران وغير الجيران . إنه مقدم على غيره لأسباب لا تجتمع إلا فيه ، فهو - أولا - جار ، وللجار حق ، وهو من ذوى القربى ، وله بهذه الصفة حق ، وقد يكون مسلما ، وله بذلك حق. وأقول : إنه إذا كان هذا يعنى الإيثار ، فإنه لا يعنى حجب من عداه .

ومن إكرام الجار ما رواه مسلم عن أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أبا ذر ، إذا طبخت مرقة فأكثر ماء ها ، وتعاهد جيرانك» . وأستطردُ مع القرطبى : ففى

«تعاهد الجيران» حضٌّ من رسول الله على مكارم الأخلاق ، لما يترتب عليه من حسن العشرة، والمحبة ، ودفع الحاجة والمفسدة . فإن الجار قد يتأذى بقُتار[1] قدْر جاره ... هذا ، والأحاديث فى إكرام الجار جاء ت مطلقة ، فهى تشمل الكافر ... ولأهل الذمة من اليهود والنصارى تفضيل : قال صلى الله عليه وسلم لعائشة عند تفريق لحم الأضحية (وهو من نسك المسلمين) «ابدئى بجارنا اليهودى» . وعن عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» .

أما الآية ٢٦ من سورة الإسراء ﴿**وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل..**﴾ فسأعود إليها وإلى الآيات التى تليها - فى كلمة أخرى .

وهذه هى الآية ٢٢ - النور : ﴿**ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم**﴾ جاءت هذه الآية الكريمة بعد آيات فى حديث الإفك ، الذى رمى به قومٌ أم المؤمنين عائشة بنت الصديق ، فى هؤلاء الذين يقول الله فيهم : ﴿**إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم**﴾ إن هذا الحديث (حديث الإفك) سبب أذى كثيرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقضَّ مضجعه . «ولا يأتل» أى «لا يقصر ولا يحلف» . والمقصود بأولى الفضل والسعة ، الصديق وفريق كبير من الصحابة، الذين كانوا قد صمموا على ألا يعطوا الفقراء ، الذين خاضوا فى الإفك ، وكانوا يعطونهم من قبل . وعند نزول الآية قال الصديق رضى الله عنه : أنا أحب أن يغفر الله لى . وقال الآخرون مثل ماقال. واستأنفوا جميعا إعطاء هم . والآية تنبض بروح الإسلام ، ومن ذلك العفو والصفح والدفع بالتى هى أحسن، أى دفع السيئة والردّ عليها بالحسنة ! ومن الدروس المستفادة من الآية الكريمة التفرقة بين العقوبة والمثوبة، فالفقير إذا أذنب ، يترك أمره إلى الله ، إذا شاء عاقب ، وإذا شاء عفا .

أما المثوبة (وهى هنا العَطاء لمحتاج) فهى دائما مطلوبة ، وكذلك الاستمرار فيها . إن سبب العطاء هو الحاجة . ومادامت الحاجة قائمة فالاستمرار فى العطاء واجب . إن المعصية من المحتاج لا تعنى وقف العون له .

هذا ، وقد سبق ذكر الآية ٩٠ - النحل ، وفيها يأمر الله بثلاث هى من أفضل الفضائل: يأمر بالعدل - أساس قيام الدول ، ونهوض الأمم.

ويأمر بالإحسان : فعلى المخاطبين بالأمر ، أن يعمدوا فى كل قول أو فعل إلى الأحسن والأفضل ، والأقوى والأقرب إلى طاعة الله . فالله سبحانه وتعالى يرانا ، ويعلم إسرارنا ، كما يعلم إعلامنا .

---

(١) القتار - (بضم القاف) ريح القدر والشواء ونحوهما .

وتأتى هذه الثالثة من أمهات الفضائل ، التى تؤدى إلى خير النتائج وتسد الطريق أمام المحاذير والمفاسد . إن هذه الثالثة هى إيتاء ذى القربى .

وإن هذه الثلاثة كفيلة بإقامة المجتمعات الآمنة ، الراضية ، الغنية القوية . إن قيام هذه الثلاثة لا تدع مكانا للثلاثة الأخرى ، وهى الفحشاء والمنكر والبغى . أو أنها بالأقل ستحاصرها فى أضيق مساحة .

إنّ فى الكف عن السيئات ، وخاصة الكبائر منها ، وإن الاستجابة لأمر الله بعمل الحسنات وخاصةً أمهاتها . إن هذا أو ذاك هو البر بعينه (وانظر الآية ١٧٧ – البقرة) سأذكر هنا الآية ١٧٧ – من البقرة كاملة ، وإنى أدعو القارئ إلى ترديدها فى الصلاة وغير الصلاة . ففى ذلك خير كثير بإذن الله .

يقول تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ .

أقول : إنّ الخير الكثير الواسع ، وإن البركة الشاملة ، وإن السعادة الغامرة ، فى الدنيا والآخرة ، هى الثمرة والغاية المرجوة . أما الصلاة ، واستقبال هذه القبلة أو تلك ، فهى الوسيلة إلى هذه الغاية . والبر إلى ذلك – وهو من القيم العليا –إنما هو فى :

(أ) الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب[1] والنبيين .

(ب) وإيتاء المال على حبه والحرص[2] عليه معروف – إيتاء المال ... ذوى القربى ... إلى آخره.
وواضح من الآية الكريمة تقديم ذوى القربى على من سواهم ، وهذا التقديم وارد فى الآيات الأخرى أيضا .

(جـ) وإقام الصلاة .

(د) وإيتاء الزكاة . وإيتاء الزكاة فى الآية ، بعد إيتاء المال على حبه .. يعنى – كما جاء فى الحديث الشريف : «أن فى المال حقا سوى الزكاة» .

(هـ) والوفاء بالعهد ، والعقد[3] ، والشرط ... إلى آخره .

(و) والصابرين[4] فى البأساء والضراء ، وحين البأس – أى الصابرين فى الشدائد والأزمات، وفى ساحات القتال .

---

(١) الكتاب هنا بمعنى الكتب المنزلة من عند الله على أنبيائه ورسله ، ومنها : القرآن ، والتوراة والإنجيل والزبور إلى آخره .

(٢) انظر الآية ١٤ من آل عمران : «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ... ذلك متاع الحياة الدنيا ... » .

(٣) انظر الآية الأولى من سورة «المائدة» – على سبيل المثال .

(٤) انظر – سابقاً – بند ١٨ .

(ز) هؤلاء الذين يعلمون معنى البر المتعدد العناصر ، التى جاء أهمها (وليس كلها) فى الآية الكريمة ، ويتعبدون بتلاوتها وتطبيقها فى حياتهم العامة واليومية (كرحابة الصدر مع الحمقى ونحو ذلك) هم الصادقون ، هم المتقون .

فى الغنيمة وتقسيمها :

يقول تعالى : (٤١ - الأنفال) ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله و ما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير** ﴾ ، فما ظفر به المسلمون من مال الكفار ، يقسم خمسة أخماس : خمس منها لله وللرسول ولقرابته ، واليتامى ، وهم أطفال المسلمين الذين مات آباؤهم وهم فقراء ، والمساكين ، وهم ذوو الحاجة من المسلمين ، وابن السبيل ، وهو المنقطع فى سفره المباح .

والمخصص لله وللرسول يكون للمصالح العامة (المرافق العامة) - التى يقرها الرسول فى حياته ، والإمام من بعده . وباقى الخمس يصرف للمذكورين فى الآية . وأما الأخماس الأربعة الأخرى فهى للمقاتلين .

وواضح أن المذكورين فى الآية - بعد الله والرسول - فى مقدمتهم ذوو القربى . هذا ، وانظر فى «الغنيمة والفىء» للمؤلف : «الإسلام وحقوق الإنسان - دراسة مقارنة طبعة ثانية ص٣٦٥ وما بعدها» .

الآية ٣٨ - الروم ﴿ **فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

أقول : فى الآية التى قبلها (٣٧) يقول المولى - جل وعز - ﴿ **أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ .فَـعلَى الذين بسط الله لهم فى الرزق ، أن يعطوا الآخرين المذكورين فى الآية (٣٨) فللقريب حقه من البر والصلة . وللمحتاج ومن انقطع به الطريق حقهما من الزكاة والصدقة. إن ذلك خير، كل الخير، للذين يبغون رضا الله، وأولئك هم أهل الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة .

فهاتان الآيتان فى التكافل الاجتماعى ، ومثلهما كثير فى الكتاب الكريم .

الآية ٧ وما بعدها من سورة الحشر : يقول تعالى : ﴿ **ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب * للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ور ضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون * والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾ .

أقول عن الآية ٧ – ما رده الله على رسوله من أموال أهل القرى – من غير قتال – فهو لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وهذا حتى لا تكون الأموال دُولةً (أى متداولة) بين الأغنياء منكم خاصة . وما أمركم الرسول به تمسكوا به ، وما نهاكم عنه فانتهوا .. وكذلك يُعطى من الأموال السابقة الذكر ، والتى كانت بغير قتال – للفقراء المهاجرين .. الذين وصفهم الله فى الآية ، وكذلك الأنصار – الذين يحبون من هاجر إليهم ويؤثرونهم على أنفسهم .. وكذلك المؤمنون الذين جاء وا من بعدهم «من التابعين ، ومن دخل فى الإسلام إلى يوم القيامة» (تفسير القرطبى – مجلد ١٨ ص ٣١ وما بعدها) ، و(الإسلام وحقوق الإنسان – دراسة مقارنة – نفسه ٣٦٥ وما بعدها) .

الآية ٢٣ – الشورى : بعد الآية ٢٢ من نفس السورة ، وهى : ﴿ **ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير** ﴾ قال : (الآية ٢٣) ﴿ **ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور** ﴾ .

أى قل يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة جُعلا « **إلا المودة فى القربى** » مما قيل فى ذلك: أن قريشا كانت تصل أرحامها ، فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم قطعته . فقال : إن لم تَوادونى لنبوتى، وادونى لقرابتى منكم . وفى البخارى عن طاووس عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى: « **إلا المودة فى القربى** » ، فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد . فقال ابن عباس : عجلت : إن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة. فقال: إلا أن تصلوا ما بينكم من القرابة . وهناك أقوال أخرى ، لكنى أختار هذا القول الأخير .

ملحق لموضوع الصدقات

الزكـــاة

بند (٤٧)

الزكاة – لغةً – مصدر «زكا» الشيء : نما وزاد . فالزكاة هى البركة والنماء والطهارة . والصلاح (المعجم الوسيط – مادة : زكا) .

والزكاة – فى الشرع : حصة من المال ونحوه يوجب الشرع بذلها للفقراء ونحوهم بشروط خاصة (المرجع السابق – نفس المادة) .

و الصدقة زكاة ، والزكاة صدقة . يفترق الاسم ويتفق المسمى[١] .

والزكاة تجب فى الأموال المرصدة للنماء ، إما بأنفسها أو بالعمل فيها طهرةً لأهلها ومعونة لمن تصرف إليهم» .

(١) الأحكام السلطانية – لأبى الحسن الماوردى طبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر – طبعة ثانية ص ١١٣ وما بعدها –«ولاية الصدقات» .

والأموال المزكاة ضربان : ظاهرة وباطنة . والظاهرة ما لا يمكن إخفاؤه كالزروع والثمار والمواشى . والباطنة ما أمكن إخفاؤه من الذهب والفضة وعروض التجارة .

وليس لوالى الصدقات - نظرٌ فى زكاة المال الباطن ، وأربابه أحق بإخراج زكاته منه إلا أن يبذلها أرباب المال طوعا فيقبلها منهم ، ويكون فى تفريقها عونا لهم(١) . ونظره مختص بزكاة الأموال الظاهرة ، يُؤْمر أرباب الأموال بدفعها إليه . ولولى الصدقات أن يقاتلهم عليها إذا امتنعوا عن دفعها ، كما قاتل الصديق رضى الله عنه مانعى الزكاة .

والأموال المزكاة أربعة : المواشى وهى الإبل والبقر والغنم(٢) . فأما الإبل فأول نصابها خمس . وأما البقر فأول نصابها ثلاثون . وأما الغنم فأول نصابها أربعون .

والشروط العامة للمال الذى تجب فيه الزكاة :

الملك التام - النماء - بلوغ النصاب - الفضل عن الحوائج الأصلية - السلامة من الدين - مضى الحول . (اثنى عشر شهرا عربيا) - وهذا الشرط إنما هو بالنسبة للأنعام والنقود وعروض التجارة . أما الزروع والثمار - ونحوها - فلا يشترط لها حول . والقدر الواجب فى زكاة الحيوان وزكاة النقود وعروض التجارة هو ربع العشر أى ٢,٥ فى المائة .

نصاب النقود :

فى الحديث الشريف «ليس فيما دون خمس أواق من الورق(٣) صدقة» والأوقية أربعون درهما ، أى أن الخمس أواق مائتا درهم (من الفضة) . وما كان من الفضة غير مضروب، فلا يسمى ورقا . وأما النقود الذهبية (الدنانير) فالجمهور على أن نصابها عشرون دينارا والمعول عليه هو الوزن ، وهو ٥٩٥ جراما (فى الفضة) ، ونصاب الذهب ٨٥ جراما . والتزكية فى الذهب والفضة ٢,٥٪ .

وزكاة النقود الورقية (أى فيما يساوى منها(٤) ٨٥ جرامًا من الذهب أو ٥٩٥ جراما من الفضة) هو ٢,٥ فى المائة .

---

(١) عن نفس المرجع بتصرف ، وانظر بنفس المعنى عن «الأموال لأبى عبيد» (سابقا) بند٤٣ .

(٢) الماوردى ص ١١٤ «وسميت ماشية لرعيها وهى ماشية» .

(٣) الورِق - بكسر الراء وفتحها الدراهم المضروبة .

(٤) بص ١١ من أهرام ١٩٩٤/٩/٣ أن سعر الجرام ٣٨ جنيه و ٩٠٠ مليم (عيار ٢١) وهذا يساوى ٣٣٠٦,٥ جنيه ، فاذا كان عيار ٢٤ فإنه يكون أعلى من ذلك كثيراً .

وعلى كل حال فإن سعر الذهب والفضة يتغير باستمرار ما بين صعود وهبوط . كما أن القوة الشرائية للعملة المحلية (كالجنيه المصرى) تتغير بسبب ما يسمى بالتضخم، وهذا كله (سعر الذهب الخالص ، وما يساويه الجرام منه بالعملة المحلية ، ثم تغير القوة الشرائية لهذه العملة) - كل هذا يستلزم الرجوع إلى جهات الإفتاء (وهى موجودة وكثيرة، وتقدم الفتاوى مجانا) عند إخراج الزكاة .

أما زكاة الحلى[1] والأوانى والتحف الذهبية والفضية :

فلا خلاف فى أن ماحُرِّم استعماله واتخاذه من الذهب والفضة تجب فيه الزكاة ، لما فى هذه (الحلى...) من مظاهر الترف والسرف ، فضلا عن كونها مكنوزة معطلة دون حاجة . ويستوى فى ذلك الرجال والنساء . والتماثيل محرمة ، حتى لو كانت من برونز أو نحاس ، وهى أكثر وأشد تحريما إذا كانت من الذهب أو الفضة .

وأما حلى الرجال فإذا بلغت قيمتها نصابا مع مال آخر تجب فيه الزكاة فهو مال معطل . وأما حليّ اللآلىء والجواهر للنساء فلا زكاة فيها ، ولم يخالف فى ذلك إلا بعض الأئمة من الشيعة .

وفى حُلِيّ الذهب والفضة للنساء خلاف ، إذ لم يرد نص صحيح صريح بإيجاب الزكاة فيها ، ولا نفيها عنها . وإنما وردت أحاديث اختلف الفقهاء فى ثبوتها ، كما اختلفوا فى دلالتها .

والقاعدة العامة أن من ملك مصوغات من الذهب أو الفضة ، نظر فى أمره : فإن كان للاقتناء والاكتناز ذخيرة للزمن وجبت فيه الزكاة ، لأنه مرصد للنماء ، فهو كغير المصنوع من السبائك والنقود المضروبة . وإن كان معداً للاستعمال الشخصى : نظرنا إذا كان محرما كأوانى الذهب والفضة والتحف والتماثيل وما يتخذه الرجل لنفسه من سوار أو طوق أو خاتم ذهب أو نحو ذلك وجبت فيه الزكاة ، لأنه عُدِل به عن أصله بفعل غير مباح ، فسقط حكم فعله، وبقى على حكم الأصل .

وإن كان الحَلْىُ معدا لاستعمال مباح كحلى النساء - فى غير سرف - وخاتم الفضة للرجال لم تجب فيه الزكاة ، لأنه مال غير نام ، ولأنه من حاجات الإنسان وزينته كثيابه وأثاثه ومتاعه ، وقد أعد لاستعمال مباح ، فلم تجب فيه الزكاة كالعوامل[2] من الإبل والبقر .

زكاة الثروة التجارية (عروض التجارة)

واجبة بالقرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين والسلف، وعرفها بعضهم بأنها ما يعد للبيع والشراء بقصد الربح . فمن ملك منها شيئا للتجارة وحال عليه الحول ، وبلغت قيمته نصابا من النقود فى آخر الحول وجب عليه إخراج زكاته ، وهى ربع عشر قيمته ، أى ٢,٥٪ كزكاة النقود . فهى ضريبة على رأس المال المتداول وربحه ، لا على الربح[3] .

---

(١) الحَلْىُ (بفتحة على الحاء ، وسكون على اللام) : ما يُتَزَيَّن به من مصوغات المعادن أو الحجارة ، والجمع حُلِىّ (بضمة على الحاء ، وكسرة تحت اللام) . قال تعالى : «واتخذ قوم موسى من بعده من حُلِيِّهم عجلا جسدا له خوار» (١٤٨ الأعراف) . (المعجم الوسيط) .

(٢) أى التى تستخدم فى الحرث والسقى ... إلى آخره .

(٣) عن «فقه الزكاة» (جـ ١ ص ١١٢ - إلى ٣١٤) للدكتور يوسف القرضاوى (رسالة دكتوراة) .

زكاة الثروة الزراعية

يقول تعالى : ﴿وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ (١٤١ - الأنعام) .

﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ اختلف الناس فى هذا الحق ، ما هو ؟ فقال أنس بن مالك وابن عباس (وغيرهما) : هى الزكاة المفروضة : العشر ونصف العشر .

وقال علي بن الحسين وعطاء والحكم وحماد وسعيد بن جبير ومجاهد : هو حق فى المال سوى الزكاة - أمر الله به ندبا . وقد تعلق أبو حنيفة بهذه الآية (١٤١ - الأنعام) وبعموم ما فى قوله عليه الصلاة والسلام «فيما سقت السماء العشر ، وفيما سُقِىَ بنَضْحٍ(١) أو دالية نصف العشر» .

«يوم حصاده» فيها ثلاثة أقوال : ١ - وقت الجذاذ ، ٢ - يوم الطيب ، لأن ما قبل ذلك يكون علفًا لا قوتا ، ٣ - أنه (أى الحق) يكون بعد تمام الخرص .. والصحيح الأول لنص التنزيل، والخرص أن يقدر ما على نخله رطبا ، ويقدر ما ينقص لو يُتَمَّر (أى ما يصير تمرا بتيبيسه)(٢).

---

(١) النضح سقى الزرع وغيره بالسانية ، وهى الناقة يُستَقى عليها .

(٢) عن تفسير القرطبي جـ ٧ ص ٩٧ وما بعدها وقارن ببند ٤٠ .

الفصل الثاني عشر

الإسـراف[1]

في القـرآن الكـريم

بند (٤٨)

في أواخر عام ١٩٦٥، وخلال عام ١٩٦٦، كتبت عدة مقالات، كانت هي بواكير إنتاجي في الإسلاميات ، وقد رحبت مجلة «منبر الإسلام» والمشرفون عليها وقتئذ، بنشر هذه المقالات . ثم حدث أن فرضت المجلة على كتابها ، الكتابة تحت عنوانين هما : «إخوان الشياطين» و «حلف الشيطان» والمقصود بالعنوان الأول ، هم «الإخوان المسلمون» ، وبالثاني «الحلف الإسلامى» الذى دعا إليه المغفور له الملك فيصل آل سعود، وهو - بلا جدال - من خيرة الحكام المسلمين في زماننا، ووقوفه إلى جانب مصر في حرب أكتوبر ١٩٧٣ كان حاسما ، حيث استعمل سلاح البترول ضد الغرب المعاون لإسرائيل . أما «الإخوان المسلمون» فإني لم أنضم إليهم، ولا لغيرهم من الأحزاب السياسية حتى اليوم، لكنى أشاركهم الرأى والاتجاه إلى تطبيق الشريعة الإسلامية. وشعر الكثيرون من الذين كانوا يكتبون في المجلة بالحرج ، لقد كان الحاكم وقتئذ جباراً لايرحم، وكان بيده كل شيء من أمور الدنيا «الترهيب والترغيب!» - وقد لاحقني موظفو المجلة ، (وهم مقهورون بلاريب) . لكنى سوّفت . وفي نفس العام (١٩٦٦) ، يسر الله لى أداء فريضة الحج، كما يسر لى العمل بالخارج «ونجوت من القوم الظالمين» . ورغم تغير الظروف، فإني لم أكتب للمجلة حتى اليوم . وما أكثر الأشياء التى انصرفت عنها وذلك بسبب أعمال جامعية وعلمية استغرقت كل وقتى !

وأعود إلى الإسراف، الذى جاء دائما في الكتاب والسنة في موضع الذم . وكانت مجلة منبر الإسلام قد استكتبتنى وآخرين في موضوع الإسراف (ص ٢١٧ وما بعدها من العدد الرابع - من السنة ٢٣ من المجلة) .

وفيما يلى الكلمة التى كتبتها (مع تعديل وإضافات) : إننا مطالبون بالعمل[2] ، وبالمزيد من العمل ، لزيادة الإنتاج، وإننا مطالبون بالإتقان والإحسان في العمل ، لرفع مستوى جودته ورتبته . هذا كله مطلوب ، ويجب أن يواكب ذلك ويصاحبه اعتدال في الإنفاق، وتحرى الأهم فالمهم من وجوه الصرف . إن الحكام والمحكومين مطالبون بذلك ، ويجب أن يكون الأولون قدوةً وأسوةً للآخرين. إن الإصلاح ، أى إصلاح ، يجب أن يأتى من أعلى ، ولا قيمة للدعوة

---

(١) عن كلمة لى منشورة بمجلة منبر الإسلام عدد ٤ س ٢٣ ص ٢١٩ ومابعدها.

(٢) وانظر في «العمل» كإحدى الفضائل الإسلامية بند ١٧ من هذا الكتاب .

ولا قيمة للقوانين إلا بانضباط الدعاة والحكام جميعا. لا قيمة للقول بلا عمل، ولاقيمة للعمل دون إخلاص فالإخلاص هو الروح . إن البناء يجب أن يبدأ من الأسرة، وتربية الناشئة على الفضائل، ومنها الاعتدال والاقتصاد، هى مسئولية الوالدين والمدرسة جميعا.

وينشأ ناشئ الفتيان منا ∴ على ما كان عوَّده أبوه

والمدرسة ليست للتعليم فقط، إن رسالتها الأساسية هى الإعداد والتربية، والتربية الدينية بالذات، وهذا كله يستوجب الاهتمام، كل الاهتمام، بالمعلم. إن الأنشطة المختلفة بالمدرسة، يجب أن يكون هدفها ، هو تخريج الإنسان السوى .

وأعود مرة أخرى وأقول : إن الإسراف طرف، وأن التقتير طرف، والاعتدال هو الوسط. و«الوسطية» سمة من سمات الإسلام الأساسية . **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾** (البقرة - ١٤٣) .

وإن الأسرة هى الخلية الأولى والأساسية فى بناء الوطن الذى يحتاج إلى جانبى العمل، والإخلاص فيه ، الاقتصاد فى الصرف، فضلا عن سلامة التخطيط، ودقة التنفيذ، وحسن التوجيه لاستثمار المدخرات. فإن لم نفعل عرضنا الثروة للضياع. وإذا كنا سنحاسب على الإسراف فى مالنا الخاص، فإن حسابنا على الإسراف فى المال العام أشد. والبذل، ولو بكل المال فى أعمال البر والخير والإنفاق فى سبيل الله لايعتبر سَرَفًا فلا سرف فى الخير . وقد تبرع أبو بكر بكل ماله فى سبيل الله، فلم يعترض رسول الله لاطمئنانه إلى قوة إيمان الصديق رضى الله عنه . وفيما عدا الإنفاق فى سبيل الله ، فالواجب هو الوقوف عند حد الاعتدال والاقتصاد . ولن يكون التبذير والإسراف خيرا أبدا . ولذلك لم يردا فى الكتاب العزيز إلا فى موضع الذم والنهى. ومن ذلك قوله تعالى **﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا * إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا﴾** (٢٦، ٢٧- الإسراء). **﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين﴾** ، (٣١ - الأعراف) **﴿الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾** (٦٧ - الفرقان) ، **﴿إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب﴾** (٢٨ - غافر) ، **﴿كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾** (٣٤ - غافر) ، **﴿وأهلكنا المسرفين﴾** (٩ - الأنبياء)، **﴿وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾** (٤٣ - غافر) ، **﴿وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين﴾** (٨٣ - يونس) ، **﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون﴾** (١٥١ ، ١٥٢ - الشعراء) .

وبالنظر فى هذه الآيات من الذكر الحكيم نجد أن الله - جل شأنه - قد وصف المبذرين بأنهم «إخوان الشياطين» - وأنه - سبحانه وتعالى - «لايحب المسرفين» - فالهلاك ينتظرهم ، والنار مصيرهم . والمسرف - كما جاء فى الآيات - كذاب مرتاب ، لا يؤمن بآيات ربه . والمسرف «عال فى الأرض» ولاطاعة له على غيره ، لأنه يفسد ولا يصلح . ومن الآيات يتضح أن الدستور القرآنى هو الاقتصاد والاعتدال فى الطعام والشراب وكل وجوه الإنفاق . والترف

من صور السرف ، وهو منهى عنه مذموم . والمترفون مجرمون ، ومستحقون لنقمة الله . (الآيات ١١٦ هود – ١٦ الإسراء – ١٣ الأنبياء – ٢٣، ٣٤ المؤمنون – ٣٤ سبأ – ٢٣ الزخرف – ٤٥ الواقعة) .

ولا شك أنه من الصعب تحديد الحد الفاصل بين الإسراف والتقتير، وواجبنا هو التحرى والاجتهاد مع مراعاة سائر الظروف . والمسألة نسبية على أى حال . والإسراف يشمل المبالغة فى مصاريف الإنتاج ، كما أنه يشمل فى الوقت ذاته ، عدم الدقة فى دراسة المشروعات الجديدة ، ويمتد إلى الإهمال فى التنفيذ.. ومن صوره هذا التنافس فى المظاهر الكاذبة . وفى المثل : «حب الظهور يقصم الظهور» . وإذا كانت مسئوليتنا عن الإسراف العمدى لاتحتاج إلى بيان، فإن هناك أنواعاً من الإسراف نأتيها عن استهتار أو جهل ، غير مدركين لنتائجها ومدى مسئوليتنا عنها . وإن اقتصادنا الوطنى يفقد الكثير بسبب تصرفات لانحاول التفكير فيها وتقدير آثارها كتشوين القطن أو الحبوب فى العراء . وهناك تصرفات نرهق بها بعض مرافقنا دون مبرر، ويجب تحاشيها ، كذلك قد نحرم غيرنا من شىء أتيح لنا وأسأنا استعماله . فإسراف الأدوار السفلى فى الماء قد يحرم الأدوار العليا . وهذا الإسراف فى الماء قد يحمِّل قنوات الصرف الصحى فوق طاقتها . ويجب علينا كذلك اليقظة والانضباط فى استهلاك الكهرباء ، وأن نفكر دائما فى غيرنا . وهذا كله بالإضافة إلى إرهاق ميزانية الأسرة . إن الأسرة تستطيع أن توفر الكثير إذا اعتدلت فيما يضاف من سكر – مثلا – على الطعام والشراب وكذلك الشأن إذا حرصت على عدم رمى الطعام فى صندوق القمامة. إن جدة ترمى فى هذه الصناديق من الأطعمة مايكفى لإطعام مدينة كبيرة .. ! ولماذا لانفكر فى الاستفادة من الثياب والأشياء القديمة ؟ وإنى – بهذه المناسبة – أدعو الأسرة ، كل أسرة إلى قراءة كتاب «البخلاء» للجاحظ، إن كثيراً مما جاء فيه ليس بخلا ولا شحا ، إنما هو اقتصاد مطلوب ومحمود العاقبة. ومن أمثلة ذلك ماجاء فيه عن مريم الصناع : التى حرصت على ألا ترمى شيئاً من الذبيحة ، حتى دمائها وقرونها ..

إن علينا جميعا ودائما – حين ننفق أن نتذكر غيرنا ، وأن نتذكر بلادنا ، وأن نتذكر أبناءنا ومن يأتى بعدنا ، إنهم جميعا فى حاجة إلى مدخراتنا . وإنى أسعد كثيرا حين أرى الجيل الجديد قد أضاف وأضاف إلى ما تركه له الآباء والأجداد . وما أجمل هذا إذا قام بعد أداء حقوق الله والناس فيه ! والذى يؤدى هذه الحقوق يجب أن ينمى المال من طريق مشروع ، ومشروع – ديانة – قبل كل شىء .

ولنتجه فى ختام هذه الكلمة إلى الله بهذا الدعاء : ﴿ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾ (١٧٠ – آل عمران) .

الفصل الثالث عشر

الترف[1] في القرآن الكريم

بند (٤٩)

عمل الإسلام على إيجاد التناسق والتقارب بين أفراد المجتمع وطبقاته ، وذلك بمحاربة الفقر والترف معا :

حارب الإسلام الفقر بالحض على العمل، المصدر الأساسى للكسب والرزق : **﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه﴾** (الملك - ١٥) - و«أطيب الكسب عمل الرجل بيده» - حديث شريف[2] .

وحاربه بمخاطبة ضمير المسلم وحثه على الإنفاق وحسن معاملة العامل الأجير . **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم﴾** (٩٢ - آل عمران) . قال المعرور بن سويد : «رأيت أبا ذر- رضى الله عنه - عليه حلة، وعلى غلامه مثلها، فسألته عن ذلك فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «هم إخوانكم وخولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل . وليلبسه مما يلبس. ولاتكلفوهم من العمل ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه» .

وحاربه بالتشريع والقانون بفرض الزكاة التى تؤخذ ممن تتوافر فيهم شروطها لكى تصرف فى الوجوه المبينة فى مواضعها .

وحاربه بتحريم الربا **﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾** (٢٧٥ - البقرة) . وبالنهى عن الأثرة **﴿كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم﴾** (٧ — الحشر) وبعدم بخس الناس أشياء هم (٨٥ - الأعراف).

وسنعود إلى تفصيل ذلك بإذن الله فى مقالات تالية .

وكما حارب الإسلام الفقر . حارب كذلك الإسراف والترف . وقد تكلمنا عن الإسراف فى عدد ربيع الثانى ١٣٨٥ من هذه المجلة (ص ٢١٩) - واليوم نتكلم عن «الترف فى القرآن الكريم».

---

(١) عن مقال لى منشور بمجلة منبر الإسلام عدد ١١ س ٢٣ .

(٢) عن مسند أحمد وآخرين ، عن رافع بن خديج .

والترف فى اللغة هو التنعم الزائد المؤدى إلى البطر والبغى . وتجب التفرقة بينه وبين الغنى . فهذا الأخير محمود مطلوب وقد وصف الله - جل شأنه - به نفسه في آيات كثيرة . من ذلك قوله تعالى : « **وربك الغنى ذو الرحمة**» (١٣٣ - الأنعام) ، كما أنه مَنَّ على رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه وجده عائلا فأغناه . (سورة الضحى) .

وفى دعاء للرسول عليه الصلاة والسلام «اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى». والترف ضار بالجسم والعقل والأخلاق ، كما أنه مهلك للفرد والأسرة والجماعة. فالمترف عادة مسرف فى الطعام والشراب والملذات . وكفى بهذه - أو بعضها - من هادمات مهلكات ! وهو عبد لشهواته ولنفسه الأمارة بالسوء . والويل لمن اتخذ إلهه هواه ! وهو غالبا كسول طفيلى ثقيل. يستمرئ سهولة العيش، ويغتال مجهود الغير ، ولا ينطلق إلى جهاد ولا بر ولا خير .

والمترفون بليدو الحس ، ضعيفو العقل ، وفى قلوبهم مرض . إنهم حصب جهنم ﴿**لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل وأولئك هم الغافلون**﴾ (١٧٩ - الأعراف) . وهم - فى الغالب - عباد مادة ﴿**يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله**﴾ ، ﴿**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث**﴾ (٣٤ التوبة و ١٤ آل عمران) .

وهم فى كثير من الأحوال جامدون ، يتمسكون بالقديم ويعادون الجديد . ﴿**وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون**﴾ (١٧٠ - البقرة) .

وهم طلاب متاع وسلطان وأعراض زائلة ، ولو كان ذلك على حساب المبادئ والقيم والمثل العليا.

وقوم هذا شأنهم يجرون الشر لأنفسهم وذويهم وبلادهم. ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة**﴾ (٢٥ - الأنفال) . وهذا كله واضح فى تاريخ الأفراد والعائلات والدول - وضوحا لايحتاج إلى إظهار .

وفى عهود قريبة مضت عرفت هذه البلاد أنماطا ممن كانوا يسمون أنفسهم «أولاد الذوات والبيوتات» ، منهم من هجر القرية إلى المدينة، جريا وراء اللذات ، وسعيا وراء الرتب والألقاب والمناصب، فدمروا أنفسهم، وبددوا ثرواتهم، ونقلوها - بالاستدانة والربا من الأيدى القومية إلى المصارف والبلاد الأجنبية . ومنهم من بقى فى القرية يستذل أهلها ، ويستغلهم أسوأ استغلال . ومنهم الطفيليون ومحترفو الإجرام .. ومنهم ومنهم .

وفى التاريخ القديم والحديث، كان الترف هو السبب الأساسى فى سقوط العروش والدول. وفى هذا المعنى يقول الدكتور غوستاف لوبون : «إن كل عضو لا يقوم بوظيفته لا يلبث أن يعجز عن القيام بهذه الوظيفة من فوره .. وما كان مزاج الناس النفسى ليشذ عن هذه

السنن الفيزيولوجية . وقد تزول بسرعة قابليات النفس التى اقتضى تكوينها عدة قرون . ولا تلبث الشجاعة وقوة المبادرة والإقدام وروح المخاطرة وغيرها من الصفات الخلقية أن تمحى إذا لم يتح لها أن تمارس . «ونحن إذا بحثنا فى الأسباب التى أدت بالتتابع إلى انهيار الأمم، وهى التى حفظ التاريخ لنا خبرها كالفرس والرومان وغيرهم، وجدنا أن العامل الأساسى فى سقوطها هو تغير مزاجها النفسى تغيرا نشأ عن انحطاط أخلاقها . ولست أرى أمة واحدة زالت بفعل انحطاط ذكائها .

«ووجه الانحلال واحد فى جميع الحضارات الغابرة» فالأمة «بعد أن تبلغ تلك الدرجة من الحضارة والقوة، حيث تطمئن إلى أنها لا تكون عرضة لهجوم جيرانها ، تبدأ بالتمتع بنعم السلم والترف التى يمن الثراء بها عليها ، فتذبل المزايا الحربية ، وتوجب زيادة الحضارة وحدوث احتياجات جديدة . وتنمو الأثرة . وأبناء الوطن - إذ لا يبقى لهم بذلك من مثل عال غير التمتع السريع بالأموال التى تحصل على عجل - يتركون للدولة أمر إدارة الشئون العامة، فلا يلبثون أن يفقدوا جميع الصفات التى كانت سبب عظمتها . وهناك يغير على الأمة الكثيرة التمدن جيران ذوو احتياجات ضعيفة إلى الغاية مع مثل عال قوى جدا، ثم يقيم هؤلاء حضارة جديدة» وعلى هذه الصورة هدمت إمبراطوريتا الرومان والفرس مع ما كان لهما من تنظيم هائل. «وليست صفات الذكاء هى التى كانت تعوز الأمم المقهورة» وإنما كانت تعوزها الأخلاق وقد صاغ الشاعر العربى هذا المعنى بقوله :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وذلك كله مصداق لقوله تعالى : **﴿إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال﴾** (١١ - الرعد) . هذا ، وقد جاءت مادة الترف فى القرآن الكريم فى ثمانية مواضع، وهذه هى الآيات التى وردت فيها حسب ترتيب السور.

(الآيات : ١١٦ - هود ، ١٦ - الإسراء، ١٣ — الأنبياء ، ٣٣، ٦٤ — المؤمنون ، ٣٤ - سبأ ، ٢٣ - الزخرف ، ٤٥ - الواقعة) .

آية هود

وردت آية (هود) قرب آخر السورة ، فرقمها - كما تقدم - (١١٦) من عدد الآيات البالغ ١٢٣ آية . وتبدأ سورة (هود) - وهى مكية - بقوله تعالى : **﴿الر * كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير * ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير..﴾** والنذير البشير - هنا - هو الرسول عليه الصلاة والسلام. وبعد آيات مختلفة، وبعد إشارة إلى «الذين خسروا أنفسهم..» وإلى الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. أصحاب الجنة .

يقول الله تعالى : **﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون﴾** (٢٤ هود) . بعد ذلك تتوالى الآيات فى قصص الرسل، فالآيات من ٢٥ إلى ٤٩

في قصة نوح عليه السلام، وهي تبدأ بقوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين * ألا تعبدوا إلا الله﴾ وتنتهي بقوله تعالى ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فا صبر إن العاقبة للمتقين﴾ .

والآيات من ٥٠ إلى ٦٠ في قصة هود، والآية ٥٠ هي ﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون﴾ . والآيتان الأخيرتان في القصة هما ﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد * وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود﴾ .

والآيات من ٦١ إلى ٦٨ في قصة صالح. وتبدأ بقوله تعالى :﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا ..﴾ وتنتهي بقوله تعالى: ﴿كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود﴾ .

والآيات من ٦٩ إلى ٨٣ في قصتي إبراهيم ولوط ، وتبدأ بقوله تعالى : ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ..﴾ وتنتهي بقوله تعالى : ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وماهي من الظالمين ببعيد﴾ .

والآيات من ٨٤ إلى ٩٥ في قصة شعيب : وبدايتها ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا ..﴾ ونهايتها ﴿.. ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود﴾ والآيات من ٩٦ إلى ٩٩ في قصة موسى .

وفي هذه القصص يدعو الرسل أقوامهم إلى عبادة الله وحده، وترك الشرك والعادات السيئة والانحرافات المختلفة، ويقبل البعض على هذه الدعوات، ويحاربها الآخرون من المترفين والمستكبرين ومن جاراهم. وينجي الله رسله والذين آمنوا ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ (٤٧ – الروم) . أما الكافرون فلهم سوء المصير. ﴿فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حا صبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ (٤٠ – العنكبوت) .

وبعد القصص المتقدمة تأتي الآية المائة كالآتي : « ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد» . تتلو ذلك آيات في التعقيب على ما تقدم ثم تتوالى الآيات ١١٥ و ١١٦ و ١١٧ ونصها « وا صبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين * فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين* وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ .

وفي تفسير هذه الآيات جاء في (البيضاوي) :

فلولا كان = فهلا كان . أولو بقية = من الرأي والعقل ، أو أولو الفضل، أو ذوو إبقاء على أنفسهم صيانة لها من العذاب . واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه = ما أنعموا فيه من الشهوات، واهتموا بتحصيل أسبابها، وأعرضوا عما وراء ذلك . وكانوا مجرمين = كافرين، كأنه أراد أن يبين ماكان السبب لاستئصال الأمم السابقة، وهو فشو الظلم فيهم، واتباعهم

للهوى، وترك النهى عن المنكرات مع الكفر . بظلم = بشرك . وأهلها مصلحون = فيما بينهم، لايضمون إلى شركهم فسادا أو تباغيا. وذلك لفرط رحمته ومسامحته فى حقوقه .

وفى معنى ما تقدم جاء فى تفسير المنار «أن العقول السليمة الرشيدة كافية لفهم ما فى دعوة الرسل عليهم السلام من الخير والصلاح لو لم يمنع من استعمال هدايتها الافتتان بالترف، والتفنن في أنواعه، بدلا من القصد والاعتدال وشكر الله المنعم . فالإتراف هو الباعث على الإسراف والفسوق والعصيان والظلم والإجرام . يظهر فى الكبراء والرؤساء، ويسرى بالتقليد فى الدهماء، فيكون سبب الهلاك بالاستئصال ، أو فقد الاستقلال» .

«وما كان من شأن ربك .. أن يهلك الأمم بظلم منه لها .. وإنما أهلكهم ، ويهلكهم بظلمهم وإفسادهم فيها» . «وفى الآية وجه آخر، وهو أنه ليس من سنته تعالى أن يهلك القرى بظلم يقع فيها – مع تفسير الظلم بالشرك – وأهلها مصلحون فى أعمالهم الاجتماعية والعمرانية، وأحكامهم المدنية والتأديبية، فلا يبخسون الحقوق كقوم شعيب، ولا يأتون فى ناديهم المنكر كقوم لوط، ولا يبطشون بالناس بطش الجبارين كقوم هود، ولا يذلون لمتكبر جبار يستعبد الضعفاء كقوم فرعون – بل لابد أن يضموا إلى الشرك الإفساد فى الأعمال والأحكام، وهو الظلم المدمر للعمران . وفى هذا المعنى القول المشهور المعبر عن تجارب الناس وهو أن الأمم تبقى مع الكفر ولاتبقى مع الظلم» .

«ويحتمل أن يراد أنه لا يهلكها بظلم قليل من أهلها لأنفسهم، إذا كان الجمهور الأكبر منهم مصلحين فى جل أعمالهم ومعاملتهم للناس».

آية الإسراء

بعد الآيات الأولى من السورة تأتى الآيات ١٥، ١٦، ١٧ هكذا ﴿ **من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا * وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا * وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ...** ﴾

وفى البيضاوى فى تفسير هذه الآيات :

وإذا أردنا أن نهلك قرية = وإذا تعلقت إرادتنا بإهلاك قوم لإنفاذ قضائنا السابق، أو دنا وقته المقدر . أمرنا مترفيها ففسقوا فيها = أمرنا متنعميها بالطاعة على لسان رسول بعثناه إليهم . والفسق هو الخروج عن الطاعة والتمرد فى العصيان. وقيل أمرنا أى كثرنا . وقيل أيضا: أمرنا أى جعلناهم أمراء . وتخصيص المترفين لأن غيرهم يتبعهم ولأنهم أسرع إلى الحماقة ، وأقدر على الفجور .

ونكتفى بأن نشير هنا إلى ما يظهر فى الآيات من الربط بين الترف والفسق من جهة وبين هلاك القرى من جهة أخرى .. وهذه سنة الله فى خلقه ، تلك السنة المستفادة من قوله تعالى

«فحق عليها القول ..إلخ» ومن قوله كذلك: ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾ وقد سبق ذكر أمثلة على ذلك فيما كتبناه من سورة (هود) .

آية الأنبياء

تبدأ سورة الأنبياء بالإشارة إلى غفلة الناس وإعراضهم رغم اقتراب الحساب ، وإلى أنهم إذا أتاهم ذكر محدث من ربهم «استمعوه وهو يلعبون ، لاهية قلوبهم..» يقولون عن الرسول : «هل هذا إلا بشر مثلكم» ويقولون عما أتى به «أضغاث أحلام، بل افتراه ، بل هو شاعر..» ثم يقولون : «فليأتنا بآية كما أرسل الأولون» . ثم تأتى الآيات بعد ذلك هكذا : ﴿ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون * وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وماكانوا خالدين * ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين * لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون * وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين * فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون * لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون * قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين * فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين﴾ (الآيات من ٦ إلى ١٥) .

وجاء في تفسير البيضاوى :

«وارجعوا إلى ما أترفتم فيه» من التنعم والتلذذ، والإتراف إبطار النعمة . «لعلكم تسألون» غدا عن أعمالكم، أو تعذبون، فإن السؤال من مقدمات العذاب . «قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين» لما رأوا العذاب . ولم يروا وجه النجاة . فلذلك لم ينفعهم.

ويلفت النظر فى الآيات الكريمات، والتى جاء فيها ذكر (الترف) ، أنها تتضمن فى نفس المجال الحديث عن رسالات السماء ، وعن القرى الظالمة المسرفة المترفة اللاهية قلوبها عن ذكر الله، فأهلكها الله وجعلها حصيدا .

فلما أحسوا بأس الله «إذا هم منها يركضون» . ولكن : كيف الفرار من الله؟! وإلى أين؟ وكيف الهروب من النتائج وقد أوجدوا الأسباب ؟! وكيف يرجى البقاء مع الظلم والفساد؟ ألا إنه لايأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

آيتا «المؤمنون»

تبدأ السورة بقوله تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون..﴾ ثم تأتى آيات فى صفاتهم، ثم آيات فى قدرة الله الذى خلق «الإنسان من سلالة من طين ..» وخلق فوقنا سبع طرائق .. وأنزل من السماء ماء بقدر.. إلخ وبعد ذلك تأتى الآيات فى رسالة نوح : ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ....﴾ إلى أن يقول الله تعالى : ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين * فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون * وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ماهذا إلا بشر

مثلكم..﴾ (الآيـة ٣٣) ﴿... فأخذتهم الصيحة بالحق﴾ (الآيـة ٤١) ، ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين﴾ (الآيــة ٤٢)، ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترا كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لايؤمنون * ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون ﴾(الآيتـان ٤٤، ٤٥)، ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية ..﴾ (الآية ٥٠) . وبعد آيات أخرى يقول الله تعالى ﴿بل قلوبهم فى غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون * حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجارون﴾ (الآيتان ٦٣، ٦٤) .

وفى كتب التفسير : الملأ = الظاهرون البارزون فى القوم . يتفضل = يصير أفضلكم .

وأترفناهم = نعمناهم فى الدنيا بكثرة المال والولد وهكذا نرى الآيتين ٣٣ و ٦٤ من سورة «المؤمنون» اللتين وردت فيهما الكلمتان «وأترفناهم» و«مترفيهم» – نرى أنهما جاءا مع آيات فى ذكر الرسل وتكذيبهم. والمكذبون هم المترفون. ومصيرهم هو العذاب . إنهم فى غمرة وغفلة من لقاء ربهم.

ونلاحظ فى قوله : « يريد أن يتفضل عليكم..» إشارة إلى هذه الحرب التقليدية بين المترفين وأصحاب الرسالات الجديدة، بين باطل يجب أن ينتهى وحق غالب . إنهم يخدعون أنفسهم وتابعيهم قائلين لهم : ليس الرسل إلا بشرا مثلهم، يبتغون السيادة عليهم بدعوى الرسالة ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ (٣٢ التوبة) .

آية سبأ

بعد الآيات الثلاث والثلاثين الأولى من سورة سبأ. والتى تتضمن شيئا عن داود وسليمان عليهما السلام. وشيئا كذلك عن قوم سبأ الذين كان لهم فى مسكنهم «آية جنتان عن يمين وشمال» والذين «أعرضوا» فأرسل الله «عليهم سيل العرم» . لقد ظلموا أنفسهم «فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق» . وبعد آيات فيما يدور بين الذين استضعفوا والذين استكبروا، وهم جميعا «موقوفون عند ربهم» – يقول الله تعالى : ﴿وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون * وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين﴾ فهاتان الآيتان (٣٤ و ٣٥ من سورة سبأ) تتكلمان عن المترفين، وكيف أنهم هم الذين يتصدون لرسالات الرسل بالتكذيب، معتزين بكثرة المال والولد ومتفاخرين. ﴿وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾ (٣٥ – الزخرف) .

آية الزخرف

يقول سبحانه وتعالى فى الآيات من ٥ إلى ٨ من السورة : ﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين * وكم أرسلنا من نبى فى الأولين * وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون * فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين﴾ . ويقول فى الآيات من ٢١ إلى ٢٥ ﴿أم أتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون * بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون * وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون *

قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون * فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾ .

ففى الآيات - كما تقدم - إشارة إلى «الأولين» الذين ما أرسل الله إليهم من رسول «إلا كانوا به يستهزئون» . إن رسالات السماء حرب ضد الشرك بالله، ضد عبادة المادة، ضد الترف، ضد التعصب والافتخار بكثرة الأموال والأولاد، ضد التعالى والتبلد فى الحس ، والإفساد فى الأرض. ضد الامتياز والامتيازات الباطلة .

وطبيعى ألا يتعرض للرسل والرسالات إلا المترفون. الذين يقاومون - عن جهل - أو عن قصد - مستميتين دون ما تركه لهم الآباء والأجداد غير ناظرين إلى الأهدى والأحسن .

آية الواقعة

بعد آيات فى : أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة والسابقين السابقين. وما أعده الله للمقربين وأصحاب اليمين «فى جنات النعيم» . تأتى الآيات (٤١) وما بعدها هكذا : **﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * فى سموم وحميم * وظل من يحموم * لابارد ولاكريم * إنهم كانوا قبل ذلك مترفين * وكانوا يصرون على الحنث العظيم * وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون..﴾**.

على هذا النحو تأتى آخر آية وردت فيها مادة (الترف) فى القرآن الكريم . فى هذا البيان القرآنى القوى المعجز : «وأصحاب الشمال. ما أصحاب الشمال.. فى سموم وحميم .. إلخ» . ولماذا هذا المصير، والعذاب الأليم ؟! كفاهم أنهم «كانوا قبل ذلك مترفين..» .

إن هؤلاء الذين أسرفوا فى الاستجابة لكل شهوة ونزوة، ليس لهم فى الآخرة إلا النار ... وأى نار ! .. ونلاحظ - بعد العرض المتقدم - أن الكلمات المشتقة من مادة الترف الواردة فى القرآن الكريم ، وهى ثمانى كلمات، أوردناها حسب ترتيبها فى سورها فى المصحف الشريف - نلاحظ :

أولا : أنها جاء ت مرتبطة بسوء العاقبة ، فى الدنيا والآخرة .

ثانيا : أنها جاء ت - أول ماجاء ت - فى سورة (هود) (وهى السورة الحادية عشرة من القرآن الكريم) ، وقد جاء ت فى هذه السورة مسبوقة بذكر تفصيلى (نسبيا) لقصص بعض الأنبياء مع أقوامهم ، وما حدث لهم .

ثالثا : أنها وردت - فيما تلا ذلك - مرتبطة بذكر الرسل والرسالات، ولكن ليس بمثل التفصيل المتقدم .

رابعا : أنها فى الآية الأخيرة (وهى الواردة فى سورة الواقعة التى تحمل رقم ٩٦ بين سور المصحف الشريف) - جاء ت كجريمة أولى من الجرائم التى ارتكبها أصحاب النار. وبعد: فإذا كنا نعوذ بالله من الفقر مرة ، فإننا نعوذ به من الترف ألف ألف مرة .

الفصل الرابع عشر

الرجـل الصــالح

بند (٥٠)

يقـول تعـالى (الآيـة ٢٠ من سـورة القـصص) : ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من النا صحين﴾ . وفى سورة غافر (الآية ٢٨ وما بعدها، عودة إلى هذه القصة بتفصيل أكثر) : يقـول تعالى : ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب * ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ماأريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد * وقال الذى آمن ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب * مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد * وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد *يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عا صم ومن يضلل الله فماله من هاد * ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب * الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا * كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار * وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب * أسباب السمٰوات فأطلع إلى إلٰه موسى وإنى لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله و صد عن السبيل وماكيد فرعون إلا فى تباب * وقال الذى آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد * ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار * من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب * وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار * تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار * لاجرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أ صحاب النار * فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد * فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعر ضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العقاب﴾ (٢٨ إلى ٤٦) .

وفى سورة «يس» - يقول تعالى (الآيات ٢٠ إلى ٢٧).

﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لايسألكم أجرا وهم مهتدون * ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون * أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون * إنى إذا لفى ضلال مبين * إنى آمنت بربكم فاسمعون * قيل ادخل الجنة. قال ياليت قومى يعلمون * بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين﴾.

عن الآية ٢٠ – القصص :

أقول : قبل هذه الآية ، جاء في الآية ١٥ وما بعدها (عن موسى) أنه دخل المدينة[١] على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان، أحدهما إسرائيلي (من شيعة موسى) والآخر من شيعة فرعون . استغاث الأول بموسى، الذى ضربه بقبضة يده فمات . وتدارك موسى أمره، واستغفر ربه فغفر له. واستشعر موسى فضل الله عليه فعزم على ألا يكون – بعد ماكان – معيناً لمجرم . وأصبح في المدينة، خائفا وجلا قلقا، فإذا الذى جرّه بالأمس إلى قتل المصرى يستغيث به مرةً أخرى ، فنهره موسى . ومع ذلك عاد وهمّ بالبطش بالمصرى الذى قال له : هل اخترت لنفسك أن تكون جبارا طاغية، أليس الأولى بك أن تكون من المصلحين؟ وجاءت الآية (٢٠) . إذ جاء رجل من أقصى المدينة إلى المكان الذى به موسى، جاء يحذره من أن القوم (أى المصريين) يتواعدون عليه ويتآمرون ، وناداه أن اخرج، فإني لك ناصح أمين . وخرج موسى من مصر، متوجها نحو مدين. وهو خائف يترقب ولكن ، لماذا مدين؟ ثم ماذا كان يترقب؟ إن الذين يرشحهم الله ويُعِدُّهم لكى يكونوا رسله وأنبياءه إلى خلقه، يحملون أعباء الرسالة ، وأداء الأمانة يكونون دائما بعينه، وكل مايكون منهم أو ضدهم، من ظلمهم لأنفسهم، أو ظلم غيرهم لهم، يكون دائما هو قدرهم، إنه قدرهم فى حاضرهم ومستقبلهم. إن توجه موسى إلى مدين لم يكن صدفةً ولا اعتباطا : فموسى إسرائيلى من سلالة يعقوب (إسرائيل)، ويعقوب هو ابن إسحاق بن إبراهيم . وإلى إبراهيم كان ينسب شعيب وقومه. وعلى هذا النحو يمكن تفسير «الترقب» بأنه «التوقع المتفائل» وليس غريبا أن يعترى الإنسان الخوف والتوقع المتفائل معا . وقد يفسر «الترقب» بأنه التوقع المخوف، ويرجحه ذكر الخوف معه، ويكون معناه، وهذا غير مستبعد، توقعه ملاحقة الجنود المصريين له. وفى كل الأحوال فقد كان بعين الله، الذى نجاه فلم يدركه ملاحقوه، وكان بعين الله ، فلم يضل طريقه فى هذا التيه بين مصر وأطراف الشام، عبر سيناء. ويقال : إن هذه المسافة كانت تقطع فى ثمانية أيام . لقد أضناه المشى الذى أدمى قدميه، وأضناه الجوع، الذى لم يكن معه مفر من التغذى على أعشاب الأرض وأوراق الشجر. وأضناه العطش ، وهو ما يتعرض له من يقتحمون هذه الفيافى، وخاصة حين لا يكون معهم مايركبون ولا من يؤنسون . هذا كله متصور، ويرجحه أنه ماكاد يصل إلى مدين حتى أوى إلى ظل شجرة ، وقريبا من بئر يتردد عليها – ولاريب – أهل القرية، من أجل أنفسهم وما شيتهم. وتحت الشجرة يناجى ربه « **إنى لما أنزلت إلى من خير فقير** » إنه فى حاجة إلى كل شىء إلى الأمن بعد الخوف. وإلى الطعام بعد الجوع .

وأضيف : أنه – لأنه كان بعين الله – كانت السكينة – دائما تستقر فى أعماقه، وكان التفاؤل يجرى مجرى الدم فى كل بدنه، وفى كل نفسه وعقله وروحه ! وهناك ، قرب البئر، وتحت الظل، وجد ناسا يسقون. ووجد فتاتين على بعد من المتزاحمين على الماء ، يميزهما حياء يتجلى فى صالحتين من أبوين صالحين. وكانتا لصلاحهما ، والتزامهما بما يتخلق به الطيبات

---

(١) أرجح أنها عاصمة الديار المصرية وقتئذ .

من النساء، تبتعدان ولا تقتحمان، وتردان ماشيتهما حتى لا تتسلل إلى الزحام. فلما سألهما، ما شأنهما، قالتا: لانسقى - كعادتنا - إلى أن يُصْدر الرعاء(1). وأضافتا: ما اضطرنا إلى ماترى إلا أن أبانا شيخ كبير. وسقى لهما، ثم عاد إلى الظل، وقال - وهو مطمئن إلى كرم الله ولطفه: «رب: إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير» ولم يكد، حتى رأى إحدى الفتاتين، تقبل إليه فى استحياء، وقالت: إن أبى يدعوك ليعطيك أجر(2) ما سقيت لنا. حقا، إن فرج الله قريب، وحقا: إن الطيبات للطيبين، وإن الطيبين للطيبات. والأمر كله، ودائما، بيد الله! كانت الفتاة قد تقدمت الفتى، كما يفعل كل مرشد إلى الطريق. فطلب إليها وكما هو واجب أهل العفة والكمال من الرجال - أن يتقدمها، مكتفيا منها بأن ترشده إلى ما ينبغى فعله من المضى على الجادة، أو الدخول إلى يمين أو يسار! وقال لها: إنى رجل عبرانى، لا أنظر فى أدبار النساء. لقد تحققت هى وأختها من قبل، تحققتا من قوته وعافيته ومروءته، وها هى تتأكد الآن من طهارته وأمانته. ودخل الفتى على الشيخ، وقص عليه قصته. فطمأنه، بل وهنأه بنجاته من القوم الظالمين، من فرعون وجنوده الذين قصدوا إلى التخلص منه! وفى أدب، وكمال، وحياء: «قالت إحداهما: ياأبت استأجره، إن خير من استأجرت القوى الأمين» صفتان تجمعان كل ما يجب أن يتصف به كل عامل فى كل موقع: الكفاءة والأمانة، العلم والتقوى، الخبرة ومكارم الأخلاق. هذا هو القصص القرآنى، ومافيه من دروس. ومن هذه الدروس: أن يكون الرجل المناسب فى المكان المناسب. وما استطاعت الأمم والشعوب، ولن تستطيع، أن تحقق طموحاتها، ومكانها ومكانتها تحت الشمس إلا بالالتزام بهذا المبدأ، وإلا فالتخلف(3) والفساد، وهما سبب هلاك الأمم وسقوط الدول.

قال الشيخ: إنى أريد أن أزوجك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج (سنوات)، فإن أتممتها عشرا فزيادة وفضل ما أراك إلا أهلا لهما، ولن تجد منى إلا الصلاح والتقوى. ووافق موسى، مضيفا: سواءً كانت المدة هى الأطول أم الأقصر، مما ذكرنا، فلا تثريب علىّ إذا استأذنت وغادرت، والشهيد والوكيل هو الله، ولى الجميع، وفى بعض(4) ما جاء فى كتب التفسير أنه قضى فى مدين أكثر من عشر سنوات.

---

(1) أى حتى يرجع الرعاة بعد السقى، وما اضطرنا إلى ماترى إلا أن أبانا شيخ كبير، وإلى عدم وجود الرجال الذين يقومون بالأعمال فى أسرتنا.

(2) وقرب الشيخ إليه طعاما. فقال موسى لاآكل. إنا أهل بيت لانبيع ديننا بملء الأرض ذهبا. فقال الشيخ: ليس هذا عوض السقى. ولكن عادتى وآبائى قرى الضيف (القرطبى نفسه ٢٧١، ومناهج الألباب للطهطاوى ص ١٠٤).

(3) ومع التخلف والفساد يكون الجهل والترف وبطر النعمة، وانحراف الحكام ونفاق الحاشية والدعاة، وكلها عوامل هدم!

(4) القرطبى - مجلد ١٣ ص ٢٨٠. هذا، وقيل: إن «الشيخ الكبير» هو شعيب عليه السلام نفسه، وقيل إنه من نسله، وأن شعيبا كان قد مات. والبنتان هما ليا (الكبرى) والأخرى صفوريا، والراجح أنه تزوج هذه (القرطبى نفسه ص ٢٧٣) ومناهج الألباب للطهطاوى ص ١٠٤.

وسار موسى بأهله عائداً إلى مصر . وشاء الله أن يعود إليها نبيا رسولا . ففى الطريق رأى ناراً . إنها النار المباركة، والأرض الطيبة المباركة من سيناء . قال لأهله امكثوا . وكان الفصل فصل الشتاء ، والجو شديد البرودة، وتعلق رجاؤه بأن يعود لأهله بخبر، أو جذوة من النار يستدفئون بها .

وكانت المفاجأة، والبشرى العظمى «إذ نودى من شاطئ الواد الأيمن، فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى ، إنى أنا الله رب العالمين» وأن ألق عصاك ، «فلما رآها تهتز كأنها جان(1) ولى مدبرا ولم يعقب(2) . ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين . اسلك يدك فى جيبك(3) تخرج بيضاء(4) من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب(5) ، فذانك برهانان(6) من ربك إلى فرعون وملئه، إنهم كانوا قوما فاسقين. قال رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون . وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءاً(7) يصدقنى ، إنى أخاف أن يكذبون. قال : سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا(8) فلا يصلون إليكما(9) ، بآياتنا(10) أنتما ومن اتبعكما الغالبون». فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ماهذا إلا سحر مفترى وماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين. وامتد الأخذ والرد بين موسى وفرعون، بين النور والظلام، بين إشراق الحرية والاستبداد الذى يجب أن يزول، بين عبادة الله الواحد الأحد وعبادة الفرد الذى «استخف قومه فأطاعوه(11) » وألَّهوه . وذهب الوهم بفرعون إلى حد الهوس، إذ قال مخاطبا الملأ من قومه ، «فأوقد لى ياهامان على الطين ناراً فاجعل لى صرحا (بناء عاليا) لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين» (٣٨ - القصص) . هذا الذى قاله فرعون منذ آلاف السنين قاله الشيوعى الملحد جاجارين ، أول رائد فضاء روسى . وكانت نهاية فرعون والمستكبرين أن أغرقهم الله ، وأما هذا الأفاق الشيوعى فقد هلك فى حادث غير مأسوف عليه (والنار فى الآخرة للظالمين وبئس المصير) .

فى الآية - ٢٠ من سورة القصص، يقول تعالى : ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى..﴾ إلى آخر الآية . جاء الرجل يحذر موسى أن القوم يأتمرون به ليقتلوه ، لأنه قتل منهم رجلا، وهم أن يبطش بالثانى ، وناداه أن يخرج فخرج، وقضى فى مدين ما أراد الله أن يقضى . وفى العودة إلى مصر، وفى مكان مبارك مقدس بعثه الله إلى فرعون وقومه نبيا رسولا .

وفى سورة غافر تقول الآية ٢٨ (وقد سبق ذكرها) : «وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، أتقتلون رجلا أن يقول : ربى الله، وقد جاءكم بالبينات (بالمعجزات) من ربكم .. إلى آخر الآيات السابقة الذكر .

---

(١) حية صغيرة كثيرة الحركة .
(٢) رجع مسرعاً حيث أتى ولم يرجع .
(٣) الجيب : فتحة الثوب مما يلى العنق .
(٤) بياض مبهر وليس بياض مرض كالبرص .
(٥) اضمم يدك حتى يذهب ما بك من الخوف من الحية .
(٦) معجزتان .
(٧) عونا لى لفصاحته فيصدقوننى .
(٨) غلبة على الأعداء .
(٩) فلا يصلون إليكما بسوء .
(١٠) بفضل معجزاتنا .
(١١) ٥٤ - الزخرف.

وظاهر الآيات فى «غافر» يوحى بأن هذا الرجل المؤمن من آل فرعون غير هذا الذى جاء من أقصى المدينة يسعى داعيا موسى إلى الخروج (وهو المشار إليه فى الآية - ٢٠ من سورة القصص) . لقد كان هذا الرجل المؤمن - كما هو واضح من سياق الآيات - يحضر مجلس فرعون، الذى يضم النابهين من أقاربه ، ورجال حاشيته والملأ من قومه . إن هذا الذى جاء فى الآيات لم ينشره الرجل فى صحيفة أو يقله فى خطبة لجمع من الناس ، كما نفعل اليوم . إنما حدث فى مجلس فرعون نفسه. قال الرجل - مما قال - أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله، وقد جاءكم بالمعجزات من ربكم ؟ وحذرهم مما يمكن أن يقع بهم فى الدنيا مثل ما وقع لقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم . ثم أخذ يذكرهم بيوم «التناد يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم(١) ..» «ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات (المعجزات) فمازلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا، كذلك يضل الله من هو مسرف (٢) مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان(٣) أتاهم ، كبر مقتا(٤) عند الله وعند الذين آمنوا، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار(٥) . وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموٰات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد (٦) عن السبيل، وما كيد فرعون إلا فى تباب(٧) . وقال الذى آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد. ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار(٨). من عمل سيئة فلايجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب . وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار. تدعوننى لأشرك بالله ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار. لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة (٩) وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار(١٠) . فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد . فوقاه الله سيئات(١١) مامكروا، وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب» .

أقول : فى الآية - ٢٦ من نفس السورة، يقول تعالى : ﴿ وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد﴾ . وفى الآية ٢٩ يقول تعالى

(١) (انظر ٢٨ — إلى ٣٣) هذا ، ويوم التناد هو يوم القيامة ، يوم يتصايح الجميع، وينادى فيه على الخلائق «واستمع يوم ينادى المناد فى مكان قريب ...» (٤١ - ق) .

(٢) مسرف فى الكفر والعصيان، ومرتاب : شاك فى المعجزات والغيبيات .. وإضلال الله تعالى لايكون إلا نتيجة الإصرار على الكفر.

(٣) بغير حجة أو برهان . (٤) عظم بغضا .

(٥) لقد كانت الخطيئة الأولى (خطيئة إبليس هى «الاستكبار» . وفرعون علا فى الأرض ، وقال : أنا ربكم الأعلى.

(٦) أى عن السبيل المستقيم «صراط الله» أصر على الكفر، فأضله الله . (٧) خسار وهلاك .

(٨) البقاء . (٩) لايقدر على شىء فى الدنيا ولا فى الآخرة .

(١٠) إننا راجعون إلى الله، والنار هى مصير المسرفين «والله لايحب المسرفين» .

(١١) «ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين» (٥٤ - آل عمران) .

﴿ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ماأريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ .

وفى الآية ٦٣ من سورة طه : **﴿قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾** .

وأقول : فى الآية ٢٦ - غافر ، يقول فرعون : دعونى أقتل موسى ، وليدع ربه لينقذه منى! وأضاف : إنى أخاف أن يبدل دينكم، أو أن يظهر فى الأرض الفساد. ويقول فرعون فى الآية ٢٩ - مخاطبا قومه : ماأريكم إلا ماأرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد، أى الطريقة المثلى التى جاء ذكرها فى الآية ٦٣ طه . والله - سبحانه وتعالى - يقول : **﴿كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم**(١) **مرجعهم﴾** وفى الآية ٤٣ من نفس السورة **﴿ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾** . وكون الشيطان هو الذى زين لهم أعمالهم مكرر فى الآيات ٤٨ الأنفال، و ٦٣ النحل و ٢٤ النمل و٣٨ العنكبوت ، وفى سورة يوسف **﴿وماأبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء﴾** (٥٣) **﴿كذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم﴾**(٢) وفى القرآن الكريم **﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾** (٥ - الصف) ويقول : **﴿فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا﴾** (٣) .

فالله - جل وعز - قد أضل الضال ، أى الذى يحمل بذور الشر .

وأسأل : ماالقول فى هؤلاء الذين يجادلون، وينتصرون للباطل . وأقول : إنهم أحد فريقين: مجادل بالباطل لأنه يجهل الحق ، ومجادل بالباطل وهو يعرف الحق، وهذا قد زينت له نفسه، أو زين له الشيطان عمله. وما أكثر هؤلاء الذين يعرفون الحق ويميلون عنه . وأقول مرة أخرى : ما أكثرهم : إنهم المنافقون إنهم «الملكيون أكثر من الملك» إنهم عبيد شهواتهم، إنهم طلاب الدنيا الذين يصفقون لكل حاكم وصاحب سلطان ومال.

وقديما قالوا :

رأيت الناس منفضه ∴ إلى من عنده فضه
ومن لا عنده فضه ∴ فعنه الناس منفضه

وبذات المعنى :

رأيت الناس قد ذهبوا ∴ إلى من عنده ذهب
ومن لاعنده ذهب ∴ فعنه الناس قد ذهبوا

وبذات المعنى :

رأيت الناس قد مالوا ∴ إلى من عنده مال
ومن لاعنده مال ∴ فعنه الناس قد مالوا

---

(١) ١٠٨ - الأنعام . (٢) ١٣٧ - الأنعام .

(٣) ١٠ - البقرة - وفى المقابل : «ويزيد الله الذين اهتدوا هدى» (٧٦ - مريم) .

مازلنا فى «الصلاح» يتصف به الإنسان، فى أى زمان أو مكان، وتحت أى ظروف . وقد وصف الله إبراهيم (أبا الأنبياء) عليه وعلى نبينا وسائر الأنبياء الصلاة والسلام - وصفه بالصلاح، فى قوله تعالى : ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين﴾ (١٣٠ - البقرة) - وبذات الوصف وصف غيره من الأنبياء: ﴿.. وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين﴾ (٣٩ - آل عمران) وهى فى يحيى ابن زكريا عليهما السلام، ﴿.. ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين﴾ (٤٦ - من نفس السورة) ، وهى فى عيسى عليه السلام، إلى آخره .

وفيما تقدم ذكرنا أمثلة للرجل الصالح، وفيما يلى حديث عن النساء الصالحات، وفى بيت فرعون، حيث أظلم الظلم، وذروة الطغيان، وقمة الاستبداد . يقول تعالى فى سورة التحريم ﴿و ضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة، ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين﴾ (الآية - ١١) . وأنقل فيما يلى شيئًا مما جاء فى تفسير ابن كثير للآية (وبعضه منقول عن شيخ المفسرين - ابن جرير الطبرى) :

قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية قال : كان إيمان امرأة فرعون من قبل إيمان امرأة خازن فرعون . وذلك أن المشط وقع من يد امرأة الخازن، وهى تمشط ابنة فرعون . فقالت (أى امرأة الخازن) : تعس من كفر بالله ! فقالت لها الابنة : ولك رب غير أبى . فأجابت : ربى ورب أبيك ورب كل شىء هو الله، فلطمتها الابنة وضربتها وأخبرت أباها الذى أعاد على امرأة الخازن نفس السؤال ، وأعادت هى نفس الجواب . فشد يديها ورجليها وأرسل عليها الحيات، وذبح ابنيها، واحدا بعد الآخر، فى فيها ، وأصرت على إيمانها بالله الواحد، وقالت له «اقض ماأنت قاض» . وبشرها الله بالجنة . وكان ذلك كله أمام امرأة فرعون التى كشف الله لها منزلة امرأة الخازن فى الجنة ، فازداد إيمانها هى الأخرى . وعلم فرعون بإيمانها ، فسأل الملأ : ما قولكم فى آسية بنت مزاحم ؟ (وهو اسم زوجته) فأثنوا عليها . فقال لهم : إنها تعبد غيرى! فقالوا : اقتلها ! فأوتد لها أوتادا ، وشد يديها ورجليها . فدعت آسية ربها فقالت : «رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة» فوافق ذلك حضور فرعون، فضحكت حين رأت بيتها فى الجنة . فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها؟ إنا نعذبها وهى تضحك ! فقبض الله روحها، رضى الله عنها، (وفى الهامش إشارة إلى «تفسير الطبرى» ٢٨/ ١١٠) . أقول : إن هذا الذى حدث لامرأة فرعون ، ولامرأة خازن فرعون من قبلها، من التعذيب حتى الموت حدث لأول شهيدة فى الإسلام، وهى «سمية زوجة ياسر» الذى عُذِّب هو الآخر، وهى أم عمار بن ياسر من أجلاء الصحابة . وكان أئمة الكفر من قريش قد عذبوها أشد تعذيب ، طالبين منها أن تكف عن ترديد ذكر الله الواحد، فلم تعدل عن إيمانها بالله ورسوله، وقد أكرمها الله بالاستشهاد فى سبيل عقيدتها، وانتقالها إلى رحاب الله وجواره ، فى الجنة ونعيمها .

أقول : إن شهداء الإيمان «بالله الواحد» على مدى التاريخ البعيد والقريب - كثيرون، وسيبقى لهذه الدعوة لله شهداء إلى يوم القيامة .

أكتفى بأن أضيف هنا قصة «أصحاب الأخدود» التى جاءت فى سورة «البروج» وهذه هى : ﴿والسماء ذات البروج * واليوم الموعود * وشاهد ومشهود * قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود * وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد * الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد * إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾ .

الله - جل وعز - أن يقسم بأى شىء من خلقه، وهو - سبحانه وتعالى - يقسم فى بداية السورة بالسماء ذات البروج[1] ، وثنّى باليوم الموعود، وهو يوم القيامة الذى وعد الله به، وبشاهد وحاضر - فى هذا اليوم - من الخلائق، وبمشهود ومرئى من الأهوال والكروب «التى تجعل الولدان شيبا»[2] اللعنة، وألف ألف لعنة على هؤلاء القساة الغلاظ الأكباد الذين شقوا فى الأرض هذا الشق المستطيل (إن لم يكونوا مكرهين) ، وعلى الذين أمروا به اللعنة ثم اللعنة ، وهم يجمعون فيه الأخشاب والأحطاب ، ثم يوقدون فيه النار، ثم يقعدون من حوله، ويشهدون شامتين فى هؤلاء المؤمنين، الذين حولتهم النار إلى جثث متفحمة . قلوب كأنها الحجارة ، بل أشد قسوة. وما كان لشهداء هذا اليوم ، يوم الأخدود، من جريرة إلا أن قالوا : «ربنا الله» «العزيز الحميد» .

إن الذين فعلوا هم أهل الظلم والظلام الذين يخشون نور الحق ، نور الحرية والعدل والمساواة . النور الذى يقضى على الامتيازات التى اعتادها هؤلاء من أئمة الكفر والإجرام. إنهم أرادوا فتنة المؤمنين والمؤمنات ، وصد الناس عن سبيل الله . لهم فى الدنيا الخزى ، وسوء الذكر، ولهم فى الآخرة «عذاب جهنم وعذاب الحريق» . وقد استثنت الآية الذين تابوا ، فالإيمان بالله الواحد، وبرسله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر يجب ما قبله![3]

وأعود وأقول : إن الذين كانوا يكتمون إيمانهم من الرجال داخل أقوى قلاع الكفر (قصور فرعون وأشباه فرعون) ، لم يكونوا قليلين، وكذلك من النساء . أما على الأرض المصرية بطولها وعرضها فكانوا فى مختلف العصور - لايحصون عدا . إن هذه الأرض (أرض مصر) من أراضى النبوات. نشأ فيها يوسف وترعرع، وبلغ فيها أشده، وآتاه الله العلم والحكمة، وكان لأنه حفيظ أمين ، خبير عليم - موضع ثقة فرعون، وشغل فيها منصبا مؤثرا،

---

(١) والبروج هى هذه المجموعات من مواقع النجوم التى تظهر على أشكال مختلفة فى السماء مقسمة إلى اثنى عشر قسما تمر خلالها الأرض والكواكب أثناء دورتها حول الشمس. ولما كان مستوى مدار القمر خلال دورته حول الأرض ، وهى «التى تسمى بمنازل القمر» (وهى أيضا مجموعة من النجوم على أشكال مختلفة) فقد جمع الشاعر القديم أسماء هذه البروج الاثنى عشر فى هذين البيتين :

حمل الثور جوزة السرطان ∴ ورعى الليث سنبل الميزان
ورمى عقربًا وقوسًا بجدى ∴ ومن الدلو مشرب الحيتان

(٢) اقتباس من الآية ١٧ - المزمل ، وفيها وصف يوم القيامة.

(٣) وانظر فى «أصحاب الأخدود» من هم ؟ وعلى أى أرض كانوا، وتفاصيل كثيرة أخرى - القرطبى - مجلد ١٩ ص ٢٨٣ وما بعدها .

يساوى منصب رئيس الوزراء فى عصرنا . وقد استقدم يوسف أبويه وإخوته (وكانوا كثيرين)، وكان أبوه يعقوب نبيا رسولا (وهو إسرائيل) ومنه ، ومن ذريته - تكاثرت الطائفة الإسرائيلية على الأرض المصرية، وكان منهم موسى، وقبل يعقوب (وهو بن إسحاق بن إبراهيم) زار إبراهيم مصر، ومنها زوجته هاجر ، أم ابنه إسماعيل، وقبل هؤلاء جميعا كان إدريس وهو مصرى . فعقيدة التوحيد كانت موجودة على الأرض المصرية منذ أقدم الأزمنة، والذين لانعرفهم من الأنبياء والرسل كانوا أكثر كثيرا كثيرا ممن ورد ذكرهم فى القرآن الكريم الذى جاء فيه **﴿ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك﴾**(١) (١٦٤ - النساء).

فيما تقدم من هذا البند - الذى اخترت له عنوان «الرجل الصالح» - تكلمت عن هذا الذى «جاء من أقصى المدينة يسعى» ينبه موسى «الشاب» إلى أن الملأ يتآمرون عليه ليقتلوه، ونصحه بالخروج فخرج، وكان ما كان مما أراده الله وادخره له، إذ كلمه وبعثه رسولا إلى فرعون وقومه. وتكلمت كذلك عن الرجل الذى يكتم إيمانه(٢) ، وهو من آل فرعون، وقد دعاه وقومه، وفى مجلس فرعون إلى عبادة الله الواحد، مؤيدا بذلك دعوة موسى . وتكلمت - أيضا عن امرأة فرعون، وأصحاب الأخدود وقد عذبت ، وعذبوا جميعا حتى الموت، فى سبيل الحق .

وأنتقل إلى رجل آخر «جاء من أقصى المدينة» «يسعى» و«قال : ياقوم اتبعوا المرسلين» ولنبدأ من الآية -١٣- من سورة «يس» .

قال تعالى : **﴿واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون * قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون * قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون * وما علينا إلا البلاغ المبين * قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم * قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون * وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون * ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون * أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون * إنى إذا لفى ضلال مبين * إنى آمنت بربكم**

---

(١) وانظر - للمؤلف : «الإسلام وحقوق الإنسان - دراسة مقارنة» نفسه ص ١٤٥ وما بعدها. وفيه : روى أنس ابن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «بعثت على إثر ثمانية آلاف من الأنبياء ، منهم أربعة آلاف من بنى إسرائيل» وعن أبى ذر الغفارى قال : «قلت يارسول الله، كم كانت الأنبياء وكم كان المرسلون؟ قال : «كانت الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبى، وكان المرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر» .. هناك تقديرات أخرى ، عالية جدا جدا .

(٢) روى أبو سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» ومن أقواله لرجل قال له أوصنى! فقال عليه الصلاة والسلام : «لا تشرك بالله شيئا وإن قطعت أو حرقت بالنار ...» . ولقد امتحن كثير من أصحاب النبى بالقتل والصلب والتعذيب الشديد فصبروا .. ومنهم عاصم وحبيب وأصحابهما .

فاسمعون * قيل ادخل الجنة قال ياليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾ (١٣ - ٢٧) .

أقول : المخاطب بالآية ١٣ من السورة ، هو رسولنا عليه الصلاة والسلام والمطلوب منه أن يُذكِّر(١) قومه بما وقع لأهل هذه القرية (أنطاكيه) الذين استغشوا(٢) ثيابهم، وأصموا آذانهم، وأغلقوا قلوبهم وعقولهم دون دعوة الله . وقد كان هلاكهم بصيحة واحدة فإذا هم ميتون ، لقد صاروا كالنار الخامدة، بعد أن كانوا يتصايحون بالباطل «ليدحضوا به الحق»(٣) .

والآية تقول : «واضرب لهم مثلا أصحاب القرية» . وفي الآية العشرين «وجاء من أقصى المدينة» . والعادة أن الرسل والدعاة يقصدون «العواصم والمدن الكبيرة» فهي، بمن فيها من ذوي النفوذ تؤثر على ما حولها من المدن والقرى الصغيرة(٤).

وفي البداية قدم إلى المدينة اثنان من الرسل ، فكذبهما القوم . وفي كتب التفسير أن الاثنين كانا من حواريي عيسى عليه السلام، فلما كذبا (بالمبني للمجهول) - جاء هم ثالث هو كبير الحواريين تعزيزا لهما وتأييدا . ولما قال المرسلون للملأ من أنطاكية «إنا إليكم مرسلون» - أجابوهم : ماتراكم إلا بشراً مثلنا، وما أنزل الله من شيء ، وما أنتم إلا مُدَّعون . وردّ الرسل: الله يعلم إنا مرسلون، وما علينا إلا البلاغ، وقد بلغنا الرسالة وأدينا الأمانة، وعلى خير وجه. قال القوم : (عجزاً وهروبا من الحوار) : إنا متشائمون منكم ومن مقدمكم، وإذا لم تنفضوا عنا لترمينكم بالحجارة، ولننزلن بكم العذاب، أشد العذاب وقالت الرسل : شؤمكم منكم وإليكم، وإنكم لمسرفون وموغلون في كفركم. ومن شؤمكم أنكم أعرضتم عن التذكير بما فيه سعادتكم. وجاء الرجل الصالح من أقصى المدينة وأعمقها - جاء ليقف مع الحق، والحق في اتباع هؤلاء المرسلين، والاستجابة لدعوتهم التي فيها الخير والسعادة لهم . إنهم المهتدون بهدى الله، والمستنيرون بنوره . وهم - لبراءة دعوتهم، وصدق رسالتهم، لايسألون أجراً عما يدعونكم إليه، وأخذ الرجل الصالح - وكأنه يدعوهم إلى الأخذ بما آمن به - فقال : كيف لاأعبد الذي خلقني، وإليه مرجعكم ومرجعي . أأعبد ما تعبدون، من أوثان وأوهام لا تغني عني شيئًا . إذا أرادني الرحمن بشر لا تنقذني ولا تدفعه عني . إني إن فعلت، وانزلقت إلى ماأنتم عليه، فإنما أنزلق إلى ضلال ما بعده ضلال . ثم توجه إلى قومه بقوله : إني آمنت بربي وربكم، الذي خلقني وخلقكم ، وبيده أمري وأمركم، فاسمعوا لي وأطيعون . وقيل له : ادخل الجنة ، حيث النعيم المقيم الذي مامثله نعيم في هذه الدنيا الزائلة الفانية. وفي الجنة تمنى لو علم قومه بما صار إليه جزاء إيمانه وجهاده، إذًا لسارعوا إلى الإيمان بما آمن به، ونبذوا ماعداه !

(١) «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين» ٥٥ - الذاريات .
(٢) «وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً» (٧ - نوح) .
(٣) ٥٦ - الكهف .
(٤) كما حدث بعد فتح مكة، ودخول العرب بعد ذلك في دين الله أفواجا (انظر سورة النصر) .

ياحسرةً على العباد، من أمثال هؤلاء الضالين المضلين، والذين كانوا إذا جاءتهم الرسل يهزءون منهم ويسخرون . ليتنا نعتبر، وقبل فوات الأوان! وهذه كلمة عن التطير الذى جاء ذكره فى هذه الآيات . والتطير (أى التشاؤم) وهمٌ قد يستبد بضعيفى الوعى والإيمان، فيقض مضاجعهم، ويفسد عليهم دنياهم وأخراهم :

قال تعالى : **﴿فإذا جاءتهم (١) الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لايعلمون(٢)﴾** .

أقول : إنما جاء التطير ثمرةً لذنوبهم ومعاصيهم وكفرهم، وعدم أخذهم بما أمر الله به وفيه الرضا فى الدنيا، والسعادة فى الدنيا والآخرة .

ولنذكر - على سبيل المثال - هاتين الآيتين من سورة البقرة. فى الأولى منها ، يقول تعالى : **﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون(٣)﴾** .

هنيئا لهؤلاء الذين ينفقون أموالهم فى السر والعلن ، وبالليل والنهار، وعلى مدى الحياة . أولئك هم الآمنون، لهم أجرهم عند ربهم . لقد أنفقوا أموالهم فيما يرضى الله، وينفع الناس ، فتولى رب الناس جزاءهم .

وفى الآية التى تليها يقول العزيز الحكيم : **﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**.

ففى الآخرة ليس لهم إلا النار «هم فيها خالدون» - وفى الدنيا لا يقوم الواحد منهم إلا كما يقوم من أصابه مس من الشيطان، فأفسد عقله، وصار يتعثر فى تصرفاته وسائر أحواله، كالمجانين . إنما يأخذهم الله بذنوبهم فى الدنيا والآخرة . **﴿ومن أصدق من الله قيلا﴾**(٤) .

ومن الحديث الشريف فى النهى عن التطير، قوله - عليه الصلاة والسلام - «إذا تطيرتم فامضوا ، وعلى الله فتوكلوا» وقال : «من عرض له من هذه الطيرة شىء فليقل : اللهم لاطير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك»(٥) .

---

(١) الضمير عائد إلى آل فرعون . (٢) الآية ١٣١ - الأعراف .
(٣) الآية ٢٧٤ .
(٤) ١٢٢ - النساء . هذا ، «وقد أسند بعض كبار الأطباء كثرة ضغط الدم والنزلات القلبية إلى كثرة التعامل بالربا» (تفسير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص ١١٧ هامش ١) .
(٥) عن أوضح التفاسير عند تفسير الآية ١٣١ من الأعراف ص ١٩٦ .

لا يفوتنى – وأنا بصدد الكلام عن الرجل الصالح – أن أشير إلى أن هذا الرجل كان موجوداً منذ الأزمنة البعيدة والموغلة فى القدم. إنى لا أدرى كم كانت القرون التى مضت بعد أبى الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وبين بعث رسولنا عليه الصلاة والسلام بشيراً ونذيرا للناس كافة .

وفى كتابى «الإسلام وحقوق الإنسان – دراسة مقارنة» ، وتحت عنوان «العرب قبل(١) الإسلام» – أنه جاء فى أسباب النزول للسيوطى عن الآية ١٧ – الزمر ﴿**والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها ..**﴾ أنها نزلت فى ثلاثة نفر كانوا فى الجاهلية يقولون «لا إلَه إلا الله» وهم زيد بن عمرو بن نفيل، وأبو ذر الغفارى، وسلمان الفارسى . إن هؤلاء وغيرهم، ورغم انصرام الزمان، كانوا على بقية من دين إبراهيم وإسماعيل .

وفى كتابى «الإسلام وحقوق الإنسان – غير المسلمين فى الدولة الإسلامية» بند ٤٩ – جاء عن «كونفوشيوس» أنه حث هو وأتباعه على الإصلاح الاجتماعى ، وسعى إلى وضع نظام أخلاقى وسياسى ابتغاءً للسلام والعدالة والسلم العالمى : دعا إلى تأكيد الروابط بين الأفراد : ينبغى أن تعامل مرؤسيك كما تريد أن يعاملك رؤساؤك (٢) ودعا إلى الطاعة البنوية(٣) والولاء العائلى، وأوجد نمطًا عالميا للحكومة مع اتباع الطريق (٤) الوسط. وكان يرد على لسانه ذكر السماء والصلاة، وماهية الحكمة عنده هى أداء الواجب، والبعد عن الخوض فى الروحانيات مع احترامها . وهذا يذكر بقوله تعالى : ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾(٥) وقوله : ﴿**ويسألونك كأنك حفى(٦) عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لايعلمون**﴾ .

أقول : إن الصلة بين السماء والأرض عن طريق الوحى قد انقطعت بعد خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام. ولكنه قد ترك فينا الكتاب الذى أنزل عليه، وترك معه سنته، وقال: إن تمسكتم بهما فلن تضلوا بعدى . وأرى ، ويرى غيرى، أن عامتنا ، وفى سائر ديار الإسلام ، قد ابتعدوا عن صراط الله «الصراط المستقيم» لقد تفرقت بنا الطرق، وتوزعتنا الشيع. والأمل معقود على «الرجال الصالحين» إنهم «العلماء» ورثة الأنبياء .

---

(١) بند ٥٩ وما بعده – وفيه تفاصيل وأمثلة ومراجع كثيرة .

(٢) وهذا يقابل فى الإسلام «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به» و«الدين المعاملة»

(٣) «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا» (٢٣ – الإسراء) .

(٤) «وكذلك جعلناكم أمة وسطا» (١٤٣ – البقرة) .

(٥) ٨٥ – الإسراء .

(٦) ١٨٧ – الأعراف .

الفصل الخامس عشر

السلم

بند (٥١)

يقول تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ (٢٠٨ - البقرة) . و«السِّلم» هى «السَّلْم» : يقول تعالى : ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ..﴾ (٦١ - الأنفال) . وكلاهما بمعنى «السلام» والسلام اسمٌ من أسماء الله . ونحن نقول : - تعبدًا لله - «اللهم إنك أنت السلام، ومنك السلام، وإليك يعود السلام - تباركت وتعاليت ياذا الجلال والاكرام» والآية الكريمة (٢٠٨ - البقرة) تدعونا (نحن الذين آمنوا) إلى الدخول فى السلم كافة . والسِّلم من الله - ونقيضه (من التنازع والتخاصم والتحارب) من الشيطان . والشيطان عدو مبين للإنسان . ونعوذ بالله من كل شيطان ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم * إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ (٢٠٠ - ٢٠١ الأعراف) .

وفى الشيطان[١] - يقول الله تعالى - أيضًا - فى سورة النحل : ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ (٩٨ - ٩٩ - ١٠٠) .

والشيطان، والنفس الأمارة بالسوء قرينان لا يفترقان . لقد أشار القرآن الكريم، وأقسم الله تعالى «بالنفس اللوامة[٢]» وأشار - كذلك - ورغَّبَ فى النفس المطمئنة[٣] . من الملاحظ أن النفس الأمارة بالسوء، هى الأكثر عددًا فى عالم النفوس . إن الإنسان جسم وعقل وروح، والمستسلمون لدواعى الجسم ونزواته، الغافلون عن حاجات الروح، المعرضون عن نداء العقل، أولئك جميعًا كالأنعام، بل هم أضل[٤] والشاعر الصوفىّ يقول :

وخالف النفس والشيطان واعصهما ∴ وإن هما محَّضَاك النّصح فاتّهم

---

(١) الآيات فى الشيطان (عدو الإنسان) كثيرة، ومن ذلك قوله تعالى : «إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون» وقد أنقذنى تذكر هذه الآية من قلق كاد يقتلنى - وقد كتبت عن ذلك كلمة تنشر ضمن هذا الكتاب بإذن الله .

(٢) «لا أُقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة» (١ - ٢ القيامة) .

(٣) «يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى» (٢٧ إلى - ٣٠ الفجر) .

(٤) « ... أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون» (١٧٩ - الأعراف) .

والويل كل الويل - دنيا وأخرى لمن « اتخذ إلهه هواه» (انظر الآية ٢٣ الجاثية)، إننا مَدْعُوُّون إلى الدخول فى السلم كافَّة . وإننا مَوْعُودُون - إن فعلنا بدخول الجنة زُمَرًا : ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين * وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين * وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾(١) .

وأعود إلى «لفظ» «كافة» - وأقول : إنها دعوة عامة إلى «السِّلْم»، أى (السلام)، ما أجلَّ المعنى، وما أكثر الأنواع والأبواب والمفاتيح! وما أبهره من نور، هذا النور الذى يضىء الطريق إليه! (إلى السلام)!. إن السلام هو الله، يهدى إليه من يشاء من عباده . وما أسعد هؤلاء بالسلام يهبط عليهم من الله . وهنيئًا لهم بالاستسلام إليه، لا لأحدٍ ولا لشىء سواه . هؤلاء هم «الأحرار حقًا وصدقًا» . وبقدر ما تكون العبودية لله، بقدر مًا تكون الحصانة ضد الشيطان، ضد الوساوس والأوهام ضد كل شر، بل كل شرور الإنس والجن . هذه هى «الحرية الأكبر» وهذا هو السلام الأكبر الذى يشمل السلام مع النفس، والسلام مع الآخرين، كل الآخرين، إلا أعداء الله، أعداء الحرية . إنهم الظَّلَمة، إنهم «أئمة الكفر» . وإننا - باعتبارنا «جنود الله - جنود الحى» - مطالبون برد العدوان ومقاومة الخونة، ومنتهكى الحقوق والعهود والمواثيق .

وأعود وأؤكد أن الأصل فى الإسلام - وكما جاء فى الآية الكريمة - « ادخلوا فى السلم كافة...» - هو السِّلْم، مع الجميع، موافقين أو مخالفين لنا فى الرأى أو الدين . أما من نكث وهمَّ بعدوان؛ فعلينا، وعلى كل جنْد الحرية والحق ردّه . وعلى أهل الحق الاستعداد الدائم . فالاستعداد للحرب أنفى للحرب . وهذه آيات كريمات من سورتى الأنفال والتوبة (أواخر الأولى وأوائل الثانية - وكأنهما «الأنفال والتوبة» سورة واحدة) . يقول تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون * وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾ (٦٠ - ٦١ - الأنفال) .

ومن سورة التوبة : ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون * ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾ (١٢ - ١٣ التوبة) (وانظر الآيات التى قبلهما والتى بعدهما من السورة) .

إن هذا الاستطراد لا يشغلنا عما أكدته الآية الكريمة، وهو أن «السلام هو الأساس والأصل» . - إننا مطالبون بمطاردة الشيطان إذا حاول اختراقنا وجرنا إلى ما نهانا الله عنه، وأكده فى هذه الآية « ادخلوا فى السلم كافة ...» إن الشيطان عدو للمؤمنين، «عدو مبين» و«الإيمان»

(١) الآيات الأخيرة من سورة الزُّمَر .

واتباع «**خطوات الشيطان**» لا يجتمعان . وهذه هى الآية التالية (٢٠٩) «**فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم**» . هذا تحذير ووعيد، لا حجة ولا عذر بعد أن بين الله لنا الخير من الشر، وجاء تنا البينات والآيات والعلامات، فإذا انحرفنا عما حَدَّدَ لنا فهو العزيز القادر على معاقبتنا، والحكيم فى تقدير العقوبة التى ينزلها بالمنحرف منا . إنهما كفَّتا ميزان، فى إحداهما السلام، وفى الأخرى عدوّنا الشيطان . فإذا ثقلت كفة العبد بالسلام الذى اختاره، وانحاز إليه، «**فهو فى عيشة راضية**» أما الشقى، الذى سار فى طريق الشيطان «**فأمه هاوية * وما أدراك ما هى * نار حامية**» (وانظر سورة القارعة) – وأقول مرة ومرات إن الأمر جد خطير . إنها دعوة حضارية راقية سامية، إلى الانسلاخ عن «حمية الجاهلية»[1] حيث كان العُدْوَانُ للسلب والنهب مطلوباً لذاته وأحد مصادر الرزق، ولم يكن ينجو منه بعيد أو قريب :

وأحيانا على بَكْرٍ أخينا ∴ إذا ما لم نجد إلا أخانا

وحيث كان القتال الذى قد يمتد إلى عشرات السنين ينشب بين القبائل لأتفه الأسباب . ونزل القرآن : ومما جاء فيه ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون**﴾[2] ﴿**وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم**﴾[3] .

أعود وأقول : إنها دعوة ربانية، إلى التخلص من كل دعاوى الجهل والجاهلية، والتعصب والعصبية، والتباغض والتناحر والتحارب . ومما يؤسف له، ولا يفوتنى التنبيه إليه أنّ ما يسمى بالدول الأغنى والأقوى – فى عصرنا – لم تعد تتحارب، لكنها تشعل الحروب فى كل مكان بين الدول الأخرى[4] . وإنهم يقولونها علناً : إنهم قد انتهوا من الشيوعية فى أوروبا، وعدوهم الآن هو الإسلام . وإننا لا نعجب إذا عادوا إيران، وغير إيران . ولكن أعجب العجب أن يجاريهم بعض الحكام المسلمين فى هذا العداء! . وإذ ينادى الإسلام، ويدعو إلى السلام، يصدرون هم عن نوازع سياسية، والسياسة عندهم – هى منفعتهم، هى العبث بالآخرين، إنها لا أخلاق لها ولا دين .!

وأقول فيهم ما يقوله تعالى : ﴿**من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون**﴾ (١٨٦ – الأعراف) . إن «حضارتهم» (بل جاهليتهم)، فى بداية النهاية . ولهم «**دينهم ولنا ديننا**» أما نحن فأهل السلام، إننا نكرر الكلمة، فى اليوم الواحد، وفى الصلاة وغير الصلاة، مرات ومرات .

---

(١) ٢٦ – الفتح .
(٢) ١٠٣ – آل عمران .
(٣) ٦٣ – الأنفال .
(٤) ولهم فى ذلك مآرب ومآرب (شيطانية طبعًا) – ومنها تجارة السلاح .

وأنتـقل إلى رسـول السـلام، والنقل عن كـتـابى «غـزوات الرسـول وسـراياه – دروس مستفادة»(١) – أقول : إنه باستعراض هذه الغزوات والسرايا تحققت من أنه صلى الله عليه وسلم لم يحارب عدوانًا وابتداءً قط، وإنما ردًا لعدوان، أو إجهاضًا لعدوان تحقق من أنّ أعداءه يعدون له . يقول تعالى : ﴿**إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور * أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع و صلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز**﴾ (الآيات ٣٨، ٣٩، ٤٠ الحج) (والأفعال التى بالآية ٣٩ مبنية للمجهول .. وانظر الآيات ٤١ وما بعدها) – إن ما أنزله عُتاة قريش من الأذى بالرسول وصحبه معروف، وقد عذبوا بعضهم(٢)، محاولين فتنتهم وردهم عن دينهم – وقد قابل الرسول وصحبه هذا كله بالصبر والصفح، وقد فرَّ بعضهم بدينه إلى الحبشة وغيرها . ثم أُذنَ لهم (لهؤلاء المظلومين بالقتال) لم يكن مفَّر من أن يقوم جنود الحق بالدفع . ولو تُرك الميدانَ للشيطان والطغيان لفسدت الأرض . وكانت بيعة العقبة الكبرى بين الرسول صلى الله عليه وسلم، وبين من شرح الله صدورهم للإسلام من أهل يثرب هى البداية، ثم كانت هجرة الرسول وصاحبه (سرًا) إلى المدينة . ثم توالت الأحداث وأحاط الكيد بالرسول والمسلمين من كل جانب . ومن القبائل والأعراب من ارتكب ضدهم أبشع ضروب الغدر، كأن يأتى الرسول منهم قومٌ ويقولون له : إن فينا إسلامًا، فابعث فينا نفرًا من أصحابك ليفقهونا فى الدين، ويذهب إليهم صفوة من الصحابة، فيحيطون بهم، ويقتلونهم عن آخرهم .. هنيئًا لهم : لقد آمنوا بالله ورسوله وباليوم الآخر . وبأن الجنة تفتح أوسع أبوابها لهم . هنيئًا لهم ! وهذه الإشارة لا تغنى عن الرجوع إلى الكتاب .

ولنا فيهم قدوة :

وما نيل المطالب بالتمنى ∴ ولكن تُؤْخذ الدنيا غلابًا

(١) طبعة ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨م ص١٣ وما بعدها .

(٢) وكانت أول شهيدة (سمية زوجة ياسر، وأم الصحابى الجليل عمار بن ياسر) .

ما سلككم في سقر ؟

بند (٥٣)

يرضى الله عن أم المؤمنين السيدة خديجة، ويرفع درجتها فى جنات النعيم . وهى بنت خُوَيْلد بن أسد بن عبد العُزَّى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب .. وكانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها بشيء تجعله لهم . وكانت قريش قومًا تجارًا . فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها، من صدق حديثه وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار، وقَبِل العَرض وخرج مع غلام لها يقال له مَيْسَرَة . وباع رسول الله واشترى، وعاد قافلاً إلى مكة ومعه الغلام . وباعت خديجة ما جاء به، وكان الربح مضاعفًا . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم – فى رحلة الذهاب إلى الشام قد نزل فى ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب تنبأ للرسول عليه الصلاة والسلام بالنبوة . ونقل ميسرة إلى خديجة ما رأى وسمع . وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة . وعن طريق وسيط أو مباشرة، أو هما معًا عرضت عليه نفسها . فلما ذكر ذلك لأعمامه خرج معه بعضهم ودخلوا على أبيها خويلد فخطبوها، وتزوجها الرسول، ومنها رزق كل أولاده إلا إبراهيم فهو من مارية القبطية .

أقول : لقد كان هذا أكرم زواج على مدى الزمن، ما مضى منه وما سيأتى .. وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت .

وكانت خديجة قد ذكرت لابن عمها ورقة بن نوفل(١) ما ذكر لها غلامها من قول الراهب، وما كان يرى من الرسول، إذ كان ملكان يظلانه فى السفر . فقال ورقة : إن كان هذا حقًا، فإن محمداً لَنَبِيُّ هذه الأمة .

أقول : يا لها من زوجة نبيلة شريفة، لقد كانت مَلاَكًا طاهرًا فى جسم امرأة . ها هى ذى تشغل بالها بمستقبل زوجها، وما يحمله له الغيب، من شئون كبار .. ! وجاء ه جبريل عليه السلام بما جاء ه من كرامة الله، وهو بحرَاء فى شهر رمضان، وكان يجاور فى حراء هذا فى كل سنة شهراً، يتحنث ويتأمل؛ وكان يطعم من جاءه من المساكين . وكانت الكعبة أول ما يبدأ به قبل أن يدخل بيته . وفى ليلة مباركة من رمضان جاءه جبريل عليه السلام وقال له : اقرأ! قال : قلت : ما أقرأ ؟ فغطَّنى به (ضمه بشدة) – حتى ظننت أنه الموت! ثم أرسلنى ، ثم عاد فغطنى ثم أرسلنى، وقال : اقرأ، وتكرر هذا ثلاث مرات، ثم قال : ﴿اقرأ باسم ربك الذى

---

(١) وكان نصرانيًا قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس .

خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾ . وكان هذا أول ما نزل من القرآن[1].! قال : فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني، وهببت من نومي، فكأنما كُتِبَتْ في قلبى كتاباً . قال : فخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل . سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل . قال فرفعت رأسى إلى السماء أنظر إليه .. فما نظرت في ناحية منها إلا رأيته، وسمعته يكرر ما تقدم فما زلت واقفاً (مشدوهاً) حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى .. واتيت خديجة، فجلست إلى فخذها ملتصقاً إليها . وحدثتها بالذى رأيت فقالت : أبشر يا ابن عم، وأثبت . فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة! وجمعت ثيابها وانطلقت إلى ورقة وأخبرته، فقال : لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى . وإنه لنبى هذه الأمة .. وجاءه جبريل، وهو مع خديجة . فقال لها: هذا جبريل جاءنى .. ولما انصرف، قالت يا ابن عم . اثبت وأبشر، فو الله إنه لَمَلَكٌ وما هذا بشيطان[2] ! ثم تَتَابَع الوحى إلى رسول الله .. «وآمنت به خديجة وآزرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله وصدق بما جاء منه، فخفف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم، لا يسمع من شيء يكرهه فيحزنه إلا فرَّج الله عنه بها إذا رجع إليها . تثبته وتخفف عليه، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس، وأمر مكذبيه[3] .

عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أُمِرْت أن أبشر خديجة ببيت من قصب، لا صخب فيه ولا نصب (القصب = اللؤلؤ المجوف) .

وسورتا «المدثر» و«المزمل» - من أوائل السورالتى نزلت بعد البعثة (وبعد سورة العلق) . ولم يكن نزول أمين الوحي، جبريل عليه السلام، على رسولنا عليه الصلاة والسلام شيئًا سهلاً، كان يتصبب عرقًا، وكانت ترتعد فرائصه، وكان يقبل على خديجة - الزوج الحنون، الشفوق، المحبة المخلصة، - كان يقبل - هاتفًا بها زملونى، دثرونى (أى ألبسينى، ودثرينى بالدثار، وهو الثوب فوق الشعار، والشعار الملابس التحتية الملاصقة لشعر الجسم)، وكانت تأخذه فى أحضانها، وتفعل ما يطلبُ، وأكثر مما يَطْلُبُ . لقد كانت أول من آمن به بإطلاق . وهى التى وقفت إلى جواره دائمًا . وثبتت قلبه، وطمأنت نفسه . وسمى عام وفاتها، ووفاة عمه أبى طالب - عام الحزن! وأخذت السورتان اسميهما، من الفعلين «زملونى، دثرونى» ودور خديجة فى الأمرين ظاهر . وتحت عنوان « **ما سلككم فى سقر**» أقف مع بعض آيات السورة الكريمة (المدثر) :

يقول تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة * إلا أصحاب اليمين * فى جنات يتساءلون عن المجرمين * ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين * فما تنفعهم شفاعة الشافعين * فما لهم عن التذكرة معرضين * كأنهم حمر مستنفرة * فرت من قسورة * بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى

---

(١) وفى هذا يقول تعالى : «إنا أنزلناه فى ليلة القدر* وما أدراك ما ليلة القدر* ليلة القدر خير من ألف شهر* إلى آخر السورة» .

(٢) وكان - أول الأمر - قد ظن أنه مسٌ أو عارض.

(٣) ما تقدم عن السيرة لابن هشام بتصرف.

صحفا منشرة * كلا بل لا يخافون الآخرة * كلا إنها تذكرة * فمن شاء ذكره * وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ (الآيات من ٣٨ إلى - ٥٦ من السورة) .

كل نفس بما كسبت وعملت رهينة، أى مأخوذة ومقيدة، إلا من أسلموا، فقد فكوا أغلالهم، وحرروا رقابهم وأرواحهم بالطاعة، طاعة الله ورسوله . « إلا أصحاب اليمين» «وأصحاب اليمين ما أصحاب[1] اليمين؟!» - فى جناتهم ونعيمهم يتساءلون : أى يسأل بعضهم بعضاً عن المجرمين؛ وقد سألوهم عن حالهم : ما أدخلكم وساقكم إلى هذا الجحيم الذى أنتم فيه؟ قالوا: كنتم تُصلّون ولم نكن نصلى، وكنتم تطعمون المسكين، ولم نكن نفعل كما كنتم تفعلون. وكنا نشارك فى مجالس السوء، ننغمس كما ينغمسون فى كل منكر وباطل وزور . وكنا نكفر بيوم الدين، يوم الجزاء والحساب والثواب والعقاب . إنه يوم القيامة . عشنا نكذب به، حتى جاءنا اليقين، ويقين اليقين . إنه الموت الذى لا يفلت منه أحد « كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» - يومئذ لا تغنى عنهم شفاعة الشافعين من ملائكة ونبيين، وكل من يأذن له الرحمن بالشفاعة .

ما لهم - فى دنياهم - مُعرضون ومنصرفون ومُنْفَضُّون، عن كل عظة حتى القرآن، وسنة من نزل عليه القرآن ! لكأنهم فى انصرافهم وفرارهم من كل ما فيه خيرهم وصلاحهم، كأنهم هذه الحمر البرية الوحشية، فى فرارها من الأسد . بل يريد كل واحد منهم أن تنزل عليه صحف من السماء تثبت صدق الرسول، خاتم الأنبياء[2] ! ردعاً لهم وزجراً، إن حقيقتهم أنهم غير مؤمنين بالآخرة، وكيف يخافونها[3] وهم غير مصدقين بها ؟! .

حقًا وصدقًا، إنها تذكرة، وكفى بكلام الله تذكرة وعظة . فمن شاء ذكره واتعظ به، واتخذه نوراً وهدى . لكن الأمور كلها معلقة بإرادة الله، يهدى من يشاء، ويضل من يشاء؛ وهو - دون سواه - أهل لأن يُتَّقَى، وهو - دائماً - أهل المغفرة !

أقول : مذكراً دائماً بقوله تعالى : ﴿ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا﴾ (١٢٣ - النساء) . إن فينا من يصلى، ولكن ليس دائماً، وليس بالخشوع واستحضار جلال من نَقفُ بين يديه . وفى سورة «المؤمنون» ﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون﴾ (الآيتان ١ ، ٢)، وفى نفس السورة، وفى نفس السياق ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ (الآيات ٩ - ١١) .

وأظننى لا أجاوز إذا قلت إنه إذا كان فينا من يصلى، فإن غير المصلين ليسوا قليلين . وفينا من «يزكى عن ماله» ومن ينفق فى سبيل الله والصالح العام، ومن يتصدق ويتبرع سراً

---

(١) ٢٧ - الواقعة .
(٢) وقد سأل قوم موسى أكبر من ذلك فقالوا : «أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ..» (١٥٣ - النساء).
(٣) يقول تعالى : «والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق» (١٨ - الشورى) .

وعلانية – فينا هؤلاء، وما زالت الدنيا بخير بهم؛ لكن اللصوص الكبار الذين لا يقعون تحت طائلة القانون لسبب أو لآخر أكثر عدداً . ومن هؤلاء من يتآمرون مع بعض ضعاف النفوس، من موظفى المصارف فيأخذون الملايين من الأموال ويهربون ..!

وفى الكتاب الكريم « وخضتم كالذى خاضوا» (٦٩ – التوبة)؛ ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ (٦٥ – التوبة)؛ ﴿وكنا نخوض مع الخائضين﴾ (٤٥ – المدثر وقد سبق ذكرها)؛ ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره﴾ (١٤٠ – النساء)؛ ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره﴾ (٦٨ – الأنعام)؛ ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون﴾ (٨٣ – الزخرف) (ومثلها ٤٢ – المعارج) ؛ ﴿فويل يومئذ للمكذبين الذين هم فى خوض يلعبون﴾ (١٢ – الطور) .

وفى (الآية ٩١ – الأنعام) يقول تعالى : ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون﴾ . إن فينا ولا ريب من لا يخوض ولا يشارك من يخوضون فى أحاديث السوء – لكنهم قلة، وأقل منهم من لا يستلذ سماع مثل هذه الأحاديث! ولدينا مجلات، بل وكتب، متخصصة فى «أخبار الناس» و«أخبار النجوم» – وما إلى ذلك، وهى رائجة جداً – واللوم كبير على المشرفين على «الإعلام» و«وسائل الإعلام» إنهم يعمدون إلى تمييع الأخلاق وإضعافها . وقد نافسوا فى ذلك خصوم الإسلام والمسلمين، وسابقوهم فسبقوهم . إننا نسير بخطوات واسعة نحو الهاوية . ولكن إذا كان هذا هو الداء فما هو الدواء ؟!. إنه التربية الدينية . والأم بالذات، والجميع ومنذ نعومة الأظفار، وفى مختلف الأعمار، وبإلحاح واستمرار ..! إننا إذا كنا ندعو، وبإلحاح لمحو الأمية الأبجدية، فإننا ندعو، وبنفس القوة إلى محو الأمية الدينية، وهذا لن يتأتى إلا بالممارسة والقدوة!

الفصل السابع عشر

الضحى

بند (٥٣)

في بند سابق، بعنوان : « **ما سلككم في سقر؟** »، وما جاء فيه عن بداية نزول الوحي، وما اعترى الرسول عليه الصلاة والسلام من اضطراب بفعل المفاجأة . وهنا، وعن السيرة لابن هشام (المجلد الأول – ٢٤١ وما بعدها) أنقل ما يلي، وبتصرف – قال : « .. ثم فَتَر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة، حتى شق ذلك عليه فأحزنه . فجاءه جبريل بسورة الضحى (وهذا يعني أنها من أوائل ما نزل من القرآن الكريم) – يقسم له ربه، بأنه ما تركه وما جفاه – وعز من قائل – إنه هنا يقسم قائلاً : ﴿**والضحى * والليل إذا سجا**[1] * **ما ودعك ربك وما قلا**﴾ أي ما صرمك فتركك، وما أبغضك منذ أحبك، « **وللآخرة خير لك من الأولى** » أي كما عندي من مَرْجعك إليّ، خير لك مما عجلت لك من الكرامة في الدنيا « **ولسوف يعطيك ربك فترضى** » من الفَلَج[2] في الدنيا، والثواب في الآخرة . ﴿**ألم يجدك يتيما فآوى * ووجدك ضالا فهدى * ووجدك عائلا**[3] **فأغنى**﴾ يعرفه الله ما ابتدأه به من كرامته في عاجل أمره، ومَنّه عليه في يتمه، وعيلته وضلالته، واستنقاذه من ذلك كله برحمته . ﴿**فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر**﴾ أي لا تكن جباراً ولا متكبراً، ولا فَحّاشاً فظًّا على الضعفاء من عباد الله . « **وأما بنعمة ربك فحدث** » أي بما جاءك من الله من نعمته وكرامته من النبوة فحدث، أي اذكرها وادع إليها فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد به، من النبوة سراً إلى من يطمئن إليه من أهله .

يقول تعالى : ﴿**إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين**﴾ (٢٦ – البقرة) . وفي آية أخرى يقول : ﴿**ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون**﴾ (٢٥ – إبراهيم) . وفي بداية سورة الضحى، يقسم سبحانه وتعالى بقوله : « **والضحى * والليل إذا سجا *** » ويمكن تقسيم السورة الكريمة إلى ثلاثة مقاطع، على النحو التالي :

﴿**والضحى * والليل إذا سجا * ما ودعك ربك وما قلا * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى**﴾. وللسورة الكريمة طابعها، فهي جميعها خطاب من الله إلى رسوله،

---

(١) سجا الشيء، يسجو سَجْواً وسُجُوًّا = سكن .

(٢) فَلَج يَفْلُجُ فَلْجًا = ظفر. ويقال : فَلَجَ بحاجته، وفلج بحجته = أحسن الإدلاء بها فغلب خصمه .

(٣) العائل = الذي يعول العيال . والعائل – الخائف. وعال الأمر فلانًا = مال عليه وثقل واشتد . (المعجم الوسيط) .

وهى أيضًا خطاب المؤمنين وللناس كافة : إن تعاقب الليل والنهار – على أرضنا – ظاهرة كونية فلكية . إن الأرض تدور حول الشمس، أمّ المجموعة الشمسية، وهى فى نفس الوقت تدور حول نفسها. ففى الدورة الأولى تكون السنة الشمسية، وفصول السنة . وفى دورانها حول نفسها يكون الليل والنهار، وفيهما يقول تعالى **« تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل»** (٢٧ – آل عمران) . ويقول : **« إن فى خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب»** (١٩٠ – آل عمران) .

و«الضحى» – إلى ذلك – هو صبًا النهار وشبابه . وللضحى، وللليل إذا سجا وسكن، لهما جميعًا، ظلالهما، وإيقاعهما، وجمالهما . وفى ذلك، وفى الأوقات الأخرى من الليل والنهار، وعلى مدى العام ومع اختلاف المكان، دعوة لنا للتأمل وتلقّى الإيحاءات والانطباعات .

يقسم المولى – جل وعزّ – بالضحى. والليل إذا سجا . يقسم لنبيه الذى اختاره واصطفاه دون غيره لحمل الرسالة، وأداء الأمانة، بأنه ما جفاه ولا قلاه، كيف وهو الحبيب، وخاتم الأنبياء، وقد اختاره الله للناس كافة؟! . كان الرسول عليه الصلاة والسلام، قد تحقق وتأكد من أنه ما كان يأتيه هو الوحى من الله، يحمله إليه، أمين الوحى جبريل عليه السلام . وقد مضت فترة لم تكن طويلة فى حساب الزمن، لكنها كانت طويلة، وطويلة جداً، فى شعور الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فاعتراه قلق، أى قلق؟! . ويعلم الله ما يدخره للمصطفى عليه الصلاة والسلام فى دنياه وأخراه، ستكون دنياه سعيدة بالغة السعادة، عظيمة بالغة العظمة . لم تكن لأحد من قبله ولا لأحد من بعده، أما أخراه فستكون خيراً من دنياه، ستكون له الدرجة العالية الرفيعة، وسيكون له المقام المحمود عند الله . **« ولسوف يعطيك ربك فترضى»** ياله من وعد، وياله من عطاء! إنه وعدالله، وعطاء الله ! .

ولله سبحانه وتعالى أن يذكّر، وله أن يمن، وهذا ما جاء به المقطع الثانى . **« ألم يجدك يتيما فآوى * ووجدك ضالا مهدى * ووجدك عائلا فأغنى»** إنه ليس منًّا فحسب، ولس تذكيراً فحسب، بل إنه ربط بين ماضيه وحاضره ومستقبله، وستكون المرحلة التالية : مرحلة المستقبل، هى أعظم المراحل، ستكون سنوات الجهاد، وستكون – كذلك – سنوات الحصاد، حصاد النصر على مدى الفترة، من الهجرة حتى الوفاة ووعد الله حق **﴿ ومن أصدق من الله قيلا ﴾** (١٢٢– النساء).

نشأ عليه الصلاة والسلام يتيما، فقد الأب وهو فى بطن أمه، وفقد الأم وهو ما زال طفلاً. وكان معظم الوقت – وقت الطفولة – بعيداً عن أمه، كان عند مرضعته حليمة السعدية، فى بادية بنى سعد . آواه ورباه سيد قريش، جده عبد المطلب، فلما مات جده رباه عمه أبو طالب . وكان محبوباً لدى الأبعدين، والأقربين، وكل من عرفه .

ويمن المولى جل وعز – على رسوله عليه الصلاة والسلام أنه وجده ضالاً فهداه . لقد كان دائماً بعين الله، وكان مُهيّأً لأن يحمل أعباء خاتمة الرسالات، وأعظمها . كان معروفًا فى قومه بأنه الصادق الأمين . وذات يوم كادت قبائل قريش تقع فى خصام وعراك لا يعلم مداهما

إلا الله، وكان السبب هو الخلاف حول من يضع الحجر الأسود في مكانه، واتفقوا على أن يحكم بينهم أول داخل إلى الكعبة . وكان الداخل الأول، هو الماجد ابن الأماجد الصادق الأمين، محمد بن عبد الله الذى نشر ثوبه بإلهام من الله على الأرض، وحمل بيديه الشريفتين الحجر (الأسعد) ووضعه فوق الثوب، ودعا القبائل إلى الاشتراك، وإمساك كل منها بطرف منه، حتى اقترب الثوب وحاذى مكان الحجر الذى رفعه سيد شباب قريش بيديه ووضعه في مكانه . وكم له قبل البعثة من مآثر – ولكن أين هذا كله من هدى الله الذى بعثه رحمةً بالناس . لقد كان – بالقياس والمقارنة بشأنه فيما قبل البعثة وفيما بعدها حائرًا فهداه الله ! .

ووجده الله عائلاً فأغناه، بالقناعة وبالرضا، وبمال خديجة بعد زواجه منها[1] . وكان فضل الله عليه دائمًا عظيمًا .

ويأتى المقطع الثالث والأخير : ﴿فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث﴾ المخاطب فى هذه الآيات الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وأمته مخاطبة بها معه. بل إنه يمكن أن يقال : (ورسولنا هو مثال الكمال البشرى)[2] – إن المخاطب هو الرسول، المكلف بالرسالة، والمراد أمته . فى المقطع الثانى – منَّ الله عليه بأنه كان يتيمًا فآواه، وبأنه كان حائرًا ، وضائقًا بالمعتقدات من حوله فهداه، هداه إلى الحق المبين؛ وكان عائلاً فأغناه، وتأتى الآيات الثلاث فى المقطع الثالث، وبينها وبين الثلاث فى المقطع الثانى تقابل وارتباط وثيق : لقد عرفت اليتم، واليتم ضعف، فلا تقهر يتيمًا ولا ضعيفًا، وليَجِدا منك التلطف والمواساة . ووجدك حائرًا بين المعتقدات من حولك، وكل سائل حائر، فلا تنهره، بل أجبه، وبإقبال وحب. وإذا كنت لا تدرى، فقل «لا أدرى» ومن قال : «لا أدرى فقد أفتى» وهذا من العلم . «وأما بنعمة ربك فحدث» فعليه أن يتحدث وأن يُفْشِيَ وينشرَ (وبقدر ما تسمح ظروفه) – ينشر الدعوة . والله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده . وأعود وأكرر أن المخاطب الرسول، والمراد أمته . فياليتنا نتأدب بهذا الأدب القرآنى، ونستضيىء فى كل خطواتنا بهذا النور الربانى .

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ (٢١ – الأحزاب) . لقد نذر نفسه عليه الصلاة والسلام للرسالة الكبيرة، وللأمر الجلل الذى اختاره الله له. ولم تكن حياته – قط – سهلة . لقد تعرض لألوان من الأذى كما تعرض للموت أكثر من مرة، فى يوم أُحد، وفى يوم حُنَين . وكان يدير المعارك من قلب المعارك ! .

إننا إذا لم نتأسَّ به، فستكون حالنا أسوأ مما نحن فيه! لماذا تتقلص طموحاتنا، حتى متى نبقى فى الصفوف الأخيرة من ركب التقدم؟! علينا، وفى كل موقع من مواقع العمل، أن نتذكر أمتنا، وألاّ ندخر وسعًا فى سبيل قوتها ومجدها وعزها .

---

(١) ولم يصبح عليه الصلاة والسلام ذا عيال إلا بعد هذا الزواج.

(٢) «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد..» (إلى آخر الآية ـ ١١٠الكهف)

الماعون

بند (٥٤)

﴿أرأيت الذى يكذب بالدين * فذلك الذى يدع اليتيم * ولا يحض على طعام المسكين * فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون * ويمنعون الماعون﴾ وفى أسباب نزولها أقوال أحدها: أنها نزلت فى أبى سفيان، وكان ينحر كل أسبوع جزوراً، فطلب منه يتيم شيئًا، فقرعه بعصاه! «أرأيت الذى يكذب بالدين» - أى هل عرفت وتحققت من هو هذا المكذب بالدين؟ ولكن، وأولاً ما المقصود «بالدين» عن «الدين» نزلت آيات كثيرة، منها - وعلى سبيل المثال - ما جاء فى سورة الإنفطار: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم * الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك * كلا بل تكذبون بالدين * وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون * إن الأبرار لفى نعيم * وإن الفجار لفى جحيم * يصلونها يوم الدين * وما هم عنها بغائبين * وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين * يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله﴾ (الآيات من ٩ - ١٩ من السورة) (أى إلى آخرها).

ومن ذلك قوله تعالى فى أول سورة الحج: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مر ضعة عما أر ضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾(١ - ٢). وفى سورة عبس: ﴿فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * و صاحبته وبنيه * لكل امرئ يومئذ شأن يغنيه * وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة. ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ (الآيات ٣٣ - ٤١) (وهو آخر السورة). إنه يوم القيامة، فلنكن له ذاكرين، وحاضرين، وغير غائبين!.

﴿أرأيت الذى يكذب بالدين. فذلك الذى يدع اليتيم﴾. واليتيم (هنا) هو - لُغَةً - الصبى أو الولد يفقد أباه قبل البلوغ. و«يدُعُّه» - أى يدفعه ويزجره ويقهره ويظلمه إذا جاءه يطالب بحقه. وحتى لو قلنا: يطلب صدقة؛ وحتى لو كان «شَحَّاتًا» (والشحات هو السائل المُلِحّ)، فيجب صرفه بلطف، والآية القرآنية صريحة «وأما السائل فلا تنهر» (١٠ - الضحى).

ومن صفات هذا المكذب بالدين أنه «لا يحض على طعام المسكين» ومما جاء فى سورة «الحاقة» عن هذا الذى أُوتِىَ كتابه بشماله - قوله تعالى: ﴿إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين﴾ (الآيتان ٣٣ - ٣٤). وأقول: إن هذا الذى لا يحض على طعام المسكين، لا يحض، كذلك، على كسوته، أو إيوائه، بل إنه لا يحضُّ على أى عمل خيرى، وهو بالتالى - للشح المتمكن منه - لا يعطى مما أعطاه الله. إنه لا يعطى ولا يحض على العطاء.

والحض على طعام المسكين يعنى – كذلك الحض على طعام المساكين – وكل المحتاجين – وكسوتهم وإيوائهم وتقديم سائر الخدمات إليهم – وهذه هى رسالة الجمعيات الخيرية، التى يمكن أن تقوم إلى جانب الدولة بكل الخدمات، ومنها التعليم، وتعليم الحرف المناسبة للبنين والبنات، بل والكبار كذلك.

وفى الجزء الأخير من السورة ﴿**فويل للمصلين. الذين هم عن صلاتهم ساهون. الذين هم يراءون. ويمنعون الماعون**﴾ . إنهم المنافقون. أو هم الذين فيهم شيء من النفاق . والنفاق درجات. «يعصمنا الله منه» . فى تفسير ابن كثير[1] : « **فويل للمصلين. الذين هم عن صلاتهم ساهون**» . قال ابن عباس وغيره : يعنى المنافقين، الذين يصلون فى العلانية، ولا يصلون فى السر (وهو يحيل فى هذا على الطبرى) . ولهذا قال : «للمصلين» أى الذين هم من أهل الصلاة . وقد التزموا بها، ثم هم عنها ساهون أى ساهون عنها كلية كما قال ابن عباس . وإما عن فعلها فى الوقت المقدر لها شرعًا ..

وقال عطاء ابن دينار : والحمد لله الذى قال : « **عن صلاتهم ساهون**» ولم يقل : فى صلاتهم ساهون . قال الزمخشرى : (كما جاء فى تفسير القرطبى) : فإن قلت : أى فرق بين قوله « **عن صلاتهم**» وقوله : فى صلاتهم؟ قلت : معنى «عن» أنهم ساهون عنها سهو ترك لها، وقلة التفات إليها . وهذا فعل المنافقين، أو الفسقة الشطار[2] من المسلمين . ومعنى «فى» أن السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس . وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم .

أضيف : قال الله تعالى : ﴿**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر**﴾[3] وإنى أرى المصلين كثيرين، ولو كانوا يؤدون الصلاة على وجهها، وبالتدبر الواجب، وبالخشوع الذى يجب ألا يغادرنا ونحن – فى الصلاة – بين يدى الله . لو فعلنا لكنا بحال أفضل . ثم إن فى السورة ذاتها آدابًا أخرى يجب التحلى بها، وأداؤها، وإلا كانت الصلاة مردودة علينا – نسأله الهداية، والمزيد من الهداية .

« **الذين هم يراءون**» وهذا يؤكد أنهم هم «المنافقون» . ومما جاء فى التنزيل الحكيم عنهم، وهو كثير كثير، قوله تعالى فى سورة النساء (١٤٢ – ١٤٣) ﴿**إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا**﴾؛ وقوله تعالى : ﴿**إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا**﴾ (١٤٥ – النساء) (وانظر فيهم : الآيات ٨ وما بعدها من سورة البقرة) . وقد ذكر القرطبى صوراً للنفاق، يموه بها، مرتكبها على الناس . إنها

---

(١) الذى يضع عنوانًا لتفسيره للسورة «تفسير السورة التى يذكر فيها الماعون» .
(٢) الشطار «جمع شاطر، وهو الذى ترك موافقة أهله، وأعياهم لؤمًا وخبثًا (تفسير القرطبى – مجلد ٢٠ ص٢١٢) .
(٣) «٤٥ – العنكبوت» .

صور كانت وما زالت حتى اليوم . ومن هؤلاء من نسميهم «الدجالين» الذين يتخذون الثياب الخشنة، ليأخذوا بذلك هيئة الزهد؛ ومن المرائين بالقول الذين يظهرون السخط على أهل الدنيا! إلى آخره. وربما كان أكثر المكذبين بالدين شناعة وقبحًا هم هؤلاء الذين تسلط عليهم الشح فجردهم من مروءات الرجال . إنهم مانعو الماعون . فلا خير فيهم لجار، أوقريب أوغريب، أو صاحب حاجة - وتقديم الماعون لطالبه، أو من هو فى حاجة إليه، أمر شائع فى مختلف البيئات، وخاصة البيئات القروية والزراعية . إنهم يتعاونون فى البيت وفى الحقل، وبصفة تبادلية، وبالذات فى العمليات التى تحتاج إلى كثرة الأيدى . وهم - فيما أعلم أو فيما كان - لا يمنعون الأدوات الزراعية والمنزلية عمن كان فى حاجة إليها . وما قلت آنفًا لا يمنع من أن أُلِمَّ بما ذكره القرطبى عن الماعون . قال: فيه (أى فى الماعون) **اثنا عشر قولاً** : **الأول**: أنه زكاة المال. والمراد به المنافق يمنعها . **الثانى**: أن الماعون المال بلسان قريش .. **والثالث**: أنه اسم جامع لمنافع البيت كالفأس والقدر والنار وما أشبه .

قال الأعشى :

بأجود منه بماعونه ∴ إذا ما سماؤهم لم تَغِمِ

أى أنه إذا سماؤهم لم تغم، وجاوزتها السحب الممطرة، فليس هناك من هو أجود منه بتقديم العون . **الرابع**: أن الماعون - فى الجاهلية كل ما فيه منفعة كالدلو والقدَّاحة .. قالوا : والماعون فى الإسلام : الطاعة والزكاة . وأنشدوا قول الراعى :

أخليفة الرحمن إنَّا معشر ∴ حنفاء نسجدُ بكرة وأصيلا
عربٌ نرى لله فى أموالنا ∴ حقَّ الزكاة منزَّلاً تنزيلا
قوم على الإسلام لَمَّا يمنعوا ∴ مَاعُونَهم ويضيعوا التهليلا

الخامس: أنه العارية . **السادس**: أنه المعروف كله الذى يتعاطاه الناس فيما بينهم . **السابع**: أنه الماء والكلأ . **الثامن**: الماء وحده . **التاسع**: أنه منع الحق . **العاشر**: ومن الناس من قال: الماعون أصله معونة . والعون هو الإمداد بالقوة والآلات والأسباب الميسرة للأمر. **الحادى عشر**: أنه الطاعة والانقياد .

وقيل : هو ما لا يحل منعه كالماء والملح والنار . قالت عائشة رضى الله عنها . قلت : يا رسول الله . ما الشىء الذى لا يحل منعه ؟ قال : «الماء والنار والملح» . **الثانى عشر**: يحتمل أنه المعونة بما خف فعله وقد ثقله الله . وقيل لعكرمة مولى ابن عباس : «أمن منع شيئًا من المتاع كان له الويل؟ فقال : لا، ولكن من جمع ثلاثهن فله الويل : يعنى ترك الصلاة، والرياء، والبخل بالماعون» .

الفصل التاسع عشر

قارون
وزينة الحياة الدنيا

بند (٥٥)

ورد ذكر قارون فى الآيات التالية من التنزيل الحكيم : يقول تعالى فى سورة غافر : **﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب﴾** (٢٣ – ٢٤ غافر) .

ويقول : **﴿وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين[١] * فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حا صبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾** (٣٩ – ٤٠ – ٤١ العنكبوت) .

وفى سورة القصص (الآيات ٧٦ وما بعدها) – جاءت قصة قارون بتفصيل أكثر . وهذه هى الآيات : **﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين * وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة * ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين * قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون * فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم * وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون. فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين * وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن مَن الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون * تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين * من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين يعملون السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾** (٧٦ – إلى – ٨٤ القصص) .

---

(١) قبل هذه الآية (٣٩) ذكر الله سبحانه وتعالى – فى إيجاز قصص نوح، وإبراهيم ولوط، وهود وصالح وشعيب، وما كان منهم، ومن أقوامهم معهم .

أقول : تقول الآية ٧٦ - إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، أى أنه بغى على قومه. والإنسان - فى كل الأحوال - منهى عن البغى والظلم، سواء فى ذلك - البعيد والقريب. فإذا كان البغى على القريب كانت المصيبة أعظم؛ فالفطرة، والعقل والشرع، تقضى كلها بالتودد إلى القريب، وبكل الوسائل والصور، المادية والمعنوية جميعاً . وفى الروايات أن الحقد الأسود قد أعماه فكاد لموسى كيداً لا يفكر فيه ولايأتيه إلى دنىء .. وقد أعطاه الله كنوزاً وكنوزاً، ازدحمت بها الخزائن؛ وكانت من الكثرة بحيث أن مفاتيحها، قد أثقل حملها الكثرة ذات القوة . ولا شىء فى أن يكون للإنسان مال ومال، مع مراعاة الشروط التى وضعها الله الذى جعلنا مستخلفين فيه : ومن هذه الشروط عدم كنزه وحبسه عن التداول والاستثمار، ومنها - أيضاً - أداء حقوق الله والناس فيه . ولا شىء - كذلك - فى أن يفرح الإنسان بما أعطاه الله من نعم، والفرح المباح، بل المطلوب، هو فرح الشكر لا فرح البطر والجحد والخيلاء . إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده . وفى القرآن الكريم ﴿ **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ..** ﴾ (٣٢ - الأعراف) وفيه : ﴿ **يا بنى آدم خذو زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولاتسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾ (٣١ - من نفس السورة) . وكل إنسان مخاطب بما خوطب به قارون، فى قوله تعالى: ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين** ﴾ .

أقول : إن «الحياة» التى وهبنا الله إياها، وإن العمر الذى كتبه الله لنا وإن اللحظة التى نعيشها الآن، لا تتكرر، وإذا مضت فلن تعود مرة أخرى . والسعيد السعيد، سعيد الدنيا والآخرة، هو الذى يعيش حياته، وعمره، وكل لحظة من هذا العمر، كما يريد الله لنا أن نعيش، وفى كل هذا إعمار وبناء . والله يطلب منا أن نعمر لا أن نخّرب، وأن نبنى لا أن نهدم . والله الذى أحسن إلينا، يطالبنا بأن نحسن بدورنا، أن نحسن طاعته وعبادته، ومنه الحديث الشريف: ما الإحسان؟ قال : «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» إنه استعمال نعم الله فى طاعة الله . ومنه معاونة المساكين والمحتاجين .

إنه إذا ابتغى الإنسان رضا الله فيما أعطاه، إنه إذا وظف نعم الله مبتغياً الآخرة فإن هذا يستلزم الاستقامة على صراط الله، وهذا يحقق سعادة الدنيا أيضاً . ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ..** ﴾ وماذا بعد الحق إلاّ الضلال ؟ وماذا بعد الانحراف عن الجادة إلاّ الفساد ؟! وفى الآية : « **ولاتنس نصيبك من الدنيا** » - والمعنى الظاهر والقريب والذى تؤيده النصوص فى الكتاب والسنة أن العمل للآخرة لا يعنى الانصراف عن الدنيا والزهد فيها، فلا رهبانية فى الإسلام . وفى الحديث الشريف «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» ولنا فى الرسول وصحبه - عليهم جميعاً الصلاة والسلام - القدوة الحسنة، والطريقة المثلى . ونفس الآية « **ولا تنس نصيبك من الدنيا** » تعنى شيئاً آخر لا يتعارض مع السابق! ذلك أنه إذا كان ما يمضى من العمر، فإنه يمضى إلى غير رجعة، فعلينا أن ننتهز كل لحظة من هذا العمر للاستزادة من الحسنات حتى تثقل موازيننا

يوم الحساب : ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية * وأما من خفت موازينه فأمه هاوية* وما أدراك ماهية * نار حامية﴾ (الآيات الأخيرة من سورة القارعة) .

وفي معنى حديث شريف : «ادخر فى شبابك لشيبك، وفى صحتك لمرضك، وفى غناك لفقرك، وفى دنياك لآخرتك» .

وفي الآية ٧٨ يقول - عزّ من قائل - ﴿قال إنما أوتيته على علم عندى﴾ - وفى ذات الآية، واستمراراً لها ﴿أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ - لم يكن قارون أول من قال : «إنما أوتيته على علم عندى» فقد قالها آخرون من قبله، وآخرون من بعده؛ وفى سورة الزمر يقول تعالى : ﴿فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون * قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون * فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين﴾ (٤٩ - ٥٠ - ٥١) .

ألا فليعلم قارون أن الله - عزّ وجل - قد أهلك من قبله أجيالاً وأجيالاً . كانوا أشد منه قوة، وأكثر مالاً، وأعز نفراً . وأن المجرمين سيساقون إلى جهنم سوقا، ويقذف بهم فيها قذفا، من غير سؤال ولا عتاب ﴿وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين * فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾ (٢٣ - ٢٤ فُصلت) .

وخرج قارون على قومه فى زينته . إنها مواكب الأبهة والفخفخة، وانها كوكبات الخيل والفرسان، والطبل والزّمر . فماذا كان من الذين شاهدوا ورأوا وسمعوا؟ . أما الذين يريدون الحياة الدنيا، وهم عادة - الكثرة والجهلة، فقد تمنوا أن يكون لهم، وأن يُؤْتوا مثل ما أوتي قارون، «ذى الحظ العظيم» أما الذين أوتوا العلم، فقد نعوا على الآخرين مسلكهم : فثواب «الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون» إنهم الثابتون على الحق الذين لا تعصف بهم الفتن، فتن الدنيا، وأمثال قارون . ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ (١٨ - آل عمران) .

وخسف الله بقارون وبداره الأرض . ومع لعنة الله وقضائه وقدره لم يستطع قارون أن ينتصر لنفسه، ولا انتصرت له عصابته . وأصبح الذين تمنوا بالأمس القريب أن يكون لهم مثل قارون - بعد أن أيقظتهم الأحداث، أن يدركوا حقائق الأشياء، فالله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده، ويضيق على من يشاء، وليس البسط علامة الرضا، وليس الضيق علامة السخط . فالبسط اختبار، والتضييق اختبار . وهنيئاً للغنى الشاكر، والفقير الصابر . وأخذ الذين تمنوا بالأمس أن يكون لهم مثل ما كان لقارون .. أخذوا يقولون : لولا أن من الله علينا لخسف بنا . والكافرون هم الخاسرون . ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين * من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين يعملون السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾ .

لقد جاء اسم قارون، مع «فرعون وهامان» فى (الآية ٢٤ - غافر)؛ وجاء مع اسميهما فى الآية ٣٩ - العنكبوت . وثلاثتهم جميعاً من رموز الظلم، وأئمة الكفر وكان جزاؤهم فى الدنيا ما بينته الآيتان ٤٠ و ٤١ من العنكبوت، وسبق ذكرهما فى صدر هذا البند . إن من هؤلاء من أطغاه السلطان، ومنهم من أطغاه المال، ومنهم من أطغاه السلطان والمال جميعاً . وفى القرآن الكريم ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى**﴾ (٦ - ٧ العلق) وجاء عن فرعون ﴿ **ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب**﴾(١) والقرين إلى المقارن، ينسب، وكلهم « **حصب جهنم**»(٢) إن السلطان قد يكون نقمة لا نعمة، وكذلك المال . اللهم اجعلنا من ﴿**الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب**﴾(٣) اللهم ألهمنا الحمد والشكر لك، فإن الفضل منك وإليك .

---

(١) ٤٦ - غافر .

(٢) ٩٨ - الأنبياء .

(٣) ١٨ - الزمر .

الفصل العشرون

التكاثر... والنعيم

بند (٥٦)

يقول – عزّ وجلّ من قائل : ﴿**ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر * كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون * كلا لو تعلمون علم اليقن * لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين * ثم لتسألن يومئذ عن النعيم**﴾ . هذه هى كل سورة التكاثر . وهى مكية فى قول جميع المفسرين . وروى البخارى أنها مدنية – وهى ثمانى آيات .

« **ألهاكم**» أى شغلكم وأنساكم « **التكاثر**» فى الأولاد والأموال، وقيل التكاثر فى التجارة ونحوها . إنه الإقبال على الدنيا . بحطامها ومتاعها . إنه الإقبال الذى يَنْسَى معه أهلُ الدنيا كل ما عداها ! والتكاثر والتفاخر قد يكون بالآباء والأجداد الذين ذهبوا . وفى هذا المعنى يقول الفرزدق مفاخراً :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم ∴ إذا جمعتنا يا جرير المجامع

ويقول آخر :

فَغضّ الطرف إنك من نمير ∴ فـلا كَعْبًا بلغت ولا كلابا

وهكذا تستمر الدنيا بِلألائها وزخرفها تبهر طلابها وعشاقها، حتى يأتيهم الموت، ويصيرون إلى المقابر . والقبر روضة من رياض الجنة للأبرار، وحُفْرةُ من حفر النار للأشرار والفجار .

وتتوالى الآيات الكريمة التى تحذّر أهل الدنيا، وتنذرهم، وتتوعدهم : ﴿**كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون * كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين * ثم لتسألن يومئذ عن النعيم**﴾ حقًّا حقًّا، ويقينًا يقينًا سوف تعلمون عاقبة أمركم وتفريطكم وسفاهتكم . لو زالت الغشاوة عن أعينكم، وارتفعت الأقفال عن قلوبكم وعقولكم لرجعتم عن غيكم، وعن التكاثر والتفاخر فى دنياكم، ولتزودتم فى هذه العاجلة الفانية، بزاد التقوى، وهذا الزاد، ولا شىء سواه، هو الذى سيبقى لكم فى الآجلة الباقية . يا قوم! سوف تشاهدون الجحيم بأعينكم . إنها بصديدها(١)، وحميمها(٢) فى انتظاركم، وستندمون على ما كان منكم، ولكن حيث لا ينفع الندم! ويومها ستُسْألون عن النعيم، وعما أترفتم فيه!

---

(١) انظر قوله تعالى : «من ورائه جهنم ويُسْقَى من ماء صديد» (١٦ – إبراهيم) .

(٢) انظر قوله تعالى : «لهم شراب من حميم و... ب أليم بما كانوا يكفرون» (٧٠ – الأنعام) .

أقول : إننا إذا عدنا إلى المعجم المفهرس للقرآن الكريم، لا نجد لفظ «النعيم» إلا وصفًا للجنة ونعيم الآخرة، باستثناء «النَّعيم» الوارد فى الآية الأخيرة من سورة «التكاثر؟!» . إن هؤلاء الذين ألهاهم التفاخر والتكاثر، قد نسوا الله فنسيهم، وأنساهم أنفسهم . لقد انغمسوا فى الترف، وبطروا النعمة، وجحدوا فضل الله، فلم يكن هذا «النعيم» الذى عاشوه فى الدنيا إلا زيفًا وضياعًا ولهوًا ولعبًا وإثمًا، وإلاَّ نارًا سيخلدون فيها أبدًا .

إن هذه الآيات التى تضمنتها سورة التكاثر تمضى فى نفس السياق الذى جاء فى الآية الكريمة ﴿**ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون**﴾(٢٠ - الأحقاف).

أقول لهؤلاء الذين استبدت بهم أنفسهم، وتسلطت عليهم شهواتهم ونزواتهم، فأسرفوا فى إشباعها : أسرفوا فى الطعام، وأسرفوا فى الشراب، وأسرفوا وانحرفوا فى مطاوعة الغرائز، غير مميزين بين حلال وحرام؛ أقول لهم : إنكم أنتم الذين « **أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها**» لقد استكبرتم فى الأرض بغير الحق، لقد فسقتم . فعذاب الهُون والهَوان والخزى هو جزاؤكم، وهو، ولا شىء سواه، فى انتظاركم! وعن هذه الآية (٢٠ - الأحقاف) قال قتادة : ذكر لنا عمر رضى الله عنه قال : لو شئت كنت أطيبكم طعامًا، وألينكم لباسًا، ولكنى أستبقى طيباتى للآخرة . ولما قدم عمر الشام، صُنِعَ له طعام لم ير قط مثله . قال : هذا لنا؟ فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وما شبعوا من خبز الشعير؟! فقال خالد بن الوليد : لهم الجنة! فاغرورقت عينا عمر بالدموع وقال : لئن كان حظنا من الدنيا هذا الطعام، وذهبوا هم فى حظهم بالجنة، فقد باينونا بونًا بعيدًا .. إلى آخره(١) .

وعن قوله تعالى : « **ثم لتسألن يومئذ عن النعيم**» - أنقل عن تفسير(٢) القرطبى ما يلى : روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة : قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبى بكر وعمر . فقال : «ما أخرجكما من بيوتكما فى هذه الساعة؟» قالا : الجوع يا رسول الله . قال : «وأنا والذى نفسى بيده لأخْرَجَنِى الذى أخرجكما، قوماً، فقاما معه فأتيا رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس فى بيته . فلما رأته المرأة قالت : مرحبًا وأهلاً، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أين فلان؟» قالت : يستعذب لنا من الماء؛ إذ جاء الأنصارى، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه، ثم قال : الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافًا منى . قال : فانطلق، فجاء بِعَذْق(٣) فيه بسر(٤) وتمر ورطب، فقال : كلوا

---

(١) - انظر فى هذا دراسة موسعة للموضوع «الإسلام وحقوق الإنسان - دراسة مقارنة» (للمؤلف) (طبعة ثانية ص٢٥٤ وما بعدها) .

(٢) جـ٢٠ ص١٧٤ وما بعدها .

(٣) العَذْق = النخلة بحملها . والعِذْق = كل غُصن له شعب - قِنو النخلة - عنقود العنب و«القِنو» = العِذق بما فيه من الرطب .

(٤) البُسر = ثمر النخل قبل أن يرطب و - الغض الطرى من كل شىء .

من هذه، وأخذ المدية . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «إياك والحلوب» ، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق وشربوا . فلما أن شبعوا ورووا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر : «والذى نفسى بيده، لتسألن عن نعيم هذا اليوم يوم القيامة . أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»[1] . (خرجه الترمذى) .
أقول : أغلب الظن أن هذا كان فى بدايات ما بعد الهجرة حيث لم تكن الأوضاع المعيشية بالذات استقرت بهم بعد؛ وكانوا يعانون من قلة الرزق . لكن صبرهم كان أكبر! وقد قلت، وأقول : إننا إذا لَعَنَّا الفقر مرة، فإننا نلعن الترف والبطر ألف ألف مرة . لا ريب عندى فى أن نعومة الحياة، ولين العيش، ليسا من صالح الفرد، وليسا من صالح أحد! وفى قوله عليه الصلاة والسلام : «من بات كالاً من عمله بات مغفوراً له» إشادة بالعمل، والمزيد من العمل، والثواب الكبير – فى الدنيا والآخرة – لهؤلاء العمال الذين هم على هذا المستوى . إنهم بناة الاقتصاد والحياة وعمادهما .

(١) من المحقق أن نعومة الحياة، ولين العيش، ليسا – فى ذاتهما – من صالح الفرد ولا من صالح المجتمع . إنهما كافيان لاستسلام الفرد للكسل، وانقطاع الأمل . وهذه كلها – مع شيوعها واستمرارها واستمرائها – معاول هدامة، تذهب معها قوة الأمم، وبالتالى سقوط الدول . وأضيف : لقد اختار عليه الصلاة والسلام وبعض أصحابه الزهد، واختار آخرون ماجاء فى آيات كثيرة « .. كلوا من طيبات مارزقناكم» (١٧٢ – البقرة وغيرها)

الفصل الحادى والعشرون

فى المحافظة على البيئة

بند (٥٧)

أنقل هذه الآيات الكريمة – وجميعها من سورة المائدة : قال تعالى :﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد * يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من الله ورضوانا وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب**﴾ (١ – ٢) .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم * يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال[1] أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام * أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما واتقوا الله الذى إليه تحشرون**﴾ (٩٤ – ٩٦) . الخطاب فى الآيات للذين آمنوا، وقد أحل الله لهم أكل لحوم الأنعام (من الإبل والبقر والغنم – إلا ما جاء فيه نص بتحريمه عليكم) – ولا يجوز لكم صيد البر، إذا كنتم محرمين أو كنتم فى أرض الحرم . فإذا كنتم محرمين لحج أو لعمرة، أو لهما معاً فحرام عليكم صيد البر وعليكم الإحرام من الأماكن المحددة لذلك، أو من أى مكان قبل هذه الأماكن . وبمجرد الوجود فى أرض الحرم، وبمجرد الإحرام من أى مكان يجب الامتناع عن صيد البر . إنه تعظيم للحرم، وتعظيم لشعائرالله عامة، ومناسك الحج وخاصة أنه امتناع عن ترويع حيوان البر مما تناله الأيدي والرماح، وآلات الصيد كافة . إنّ المولى جل وعز يختبرنا[2]، وعلينا أن نلتزم بالحدود التى حدها لنا . وإلا فالعذاب الشديد ينتظرنا . ومن يقتل صيد البر متعمداً – بعد أن نوى الإحرام لحج أو لعمرة فعليه أن يؤدى النظير أى البديل، أى

---

(١) تأمل وصف المخالفة بانتهاك الحرمات – بالوبال، وتأمل كذلك الجزاءات والكفارات، إنها ليست هينة . ليتنا نعتبر، ليتنا نكون دائماً عند حسن الظن بنا . هذه آيات من كتاب الله، والله يقول فى المؤمنين «إنما المؤمنون الذين إذا ذُكرَ الله وَجِلَت قلوبهم ...» (٢ – الأنفال) – ليتنا نقيم «المحميات» للمحافظة على الحيوان والنبات! ليتنا نفعل ذلك، ليس على المستوى المحلى والإقليمى، ولكن بالمشاركة الفعالة على المستوى العالمى أيضاً .

(٢) إذا كان القرآن الكريم قد حرم الصيد على النحو المبين بالآيات، ففى ذلك تدريب وإعداد للتحفظ من الصيد، والحرص على سلامة البيئة بصفة عامة .

العوض، من الإبل والبقر والغنم، ويقدمه للفقراء عند الكعبة، أو يدفع بدله إليهم «أو كفارة طعام مساكين، أو عدل ذلك صياماً ليذوق وبال أمره» . إن الله قد عفا عما سلف، فمن عاد أو عاود فينتقم الله منه . هذا كله عن صيد البر، أما صيد البحر فلا منْع .

لم يكن هناك ما يمكن أن يلوث البحر فى الزمن الماضى، أما الآن فقد تغير الأمر كثيراً، فضلاً عن تلوث مياهه بزيوت السفن العابرة، وصرف مياه الصرف الصحى إلى البحر من كثير من المدن المطلة على شواطئه(١)، فإن كثيراً من أنواع الحيوان البرى والبحرى - قد انقرض أو يوشك على الانقراض بسبب إباحة صيده، والمبالغة فى هذا الصيد، وكذلك بالمخالفة للقيود المفروضة لحمايته . ومثل هذا يقال فى الغابات التى تُقتلع أشجارها ويصاد حيوانها، مما يخل بالتوازن البيئى . وقد كثر التحذير فى السنوات الأخيرة من العوامل المختلفة (وهى من صنع الإنسان) والمؤثرة سلباً على طبقة الأزون التى تحمى الأرض وسكان الأرض! وبعض الدول الصناعية الكبرى، وبطرق غير مشروعة، ترمى النفايات الضارة، فى مياه البحر، وأحياناً فى المياه الإقليمية للدول الأخرى، (وهى دائماً دول العالم الثالث ... إلى آخره) .

وأعود إلى الوضع فى الإسلام : بعد إسلام ثقيف الذين لاقى الرسول عليه الصلاة والسلام وصحبه الكثير من عَنَتِهم، وتعلقهم بأصنامهم؛ بعد إسلامهم، وإلانة قناتهم باتخاذ الكثير من الوسائل حتى أُشْرِبوا الإيمان فى قلوبهم، كان مما كتبه إليهم هذا الكتاب «بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد النبى، رسول الله، إلى المؤمنين : أن عضاة «وجّ» وصيده لا يُعضَدُ(٢). ومن وُجِدَ يفعل شيئاً من ذلك، يجلد وتنزع ثيابه، فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ فيُبلغ به إلى النبى محمد . وإن هذا أمر النبى محمد رسول الله» .

وكتب خالد بن سعيد : بأمر النبى الرسول محمد بن عبد الله فلا يتعده أحد فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . نَهَى النبى صلى الله عليه وسلم عن قطع عضاة «وجّ» وعن صيده . وكان الرجل يوجد يفعل ذلك «فيُجْلَدُ وتُنزع ثيابه» . واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمى وجّ سعد بن أبى وقاص .

أقول : إن هذا النص الكريم يحتاج إلى الكثير من التعقيب . أكتفى بأن أسجل عنه هنا ما يلى :

١ - هذا النص عن حماية البيئة، وعناصرها التى لا حصر لها . وقد أُلِّفت، وتؤلف الكتب الكثيرة عن هذه الحماية؛ كما أُنْشِئت، وتُنْشَأ من أجل المحافظة على البيئة - المعاهد والدراسات المتعمقة، وتصدر فيها الدوريات والمجلات المتخصصة . وتقوم بها، وتحمل اسمها الجمعيات والوزارات والأحزاب فى بلاد كثيرة . وهذا الذى اهتم به الإسلام منذ ظهوره لم يأخذ العالم فى الاهتمام به إلا حديثاً .

(١) وخاصة فى البحار المغلقة، أو شبه المغلقة كبحر قزوين والبحر الأسود، والبحر الأبيض المتوسط .
(٢) العضاة : شجر له شوك، وهو أنواع، واحدته عضة . و«وجّ» موضع بالطائف . لا يعضد = أى لا يُقطع .

٢ – النص هنا عن حماية الغابات والنباتات والأرض الخضراء . وهو – أيضًا – عن حماية الحيوان . يجب أن تبقى الغابات فلا تُزال، وأن تبقى الأرض خضراء، لا صحراء . ويجب حماية الحيوان حتى لا ينقرض . وفي الآثار الضارة لقطع الغابات، وقتل الحيوان، كُتِبَ الكثير والكثير . ولا أشك في أن هناك آثارًا ضارة أخرى لم تعرف بعد[1] .

٣ – قلما تأتي الأحاديث الشريفة على النحو الذي جاء في هذا النص . إنه لم يقف عند مجرد النهي، وإنما أعقب النهي بما يترتب على مخالفته من جزاء في الدنيا – وعذاب الآخرة أكبر .

٤ – النص يشتمل على قاعدة عليا، تضمنها الحديث الشريف، ثم على أمر تنفيذي أصدره أمير القوم خالد بن سعيد ليُعلم الجميع بالتحريم وما يترتب على المخالفة من عقاب .

٥ – وللأهمية البالغة لحماية «هذا الحمى»[2] (حمى الله ورسوله) (حمى الدولة) – استعمل رسول الله عليه، فارس الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة سعد بن أبي وقاص.

٦ – وفي النص – كذلك – «فإن تعدى ذلك، فإنه يُؤخذ فيبلغ به إلى النبي محمد» وهذا يعني، أن من يتعدى بتكرار «الجريمة»، أو بارتكابها مصحوبة بظروف مشددة، تجسمها وتضخمها، فإنه يقبض عليه ويرحل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليحاكمه، أو يحيله على من يحاكمه؛ لتوقيع عقوبة أشد بسبب العود أو جسامة الجرم .

أقول : وأرجح – من ظروف صدور النص – أن الأمر كان قبل ذلك (في الجاهلية) فوضى! وهكذا جاء ديننا، وشريعتنا – مع التوحيد – بالنصوص والشروط، بل، وبالقيود للصالح العام، لا من أجل الإنسان وحده، ولكن، وأيضًا، لحماية البيئة والمحافظة عليها وعدم ترويعها بالاعتداء على نباتها وحيوانها[3] !

---

(١) إني أنقل ما تقدم – وحتى رقم (٦) الذي سيأتي – عن كتابي «غزوات الرسول وسراياه – دروس مستفادة» (٨٨ وما بعدها) . وعن هامش ص٨٩ أنقل ما يلي : «في ص١٢ من أهرام ١٩٨٧/٢/١٨» .
(أ) أن زوج ملكة بريطانيا يقوم حاليًا بحملة جديدة لجمع ٢,٢ مليون دولار لإنقاذ حيوان الباندا بالصين .
(ب) تحت عنوان «مواقف – لأنيس منصور – أنا وغيري دعونا إلى إقامة حزب أو جمعية لحماية الحياة : حياة النبات والحيوان والإنسان . وهذه الدعوة اتخذت شكل الأحزاب المنظمة في أوروبا .. إلى آخره .
أضيف أن بمصر الآن (يوليو ١٩٩٤) «حزب الخضر» ووزير يتولى – مما يتولى – حماية البيئة وفي ضاحية المعادي – على سبيل المثال – جمعية لحماية الأشجار ونحوها .

(٢) انظر في «الحمى» «الإسلام والإدارة والاقتصاد» – للمؤلف ص٣٦٥ – ٣٧٩ .

(٣) وانظر في هذا الموضوع – أيضًا – مادتي «وج» و«الطائف» في معجم البلدان لياقوت الحموي (وهو مرتب أبجديًا)، وانظر كتابي «غزوات الرسول ...» والمراجع المشار إليها فيه .

الفصل الثاني والعشرون

الجمال في القرآن الكريم

بند (٥٨)

نشأت ريفيا والحمد والشكر لله، والفضل منه وإليه . وفى الطفولة والصبا وصدر الشباب كنت شديد الالتصاق بأبى . وكنا مع آخرين، وفى أرض الجزيرة بالذات، نزرع مساحات واسعة من البطيخ والقثاء ونحوهما . وفى الصيف كنا – ومع غيرنا – نقوم بحراستها، ونستمتع بها، ليس بثمارها فحسب، بل بأوراقها وأزهارها ونموها – كانت السماء – ليلاً – هى سقفنا وغطاؤنا . كنا نسعد بالليالى المُقْمِرَة إنها «من ليالى الهناء» كما كنا نقول . وكنا لا نستطيع صرف أعيننا عن النجوم، الزاهية منها والخافتة، ونعرف بعضها، ومواعيد ظهورها وغيابها . وربما ربطنا بعض أعمالنا بها . كان مقرر اليوم[١] (أو حصة اليوم، كما كنا نقول أيام الكُتَّاب) الجزء السادس والعشرون . ومن سُوَره، سورة «ق» – قرأت فيها ما يأتى **﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب * ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج﴾**[٢] إن الأشجار – حتى أشجار الثمار – هى أشجار زينة[٣] أيضًا . وما أحوجنا إلى الناحية الجمالية فى كل ما خلق الله! وما أحوجنا إلى تأملها، والاستسلام لإيحاءاتها . ما أروع الجبال، وامتدادها من بطن الوادى إلى القمم السامقة . وفى مكان، كأواسط أفريقيا، نجد بعض الجبال فى امتدادها من بطن الوادى إلى القمة، وهى تحمل فى تدرجها من أسفل إلى أعلى، مناخ المناطق الحارة (الاستوائية) ونباتاتها وحيواناتها، تليها المناطق المعتدلة، ثم المناطق الباردة التى تتوجها الثلوج . ولها جميعها، وبمختلف مظاهرها، والأحياء عليها، وبالذات تغريد عصافيرها، وجداول الماء المنحدرة منها – لها جميعها جمال أخاذ .

والمطر المدرار الهطال، إنه ماء مبارك، إنه رزق كريم . إنه حياة الأرض، وحياة الإنسان والحيوان ومنه «كل شىء» . لقد كانت الأرض قبله جرداء قحلاء ميتة، فتتحول – بفضل الله – إلى جنات، فيها الكثير من خيرات الله . ما أكثر ما سخر الله للإنسان، ونحن مدعوون إلى التأمل فى خلق الله، وإلى جماله فى خلقه! كنت ذات يوم عائدًا من «كازينو» (على شاطىء

---

(١) صباح الثلاثاء ٢٦ من المحرم ١٤١٥ هـ – ٥ – ٧ – ١٩٩٤ .

(٢) الآيات ٦ – ١١ .

(٣) إن أشجار الخوخ والتفاح – هى ممن يعلن مقدم الربيع . أن أزهارها الجميلة تظهر قبل أوراقها .

البحر، يلامس المياه) وكنت أواظب على جلسات[1] طويلة فيه، كنت عائداً إلى بيتي في الإسكندرية . وإني - في هذه الفقرة - لا أتحدث عن رياضة الذهاب والإياب وفوائدها . وإنما أتحدث عن لمسة جمالية مستتني . كنا في أكتوبر أو نوفمبر وقد عادَ زُوَّار الصيف إلى حيث جاءوا . ونَعِمْتُ بالسكون، والنسيم الرقيق، والبحر الهادئ، وظلال الآصال . فخلت نفسي وكأني في أجمل بقعة في الدنيا، في إحدى جنات الأرض! ثم، ماذا أعني بالظلال ؟

يقول تعالى : ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال﴾ (١٥ - الرعد) . كل من في السموات والأرض يخضع لإرادة الله، هذا الخضوع يشمل ما فيهما من أكوان وإنس وجن وملائكة . وإنهم يخضعون طائعين أو كارهين . حتى ظلالهم من طول وقصر حسب أوقات النهار، في الظهيرة وفي الأصيل .(خلاصة لما في المنتخب) .

وفي أوضح التفاسير ... «طوعًا» بالدليل والحجة والبرهان «وكرها» بالسيف والقتال «وظلالهم» أي ويسجد له تعالى ظلال كل من في السموات والأرض «بالغدو والآصال» قيل : يسجد له تعالى ظل كل شيء قبل طلوع الشمس، وفي العَشى كذلك .

ومما جاء في المعجم الوسيط : ظلَّل الرسم : جعل في خلفيته ظلالاً إذا كان ذا لون واحد (المجمع) والظل = ضوء شعاع الشمس إذا استترت عنك بحاجز . وظل الليل = سواده، والظل الممدود = ظل أو خيال يقع على شيء مجاور . و«الظلال» = ظلال البحر أمواجه .

أقول : إن ظل الشيء غير الشيء ذاته . إن الفرق بينهما كالفرق بين الحقيقة والخيال . وفي تفسير المنتخب ذكر الجن والملائكة ، ولست أدرى كيف يكون لهما ظل بالمعنى المألوف للكلمة. وفي «أوضح التفاسير» فسر الغدو والآصال، بأنه سجود كُل شيء له تعالى، قبل طلوع الشمس، وفي العشي، والظلال بالمعنى المعروف تظهرها الشمس فكيف تكون بعد غروبها، وقبل شروقها؟!.

إن معنى الظلال، على أي نحو مما قَدَّمتُ غامض . وأقول أيضًا - إن معنى الظلال واسع. إني أعني بالظل، أو الظلال على ما عايشتها، أنها انعكاسات أو انطباعات أو تلقيات . ماأكثر ما حملتني قدماي إلى الضرب في الأرض، أرض القرية، بعد صلاة الفجر . لقد كان ذلك عادة يومية لسنوات طويلة .. ما أبْهجها! لقد شعرت أن كل شيء يسبح بحمده، مياه القنوات، الأشجار هنا وهناك، الليل المُدبِر، والنهار المُقْبِل، واحتفال العصافير بميلاد يوم جديد. إني لم أسمع التسبيح ولم أره، لكني تلقَّيته !

ومن ملاحظاتي في القرية وزراعاتها أن لهذه الزراعات ظلالاً وانعكاسات تختلف من لحظة إلى لحظة، وكذلك الأمر في البحر، حيث تتغير الظلال وفقًا لما إذا كانت الشمس في وجهي أو خلفي، بل إن الأمر يختلف - في البحر بالذات - إذا ملت بعيني يمينًا أو يسارًا .

(١) ومعي كالعادة، كتابي وورقي وقلمي !

وفى الزراعات نفس الشىء، حيث تختلف الانعكاسات (أى الظلال) إذاكانت عطشى أو مروية . إن الظلال انعكاسات وانطباعات جمالية . ألاَ ليت الظروف تسمح لنا باتصال أوثق بالطبيعة . أما الليل، وقمره، ونجومه، وسماؤه وعَالَمه، وسكونه .. ماذا أقول : إننا لا نستطيع أن نلغى النوم من حياتنا، ولولا ذلك لصاحبته وتابعته وساهرته، وقرأت من «كتابه» وظفرت بجماله..! وسبحانك اللهم! معارض بالليل، ومعارض بالنهار، ولكننا لا نشاهد، أو لا نشاهد كما ينبغى أن نشاهد! والحمد لله دائمًا . وسبحان الخلاّق العظيم!

وقد ورد «الجمال» فى القرآن الكريم «اسماً ووصفاً» – جاء «اسمًا» مرة واحدة، فى قوله تعالى : ﴿ولكم فيها[1] جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾ (٦ – النحل) .

وفى تفسير القرطبى عن هذه الآية (مجلد ١٠ ص ٧٠ وما بعدها) : الجمال ما يُتَجَمَّلُ به ويُتَزين . والجمال الحُسْنُ . وقد جَمُلَ الرجل (بالضم) جمالاً فهو جميل . والمرأة جميلة وجَمْلاء أيضاً – عن الكسائى . وأنشد :

فهى جَمْلاءُ كبدر طالع ∴ بَذَّت الخلق جميعًا بالجمال

وقول أبى ذؤيب :

جَمَالَكَ أيها القلب القريح[2] ∴ ستلقى من تحب فتستريح

يريد الزم تجملك وحياءك ولا تجزع جزعًا قبيحًا . قال علماؤنا (الكلام كله للقرطبى) : فالجمال يكون فى الصورة وتركيب الخلقة، ويكون فى الأخلاق الباطنة . ويكون فى الأفعال . فأما جمال الخلقة فهو أمر يدركه البصر ويلقيه إلى القلب متلائمًا، فتتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك ولا نسبته لأحد من البشر .

وأما جمال الأخلاق فكونها على الصفات المحمودة من العلم والحكمة والعدل والعفة، وكظم الغيظ وإرادة الخير لكل أحد . وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق وقاضية لجلب المنافع فيهم وصرف الشر عنهم . وجمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة، وهو مرئى بالأبصار موافق للبصائر . ومن جمالها كثرتها وقول الناس – إذا رأوها – هذه نَعَم فلان . قاله السدّىّ . ولأنها إذا راحت تَوَافَرَ حسنها، وعَظُمَ شأنها وتعلقت القلوب بها لأنها إذ ذاك أعظم ماتكون أسنمة وضروعًا . قاله قتادة ولهذا المعنى قدم الرواح على السراح لتكامل دَرِّهَا وسرور النفس بها إذ ذاك . وروى أشهب عن مالك قال : يقول الله عَزّ وجل : « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون» وذلك فى المواشى حين تروح إلى المرعى وتسرح عليه . والرواح رجوعها بالعشى من المرعى . والسراح بالغداة . تقول : سَرَحْتُ الإبلَ أسرحها سرحاً وسروحًا إذا غدوت بها إلى المرعى فخليتها . وسَرَحَتْ هى؛ المتعدى واللازم واحد .

---

(١) الضمير عائد على «الأنعام» فى الآية السابقة عليها (٥) حيث قال – جل وعز – «والأنعام خلقها، لكم فيها دفءٌ ومنافع ومنها تأكلون» .

(٢) القَرِيح = الجريح . والجمع = قَرْحَى . والقريح من الماء الخالص الذى لا يُخالطه شىء .

هذا وقد جاءت (مادة الجمال) وصفًا، كما يلي - نقلاً عن «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن» (للمرحوم الأستاذ الفاضل محمد فؤاد عبد الباقي)(١).

جميل (ثلاث مرات) ﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان﴾ (١٨- يوسف). ﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا﴾(٨٣ - يوسف) . ﴿وإن الساعة لآتية فا صفح الصفح الجميل﴾ (٨٥ - الحجر) .

جميلاً (أربع مرات) ﴿فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا﴾ (٢٨ - الأحـــزاب) . ﴿فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا﴾ (٤٩ - الأحـــزاب) . ﴿فا صبر صبرا جميلا﴾ (٥ - المعارج) . ﴿وا صبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا﴾ (١٠ - المزمل) .

أما الآيتان (١٨ ، ٨٣ من سورة يوسف)، فهما على لسان يعقوب، في القصة المعروفة عن يوسف وإخوته من أبيه، وكانوا قد ألقوا به في غيابة الجب، فالتقطه بعض السيارة، وباعوه بثمن بخس لعزيز مصر . أما الإخوة فقد عادوا إلى أبيهم مساءً يبكون، وقالوا : إن الذئب قد أكله، وجاء وا على قميص يوسف بدم كذب، فقال لهم أبوهم : « بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ..» وعاش يوسف ما عاش في مصر، وبلغ أشده، وآتاه الله الحكمة، وتفسير الأحلام .. وفسر حلمًا للملك، فقربه إليه، وعينه عزيزًا لمصر(٢) . وجاء إخوة يوسف إلى مصر في تجارة ومقايضة .. ومنع عنهم يوسف البيع إلا أن يأتوا بأخٍ لهم من أبيهم (شقيق يوسف)، وجاء وه به. وبتدبير من يوسف، وضع رجاله «صواع الملك» في رحل الشقيق، وأعلنوا أن «الصواع» قد سُرِق، وأنهم لا يأخذون - بهذه الجريرة - إلاَّ منْ وجد الصواع في رحله . وعاد بعض الإخوة إلى الأب الذي قال : ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا﴾ . وآية الحجر - (٨٥) جاءت بعد آيات عن أحد الأنبياء السابقين، الذين كذّبت أقوامهم بالساعة، ونفس الشيء فعله جهال العرب، فيقول الله لنبينا عليه الصلاة والسلام « فا صفح الصفح الجميل» أي اعف عنهم عفوًا حسنًا(٣) .

وعن آيتي الأحزاب، يقول المولى جل وعزّ في أولاهما (٢٨) ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا﴾ . لقد جاء ت الآية على سبيل النصح لأمهات(٤) المؤمنين، فإن كنتن تردن الحياة الدنيا وزخرفها، فاقبلن مني دفع ما يخفف وحشة الطلاق، فيكون متعة لكُنّ، وأطلقكن طلاقًا لا شر ولا إساءة فيه . وفي هذا درس

---

(١) هذا الرجل الذي بذل حياته، وكل قدراته، في سبيل القرآن الكريم، والدين والعلم - له فضل كبير عليّ - يجزيه الله عني كل خير في جنات النعيم . ويوفقني الله إلى أن أكتب شيئًا عنه في سلسلة «رواد الفكر الإسلامي - في العصر الحديث» .

(٢) وهو ما يساوي رئيس الوزراء (أو الوزير الأول) في زماننا .

(٣) إن «الصفح» وكذلك «العفو» - هما في ذاتيهما فضل وحسن . لكن وصف «الصفح» بأنه جميل ووصف العفو بأنه حسن، يعني أن كلا منهما - جاء مضاعفًا ومُبْهرًا .

(٤) ولغيرهن، لكي يعتبرن .

للمؤمنين والمؤمنات، فيجمل بالأزواج إذا طلقن (وأبغض الحلال إلى الله الطلاق) أن يخففوا ما أمكن من وقع هذا الحدث البغيض، فيكونوا أسخياء في المتعة وسائر الحقوق، بل والزيادة - لمن يستطيع - عن الحقوق ! أما الآية (٤٩ - الأحزاب)، فهي قوله سبحانه وتعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهم من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا**﴾ - أي أعطوهن - فوق حقوقهن - شيئًا من المال، وحسب القدرة، للتخفيف من وقع الطلاق عليهن . وفي (الآيات الأولى من سورة المعارج) يقول تعالى : ﴿**سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذى المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة * فاصبر صبرا جميلا * إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا**﴾ (الآيات ١ - ٧) .

كان النضر بن الحارث (كما جاء في بعض كتب التفسير) - وهو من عُتاة كفار قريش - كان قد قال : مستهزئًا ﴿**اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم**﴾[1] - إن العذاب واقع لا محالة، ينزله الله على الكافرين - وما كان من الله، فليس في مقدور أحد، أو آحاد، دفعه ولا تأجيله، ولا تحويله . إنه من الله ذي المعارج، أي رب السمٰوات التي تعرج منها وإليها الملائكة وأرواح[2] الخلائق، «**في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة**»، هذه إشارة لارتفاع هذه المعارج، على سبيل التمثيل والتشبيه، والملائكة والأرواح يصعدون في اليوم الواحد ما لا يستطاع إدراكه في خمسين ألف سنة من سني الدنيا - وصعود «الملائكة وجبريل» هو لتلقي أوامر الله . وفي الآية الخامسة يخاطب المولى سبحانه وتعالى خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام - مواسيًا - أن اصبر على استهزاء المستهزئين بالوعيد بالعذاب، وبيوم القيامة الذي يرونه مستحيلاً، ونراه واقعًا بهم، وقريبًا . والصبر هنا موصوف بالجمال . فلا جزع ولاهلع، ولا ضيق ولا شكوى . إنه - عليه الصلاة والسلام، قد وُوجه من قومه - كما ووجه الأنبياء من قبله - ليس بالاستهزاء والتكذيب فقط، بل، وبالأذى، وبالأذى الكثير، وبالأذى الفاحش، وعلى طول السنين والسنين، ووجه بهذا هو وصحبه . وواجهه بعضهم حتى الموت، لكنهم تحملوا وصبروا حتى جاء هم النصر . والصبر الجميل جميل في الدنيا، وجميل في الآخرة، وهي خير وأبقى .

وأنقل هنا هذه الآيات من سورة الحجر (وهي أواخرها - من ٩٤ - ٩٩) : ﴿**فاصدع[3] بما تؤمر وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك[4] المستهزئين. الذين يجعلون مع الله آلها آخر فسوف يعلمون * ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾ .

---

(١) ٣٢ - الأنفال .
(٢) وقيل : المقصود بالروح جبريل عليه السلام .
(٣) كانت الدعوة قبل ذلك سراً . وبعد نزول هذه الآية (٩٤ - الحجر) صارت جهراً .
(٤) - إنهم رغم تماديهم في الاستهزاء بدعوتك، فإنهم لم ينالوا منك ولا منها، فإيمانك المكين المتين في يومك وغدك، ودنياك وآخرتك - ردٌّ كيدهم إليهم .

سورتا «المزمل والمدثر» من أوائل السور التى نزلت من كتاب الله، على خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام . وفى أول السورة أمر من الله إلى رسوله بقيام قدر كبير من الليل فى الصلاة وتلاوة القرآن . وفى الآية الخامسة يقول المولى سبحانه وتعالى لرسوله: « **إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا** » إنه القرآن الكريم، بما فيه من الأوامر والنواهى والتكاليف الشاقة . إنها، وإن الإلتزام بها، والعض عليها جميعها بالنواجذ، ليست هذه كلها بالأمر السهل . إنها، وإن الدعوة وأعباء ها، تحتاج إلى الكثير من الجهد والصبر والعزم .

وفى الآيات الثامنة وما بعدها يقول تعالى : ﴿ **واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا * رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا * وا صبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا** ﴾ .

كانت الدعوة فى بداياتها، وكانت سراً . وقد أُمِرَ عليه الصلاة والسلام بالصفح، ولفترة امتدت حتى كانت الهجرة (أى لمدة ثلاثة عشر عاماً) . وفى الآية العاشرة من المزمل، يأمر الله نبيه بالصبر على ما يقولون، وماذا كانوا يقولون؟ كانوا يقولون ما لا يقوله إلا جاهل . وقد أُمر عليه الصلاة والسلام وصحبه – وكما قلت، بالصفح والعفو، والهجر، والترك، والإعراض الجميل، المهذب، الحسن، اللين – الذى لا يصدر إلا من نبى أدبه الله، فأحسن تأديبه، ومن الصَّحب الذين تأدبوا بأدبه – عليه، وعليهم الصلاة والسلام .

وبعد : فإنه بالنظر إلى الآيات السبع التى جاء بها لفظ «الجمال» وصفًا نجد أنه جاء وصفًا للصبر ثلاث مرات (١٨ و ٨٣ – يوسف و ٥ – المعارج) ومرتين وصفًا للسراح (الطلاق) (٢٨ و ٢٩ الأحزاب) . ومرةً، وصفًا للصفح (٨٥ – الحجر)، ومرة وصفًا للهجر . إنه الجمال (القرآنى)، إنه الجمال الربانى . وسبحان الله، وتعالى علواً كبيراً .

الفصل الثالث والعشرون

عن اليهود .. في القرآن الكريم

بند (٥٩)

سجَّل التنزيل الحكيم – مما سجل – الكثير عن شبه الجزيرة العربية، وسكانها، وديانات هؤلاء السكان، وتكويناتهم القبائلية، وعاداتهم، وعلاقاتهم مع بعضهم البعض، ومع غيرهم؛ وبالذات، عن الفترة منذ البعثة (وبدء الوحى)، إلى أن اختار الرسول عليه الصلاة والسلام الرفيق الأعلى .

وأول ما يرد على ذهنى تلكم المسئوليات الكبَار، والهموم الثقال، التى حملها على كاهله، وفى داخله . إنها مسئوليات وهموم تنوء بها العصبة ذات القوة ! وإننا جميعًا، نذكر – وعلى سبيل المثال – الدعاء الذى توجه به إلى ربه، عقب تجهم ثقيف له ولدعوته «... إلى من تكلنى؟! إلى بعيد يَتَجَهَّمنى، أم إلى قريب ملكته أمْرى .. إن لم يكن بك على سخط فلا أبالى..!» .

ولأذى قريش له، ولأصحابه، ولبعضهم حتى الموت، أو ما قارب الموت، ومحاصرتهم له ولذويه فى الشعب، ومقاطعتهم لهم وانصراف القبائل عنه، وعن دعوته، ومساومات بعضهم له، حين كان يذهب إليهم فى مواقعهم، وفى مواسم الحج . لكنه، وصحبه، صبروا واحتملوا . وكانوا قد أُمروا بالصفح والعفو . لقد كان عليه الصلاة والسلام بعين الله . ومن أحداث الهجرة، وقدَ كان يُلاَحق هو وصاحبه أبو بكر رضى الله عنه، ولقد لَجَأ إلى الغار . يقول أبوبكر : لو نظروا تحت أقدامهم لرَأَوْنَا، فيطمئنه سيدنا رسول الله بقوله : «ما قولك فى اثنين، الله ثالثهما؟!» . ﴿**إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم**﴾ (٤٠ – التوبة) . وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، ومضى الرسول وصاحبه فى رعاية الله، ونورهُماَ يسبقهما إلى المدينة، واستقبلتهما فتياتها فى يوم أغَرّ من أيام التاريخ بهذا النشيد التى سجلت أصداءه الدنيا كلها، لتستمر هذه الأصداء إلى قيام الساعة .

طلع البدر علينا ∴ من ثَنيَّات الوداع
وجب الشكر علينا ∴ ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ∴ جئتَ بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة ∴ مرحبًا ياخير داع

ويبدأ تاريخ جديد ومجيد للدعوة، وخلال عشر سنوات فقط، مضى الرسول بعدها إلى جوار الله، كان نور الإسلام قد أضاء الجزيرة العربية كلها . ومنذ البداية وشيئًا فشيئًا، استقرت الدعوة، تحميها وتدافع عنها دَوْلة . ومنذ البداية كتب عليه الصلاة والسلام، عهداً، أو وثيقة أنقل بعض سطورها :

بسم الله الرحمن الرحيم

– هذا كتاب من محمد النبى (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش[1] و(أهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

– أنهم أمة واحدة من دون الناس .

– المهاجرون من قريش .. وبنو عوف .. وبنو الحارث (بن الخزرج) .. وبنو ساعدة .. وبنو النجار .. وبنو الأوس .. وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناَصر عليهم .. وأنه لا يجير مشركٌ مالاً لقريش، ولا يحول دونه على مؤمن .. وأنكم مهما اختلفتّم فيه من شىء فإن مردّه إلى الله وإلى محمد .. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم .. وأن بين اليهود والمسلمين النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبرِّ دون الإثم .. وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة . وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .. وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها .. وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .. وأن الله جار لمن برَّ واتقى، ومحمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)[2] .

هذه وثيقة، أو عهد، أو حلف، أو دستور لأهل يثرب . والكل فيه سواء، أيًّا كان الدين، أو الانتماء القبلى . وإذا حدث ظلم أو فساد، فالأمر لله ولرسوله، أى للقانون الإسلامى . إنه تَكَتُّل يثربى، إنه يد واحدة، وكلمة واحدة؛ فى أى موقف، أو حدث يكون بين «أهل يثرب» و«قريش بالذات» .

وأعود إلى موضوع «اليهود» وما جاء عنهم فى القرآن الكريم . إن هذا الذى جاء عنهم كثير كثير، لا ينافسهم فيه إلا المنافقون والمشركون .. ولن يتسع هذا المكان إلا للقليل .

فى أول سورة (من سور القرآن الكريم) – بعد فاتحة الكتاب (سورة البقرة) تأتى الآيات الخمس الأولى، وهى عن المؤمنين المتقين – وهم « **على هدى من ربهم** » ، « **وهم المفلحون** » – ثم تأتى آيات عن المنافقين والكافرين حتى الآية الرابعة والعشرين . وفى الآية الخامسة والعشرين يقول تعالى : **﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأوتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة**

---

(١) يقصد «المهاجرين» .

(٢) عن «مجموعة الوثائق السياسية – للعهد النبوى والخلافة الراشدة» دار الإرشاد – بيروت – الطبعة الثالثة (١٣٨٩هـ – ١٩٦٩م – ص٣٩ وما بعدها) – المؤلف : الدكتور محمد حميد الله .

وهم فيها خالدون﴾ . وفى (الآية ٢٦ - ٢٧) ﴿إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون﴾. وتشير الآيتان (٢٨ - ٢٩) إلى قدرة الله فى خلقه والآيات (٣٠ وما بعدها إلى ٣٩) فى قصة آدم واستكبار إبليس. وتقول الآية (٤٠) ﴿يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وإياى فارهبون * وآمنوا بما انزلت مصدقا لما معكم[1] ولا تكونوا أول كافر به ولاتشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون. ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ . ويستمر السرد عنهم وعن فرعون الذى ذبّح أبناءهم واستحيا نساءهم «وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم» (٤٩) . وفرق الله البحر ونجاهم، وأغرق فرعون ثم يقول تعالى : ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون * ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون﴾ (٥١ - ٥٢) .

وفى (الآية - ٥٥)﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة[2] فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾ . ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى[3] كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ (٥٧) . وتتوالى الآيات فى قصتهم .. وفى الآية (٦٥) : ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين[4]﴾ . وفى الآية (٦٧) : ﴿وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾، وتتوالى أسئلتهم «ما هى؟» «وما لونها؟» ومرة أخرى «ما هى؟» وأخيراً، ذبحوها ﴿وما كادوا[5] يفعلون﴾ ﴿وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون * ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وما الله بغافل عما تعملون * أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون» (الآيات ٧١ - ٧٥) - ويستمر الكتاب العزيز فى كشف خباياهم ﴿والله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ (٧٦ - ٧٧). ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون * وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون﴾ (٧٨ - ٨٠) .

﴿وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون﴾ (٨٣) . «وإذ أخذنا ميثاقكم (فى التوراة) لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من

---

(١) وهو القرآن الكريم .
(٢) تأمل هذا التعنت، والجرأة فى التعنت !
(٣) انظر فى (المن والسلوى) (باب الإعجاز العلمى فى القرآن - وهو من أبواب هذه الدراسة) (ص٣١ هامش٥).
(٤) انظر ما سيأتى عن الآية (١٦٦ - الأعراف) .
(٥) إن الشح بعض خصالهم .

ديار كم .. ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان..» (٨٤ – ٨٥) . **« ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون﴾** (٨٧) .

﴿وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون * ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم(الرسول عليه الصلاة والسلام والقرآن)، **وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾** (٨٨ – ٨٩) . **﴿بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾** (٩٠) . هكذا ساء هم أن يختار الله خاتم النبيين من غيرهم؟ **« وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه ..»** (٩١) . **«ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون...»** (٩٢) . **« وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾** (٩٣) . **﴿أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون﴾** (١٠٠) . (هكذا شأنهم فيما يبرمون من عهود، مع المسلمين وغير المسلمين) **﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ..﴾** (إلى آخر الآية ١٠٢) . ولقد صدّقوا ما تَقَوَّلَه شياطينهم وفَجَرتُهم على ملك سليمان إذ زعموا أن سليمان لم يكن نبيًا ولا رسولاً ينزل عليه الوحى من الله، بل كان مجرد ساحر يستمد العون من سحرة، وأن سحره هذا هو الذى وطد له الملك، وجعله يسيطر على الجن والطير والرياح .. إلى آخره .

وأكتفى بهذا القدر عما جاء عن بنى إسرائيل فى سورة البقرة .. وأنقل ما يلى عن سورة المائدة : **﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين * يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين * قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها..﴾. ﴿.. قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾** (الآيات ٢٠ – ٢٦) . ومن نفس السورة : **﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين وما لنا لانؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين * فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين﴾** (٨٢ – ٨٥) .

ومن سورة الإسراء : **﴿وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا * فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان**

وعدا مفعولا * ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا * إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها * فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا(أى وليهلكوا كل ما غَلَبُوا عليه إهلاكاً شديداً) **عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا﴾** (٤ - ٨) .

إن قصة موسى، وإن قصة بنى إسرائيل، تَردَان كثيراً فى القرآن الكريم . وما قصدت إلا أن يأخذ القارئ عنهم صورة، أو فكرة من أصدق حديث، وهو حديث القرآن «**ومن أصدق من الله حديثا**» (٨٧ - النساء) .

وأعود إلى سيدنا رسول الله، وإلى يثرب التى انتشر فيها نوره، وهو من نور الله . لقد كان دائمًا بعين الله . ومن سنة الله الأخذ بالأسباب . عشر سنوات قضاها بين الهجرة والوفاة لم يغمض له فيها جفن، ولم يُغمد له فيها سيف! إن الرسول، وإن المسلمين، كانوا يرون الكيد يأتيهم من كل جانب، ويباغتهم فى كل وقت من ليل أو نهار . لقد اضطروا إلى سل سيوفهم، ليس للاعتداء، ولكن لرد الاعتداء، وليس للإكراه فى الدين، ولكن لحماية الدعوة، ومنع الفتنة . لقد عاشت المدينة، فى عهد الرسول، وعلى مدى السنين بأذن مرهفة، وعين يقظة، بسبب ما كان يروعها من قطاع الطرق (الذين يحاربون الله ورسوله)، ومن غيرهم، مما جعلهم لا يأوون إلى فراشهم، إلاّ وسيوفهم كأقرب ما تكون إلى أيديهم . عن ثابت عن أنس قال : «كان النبى صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس . ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قِبَل الصوت، فاستقبلهم النبى صلى الله عليه وسلم، وكان قد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول :«لن تُراعوا، لن تراعُوا، وهو على فرس لأبى طلحة، ليس عليه سرج، وفى عنقه سيف . فقال : قد وجدته بحراً، أو إنه لبحر!»(١).

لقد قلت : إن الكيد كان يحيط يثرب من كل جانب . ولنتذكر - على سبيل المثال - غزوة الأحزاب . لقد هبَّ كل العرب وأحاطوا بيثرب، ليقضوا على المسلمين والإسلام قضاءًا تامًا . وكان الذين أهاجوا العرب وحرضوهم على ذلك هم اليهود وقريش . وفى يوم الأحزاب، يقول تعالى (الآية ٩ وما بعدها من سورة الأحزاب) **﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا * إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا * وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا * وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا * ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها**(٢) **وما تلبثوا بها إلا يسيرا * ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد**

---

(١) انظر : «غزوات الرسول وسراياه - دروس مستفادة» (١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨م ص١٤ وما بعدها) المؤلف .

(٢) ولو دخلت الأحزاب المدينة من كل جوانبها، ثم طلب من هؤلاء المنافقين الرجوع عن الإسلام، ومقاتلة المسلمين لفعلوا .

الله مسئولا﴾ (٩ - ١٥)... **﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا * أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت[1] فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا * يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا. ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله و صدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما﴾** (١٨ - ٢٢) .

﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا * ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما * ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا * وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صيا صيهم[2] وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا * وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها وكان الله على كل شىء قديرا﴾ (٢٣ - ٢٧) .

إذا استرجعنا ما جاء فى الوثيقة التى كتبها الرسول، وهى عهد وميثاق بينه (والمؤمنين المسلمين معه) من جهة، وبين الآخرين، ومنهم اليهود من جهة أخرى، وتذكرنا ما جاء فى القرآن الكريم، مما نقلنا بعضه فيما سبق - أن نقض المواثيق والعهود شىء متأصل فيهم (أى اليهود) - تبينا ما كان من خيانتهم عندما شاركوا قريشاً فى حشد كل العرب (أى الأحزاب) للكيد للمسلمين والعمل على استئصالهم . ولكن الله (القوى العزيز) رد كيدهم إلى نحورهم : عادت قريش والأحزاب بغيظهم لم ينالوا خيراً « **وكفى الله المؤمنين القتال**» وخيب الله المنافقين واليهود « **ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين**[3] » ولم يمهلهم المولى - جل وعز أى اليهود فاقتص منهم، جزاء خيانتهم، فهو - سبحانه - الذى أنزل «**الذين ظاهروهم**[4] **من أهل الكتاب من صيا صيهم وقذف فى قلوبهم الرعب**..» (إلى آخر الآيتين ٢٦ - ٢٧) .

هذا،وفى صحيح البخارى جـ٥ ص١٤٢ وما بعدها (كتاب الشعب - دار ومطابع الشعب) . بعد ذكر دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم على الأحزاب، وبعد عبارة «وهزم الأحزاب وحده» - وفى نفس السطر «باب مرجع النبى صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومَخْرَجِهِ إلى

---

(١) من الإعجاز العلمى للقرآن : دوران مقلة العين عند اقتراب الموت وعند الخوف، وسبب ذلك أن شدة الخوف تذهب الوعى فيبطل الإدراك فتختل المراكز العصبية اللاإرادية فى منطقة مهاد المخ فيصير الخائف شبيهاً بحال الذى يُغشى عَليه من الموت، إذ تدور مقلته وتتسع حدقته وتثبت على اتساعها حتى الموت .

(٢) من صياصيهم = من قلاعهم التى يتحصنون بها؛ و«أهل الكتاب» فى الآية هم يهود بنى قريظة .

(٣) ٥٤ - آل عمران .

(٤) أى ظاهروا الأحزاب - إنهم الأعداء من الداخل، إنهم «الطابور الخامس» والإعدام هو جزاؤهم حتى اليوم .

بنى قريظة ومحاصرته إياهم . حدثنى عبد الله بن أبى شيبة .. عن .. عن .. عن .. عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما رجع صلى الله عليه وسلم من الخندق ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل عليه السلام فقال : قد وضعت السلاح والله ما وضعناه فاخرج إليهم! قال : فإلى أين؟ قال : ها هنا وأشار إلى بنى قريظة، فخرج صلى الله عليه وسلم إليهم .. إلى آخره، وهذا يدعونى إلى القول بأن الخروج إلى بنى قريظة كان تتمةً لغزوة الخندق (الأحزاب)، وكان ذلك عن طريق الوحى (الاقتصاص الفورى من الخونة) .

لقد كان صلى الله عليه وسلم ... «أشجع الناس» (كما جاء فى حديث صحيح سبق ذكره فى هذا البند) الذى أختمه بهاتين الآيتين الكريمتين « **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا**» (٢١ - الأحــزاب) . « **إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما**» (٥٦ - من نفس السورة) .

عن اليهود - أيضاً

قال تعالى : ﴿**واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون** ٭(١٦٣) **وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون** ٭ (١٦٤) **فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون** ٭(١٦٥) **فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين**[(١)]﴾ (١٦٦) .

أقول : فى يثرب، وبالقرب منها، وغير بعيد عنها، وقبل مقدم الرسول إليها، كانت تقيم قبائل من اليهود، هى بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع[(٢)] . وكانت سياسة اليهود عامة تقوم على الإيقاع بين القبائل العربية، وخاصة الأوس والخزرج، وذلك بتذكيرهم بالحروب التى كانت بينهم، ومنها «يوم بعاث» (حرب بعاث) حتى كادت القبيلتان تفنى إحداهما الأخرى .

وقد مضى أن أول ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعد الهجرة، هو الوثيقة التى آخت بين الجميع من مسلمين ويهود ومشركين من سكان يثرب، لقد كان القصد هو توحيدهم ضد عدو يتوقع منه الاعتداء على يثرب فى أى وقت، وهم قريش . لم يحترم اليهود العهد، ولم يكونوا جيراناً معاونين ولا محايدين ولا مسالمين . وإنما كانوا غادرين . ونزلت آيات الأعراف السابق ذكرها لتطلع الرسول صلى الله عليه وسلم على شيء غير حميد (بل أسود) من يهود هُمْ أسلاف معاصريه . لقد كان هؤلاء (المعاصرون)، يعرفون من تاريخهم وكتبهم ما جاء فى تلك الآيات، لكنهم كانوا كعاداتهم يكتمونه عن غيرهم . لقد رانَ الشر والغرور والحقد

(١) الآيات ١٦٣ - إلى ١٦٦ - الأعراف .

(٢) هذه هى القبائل، أو هى أشهرها . وانظر كتاب «قيام الدولة العربية الإسلامية - فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم» (دكتور محمد جمال الدين سرور - أستاذ التاريخ الإسلامى - كلية الآداب - جامعة القاهرة - الناشر - دار الفكر العربى) (الطبعة الخامسة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦م ص١٤٢ وما بعدها) .

على قلوبهم . وكانوا يعتقدون فى التميز على[1] سواهم، بل وفى تميز بعضهم[2] عن بعض، وعلى لسانهم، قال تعالى : «ليس علينا فى الأميين سبيل»[3] .

لو كانوا بريئين مما ذكرت من غرور وحقد، لآمنوا برسولنا عليه الصلاة والسلام، وهو «النبى الأمى»[4]، وهو الذى نزل فيه قوله تعالى : ﴿**وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون**[5]﴾ .

إن آيات الأعراف لم يكن ليعلم بمضمونها النبى عليه الصلاة والسلام لولا نزول الوحى بها عليه، لكنهم معاندون وهم الذين نزل فيهم قوله تعالى : ﴿**وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم**﴾[6] .

وأنتقل إلى آيات الأعراف السابقة الذكر – وهى واضحة فى أن من نزلت فيهم كانوا طوائف ثلاثا : طائفة العصاة، وطائفة الهداة الدعاة، وطائفة ثالثة وقفت موقفًا سلبيًا إزاء الطائفتين الأخريين . إن يوم السبت هو يوم مقدس عند اليهود، إنه يوم أجازتهم الأسبوعية من العمل، ومن أوليات هذا التقديس ألا يفعلوا شيئًا حرمه ربهم عليهم، ومن ذلك الصيد بإطلاق .

كانت مدينتهم على البحر، وكانت الحيتان والأسماك تأتيهم، وعلى أدنى ما تكون منهم، وفى متناول أيديهم يوم السبت، كانت تأتى شرعًا، ظاهرة، رافعة رءوسها فوق الماء، وفى أيام الحلّ أى فيما عدا السبت لا تأتى . والاحتيال من العصاة والفسقة على النصوص موجود فى كل زمان ومكان، إن الإيمان لا تحرسه النصوص، ولا سيف السلطان، وإنما التقوى والخوف من الله. احتال العصاة، وصنعوا أحواضًا متصلة بمياه البحر، وساقوا إليها السمك، وأقاموا عليها الحواجز – قبل يوم السبت، وأخذوها (أى الأسماك) يوم الأحد، أو بعد السبت .

هذا صنيع العصاة الذى أثار عليهم الدعاة . وقالت الطائفة الثالثة : «**لم تعظون قوما الله مهلكهم**» فى الدنيا ومعذبهم عذابًا شديدًا فى الآخرة؟ قالوا : إنما نفعل حتى لا نكون قد قصرنا فيما أوجبه الله علينا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ثم إننا فعلنا راجين أن يرجع العصاة عن غيهم وبغيهم! فلما اشتد العصاة، ولم يبالوا بما نُهوا عنه جعلهم الله قردة خاسئين، حقيرين مدحورين مطرودين من رحمة الله . إن لله سننًا وقوانين ونواميس كونية مطردة ولكنها جميعها من خلق الله، ولله، العلي القدير وحده، أن يأتى بالمعجزات، وهى الأشياء الخارقة للنواميس القائمة . فله أن يجعلهم قردة على الحقيقة، أو على المجاز، فيحرمهم مما ميز به الإنسان على الحيوان من عقل ووعى وبصيرة! وهو على ما يشاء قدير .

---

(١) انظر للمؤلف : «الإسلام وحقوق الإنسان – دراسة مقارنة» (طبعة ثانية – الإسلام والعنصرية – ص٢١٧ وما بعدها) .

(٢) – انظر – على سبيل المثال – الآية ٢٤٧ من سورة البقرة، وما جاء عنها فى كتب التفسير .

(٣) ٧٥ – آل عمران . (٤) ١٥٧ – ١٥٨ – الأعراف .

(٥) ٤٨ – العنكبوت . (٦) إلى آخر الآية ٩١ – البقرة .

هو .. وهم !

بند (٦٠)

أما هو «فالدكتور مراد ويلفريد هوفمان» سفير ألمانيا (فَتْرةً مَا) في المغرب . وقد أثار إسلامُه «قدراً كبيراً من الاهتمام – إلى جانب الحرج فى الغرب، لدرجة أن بعض المسئولين كانوا يخفون – أحياناً – حقيقة إسلامه . وقد جاء اعتناقه للإسلام عام ١٩٨٠ تتويجاً لعملية متصلة من الدراسة والتفكير والمقارنة العقلانية بين حضارة الغرب وإيديولوچياته وقيمه، وبين الإسلام وفلسفته وإنجازاته على مستوى الفرد والمجتمع . وتتراءى فى كتابه «يوميات ألمانى مسلم» (الذى ظهر عام ١٩٩٢م) وترجمه – د. عباس رشدى العمارى – ونشره مركز الأهرام للترجمة والنشر (١٤١٤ هـ – ١٩٩٣م) – تتراءى فيه مسيرته التى أوصلته للإيمان بدين الله الحنيف . وهو ليس مجرد يوميات أو خواطر، وإنما تسجيل للمواجهات التى قادته للإسلام وزادته إيماناً به .

والمؤلِّف حاصل على الماجستير فى القانون من جامعة هارفارد، وعلى الدكتوراه – فيه – من جامعة ميونيخ – عمل بالخارجية الألمانية منذ ١٩٦١ . وتولى مناصب فى بعثاتها بالجزائر وبرن وباريس وبروكسل وڤيينا وبلجراد، وله عدة مؤلفات : منها : «نهج فلسفى لتناول الإسلام» (١٩٨٣م) و«دور الفلسفة الإسلامية» (١٩٨٥) و«يوميات ألمانى مسلم» السابق ذكره والذى نقلت عن الصفحة الأخيرة من غلافه ما تقدم عن مؤهلاته ومناصبه ومؤلفاته .

هذا «هو» – أما «هم» فأعداء الإسلام – من غير المسلمين – فى الشرق والغرب والذين ما زالوا يقومون بحملات إعلامية مزيفة وشرسة – تتعاون فيها وتتآمر (الصليبية والصهيونية). ويضاف إلى هؤلاء وهؤلاء «العَلْمَانيون»(١) ممن يحملون أسماء إسلامية، وكثير منهم نشأوا فى حجر الشيوعية، والشيوعية إلحادية . وهم جميعاً ضد الفكر الإسلامى والدولة الإسلامية . وما حدث ويحدث فى الجزائر، وحتى اليوم معروف . إن منهم من يعادى الفكر الإسلامى عن جهل، ومنهم من يعاديه عن قصد . ورغم خطورة هؤلاء (وهم الطابور الخامس للأعداء) – فإنهم – وما ينشرون زَبَدٌ سيذهب « **جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض**» (١٧ – الرعد). « **والله متم نوره ولو كره الكافرون**» (٨ – الصف) .

---

(١) بالصفحة الأخيرة من أهرام ١٩٩٤/٥/٧ تحت عنوان «أخبار الصباح» أن الجالية العربية ببرلين تستضيف مساء اليوم الكاتب الروائى بهاء طاهر فى ندوة حول كتابيه «أبناء رفاعة» و«الثقافة والحرية» وقد قرأت كتابه «أبناء رفاعة» ولاحظت أن فيهم من لا ينبغى نسبته إلى مدرسة رفاعة الذى أكتب عنه كأحد رواد الفكر الإسلامى فى العصر الحديث (الكتاب معد للطبع بإذن الله) .

إنه يمكن تلخيص الإسلام فى كلمتين اثنتين : إنه «مكارم الأخلاق» فهل يعادى «مكارم الأخلاق» إلا جهول كفور؟! إن «الحرية» و«الشورى» و«العدل» (بكل صوره) «والمساواة فى الآدمية» و«تشجيع الحوافز» والإنتاج الذى يجمع بين الوفرة والجودة، والتنافس فى العمل الصالح، والتواضع فى الاستهلاك، والاعتدال فى كل الأحوال، كل هذا من الفطرة – والإسلام دين الفطرة .

ومن واجبنا أن نلاحظ أن اليابان – وهى بصفة عامة وثنية – تحتل – باقتصادها المتفوق – مكان القمة . وهذا يرجع لأسباب : منها حسن العلاقة[1] بين العامل وصاحب العمل، وحب اليابانى لآلته، وامتيازه فى دقته، وصبره، ورضاه وإن طالت ساعات عمله .. وبفضل هذا العامل الراضى عن عمله وعن بلده تفوقت اليابان اقتصاديا – كما قلت. وبالتالى سياسيًا ودوليًا . وهى الآن – وقد خرجت من الحرب العالمية الثانية مهزومة – إحدى الدول الأغنى والأقوى . لقد ظلمتنا على مدى القرون – ظروف مرت بنا . ونحن – حتى اليوم – نعانى.

يقول تعالى : ﴿**قال موسى لقومه استعينوا بالله وا صبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين**﴾[2] . ويقول : ﴿**ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون**﴾[3] .

جاء فى القرطبى (جـ٧ ص٢٦٣) (عن الآية الأُلى) أطمعهم فى أن يورثهم الله أرض مصر، «**والعاقبة للمتقين**» أى الجنة لمن اتقى . وعاقبة كل شىء آخره، ولكنها إذا أطلقت فقيل : العاقبة لفلان، فُهِمَ منه – فى العرف – الخير . (هذا عن الآية ٢٨ – الأعراف) . وعن (١٠٥ – الأنبياء) (جـ١١ ص٣٤٩) –أن «الأرض» – أرض الجنة « **يرثها عبادى الصالحون**» أحسن ما قيل فيه أنه يراد بها أرض الجنة .. لأن الأرض فى الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم .

عن (١٢٨ – الأعراف) (فى تفسير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) : إن الأرض فى قبضة قدرة الله وملكه، يجعلها ميراثًا لمن يشاء من عباده لا لفرعون . والعاقبة الحسنة للمتقين المعتصمين به، المستمسكين بأحكامه .

وعن الآية (١٠٥ – الأنبياء) – أن الأرض يرثها عبادى الصالحون لعمارتها، وتيسير أسباب الحياة الطيبة فيها[4] .

---

(١) إنها تشبه العلاقة بين أفراد الأسرة الواحدة، فرب العمل يعايش العامل، ويشاركه فى أفراحه وأحزانه، ويحس بكامل مسئوليته نحوه ونحو أسرته . إنه معه فى كل مواقفه . إنه «منه» و«له» . وهذه كلها أخلاق إسلامية . يعمل بها اليابانى ولا نعمل بها نحن، لأننا مسلمون – فى معظمنا – بالاسم فقط .

(٢) ١٢٨ – الأعراف .

(٣) ١٠٥ – الأنبياء .

(٤) أقول : ولو كانوا وثنيين كاليابانيين . ولابن تيمية أقوال مشهورة، منها قوله : إن الله ينصر الدولة العادلة، ولو كانت كافرة، ولا ينصر الدولة المسلمة إذا كانت ظالمة . وهى لا تكون قط ظالمة إذا كانت مسلمة حقًا وصدقًا (انظر كتابه الحسبة فى الإسلام – المكتبة العلمية بالمدينة المنورة – ص٨٢) .

وهذه آيات من سورة الإسراء : يقول تعالى : **﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا. انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾** (١٨ - إلى - ٢١ الإسراء) .

والآية ٢٠ واضحة . فالمولى - جل وعزّ - يقول فيها : إننا نمد الفريقين (من يريد العاجلة ومن يريد الآخرة) - نمدهم بالعطاء في الدنيا، إذا اتخذوا الأسباب . وما كان العطاء في الدنيا ممنوعًا من أحد، مؤمنًا كان أم كافرًا - ما داموا قد اتخذوا الأسباب .

إنّ الله قد أمرنا - نحن المسلمين (ونحن مؤمنون) بأن نأخذ بالأسباب ثم نترك الباقي على الله - وهذا هو معنى التوكل عليه . فالسماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة . فإذا لم نأخذ بالأسباب، (وهذا هو التواكل الذي نهانا الله والرسول عنه) فلا نلومنّ إلا أنفسنا ..!

وفيما يلي أنقل شيئًا عن كتاب الدكتور مراد المعنون «يوميات ألماني مسلم» (ص١٩٢، ١٩٣) ، وعنوان الفقرة التي أنقلها «مقابلة محمد أسد» واليومية مؤرخة (لشبونة[١] ١٩٨٥/٩/٢١) قال : كنّا[٢] (أي د. مراد) ننتظر بشوق «محمد أسد» في الفندق، فجاء وزوجته الأمريكية بولا حميده - كان يقود سيارته بنفسه وهو في سن الخامسة والثمانين، وتحدثنا أولاً بالألمانية - اللغة التي كان يتحدث بها في شبابه[٣] (قبل إسلامه) - ثم الإنجليزية. ومع ذلك فقد كان على استعداد أيضًا لأن يشارك في محادثته بالعربية، والفارسية، والفرنسية، والبرتغالية، والأسبانية، والأردية .

ولقد طرحت عليه أسئلة كثيرة (بالقدر الذي لا يخرج بي عن حدود اللياقة) لكي أعرف المزيد عن خلفية إنجازاته العلمية والأدبية الرائعة في سبيل الإسلام، والتي حققها خلال معظم هذا القرن . وذكرته بالأمنية التي أعرب عنها في الثلاثينات، وهي أن يشغل الإسلام الفراغ الناجم عن رحيل الإلحاد الغربي والشيوعي عن مسرح الأحداث بسبب إفلاسه الروحاني . ولقد تحققت نبوءته جزئيًا حيث يأخذ النظامان في التداعي . ولكن خلافًا لما جاء في نبوءته فإنه لم يتم الاعتراف بالإسلام كبديل . ذلك أنه ما من دولة إسلامية قد استطاعت أن تطور نفسها بطريقة تجعل الغرب ينظر إليها كنموذج مضاد مقنع وجذاب . بل الأمر على النقيض من ذلك. ولكن «أسد» وبالرغم من تقدم سنه لم يغرق نفسه في أحلام اليقظة، ولا استرسل في اجترار المرارة . كانت عيناه يقظتين ومدققتين . وكانت تحليلاته عميقة ومنطقية كدأبه دائمًا . وإذا كان ثمة شيء متضارب في هذا السيد الرقيق الصوت ذي اللحية الصغيرة، فهو التناقض الظاهر بين إسهامه الهائل في إحياء الإسلام من ناحية، وبين تواضعه الشديد إلى حد إنكار الذات، وطيبته المفرطة من ناحية أخرى .

---

(١) عاصمة البرتغال .
(٢) استخدم لفظ «كنا» - وأرجح أنه كان معه زوجته، وهي تركية مسلمة .
(٣) بحكم البيئة التي نشأ فيها - وهو من أصل يهودي - اشتغل بالصحافة، وأسلم منذ وقت مبكر .

وليس ثمة أوهام تساور «أسد» فى أن هناك الكثير جداً مما يجب عمله حتى قبل أن تصبح الإنسانية مستعدة لقبول تحقيق تقدم إستراتيجى للإسلام . وقال : إنه يَنْتَظِرُ منى أن أتحمل شطراً من هذه المسئولية «إن الله مع الصابرين» (١٥٣ - البقرة) . وليس هناكَ على الله مستحيل!

أقول : لقد نقلت الفقرة كاملة وطبق الأصل، للإشادة بالرجلين جميعًا . وإذا كنت قد ذكرت شيئًا عن السيد الدكتور مراد، فإنى أعرف عن «أسد» الكثير، وقد قرأت له، ونقلت عنه فى كثير من كتبى، عندى من مؤلفاته، كتابه الكبير الحجم، المتع العرض، الصادق اللهجة «الطريق إلى مكة» (أى الطريق إلى الإسلام) وكتابه «الإسلام فى مفترق الطرق» وكتابه «منهاج الإسلام فى الحكم»، وكلها تتضح فيها الريادة والسبق، وبعد النظر ودقة التقدير . إنها إنتاج المسلم (بالحق والصدق)، المتمرس الدائب العمل على خدمة الفكر الإسلامى، بما يجمع بين الإخلاص، ومتابعة المسيرة، وسلامة القصد وسموه مع عدم نسيان «روح العصر» . لقد عاش فترة غير قصيرة مع الملك عبد العزيز آل سعود وأبنائه ورجاله . وعند قيام دولة باكستان دُعِىَ للمشاركة فى وضع دستور إسلامى لها . وكتابه «منهاج الإسلام فى الحكم» هو ثمرة هذه المشاركة .

وأنوه بما يأتى مما تضمنته الفقرة :

لقد تنبأ محمد أسد فى الثلاثينات، أن الإسلام سيحل محل الإلحاد الغربى والشيوعى خلال عقود من الزمان . وتوقعاتى أن هذا - كما أرجو - سيتم خلال أربعة أجيال . ومائة سنة - أو (١٥٠ سنة) ليست طويلة لإحداث هذا التغيير الكبير . إن هذا آت بإذن الله والله مع الصابرين . لقد شارك محمد أسد - كما قلت فى إعداد دستور إسلامى لباكستان . ومن العجب والأسف أن باكستان الإسلامية ظلت تحت حكم (العسكريين) معظم الوقت منذ استقلالها حتى الآن . بينما جارتها الوثنية (الهند) رغم تعدد الطبقات والديانات واللغات، وضخامة عدد السكان، قد اختارت النظام الديمقراطى الغربى، وآثرت النهج «البرلمانى» (وليس الرئاسى) . وفى النظام البرلمانى يكون الرئيس مجرد رمز . إن النظام الديمقراطى بصورتيه مما يحقق الشورى الإسلامية التى تردُّ الحكم إلى الأمة (أو الشعب) . ولى كتاب فى هذا بعنوان «الإسلام والدولة» ولن يتحقق الأمل (أمل محمد أسد ومراد هوفمان وأملى أيضاً) إلا حين تحكم الشعوب الإسلامية نفسها(١)، وليس المغامرون من العسكريين وغيرهم الذين يفرضون أنفسهم فرضاً على الشعوب . يومئذ، وبالتدرج، وبالالتزام بالكتاب والسنة مع عدم إهمال اتجاهات العصر، نكون قد بدأنا السير على الطريق الصحيح . وسيستغرق هذا جيلاً كما أرجو وفى ظل الحكم الإسلامى الذى أرجو أن يقوم على ما قام عليه فى الحكومة الإسلامية الأولى - حكم الرسول والراشدين - الذى قام على العطاء والتضحية(٢)، وخلال ثلاثة أجيال لا نهمل الدعوة إلى الإسلام والتعريف به فى كل مكان، وبجميع الوسائل المتاحة

---

(١) وهذه هى البداية الصحيحة على الطريق الصحيح إلى الهدف المنشود .

(٢) وليس التنافس والتناحر والحرب المدمرة، من أجل الدنيا والسلطة كما يجرى فى أفغانستان الحبيبة . لقد انتصر المجاهدون على إحدى الدولتين الأعظم (الاتحاد السوفيتى) وهذا ما سماه سيدنا رسول الله «الجهاد الأصغر» أما «جهاد النفس» الذى سماه الرسول عليه الصلاة والسلام «الجهاد الأكبر» فقد فشلوا فيه .

الآن . وأساسها جميعها «الحكمة والموعظة الحسنة» . إذا حققنا ذلك بفضل الله، فسيجد الغرب والشرق فينا، وفي الإسلام الذي يجسده حكامنا ودعاتنا، ونجسده - في مجموعنا وسلوكنا تجسيداً - سيجد الكل فيما نلتزمه من مكارم الأخلاق في المعاملات والعلاقات الداخلية والخارجية على السواء - النموذج المقنع الجذاب . ومرة، ومرات علينا بالصبر والثقة في الله وفي الغد . وحملة هذه الرسالة، والمسئولون عنها كذلك هم الرواد، من أمثال محمد أسد ومراد وغيرهما، وهم ليسوا قليلين . وعلى المسلمين في المشارق والمغارب، وعلى علمائهم ومفكريهم وقادتهم بالذات أن يوثقوا الصلة معهم، متعاونين جميعاً على نشر الدعوة إلى الإسلام في سائر الأرجاء، وخاصة في أوروبا وأمريكا - لابد من إنشاء «مراكز ومؤسسات» لذلك في العواصم الكبرى، يشرف عليها جميعها «مجلس أعلى» . ووسائل الإعلام قد تطورت كثيراً، ويجب استخدامها على خير وجه لأداء هذه الرسالة الكبرى . وبلاد العرب والمسلمين فيها المال، وفيها الرجال . وإذا صدق العزم وضح السبيل .

الأستاذ/ أحمد بهجت
يقدم لقرائه «كتاب الإسلام كبديل»
لصاحبه دكتور مراد هوفمان

بند (٦١)

في جريدة الأهرام، وبتواريخ ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨ يونيو ١٩٩٣ - كتب الأستاذ الفاضل أحمد بهجت، في بابه «صندوق الدنيا» عن كتاب «الإسلام كبديل» وعن صاحبه دكتور مراد هوفمان والأستاذ بهجت صادق اللهجة، وكلماته تشع النور (نور الإخلاص) - دائماً في صدر الكلمة الأولى (وهي بعنوان - الإسلام كبديل) قال : حين ظهر الكتاب في ألمانيا أحدث ضجة بين المثقفين والسياسيين، فقد كان مؤلفه سفيراً في وزارة الخارجية الألمانية، وها هو السفير يعلن إسلامه، ولا يكتفي بذلك، وإنما يؤلف كتاباً يحمل اسم «الإسلام كبديل» وهذه الجملة تشبه قولنا في الشرق «الإسلام هو الحل» . وأثارت الصحف الألمانية - باتجاهاتها المختلفة - عاصفة ضد السفير الذي كان يسمى «فلفريد هوفمان» فأصبح «مراد هوفمان» ومن عناوين هذه الصحف : «دبلوماسي ألماني يقوم بعمل دعاية للقرآن» . «سفير ألماني يصرح بجواز ضرب الزوجات»(١) .

وبدأت العاصفة واندلعت من التليفزيون الألماني الذي ظهر فيه السفير، وتحدث عن كتابه قبل ظهوره . وشنّت نائبة رئيس الحزب الاشتراكي الألماني حملة ضد السفير المسلم . ومما قالته : إن هذا الكتاب مرافعة يشيب لها الولدان ضد العالم الغربي الذي يدفع لهذا السفير ٢٠ ألف مارك شهرياً، واستعدت وزير الخارجية الألماني على الرجل، وألحت إلى طلب عزله . وانطلقت الصحف على الرجُل، كما تنطلق كلاب الحراسة على غريب دخل حديقة صاحبها . وأخذت الصحف تتناول بالتجريح شخص السفير، وكذلك زوجته التركية المسلمة، وقالوا عنها :

---

(١) وتعمد الإثارة في العناوين واضح .

إنها كانت تعمل عارضة أزياء، وأنها شاركت في فيلم جيمس بوند «قبلات حب في موسكو» . وقالوا عن السفير ما قاله مالك في الخمر . قالوا : إنه صديق الأئمة والأصوليين، وأنه هو نفسه أصولي . وهذه الكلمة سب علني في أوروبا، لأنها تحمل معنى التخلف والجهل والهمجية والإرهاب . ووقع هذا قبل أن يظهر الكتاب في السوق، أي قبل أن يقرأه الذين هاجموه . إن الذي كان منهم قد كان بسبب عنوان الكتاب، ولأنه دفاع عن الإسلام .

ومما جاء في كلمة الأستاذ بهجت المؤرخة ١٩٩٣/٦/٢٦ وهي بذات العنوان - الإسلام كبديل - أن السفير الألماني أسلم قبل ١٣ سنة، وأصبح منذ ذاك الوقت مسلماً سنيّاً، وحمل اسم «مراد» .

وفي سنة ١٩٨٥ نشر السفير كتابه «يوميات مسلم ألماني»(١) . وفي الفترة التي كان فيها مديراً لمكتب استعلامات حلف الأطلنطي، وأثناء حوار مع زملائه قال : إن الحل الوحيد للخروج من الهاوية التي سقط فيها الغرب هو الدخول في الإسلام .

ويعيب الدكتور مراد على الأوروبيين الإسراف في الاستهلاك، والإباحية، والجنس الفاحش والإجهاض، وتأليه الإحصائيات . أشار الرجل إلى أن أوروبا تسير في طريق مسدود . ولاحقته صحفية ألمانية بالنقد اللاذع عن طريق الرسم الكاريكاتيري . وفي حوار صحفي سألته : هل أنت معجب بنمو الحركة الإسلامية في ألمانيا؟ فأجاب : إني أعتقد أن حركة تجديد الإسلام ستكون من أوروبا، في القرن القادم . وحاولت إحراجه، وسألته : ما قولك في الآية القرآنية التي تسمح للرجل بضرب زوجته ؟ أجاب : هذا حل مشروع إذا أدى إلى صيانة الحياة الزوجية . وقامت قيامة الغرب . وقالوا : سفير ألماني يدعو لضرب الزوجات .

في الكلمة الثالثة للأستاذ بهجت، وهي بعنوان «الرجل والكتاب» - قال: منذ عام تقريباً(٢) أصدرت الخارجية الألمانية بياناً بشأن السفير الألماني بالمغرب فلفريد هوفمان . جاء فيه أن الوزارة لا ترى أي داع لاستدعائه من منصبه، وذلك بعد التقصي، ورداً على من طالبوا بإبعاده. وكان ممثلو الحزب الاشتراكي الألماني وبعض ممثلي الكنيسة الألمانية البروتستانتية قد طالبوا بذلك : ١ - لأنه صرح أن القرآن عنده أهم من القانون الأساسي الألماني (الدستور) إذا تحتم الخيار بينهما. ٢ - حبَّذَ السفير دخول الشعب الألماني في الإسلام . ولما طُلب من الخارجية أن تتخذ موقفاً إزاءه أفادت : أسلم السفير عام ١٩٨٠ - وله الحق في ذلك كأي مواطن آخر . أما كتابه «الإسلام هو الحل»، فليس فيه، ولا في أقوال السفير خروج على واجبه الوظيفي، ولا على الدستور الألماني . والكتاب المذكور مرافعة متميزة للدفاع عن الإسلام، واعتباره المنقذ الوحيد للغرب عامة . كل هذا في مواجهة هذا الغرب الذي يعتبر الإسلام (بعد سقوط الشيوعية) هو العدو الوحيد الذي يجب توجيه الضربات إليه . إن الإسلام (كما يراه السفير - وكل من عرف الإسلام) هو المنقذ الوحيد للبشر .

---

(١) الذي ظهر في الترجمة العربية بعنوان «يوميات ألماني مسلم» .

(٢) الكلمة مؤرخة ١٩٩٣/٦/٢٧، أي في شهر ٦ عام ١٩٩٢ صدر البيان .

جاء فى صدر الكلمة الرابعة للأستاذ بهجت، وهى بعنوان «الجهل هو السبب» المثل المشهور «الناس أعداء ما جهلوا» – وقائل المثل هوالإمام على، وقد بدأت به الدكتورة «أنامارى شميل» مقدمتها لكتاب الدكتور مراد «الإسلام هو البديل» وبسبب هذا الجهل بالإسلام كان موقف الغرب من الاسلام والمسلمين .

«وتعود بنا المستشرقة أنا مارى شميل إلى لوحات فنانى القرن التاسع عشر الغربيين الذين كانوا شغوفين بتصوير «المحمديين» «إما برابرة همجيين شاهرى السيوف، وإما مترفين مدمنين على مجالس اللهو والحسان» .

نحن أمام ميراث قديم من العداء النابع عن الجهل (والميول العدوانية المسيطرة، والأطماع التى ما زالت ممتدة حتى اليوم) . وصورة «المسلم» عندهم اليوم صورة فقيه ملتح متزمت أو صورة إرهابى لا وازع له . وتقول المستشرقة المنصفة والمطلعة إن مصطلح «الحرب المقدسة» الذى يلصقه الغرب بالمسلمين زوراً إنما هو من مخلفات الحرب الصليبية الغادرة. أما الجهاد فى الإسلام فهو لرد العدوان، وهو يعنى أيضًا «جهاد النفس» والعمل الدائب من أجل مطلب سام كطلب العلم ونحو ذلك . إن الأحكام التى يطلقها الغرب على الإسلام والمسلمين أحكام ظالمة مصدرها سوء الفهم أو سوء القصد . وفى كتاب الأستاذ مراد تصحيح لكل ما يثيره أعداء الإسلام والمسلمين، وتحليل واع ومخلص وصادق ومستنير – للإسلام على حقيقته . والإسلام برىء كل البراءة من الإرهاب والعنف، وكل الشرور التى تجسدها أوهام الأعداء وأحقادهم . ولا ننسى دور الصهيونية فى الغرب عامة، وأمريكا خاصة، فتشويه صور الإسلام والمسلمين هدف أساسى فى كل أنشطتهم الإعلامية فى الإذاعة والصحف وغيرهما .

لولا الوحى لظللنا عُمْيَانًا

بند (٦٣)

بعد أن أشار الدكتور مراد فى كتابه «يوميات ألمانى مسلم» إلى انصرافه فى فترة ما إلى قراءة بعض الأعمال الكلاسيكية(١) فى الفلسفة الإسلامية فيما بين القرنين العاشر والثالث عشر مثل كتاب «تهافت التهافت» لابن رشد الذى لجأ إلى أسلوب التهوين من شأن خصمه اللدود العلامة الشهير «أبو حامد الغزالى» . «وتهافت التهافت» رد على كتاب الغزالى «تهافت الفلاسفة». تناول ابن رشد هذا الكتاب الأخير بالتفنيد فقرة فقرة . وكان الفلاسفة المسلمون قد انزلقوا إلى نفس شَرَك التساؤلات التى حاكها فلاسفة الإغريق من أمثال أفلاطون وأرسطو وقصروا بحثهم على «قضايا سرمدية الكون» (أو خلقه)، والعلاقة بين الموجود والمحتمل، والروح..إلخ . انبهر المفكرون المسلمون بعلم الكونيات، وبالتساؤل عما إذا كان الله الباقى هو المحرك الأول ؟ وعلّة دوران الأجرام السماوية على النحو الذى تدور عليه، وليس عكسه ؟ .. وعدد الملائكة ...؟

---

(1) Having to do with the ancient learning of Greece and Rome

التعامل مع الدراسات القديمة الإغريقية والرومانية والانصراف إليها .

لقد احتفظت لنا الأيام بأعمال عديدة للمفكرين المسلمين والمناطقة بما أوتوا من ذكاء خارق. خطتها أقلام عمالقة الفكر من أمثال الفارابى والرازى والكندى وابن عربى وابن سينا .. إن أكثر ما يثير انتباهنا هذه الأيام هو إدراكنا المثير للأسف بأن إخضاع القضايا الميتافيزيقية لمنهج تفسير منطقى لن ينتهى بنا إلا إلى نتائج لا منطقية . والحقيقة أن هؤلاء الرواد من الفلاسفة لم يبرهنوا بشكل قاطع إلا على مسألة واحدة فقط، وهى أننا لا نستطيع من خلال منطقنا الإنسانى أن نصل إلى حقيقة المجهول بشكل يقينى ..

وإزاء لغز الوجود هذا (وجود الله فى الحضور الأزلى) فإنه حتى الحقائق المدركة بالحس، مثل تلك التى بالشم أو اللمس أو الرؤية، لا تزال مستغلقة على الفهم، وبعبارة أخرى لولا الوحى لظللنا عُمياناً[1] ..! (يوميات ألمانى مسلم – ص٤٥ وما بعدها) .

وأنقل هنا بعض الآيات من الكتاب الكريم : يقول تعالى : **﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ۞ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ۞ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون﴾** (٤٤ – ٤٦ البقرة) . ويقول :**﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾** (٢٤٩ – البقرة) .

وأنقل هنا ما جاء فى تفسير القرطبى عن الآية ٤٦ – البقرة (مجلد ١ ص٣٧٥ وما بعدها) « **الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون**» (٤٦ – البقرة). – الظن هنا – فى قول الجمهور بمعنى اليقين . وقد قيل : إن الظن فى الآية[2] يصح أن يكون على بابه[3]، ويضمر فى الكلام بذنوبهم فكأنهم يتوقعون لقاءه مذنبين . ذكره المهدوى والماوردى . قال ابن عطية : وهذا تعسف. وزعم الفراء أن الظن قد يقع بمعنى الكذب، ولا يعرف ذلك البصريون . وأصل الظن وقاعدته الشك مع ميل إلى أحد مُعتَقَدَيْه . وقد يوقع موقع اليقين كما فى هذه الآية وغيرها . لكنه لا يوقع فيما قد خرج إلى الحس؛ لا تقول العرب فى رجل مرئِّى حاضر : أظن هذا إنسانًا . وإنما تجد الاستعمال فيما لم يخرج إلى الحس بعد كهذه الآية .. وكقوله تعالى : «**فظنوا أنهم مواقعوها**»[4] . وقد يجىء اليقين بمعنى الظن . ومعنى «ملاقو ربهم» أى جزاء ربهم، وأنهم إليه راجعون إقرار بالبعث والجزاء والعرض على الملك الأعلى .

وعن الآية ٢٤٩ – البقرة (نفسه مجلد ٣ – ص٢٥٥) : قوله تعالى : « **قال الذين يظنون**» والظن هنا بمعنى اليقين . ويجوز أن يكون شكا لا علمًا . أى قال الذين يتوهمون أنهم يُقْتلون مع طالوت فيلقون الله شهداء، فوقع الشك فى القتل .

---

(١) عُمْىٌ وعُمْيان = جمع أعمى .
(٢) نفسه ص٣٧٦ .
(٣) أى على معنى الظن فى اللغة .
(٤) «ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفًا» (٥٣ – الكهف) .

وفى تفسير المنار عن الآية ٤٦ – البقرة (جـ١ ص٢٥١ وما بعدها) قال : ﴿**الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون**﴾ – أى الذين يتوقعون لقاء الله تعالى يوم الحساب والجزاء وأنهم إليه راجعون بعد البعث لا مرجع لهم إلى غيره . قال شيخنا فالإيمان بلقاء الله تعالى هو الذى يوقف المعتقد عند حدوده، ولو لم يكن الاعتقاد يقينًا . فإن الذى يغلب عليه الظن بأن هذا الشيء ضار يجتنبه، أو أنه نافع يطلبه . ولذلك اكتفى هنا بذكر الظن . وقد فسر الظنَّ مفسرنا (الجلال) – باليقين لأنه الاعتقاد المُنجى فى الآخرة، وفاته أن الاكتفاء بالظن أبلغ فى التقريع والتوبيخ؛ كأن هؤلاء الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم هم يقرءون الكتاب لا يصل إيمانهم بالله وبكتابه إلى درجة الظن الذى يأخذ صاحبَه بالاحتياط .

أقول : إن ما جاء فى تفسير المنار واضح، ولا يحتاج إلى تحقيق(١) . يقول تعالى : ﴿**وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم**﴾ (٢٦٠ – البقرة) .

فى «المنتخب» عن الآية : ٢٦٠ – قال : «واذكر – كذلك – قصة إبراهيم، إذ قال إبراهيم : ربِّ أرنى كيفية إحياء الموتى فسأله ربه عن إيمانه بإحياء الموتى ليجيب إبراهيم بما يزيل كل شك فى إيمانه، فقال الله له : أولم تؤمن بإحياء الموتى، قال : إنى آمنت، ولكنى طلبت ذلك ليزداد اطمئنان قلبى – قال : فخذ أربعة من الطير الحى، فضمها إليك لتعرفهن جيدًا . ثم جزِّئهن بعد ذبحهن واجعل على كل جبل من الجبال المجاورة جزءًا منهن . ثم نَادهنّ فسيأتينك ساعيات، وفيهن الحياة كما هى . واعلم أن الله لا يعجز عن شيء، وهو ذو حكْمة بالغة فى كل أمر .

وفى الهامش (وعن ذات الآية) : ذكر الفخر الرازى وغيرُه أن هناك رأيًا آخر فى تفسير النص الكريم؛ وهو أن إبراهيم لم يذبحهن ولم يُؤْمَر بالذبح، وأنه أُمرَ بضمهن إليه ترويضًا لهن على البقاء عنده، ثم قسمهن فجعل على كل جبل واحدة من الأربع، ثم دعاهن فجئن إليه . وهذا تصوير لخلق الله تعالى للأشياء من أنها تكون بأمره (فيقول) للشيء : كن فيكون، كما دعاهن فجئن إليه .

ولى اجتهاد فى هذه المسألة، أسأل الله ألا أكون مخطئًا فيه . لقد كان إبراهيم عليه السلام مؤمنًا، وكان مطمئنًا، ولم يكن بحاجة إلى مزيد من الإيمان، ولم يكن بحاجة إلى مزيد من الاطمئنان؛ إنما هو هنا يسأل نيابة عن غيره، نيابةً عن هؤلاء المدعوِّين للدخول فى دينه؛ فهم – عادةً – وربما دائمًا – يطلبون المعجزة، والأحداث الخارقة للعادة، لكى يصدقوا الدعوة، وصاحب الدعوة، لكى يؤمنوا ويطمئنوا . والله أعلم .!

---

(١) أقول : إنى استطردت إلى قضية «الظن» هنا (والتى يتعلق فيها الظن بأمر غيبى) لأعرض تحت نظر القارئ قضية «التأويل» (تأويل الظن بأنه اليقين) وقضية أخذ الأمر على ظاهره، وبدون تأويل، كما جاء فى تفسير المنار .

وأحمد الله أنى «عربى» – ولغتى الأصلية هى العربية . والقرآن الكريم، كتاب الله، معجز، ووجوه إعجازه كثيرة على رأسها لُغَتُهُ . إنه (أى القرآن الكريم) هو المعجزة الخالدة الباقية – إنى وأمثالى – لسنا بحاجة إلى الخوض في «علم الكلام» (علم التوحيد)(١)، ولسنا بحاجة – للوصول إلى اليقين – للفلسفة الميتافيزيقية(٢)، (أى ما وراء الطبيعة) وإنى أعلم أنها لم تنته إلى شىء قاطع فى الغيبيات عامة . إنّ أمَامَنَا المحسوس، أمَامَنَا القرآن الخالد، الذى تحدى فصحاء العرب بأن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا . لقد قالوا – فيما قالوا – إنه قول ساحر ونحن المؤمنين نقول إنه معجز، لأنه كلام الله! .

من «يوميات ألمانى مسلم»

كحول من أجل ألمانيا

ص (٦٣)

تحت هذا العنوان كتب الدكتور مراد (الرجل المؤمن – وأحد الرجال الأعلام الذين يعز الله بهم الإسلام) .

كتب يقول (نفس المرجع ص٢٩ وما بعدها – الجزائر فى ٣ مايو ١٩٦٢) : أوشك بعض بنى وطنى الذين كانوا ينقبون عن البترول فى صحراء الجزائر الصخرية، أن يفقدوا صوابهم . وهدد البعض منهم بهجر معسكر العمل . ولا غرو، فقد كانت حرب التحرير تقترب منهم، وثارت التكهنات حول حدوث مذبحة بعد الانسحاب المرتقب للحراس الفرنسيين . ولهذا السبب أصدر إلىّ «سيجفريد فون نوستتش» القنصل العام الألمانى فى الجزائر (العاصمة) تعليماته بالعمل على رفع معنويات الرجال بصندوقين من الويسكى . أليس البترول لألمانيا، إذَنْ فالكحول من أجل ألمانيا .

وصرت وسط عاصفة مروعة فوق جبال أطلس مصطحبًا معى مدير شركة البترول الألمانية فى طائرة متهالكة من مخلفات الحرب العالمية الثانية . وتم وضع صندوقى الويسكى على الأرض بجوار مقعدى، إلا أنهما لم يكونا مثلى مشدودين إلى مكانهما بحزام الأمان . ولقد حاولت عبثًا أن أبقيهما فى مكانهما كلما وقعت الطائرة فى أحد مطبات الهواء، حيث كانا يطفوان فى الهواء حتى يبلغا ذراع المقعد، كما لو كانا قد تحررا من وزنهما، ثم يسقطان على الأرض عندما تستعيد الطائرة توازنها . كنت أعلم جيداً أنه دون الويسكى فسوف تفشل مهمتى، وإذا لم يكن هناك الكحول فلا ارتفاع للمعنويات . امتلأ جو الطائرة برائحة الويسكى. وأصبح الموقف سخيفًا للغاية، وبالكاد نجوت من دوار الجو . وفى معسكر العمل حيانا الحاضرون ببعض التحفظ والخوف – بيد أنه كان هناك العديد من زجاجات الويسكى السليمة

(١)،(٢) – إن علم التوحيد يتطور بلاريب، كما أن الفلسفة تتطور، وتعالج قضايا «حياتية» كثيرة . ولا يخطر بالبال قط – الغض من شأنهما .

التى دارت عليهم كما يحدث فى أفلام رعاة البقر . وأكّدتُ لبنى وطنى أن الموقف فى الجزائر العاصمة يبدو أخطر بكثير، حيث تدور حرب العصابات فى المدينة يوميا . ووعدتهم بترحيلهم فى الوقت المناسب إذا اقتضت الضرورة ذلك . وبينما كنت أقول ذلك مع عدم اقتناعى التام به لم أملك إلا التفكير فى المصير المؤسف للجنود الجزائريين فى القوات الفرنسية الذين كانوا يحرسون هذا المعسكر . وقد وقفوا هادئين متمالكين لرشدهم، ومستغرقين فى تأملاتهم . كانت ثقتهم تنبع من إيمانهم، ومن إيمانهم فقط بالإسلام، أما العمال الألمان فقد كانوا بحاجة إلى الكحول لرفع معنوياتهم . وهكذا كان الكحول من أجل ألمانيا!

وفى كتابى «غزوات الرسول وسراياه – دروس مستفادة»(١) . وفى «الملحق الثانى من الكتاب» وتحت عنوان : قبس من نور السيرة – أعطوا الكثير وعاشوا بالقليل . (ص١١٠ وما بعدها) . وفى نهاية الملحق ص١١٢ كتبت : «إنهم فى الشرق والغرب يقدمون للمحاربين الخمور وغيرها، ويقدمون لهم أيضاً المجندات وغير المجندات لإشباع الشهوات والنزوات، أما سلفنا الصالح فقد تزود بالتقوى، واستعان بالصبر والصلاة . وفى حرب ١٩٧٣ .. عبر جنودنا القناة، وحاربوا وهم يهتفون : الله أكبر ! الله أكبر ..!

الاستغفار عند الانتصار
روما - ١٥ - أكتوبر ١٩٨٤م

بند (٦٤)

عن «يوميات ألمانى مسلم» – (نفسه – ص١٤٠) قال : «أثناء عودتى من محاضرة ألقيتها فى كلية الدفاع التابعة لمنظمة حلف شمال الأطلنطى (الناتو) – عن «الرأى العام والدفاع»؛ وجدت لدى متسعاً من الوقت فى مطار فيوميشينو لتعلم «سورة النصر» (رقم ١١٠ من القرآن الكريم – مدنية) – كنت قد عرفت النص العربى ومعناه، بيد أننى خشيت أن يخون ذاكرتى النطق السليم . ومن ثم بادرت رجلاً يرتدى الطربوش التونسى، فى صالة الرحيل، بتحية «السلام عليكم» . وحالما أدرك بغيتى بدأ يتلو لى سورة النصر **﴿إذا جاء نصر الله والفتح* ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾** . وكأنما كان فى انتظار هذا الطلب منى . وطبقًا لنص الآية الأخيرة من السورة، يأمر الله – سبحانه وتعالى – المسلمين ألا يتملكهم الزهو ساعة النّصر، وإنما أن يلتمسوا المغفرة من ربهم فى خضوع وخشوع . ياله من مبدأ مدهش! ولشد ما كان التاريخ الدبلوماسى سوف

---

(١) صدر عام ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨م .

يصبح مختلفًا لو أن رجال السياسة كانوا أكثر التزامًا بهذه النصيحة . ! ألم يكن من الممكن تجنب الحرب العالمية الثانية لو أن «كليمنصو وبوانكاريه» قد التزما فى عام ١٩١٩ بما جاء فى سورة النصر، بدلاً من أن تستبد بهما مشاعر الكراهية والرغبة فى الانتقام من ألمانيا؟!(١).

يقول الرجل المسلم حقًا، والفاضل جداً الدكتور مراد، فى كلمته عن «سورة النصر» : ألم يكن من الممكن تجنب الحرب العالمية الثانية لو أن كليمنصو وبوانكاريه قد التزما عام ١٩١٩ بما جاء فى سورة النصر، بدلاً من أن تستبد بهما مشاعر الكراهية والرغبة فى الانتقام من ألمانيا ؟! .

وإنه لحق، كل الحق ما ذكره الدكتور مراد: إنه لو التزم الأطراف فى الحرب - أى حرب - بما جاء فى سورة النصر لتغيَّر مجرى التاريخ إلى الأحسن، وهل هناك ما هو أحسن من السلام، يعم كل الأرض، وينتشر بين كل الشعوب ؟ لكن هذا لم يأت أوانه بعد . إن الدول الأقوى تملك القنابل النووية، وكل أسلحة الدمار الشامل . وقبل أن يتفكك الاتحاد السوفيتى كان العالم يعيش فى مناخ، عرف (بالحرب الباردة)، والآن يقولون : إن النظام العالمى الجديد قد بدأ . ولما كان الأطراف فى الدول الأقوى يملكون الأسلحة المدمرة السابقة الذكر فإن الحرب قد استبعدت فيما بينهم . لكنها استمرت فى أكثر من مكان فى العالم الثالث، وهم (أى الدول الأقوى) هم المسئولون عما جرى ويجرى فى هذا العالم . وإن المنافسة بينهم شديدة على بيع الأسلحة لدول هذا العالم، وأمامنا مثال دول الخليج؟! لقد قهر الغرب وطحن وسحق شعب العراق الشقيق، لكنه أبقى على صدام لأغراض خبيثة فى نفسه ؟! .

وهذه كلمة عن كليمنصو، أحد الاثنين اللذين ذكرهما الدكتور مراد، وأنقل عن الموسوعة العربية الميسرة (چورچ : ١٨٤١ - ١٩٢٩) - سياسى فرنسى - رأس الوزارة مرتين .. وفى عام ١٩١٧ رأسها للمرة الثانية . وفى مؤتمر الصلح بباريس كان كليمنصو أهم معارضى الرئيس الأمريكى وودرو ويلسن، واعتبر معاهدة فرساى غير كافية لضمان سلامة فرنسا . ومن سخرية القدر أنه هُزِم فى انتخابات ١٩١٩ لأنه اعتبر متساهلاً مع الألمان (وكانت هذه نهايته السياسة) .

أقول : والأمر كما هو واضح - لم يكن مقصوراً على كليمنصو وبوانكاريه، لم يكونا هما فقط اللذين استبدت بهما مشاعر الكراهية والرغبة فى الانتقام . لقد كانت هذه المشاعر قد استبدت بالشعب الفرنسى كله . ولا ريب أن التنافس السياسى ووسائل الإعلام قد غذّت مشاعر الكراهية وألهبت فيها النيران . لقد مرت على معاهدة فرساى ثلاثة أرباع القرن . والحل فى تربية دينية وسليمة، تُحْشَدُ فيها كل الجهود، وتُعَبَّأ كل الإمكانيات تعبئة عامة . وبشرط أن تلتزم بذلك كل الدول، وكل الحكومات، وكل الشعوب . لكن الدول الأقوى لم تشأ ذلك لغيرها بعد ! والإسلام هو الحل والبديل، وإنه آت بإذن الله، وفى القريب .

---

(١) بتصرف، وإضافات يسيرة .

الفصل الخامس والعشرون

روح بدر

بند (٦٥)

تقع بدر فى مكان بين مكة والمدينة . وسميت كذلك باسم بئر كان صاحبها يحمل هذا الاسم(١) .

وفوق هذه الأرض فى رمضان من السنة الثانية للهجرة دارت حرب بين الرسول وأصحابه من المهاجرين والأنصار من جهة . وبين كفار قريش من جهة أخرى . وتعرف هذه الحرب باسم «غزوة بدر الكبرى» . وكان المسلمون قد خرجوا فى ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، على سبعين بعيراً وفرسين ، لملاقاة عير عائدة من الشام بتجارة لقريش يقودها أربعون من الرجال بزعامة أبى سفيان ، وكان هذا الأخير قد علم بأن المسلمين يريدونه ، فبعث يستنفر قريشًا التى خرجت فى ألف رجل ومائة فرس وسبعمائة بعير، قاصدة حماية تجارتها، ومنازلة الرسول وأصحابه، وعسكروا فى بدر . واتخذ أبو سفيان طريقًا استطاع معها الفرار والنجاة. وعند بدر، عرف الرسول أنه بالقلة من رجاله سيواجه الكثرة من صناديد قريش . هذه هى الصورة المادية والحسابية لتلك الموقعة من المواقع التى خاضها المسلمون . وما أكثر ما خاضوا !. إنها – فى صورتها هذه – التحام لم يستمر طويلاً، على بقعة صغيرة فى صحراء شاسعة، واشترك فيها عدد قليل نسبيا من الطرفين، مستخدمين البدائى من الوسائل والآلات.

أين هى – من هذه الزاوية – من حروب كبيرة كثيرة خاضها المسلمون وغيرهم على مدى التاريخ؟ ومع ذلك يحتفل المسلمون كل عام، وفى كل الدنيا ، بذكرى بدر بالذات، وليس لهم بغيرها مثل اهتمامهم بها . إن المسلمين – حين يفعلون ذلك – إنما يحتفلون بروح بدر .

---

(١) فى الآية ١٢٣ – آل عمران «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون» جاء فى الهامش (التفسير العلمى «بالمنتخب») بدر على مسيرة نحو ١٢٠ ميلاً من الجنوب الغربى للمدينة . وكان اللقاء فيها بين المسلمين وقريش فى يوم الثلاثاء الموافق ١٧ من رمضان من السنة الثانية للهجرة (١٣ مارس سنة ٦٢٤ من الميلاد المسيحى) . وكان خروج النبى صلى الله عليه وسلم من المدينة فى أصحابه لثمان خلون من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة (٥ مارس سنة٦٢٤ للميلاد المسيحى) وكان عدد المقاتلين من المسلمين فى هذه الغزوة ثلاثمائة رجل أو يزيدون قليلاً . وعدد المشركين ثلاثة أمثالهم . وقد أنجز الله فى هذه الغزوة وعده وكان النصر مما لا تفعله القوة المادية . وكان النصر المبين فى هذه الغزوة سببًا فى أن صارت كلمة الإيمان هى العليا، إذ كانت مقدمة لانتصارات بعدها وامتد ظل الإسلام إلى الجزيرة العربية كلها، ثم لما وراءها بعدها .

هذا، والمقال «روح بدر» – بقلم المؤلف، وهو منشور بمجلة منبر الإسلام العدد التاسع – للسنة – ٢٣ ص١٠٦ وما بعدها .

إن لبدر روحاً كبيراً ليس له مثيل ولانظير بين الحروب . لقد شرف الله سبحانه وتعالى يوم بدر، وسماه «يوم الفرقان»، يوم الحسم بين الحق والباطل، يوم الحرب بين حزب الله وحزب الشيطان . كان المسلمون - كما أشرنا - قد نفروا لملاقاة العير، عير أبى سفيان، وإذا بهم - وجهاً لوجه - أمام النفير وأمام قريش بفخرها وخيلائها، وقضها وقضيضها، وعدتها وعديدها . ولم يشأ رسول الله . وسيد الخلق، وخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام أن يقرر شيئًا دون أن يطرح الأمر كله على هؤلاء الذين سيقومون بتنفيذه، ويتحملون مسئوليته ونتائجه، فأقبل على أصحابه يستشيرهم: فقال أبو بكر وعمر وأحسنا . ثم قام المقداد بن عمرو وقال : امض لما أمرك الله، فإنَّا معك حيثما أحببت، لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون» ثم عاد الرسول وقال : أشيروا على أيها الناس، وهو يريد الانصار . إذ تخوف ألا يروا نصرته إلا على عدو دهمه بالمدينة «وفقا لبيعة العقبة» فقام سعد بن معاذ وقال «لكأنك تريدنا يا رسول الله . فقال : أجل . قال سعد : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا، فامض يا رسول الله، فوالذى بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك». قال الرسول عليه الصلاة والسلام «سيروا على بركة الله تعالى وأبشروا، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم» . وفى هذا المعنى نزل قوله تعالى: **﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين * ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾** (٧ - ٨ الأنفال) .

وكانت قريش قد نزلت بالعدوة القصوى من الوادى، وبادر الرسول إلى مكان ما من بدر. فجاءه الحباب بن المنذر بن الجموح وقال : يا رسول الله : «أهذا منزل أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخره، أم أنه الرأى والحرب والمكيدة؟ قال الرسول : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال الحباب : فإن هذا ليس لك بمنزل، فانهض بالناس. واقترح الحباب مكانًا يستطيع فيه المسلمون الشرب من الماء دون الكفار . وفعل الرسول وجيشه ما أشار به الحباب.

وجاء سعد بن معاذ إلى الرسول وقال له : يا رسول الله، نبنى لك عريشًا تكون فيه، وننازل عدونا، فإن أعزنا الله كان ذلك . وإن كانت الأخرى لحقت بمن وراءنا من قومنا . فيمنعك الله بهم. وأقيم العريش من جريد، ووقف بعض الصحابة عليه يحمون الرسول من أن تمتد إليه يد بمكروه. وبينما كانت أحاديث العزم والتصميم والتضحية والفداء، والتواصى بالحق والصبر - تسود بين المسلمين كان التردد ينتقل بين الآخرين . ولولا حماقة من أبى جهل لعادت قريش بلا حرب. وبدأ الكفار بالتحرش وطلب المبارزة، والتقى الجمعان ويقف رسول الله فى العريش مشفقًا ومبتهلاً ويقول : «اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم أن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلن تعبد فى الأرض» . وأغفى الرسول إغفاءه ثم انتبه، ولقد أنزل الله عليه **﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين * وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم * إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل**

عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام﴾ (٩ - ١٠ - ١١ الأنفال) . وخرج الرسول يبشر المسلمين ويقول «سيهزم الجمع ويولون الدبر» ثم أخذ يحرضهم وينادى «والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» . وحميت الحرب، واندفع المسلمون غير مبالين، يريدون النصر والجنة معاً . وتناول الرسول حفنة من تراب رمي بها قريشاً وهو يقول: «شاهت الوجوه» . وقُتل من المشركين من قُتل، وأُسر من أُسر . لقد غُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . ﴿وكم من فئة قَليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ (٢٤٩ - البقرة) .

لقد كان الله وملائكته مع المسلمين فى بدر : مع التوحيد ضد الشرك، مع الإيمان ضد الكفر، مع الطهر ضد الرجز، مع النور ضد الظلام، مع الفئة الصابرة المحتسبة ضد الفئة الباغية الفاجرة، مع المجتمع الجديد الذى يدين بالشورى والمساواة والإيثار والتضحية، ضد المجتمع القديم الذى يتساقط تحت أثقال من الترف والتباهى بالألقاب والأنساب . ﴿إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ (١٢ - الأنفال) ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم * ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين﴾ (١٧ - ١٨ الأنفال) . لقد كانت بدر بداية النصر الكبير لمواكب الحق الزاحفة وكانت بدر بداية النهاية لفلول الباطل الآفلة الزاهقة . وفى هذه المعانى، وفى مثلها وما يتصل بها، يتجسم روح بدر، وبها يحتفل المسلمون كل عام فى جميع بقاع الأرض . وسيبقى روح بدر حياً وذا فاعلية حتى تعلو كلمة الله ﴿إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين * كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز﴾ (٢٠ - ٢١ المجادلة) . وإن ينس كاتب هذه السطور، فلن ينسى احتفالاً معيناً بذكرى بدر، حضره وشارك فيه . وكان ذلك فى باريس فى ١٧ رمضان سنة ١٣٧٣ - ٣١ مايو سنة ١٩٥٣ .

وكانت تونس والجزائر ومراكش ما زالت ترزح تحت نير الاستعمار الفرنسى . وكان هذا النير، على الجزائر بالذات . أثقل وأشد وطأة . كان المستعمرون يصرون، فى حمق وجهل، على أن الجزائر جزء من فرنسا . وقد ذهبوا فى فرنسة هذا الجزء من الوطن العربى الإسلامى إلى أقصى المدى . فحاربوا تعليم اللغة العربية «لغة القرآن» بكل الطرق . لقد أرادوا بذلك أن يفصلوا الجزائر عن قوميتها ودينها ولغتها وتاريخها . ولما قام الشيخ الجليل المرحوم البشير الإبراهيمى بإنشاء المدارس بالجزائر لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم اللغة العربية طارده الاستعمار . فعاش معظم الفترة الأخيرة من حياته بعيداً عن مسقط رأسه . وكنا نتردد على مسجد باريس لصلاة الجمعة بصفة خاصة . وكنا نلاحظ - فى أسى - أن خطبة الجمعة كانت تلقى بلهجة فاترة، من كتب قديمة وضعت فى عهود التأخر والاستبداد . وتدور عادة حول الزهد فى الدنيا، وطاعة الحكام، والاستسلام للأقدار، والتمكين للطغاة والاستعمار .

ولم يكن أمامنا من سبيل لنحل محل هؤلاء الخطباء الرسميين والعملاء المأجورين . فشرعنا نخطب الحاضرين بعد الصلاة . محاولين إزالة الآثار السيئة . للخطب الرسمية، وعاملين على إنهاض السامعين لاستعادة الاستقلال، وإحياء فضائل الإسلام . وكنا نلمس فى

أبناء المغرب العربى الموجودين فى باريس ثورة توشك أن تنفجر . وكنا نشفق عليهم مما يلاحقهم من التجسس والمطاردة والكيد فى الرزق وغيره وعقب صلاة الجمعة ١٥ رمضان سنة ١٣٧٢ تلقينا دعوة لحضور احتفال جمعية العلماء بيوم بدر، بعد ظهر الأحد التالى برقم ٨ شارع ماتيران موور بأحد أحياء باريس . وجلسنا فى منصة الخطابة . نمثل البلاد العربية والإسلامية . وملأ الحاضرون، من أبناء الجزائر بالذات القاعة الكبيرة المتواضعة . وكانت مفاجأة مؤلمة أن نتبين أن كل الحاضرين – تقريبًا – لا يعرفون اللغة العربية، ومع ذلك آثرنا جميعًا أن تكون لغة الخطابة فى هذا الاحتفال بذكرى بدر – هى لغة القرآن . وتولى شاب جزائرى ممتاز، تعلم فى مصر على ما أذكر يلتهب حماسًا، ويفيض إخلاصًا . ذو براعة فى الخطابة وكياسة فى قيادة الجماهير وزعامتها – تولى هذا الشاب الترجمة إلى اللغة الفرنسية واللغة الجزائرية المحلية وأذكر أن كلمتى دارت حول ضرورة تعريب اللسان الجزائرى، لا فى الجزائر فحسب . بل وفى فرنسا أيضًا . حيث كان يوجد منهم فى عواصمها الكبرى مئات الألوف، أجراء مستضعفون خارج بلادهم كما هم فى داخلها .

ويسعدنى ويسعد كل عربى وكل مسلم أنه بعد تاريخ هذا الاحتفال بعام وبعض عام . فى أول نوفمبر سنة ١٩٥٤، قامت ثورة الجزائر مؤمنة بحقها فى الاستقلال والحرية والكرامة الإنسانية قامت الفئة القليلة ضد الفئة الكثيرة، قام الذين استضعفوا ضد الذين استكبروا . قام الجزائريون ضد الاستعماريين والمستوطنين والصهاينة . قاموا بوسائلهم البدائية وأسلحتهم الصغيرة ضد أسلحة حلف الأطلنطى . قاموا بإيمانهم وعقيدتهم ضد الطامعين وتجار الحروب . وبعد سنوات من حرب مريرة قاسية انتصرت أرض المليون ونصف مليون شهيد . انتصر الحق على الباطل، انتصر الإيمان على الكفر . وأراد الله أن تظفر الجزائر باستقلالها، وأن يعود إليها البشير الإبراهيمى، الأب الروحى لثوارها، وأن يموت على أرضها، ويدفن فى ترابها .

عاش روح بدر حيًّا فى قلب كل عربى وكل مسلم وعلى كل أرض عربية وإسلامية، وحقق الله به الآمال فى الحرية والكرامة والاستقلال . ووفقنا الله جميعًا إلى أن نتذكر دائمًا ما قاله الرسول الكريم بعد فتح مبين ونصر كبير . «لقد عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» وفقنا الله إلى أن نتذكر دائمًا هذا الحديث ونحن نمضى فى بناء وطننا، وتحقيق كرامتنا وأداء رسالتنا، غير منحرفين لا إلى شرق ولا إلى غرب .

الجزائر - أيضًا

فى كتابى «صفحات من اليوميات»(١) وعن أحد فصوله، وهو بعنوان «المسجد» (وأقصد به مسجد باريس)(٢) – أنقل ما يأتى، ذلك أن الجزائر الحبيبة عانت من محن كثيرة، وما زالت تعانى.

---

(١) بالعدد التاسع للسنة ٢٣، والصادر فى رمضان ١٣٨٥هـ – ٢٤ ديسمبر ١٩٦٥م ص١٠٦ وما بعدها مقال لى بعنوان «روح بدر» .

(٢) ص ٢٧٥ وما بعدها و٢٧٨ من الصفحات .

فى نهاية الكلمة السابق ذكرها، والمنشورة بمنبر الإسلام، قلت : وفقنا الله جميعًا إلى أن نتذكر - دائمًا - ما قاله الرسول الكريم، بعد فتح مبين، ونصر كبير «لقد عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» وفقنا الله إلى أن نتذكر دائمًا هذا الحديث، ونحن نمضى فى بناء وطننا، وتحقيق كرامتنا، وأداء رسالتنا غير منحرفين لا إلى شرق ولا إلى غرب .

وقد أشرت فيها إلى أننا (زملائى وأنا) تلقينا دعوة لحضور احتفال جمعية العلماء بيوم بدر والنص - كما جاء بص٢٧٨ من الصفحات هو «وقد دعت إلى الحفل جمعية العلماء المسلمين الجزائرية . وبعد هذا التبيين أعود إلى الصفحات وأنقل ما يلى : ومما يؤسف له أن الذين تولوا الحكم بعد الاستقلال انحازوا إلى العالمانية والاشتراكية ونظام الحزب الواحد . وأقل ما يقال فى هذا كله أنه بعيد عن الإسلام، الذى انتصرت الجزائر تحت لوائه، وضحى من ضحى من أبنائه . وقد أفرز هذا كله شرورًا كثيرة . وها هو ذا الشاعر الجزائرى «كاتب ياسين» الذى يكتب بالفرنسية، ها هو ذا يعلن «بمناسبة حصوله من فرنسا على الجائزة الوطنية الكبرى للإبداع» (مكافأة على ما أنتجه بالفرنسية) . أن العربية لغة ميتة، وأنه (أى كاتب ياسين) ليس عربيًّا، وليس مسلمًا . بل هو جزائرى وأن العرب مستعمرون مثلهم مثل الفرنسيين، لكن الفرنسيين أفضل لأنهم متحضرون ولم يدم استعمارهم للجزائر إلا مائة وثلاثين عامًا؛ أما العرب، فهم - فضلاً عن تخلفهم - فقد استمر استعمارهم للجزائر ثلاثة عشر قرنًا (ص١٢ من أهرام ٢/ ١١/ ١٩٨٨ م) .

ماذا أقول عن «كاتب ياسين» هذا؟! إنه «مرتد» إنه (سليمان رشدى) آخر . ولا يفوتنى أن أقول : إن هؤلاء الحكام، الذين حكموا الجزائر لفترة طويلة، وتحت اسم برىء منهم، وهو «جبهة التحرير الجزائرية» . هؤلاء الحكام هم الذين اختلقوا القضية المزيفة «قضية الصحراء الغربية وجبهة البوليساريو» لاستنزاف موارد الجزائر وليبيا، وكذلك المغرب المفترىَ عليه ! .

وماذا بعد ؟! أقول : إن الجزائر العزيزة على قلب كل عربى وكل مسلم، والتى تعيش تحت ضائقة اقتصادية خانقة - تعيش - أيضًا - منذ أن فازت جبهة الإنقاذ الإسلامية فى انتخابات حرة، قال فيها الشعب الجزائرى كلمته، وأعلن إرادته بأنه يريد الدولة الإسلامية . جاء طلاب الدنيا من الجزائريين ومن ورائهم القوى الخفية الأجنبية، فألغوا الانتخابات، وأوقفوا المسيرة . وساد العنف والعنف المضاد على أرضنا الحبيبة، أرض الجزائر ! . وأذكر هنا قول الشاعر العربى (أظنه : الشابى) :

إذا الشعب يومًا أراد الحياة ∴ فلابد للقيد أن ينكسر

ولابد للحق أن ينتصر !

والويل للظالمين، والله متم نوره .

هذا، وإذا كان «كاتب ياسين» يرتد عن الإسلام، فالناس، وفيهم العلماء الأعلام، كالسيد/محمد أسد، والسيد/ مراد هوفمان-يدخلون فى دين الله أفواجًا. وإليهما أهدى هذه

الكلمة بعنوان «روح بدر» وكلمة فى «الجهاد»، وثالثة بعنوان «الإسلام – دستور كامل للحياة» وهى بمعنى العنوان الذى اختاره الدكتور مراد لأحد كتبه، وهو «الإسلام هو البديل» .

فى الجهاد ...

بند (٦٦)

هاتان آيتان فى الجهاد وردتا فى سورة العنكبوت : أولاهما هى الآية السادسة منها : يقول تعالى : ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين﴾ فى معنى قوله تعالى فى هذه الآية «إن الله لغنى عن العالمين» – آيات كثيرة فى الكتاب الكريم : منها قوله تعالى : ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد﴾[١] (١٥ – فاطر) . أما عن الجهاد فمعناه واسع، فمنه جهاد العدو، وجهاد النفس، والجهاد لبناء الذات، والجهاد لبناء الأوطان فى كل موقع من مواقع العمل : إنه البناء الاقتصادى، والاجتماعى، والثقافى .. إلى آخره . وهذا كله أول ما يعود يعود على الإنسان، وعلى الفرد، خيراً فى الدنيا، وسعادة فى الآخرة . وإذا كان هذا ديدن كل فرد من أفراد المجتمع، فما أعظم هذا المجتمع، وما أقواه! وهذا ما ينبه إليه القرآن، ويدعو إليه الإسلام . ما أحوجنا إلى أن نكون جديرين بكتابنا ورسولنا !

وأثبت هنا بيتًا لأمير الشعراء شوقى :

قف دون رأيك فى الحياة مجاهداً ∴ إن الحياة عقيدة وجهاد

وفى فترة من فترات الربع الثانى من هذا القرن، اتخذت صحيفة «الجهاد» (السياسية اليومية)[٢] – هذا البيت شعاراً لها، وزانت به صدرها .

الآية الثانية هى الآية التاسعة والستون من السورة (وهى الآية الأخيرة منها) : يقول تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ وأنقل هنا ما جاء عن هذه الآية فى «أوضح التفاسير» : « والذين جاهدوا فينا» أى جاهدوا من أجلنا . والجهاد يطلق على مجاهدة النفس والشيطان وأعداء الدين . « لنهدينهم سبلنا»، أى لنهدينهم إلى سبيل الخير والتوفيق .

أو : (بمعنى آخر – والنقل عن «أوضح التفاسير») : والذين جاهدوا فيما علموا؛ لنهدينهم إلى ما لم يعلموا؛ لأن من عمل بما علم أعطاه الله علم ما لم يعلم . « وإن الله لمع المحسنين» بالعونَ والنصر، والحفظ، والهداية ! .

أضيف : وفى مجاهدة النفس والشيطان . يقول عليه الصلاة والسلام – وهو عائد من إحدى الغزوات – «لقد عدنا من الجهاد الأصغر[٣] إلى الجهاد الأكبر» (أو كما قال) . ومن

---

(١) وقوله تعالى فى سورة لقمان : «ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد» (الآية – ١٢) .
(٢) وكان يحررها الكاتب الكبير و الخطيب المفوه المرحوم محمد توفيق دياب .
(٣) ياليت إخواننا فى أفغانستان والصومال تعود إليهم عقولهم، ويعملون بهذا الحديث الشريف ! إن عناصر أجنبية تكيد لهم وتشمت فيهم، ليتهم يتعظون ؟! .

قصيدة فى مدح نبينا صلى الله عليه وسلم، يقول الشاعر :

وجاهد النفس والشيطان واعصهما ∴ وإن هما مَحَّضَاك النصح فاتـهم

الإسلام(١)

دستور كامل للحياة

بند (٦٧) :

فى العصر الذى نعيشه والذى ألغى المسافات – أو كاد – بين أقطار الأرض . لم يعد فى استطاعة دولة أن تغلق الأبواب على ذاتها، منعزلة عما يجرى حولها، وإلا أصابها تخلف ممقوت لا يمكن تصوره . وفى العالم من حولنا فتوح علمية باهرة، وتجارب بشرية جديرة بالدرس، غنية بالعبرة . ونحن نؤمن بالخبرة، ولانرفض شيئًا من ذلك لمجرد أنه بضاعة غيرنا . إن العلم لا وطن له، وإن تطبيقات العلم ملك للإنسانية كلها . وإننا نفتح عقولنا وحواسنا وملكاتنا على التجارب الإنسانية جميعها، محاولين بكل طاقاتنا الاستفادة من كل ما يحقق الخير لأمتنا . والمصلحة من الشرع، وحيثما تكون المصلحة فَثَمَّ شرع الله .

وتقدير المصلحة لا يكون بالهوى **﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموٰت والأرض ومن فيهن﴾** (٧١ – المؤمنون) . وفى هذه المرحلة التى تمر بها أمتنا نتجه بكل ما نملك نحو بناء مجتمعاتنا . مجتمعات الشورى والكفاية والعدل والحرية والمساواة والأخوة فى الله . ومبدأ تكافؤ الفرص، ومبدأ وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب مبدأن سليمان وصالحان تحت كل النظم .

ونحن فى تحركنا نحو صنع مستقبلنا لا ننطلق من فراغ، ولا نبدأ من لا شىء، إننا نحدد طريقنا، ونمضى نحو أهدافنا بزاد مستمد من تراثنا وأصولنا وآلامنا وآمالنا . وإننا إن نقتبس من غيرنا لا نقتبس ما يخالف عقيدتنا، بل إننا نبلوره ونصوغه على النحو الذى تجرى عليه قيمنا وتقاليدنا .

والقول بالحل الإسلامى كسياسة مستقبلية لنا يسود بين كل المسلمين فى أقطارنا وغير أقطارنا . وفى كتابى «فى إصلاح التعليم الأولى» الذى ظهر منذ نحو نصف قرن ناديت بأشياء كثيرة لم تحل حتى اليوم، ومنها إعلان التعبئة العامة لمحو الأمية، وتعميم التعليم الأساسى ورفع مستواه . إنَّ هذه هى مشكلة المشاكل، فلعلنا نتدارك من أمرها فى المستقبل ما فاتنا فى الماضى! .

مازالت «المشروعات» وعلى مستوى دول العالم على نوعين(٢) : عامة وخاصة . ويختلف امتداد (أو انكماش) أحدهما دون الآخر من دولة إلى أخرى . ويعتمد نجاح المشروعات

---

(١) عن مقال لى منشور بمنبر الإسلام عدد ٦ سنة ٢٣ – جمادى الآخرة ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥/٩/٢٦) ص١١٨ – ١١٩ – مع تعديل وتغيير .

(٢) يوجد ما يسمى – كذلك – بالمشروعات المختلطة .

الخاصة على الباعث الشخصى . أما المشروعات العامة فقد اختلفت الدول فى إدارتها فبعضها اعتمد على القهر، وبعضها اعتمد على مداهنة العاملين . وكان الفشل فى الحالين هو النتيجة . إنما تدار المشروعات العامة بنجاح بالوازع الدينى . إن حق المجتمع، أو حق الله أظهر فيها من المشروعات الخاصة . إن القوانين واللوائح الوضعية لا تصنع المستقبل، وإنما يصنعه الإيمان الذى يأتى بالمعجزات . وهذا يحتاج إلى إعداد مبكر، وإلى تربية، والتربية الدينية هى المثلى . وخير الهدى هدى الله ﴿**فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا * ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى**﴾ (١٢٣ - ١٢٧ طه) .

إن سعادة الأمة هى مطلبنا، ولا سعادة إلا مع الحرية والكرامة والعدل ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**﴾ (٧٠ - الإسراء) . ولابد من العمل بإخلاص لزيادة الدخل العام، وبنسبة أعلى من زيادة السكان . ولابد من الاقتصاد فى النفقة وتجنب الإسراف . ولابد من العدل فى توزيع عائد العمل على الجميع . والدولة الإسلامية هى دولة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتبادل النصح وممارسة النقد . ولابد من إحاطة كل هذا بتقوى الله ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنو وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون**﴾ (١٠٥ - التوبة) .

وأعود وأقول : إننا قد نعمل وننتج، وقد نحصل على عائد كبير، لكن هذا سيذهب هباءً إذا لم نصنه بالاعتدال فى الإنفاق على مستوى الفرد والأسرة والجماعة والدولة . ونحن مطالبون دينًا بالتوسط والاعتدال ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا..**﴾ (١٤٣ - البقرة) . ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا**﴾ (٢٩ - الإسراء) . ﴿**ثم لتسألن يومئذ عن النعيم**﴾ (٨ - التكاثر) . ﴿**وكلوا واشربوا ولاتسرفوا إنه لا يحب المسرفين**﴾ (٣١ - الأعراف) . ﴿**إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين..**﴾ (٢٧ - الإسراء).

وفى الناس الطيب والخبيث، وفى مرحلة التغيرات والانتقال بالذات، تظهر أمراض اجتماعية كالإسراف فى الإنفاق على الإنتاج، وعدم تقدير المسئولية فى دراسة المشروعات الجديدة، والإهمال فى التنفيذ .. إلى آخره . ولكن السيطرة عليها، والحد من تأثيرها ممكن بممارسة الحرية - ولن يحرس المكاسب إلا الشعب . من هنا وجب تكوين رأى عام فاضل مستنير . وأداتنا فى ذلك الدعوة إلى الخير والاستقامة ومقاومة الانحراف : يجب إفساح المجال للنقد ما دام واعيًا ومخلصًا وبناء . إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتبادل النصح وممارسة النقد فرضٌ . والحاكم والمحكوم كلاهما مأموران بذلك : إننا مأمورون بالإرشاد إلى الخير، وتغيير المنكر، وتكوين رأى عام واع مهذب . ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾ (١١٠ - آل عمران) . ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**﴾ (١٠٤ - آل عمران) . ومن

صفات المؤمنين أن ﴿أمرهم شورى بينهم﴾ (٣٨ – الشورى) . ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ (١٥٩ – آل عمران) . «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» (مسلم وأحمد وغيرهما عن أبى سعيد) . وإذا كان الجميع مطالبين بالعمل، فليس ذلك لكى تستفيد القلة على حساب الكثرة . ومن هنا يجب العدل فى توزيع العائد . ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾ (٩٠ – النحل) . ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ..﴾ (٥٨ – النساء) .

وعلينا أن نحصِّن هذا كله ونحيطه بتقوى الله، وعلينا بالتقوى فى كل تصرفاتنا، فى ممارسة اختصاص السلطة، فى تقدير المصلحة العامة، فى الاقتباس من غيرنا، فى العمل، فى الإنفاق، فى التوزيع، فى الحرية والعلم وتبادل النصح وممارسة النقد .. إلى آخره . والله – جل شأنه يأمرنا بالتقوى فى صياغات كثيرة متنوعة . وفى الكثير من آيات الذكر الحكيم :

﴿وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ (١٨٩ – البقرة) . ﴿بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين﴾ (٧٦ – آل عمران) . ﴿للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾ (١٧٢ – آل عمران) . ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين﴾ (٩٣ – المائدة) . ﴿فليؤد الذى أؤتمن أمانته وليتق الله ربه﴾ (٢٨٣ – البقرة) . ﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ (٩٠ – يوسف) .

الطعام والأمن .. بعد الجوع والخوف

بند (٦٨) :

يقول تعالى فى سورة قريش :﴿ **لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**﴾ .

هذه هى سورة قريش ، والسورة السابقة عليها مباشرةً هى سورة «الفيل» . والآية الأخيرة من هذه السورة الأخيرة هى قوله تعالى « .. **فجعلهم كعصف مأكول**..» - أى جعل الجيش الذى جاء لهدم الكعبة (وكان بقيادة أبرهة ، وكان به بعض الفيلة) جعلهم الله كعصف مأكول، «والعصف» ورق الشجر بعد جفافه فتعصف به الريح ، و«المأكول» ، الذى أُكلَ بعضُه ، فَتَفَتَّتَ الباقى وتشتَّتَ وتبعثر . وقيل : إن سورة قريش متصلة ، وغير منفصلة عن سورة الفيل . والله - سبحانه وتعالى - يمن على قريش، بإفناء جيش جاء لهدم الكعبة ، والكعبة (هى بيت الله العتيق) هى التى جعلت لقريش مكانة خاصة بين كل العرب! وازدادت تلك المكانة عندهم بدحر جيش أبرهة . فالبيت بيت الله ، ورب البيت هو الذى أهلك الجيش ، هذا (أى اتصال السورتين) ما ذهب إليه البعض . والرأى الآخر أن السورتين منفصلتان ، تفصلهما البسملة . وعلى الرأيين، وفى الحالتين ، والوجهين . فإن المولى - جل وعزّ - هو الذى أَلَّفَ بينهم ، وأذهب عداواتهم وأضغانهم .

ومن شأن العدوان الخارجى أن يقوى الجبهة الداخلية ، والله - سبحانه وتعالى - هو الذى هيأ لهم ، وحَبَّبهم فى رحلة الشتاء ورحلة الصيف . الأولى إلى اليمن والأخرى إلى الشام. ومن شأن الأسفار والاغتراب فى رحلات وقوافل - تحمل عروض التجارة - ذهاباً وإياباً ، والمعرضة للأخطار ، أن تؤلف بين الرفاق . وكان الناس يُتَخَطَّفُون من حولهم ، أما هم فكانوا فى أمان ، لأنهم سَدَنَةُ بيت الله . وهذا من فضل الله . وفى السورة الكريمة « **فليعبدوا رب هذا البيت * الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**» .

وَدُعِيَتْ قريش إلى عبادة ربِّ البيت ، وليس البيت ، ولا أى شىء آخر . دعيت إلى عبادة الذى أطعمهم بعد جوع ، وآمنهم بعد خوف . وما فعلوه مع رسول الله . والذين آمنوا معه معروف . لقد كفر معظمهم بأَنْعُمِ الله ! والآيات التى وردت فيها كلمة الأمن(١) وما يُشتق منه غير قليلة فى الكتاب والسنة :

---

(١) انظر عن كلمة «آمنا» ١٢٦ - البقرة و ٩٧ آل عمران و ٣٥ إبراهيم و ٥٧ - القصص و ٦٧ - العنكبوت و ٤٠ - فصلت . وعن كلمة «آمنة» ١١٢ - النحل ، وعن كلمة «آمنون» ٣٧ - سبأ و ٨٩ - النمل . وعن كلمة «الأمن» ٨٣ - النساء و ٨١ - الأنعام و ٨٢ منها . وعن كلمة «أمنًا» ١٢٥ - البقرة و ٥٥ النور . وسنقف مع بعض هذه الآيات .

يقول تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ (١٢٦- البقرة) .

المقصود «بالبلد» في الآية «مكة المكرمة» ، وحين دعا إبراهيم عليه السلام ، دعا الله أن يجعله بلداً آمنا ، وأن يرزق أهله من الثمرات ، من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، ولكن المولى – جل عزّ – أضاف إليهم كل من سكن مكة، وهم الكفار الذين شاركوا المؤمنين الأمن والرزق . وهذه المشاركة إنما هي في الدنيا ، ومتاعها قليل ، أما في الآخرة فمصيرهم إلى النار وبئس المصير . وفي الآية إشارة إلى «الأمن» وهو ضد الخوف! وفيها إشارة كذلك إلى الرزق والثمرات (أي الطعام) وهو ضد الجوع . ومن اجتمع له هذان (مع البدن المعَافَى) فقد حيزت[1] له الدنيا .

وفي سورة إبراهيم (الآيات ٣٥ – إلى – ٣٧) – يقول تعالى : ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم * رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ . دعا إبراهيم ربه أن يجعل البلد آمنا ، وأن ينأى به وبنويه عن الشرك. وبعد أن قال – في دعائه – فمن تبعني فإنه مني – ترك أمر من عَصَوْه إلى الله الغفور الرحيم . وبأمر من الله ، أسكَن إبراهيم من ذريته هاجر وابنها إسماعيل عند البيت العتيق ، بيت الله ، ليقيموا الصلاة . ثم دعا الله أن يجعل أفئدة من الناس تتجه إليهم وتقيم معهم ، أو قريبا منهم ، وأن يرزق الجميع من الثمرات لعلهم يشكرون . وقد أجاب له الله كلَّ ما سأل، وإلى اليوم والغد ، بفضل من الله .

أقول :إن «الأمن» – بعد «الخوف» – كما جاءت الآية الأخيرة من سورة قريش. وفيها يمن الله عليهم (وليس لغير الله أن يمن على عباد الله) – هذا الأمن الذي انتفى معه كل أنواع الخوف – هو الحرية التي لايكون فيها الإنسان عبداً لغير الله . إنه السكينة والطمأنينة والتحرر من كل الكوابيس والطواغيت . إنه اطمئنان الجميع على ذواتهم وأهليهم وأعراضهم وأموالهم . إنه الطمأنينة على يومهم وغدهم وحاضرهم ومستقبلهم . وهذه هي السعادة . ولا سعادة بغير ذلك . ما أجمل الحرية ، ما أجمل المساواة ، ما أجمل أن يكون الإنسان – بعد الله ، ومع الله – سيد نفسه! ما أجمل التخلص من الخوف والقلق ، والوساوس والهواجس الشريرة . ولابد من اتخاذ الأسباب. ومن يساعد نفسه يساعده الله . ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه . وشكر المنعم واجب .﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾[2] ، ﴿و ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون» (١١٢ – النحل) .

---

(١) إشارة إلى الحديث الشريف «من أصبح منكم آمنا في سرْبِهِ ؟ ، معافى في جسده عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» (البخاري في الأدب والترمذي وابن ماجة عن عبد الله بن مُحْصَنَ) .

(٢) ٧ – إبراهيم .

وهذا إنذار ووعيد للدول الغنية القوية ، التى تتصرف وفق مصالحها وحدها ، وعلى حساب الغير :على حساب الفقراء[1] الضعفاء!

هذا ، وقد جاء الأمن والخوف فى آية كريمة، أذكرها، وما جاء فى ابن كثير عنها : قال تعالى : ﴿ **وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا**﴾(٨٣ - النساء).

وعن تفسير ابن كثير للآية ، أنقل ما يلى : (طبعة الشعب - مجلد ٢ ص ٣٢١ وما بعدها) قوله :﴿ **وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به**﴾ إنكار على من تبادر على الأمور قبل تحققها فيخبر بها ويفشيها وينشرها . وقد لا يكون لها صحة . وقد قال مسلم فى «مقدمة صحيحه» : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبه عن ... عن حفص بن عاصم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع» . وفى الصحيحين عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن «قيل وقال» أى الذى يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ولا تدبر ، ولا تبين . وفى سنن أبى داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «بئس مطية الرجل زعموا عليه» وفى الصحيح : «من حدّث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين». وذكر ابن كثير ص ٣٢٢ حديث عمر بن الخطاب حين بلغه أن الرسول صلى الله عليه وسلم طلق نساءه .. فلم يصبر حتى استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله فنفاه، فذهب إلى المسجد وأعلن ما عرف - فنزلت هذه الآية . قال: فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر .

أضيف إلى ما سبق آيات أخرى من الكتاب الكريم جاء فيها ذكرالجوع والخوف معا . من ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم[2] المهتدون**﴾.

أقول : فى الآيات السابقة إشارات إلى اختبارات وابتلاءات بأشياء وأشياء منها الخوف والجوع . إن القضية هنا هى قضية القضاء والقدر اللذين يجب الإيمان بهما ، والتسليم بما أراد الله بنا . وفى «الاختبار» (كل اختبار) ينجح من أراد الله له النجاح ، ويفشل[3] من يفشل . واتخاذ الأسباب فى كل الأحوال واجب . وفى الكوارث - عامة - (كالزلزال الذى أصاب مصر منذ أقل من أسبوع)[4] - ليس أمام المتضررين إلا أحد خيارين : إما الرضا

---

(١) وهذا إنذار بإفلاسها ، ووعيد بنهاية تسلطها .
(٢) ١٥٥ و١٥٦ و١٥٧ من سورة البقرة .
(٣) يقول تعالى فى سورة النساء : «... قل كل من عند الله ...» (الآية ٧٨) ، ويقول فى الآية ٧٩ من نفس السورة: «ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، وأرسلناك للناس رسولا ، وكفى بالله شهيداً» (وانظر- على سبيل المثال تفسير القرطبى للآيتين مجلد ٥ ص ٢٨٢ وما بعدها).
(٤) الكلمة مكتوبة فى ١٨/١٠/١٩٩٢م .

والصبر ، وإما الجزع والهلاك . وليس وراء هذين (الجزع والهلاك) إلا الخسران المبين ، والعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة جميعا . والله يقول فى الراضين والصابرين : ﴿وبشر الصابرين... ﴾ إلى آخر الآيات سابقة الذكر» .

ولقد سبق ذكر الآية ١١٢ – النحل : ﴿و ضرب الله مثلا قرية ...﴾ وفى الآية التى تليها : ﴿ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم الله وهم ظالمون﴾ (١١٣ من نفس السورة) . وعن الآية ١١٢ أضيف : إنها قرية أو مدينة ، أو بلاد تضم مدنا وقرى ، قليلة أو كثيرة – كانت آمنة مطمئنة إلى حاضرها ، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فبطرت وكفرت بأنعم الله وكان العقاب الذى أنزله الله بها من جنس عملها ، فأبدلها بالأمن خوفا ، وبالعيش الرغيد جوعا ، وما ظلمهم الله ، ولكن ظلموا أنفسهم ، وأَخَذَهُم الله بذنوبهم . لقد أذاقهم الله لباس الجوع والخوف، أى أن هذين الغولين البشعين قد خالطا أجسادهم مخالطة اللباس للجسم! .

وفى سورة العنكبوت ، وبعد أن ذكر– سبحانه وتعالى – بعض الرسل والأنبياء ، وما كان من أقوامهم من تكذيبهم ، والنّيل بالأذى منهم ، قال فى الآية ٤٠ : ﴿فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا(١)، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ . لقد أخذهم الله بذنوبهم .

---

(١) الحاصب : الريح ترمى بالحصباء ، وهى الحصى الصغار ، (وهذا ما وقع بقوم لوط) ، أما ثمود وأهل مدين، فقد أخذتهم الصيحة وهى العذاب ، أو مقدمة كل عذاب ، ومنهم من خسفنا به الأرض كقارون ، ومنهم من أغرقنا كقوم نوح .

الفصل السابع والعشرون

فى الطب النفسى
(طب القلوب)

بند (٦٩)

أبدأ بكتاب «الطب النبوى» لابن قيِّم الجَوزية (٦٩١ -٧٥١ هـ) - طبع «دولة الإمارات العربية المتحدة» (لجنة التراث والتاريخ) . وسأنقل نبذاً مما جاء فى المتن، وتوضيحات وتعليقات مما جاء فى الهوامش (وهى لعدد من المحققين والمتخصصين أحدهم طبيب) .

قال المؤلف : هذه فصول نافعة فى هديه صلى الله عليه وسلم، فى الطب الذى تطبب به ووصفه لغيره .. وقال : المرض نوعان، مرض القلوب ومرض الأبدان(١) - وهما مذكوران فى القرآن .

ومرض القلوب نوعان : مرض شبهة وشك، ومرض شهوة وغَىّ، وكلاهما فى القرآن : قال تعالى : **﴿فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا﴾** (١٠ - البقرة)، وقال تعالى : **﴿وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾**(٢)، وقال تعالى فى حق من دُعِىَ إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى وأعرض : **﴿وإذا دعوا إلى الله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين * أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون﴾** فهذا مرض الشبهات والشكوك (٥٠ - النور) وأما مرض الشهوات فقال تعالى : **﴿يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض﴾**(٣) - فهذا مرض شهوة الزنا ... وفى مكان آخر (ص٣ - ٤) قال : أرشد سبحانه وتعالى عباده إلى أصول الطب الثلاثة، ومجامع قواعده . ونحن نذكر هديه صلى الله عليه وسلم فى ذلك ... فأما طب القلوب فَمُسَلَّم إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ولا سبيل إلى حصوله إلا من جهتهم وعلى أيديهم(٤) . فإن صلاح القلوب : أن تكون

---

(١) مما جاء فى هذا الهامش : إن هذا التقسيم فيه من الحكمة الإلّهية والإعجاز الكثير، مما لم يتوصل إليه الأطباء إلا حديثًا . وبعد أن تكلم صاحب التعليق على الأمراض العضوية التى سماها المؤلف أمراض الأبدان - قال : والأمراض النفسية التى أطلق عليها المؤلف «أمراض القلوب» - هى فى الحقيقة - أعراض أمراض متنوعة وكثيرة جداً ... وهذه الأعراض تنتج عن مؤثرات خارجية فى الحياة العامة : مثل الخوف، الشكّ ، الغرام ، عدم الاكتفاء الجنسى ، كثرة الإجهاد إلى آخره .

(٢) ٣١ - المدثر .　　(٣) ٣٢ - الأحزاب .

(٤) فى الهامش كتب المعلق : إن الإيمان بالله وبرسله، والعقيدة الراسخة لمن أهم حالات مرض القلوب.(أى أن افتقادها يسبب المرض) .

عارفة بربها وفاطرها، وبأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأن تكون مُؤثِرةً لمرضاته ولمحَابِّه، متجنبة لمناهيه ومساخطه . ولا صحة لها ولا حياة البتَّة إلا بذلك . ولا سبيل إلى تلقيه إلا من جهة الرسل . وما يظن من حصول صحة القلب بدون اتباعهم - فغلط ممن يظن ذلك . وإنَّما ذلك : حياة نفسه البهيمية الشهوانية، وصحتها وقوتها، وحياة قلبه وصحته وقوته عن ذلك بمعزل . ومن لم يميز بين هذا وهذا فليبك على حياة قلبه : فإنه من الأموات؛ وعلى نوره(1) - فإنه منغمس في بحار الظلمات .. إلى آخره .

يقول تعالى : **﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين * وإن كان كبر إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾**

(الآيات ٣٣ - ٣٥ الأنعام) . وأقتبس بعض العبارات مما جاء فى تفسير المنار(2) عن هذه الآيات : هذه السورة (الأنعام) نزلت فى دعوة مشركى مكة إلى الإسلام ومحاجتهم فى التوحيد والنبُوَّة والبعث .. وقد سبق فى آيات من السورة قوله تعالى : **﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك﴾** (الآية - ٨) وقالوا : **﴿إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾** (الآية - ٢٩) . وأمر الله تعالى نبيه بالردّ على كل من القولين . وفى هذه الآيات (٣٣ - ٣٤ - ٣٥) - ذكر المولى جل وعزّ تأثير كفرهم فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم، وحزْنَه مما يقولون فى نبوته . وسلاّه عن ذلك ببيان سنته سبحانه وتعالى فى الرسل مع أقوامهم . وفى قوله تعالى **﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾** .

جاء فى المنار إنهم لا يجدونك كاذبًا، وهم لم يجربوا عليك الكذب، ولكنهم يجحدون بالآيات الدالة على صدقك بإنكارها بألسنتهم فقط . ونَقَلَ عن الحافظ بن كثير فى تفسيره . قال أبوجهل للنبى صلى الله عليه وسلم : إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به . وعن أبى يزيد أن النبى صلى الله عليه وسلم لقى أبا جهل فصافحه . فقال له رجل : ألا أراك تصافح هذا الصابئ؟ فقال : والله إنى لأعْلَمُ إنَّه لنبىٌ، ولكن متى كنا لبنى عبد مناف تبعاً ؟

وعن قوله تعالى : **﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم .. الآية﴾** - جاء فى أوائل السورة أنهم كانوا يقترحون عليه الآيات، (أى المعجزات)، وكأنه كان يتمنى لو آتاه الله بعض ما طلبوا حرصاً على هدايتهم، وأسفًا وحزنًا على إصرارهم، وتألمًا من كفرهم . ولكن الله تعالى يعلم أن هؤلاء المقترحين الجاحدين لا يؤمنون وإن رأوا من الآيات ما يطلبون . وقد أراد تعالى أن يريح

---

(1) «وعلى نوره» أى : ولْيَبكِ على نور قلبه . فإنه قد صار بفقد نور القلب فى بحار الظلمات . والويل لمن لم يستضئ بنور الله، وسيرة رسول الله، ولم يقف عند ماجاء فى القرآن والسنة من أوامر ونواه! وأضيف : إن الجسم والنفس يُؤَثِر أحدهما فى الآخر ويتأثر به . فالمرض النفسى قد ينتج عنه مرض أو أمراض عضوية، والعكس صحيح - وسأعود إلى هذا المعنى بعد .

(2) جـ ٧ ص ٣٠٩ وما بعدها .

قلب الرسول الرءوف الرحيم، فقال له : وإن كان شأنك معهم أن كبر عليك إعراضهم عن الإيمان، وعن الآيات القرآنية والعقلية الدالة عليه .. وظننت أن إتيانهم بآية مما اقترحوا يدحض حجتهم.. فيعتصمون بعروة الإيمان .. فإن استطعت أن تبتغي لنفسك نفقًا في الأرض فتذهب في أعماقها، أو سلمًا في السماء فترتقى عليه إلى ما فوقها فتأتيهم بآية مما اقترحوا .. فأت بما يدخل في طوع قدرتك؛ لأن الرسالة لا تخرج الرسول عن طور البشر في صفاتهم البشرية كالقدرة والاستطاعة، وعن قوله تعالى : « **فلا تكونن من الجاهلين** » أي لا تكونن من الجاهلين بسنن الله تعالى في خلقه، الذين يتمنون ما يرونه حسنًا ونافعًا، وإن كان حصوله ممتنعًا، لكونه مخالفًا لتلك السنن التي اقتضتها الحكمة الإلهية . فالجهل هنا ضد العلم لا ضد الحلم . وليس كل جهل بهذا المعنى عيبًا، لأن المخلوق لا يحيط بكل شيء علمًا . وإنما يُذَمّ الإنسان بجهل ما يجب عليه، ثم يجهل ما ينبغي له، ويعدّ كمالاً في حقه، إذا لم يكن معذورًا في جهله . قال تعالى في الفقراء المتعففين : « **يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف** » (٢ - ٢٧٣) . فوصفُ الجاهل هنا ليس بذم . وكان عدم علم خاتم الرسل بالكتابة من أركان آياته، وعدم علمه بالشعر أدلة الوحي وبيانه .. إن الإنسان لا يُذَمّ إلا بما يقصر في تحصيله وكسبه . وقد أمر الله رسوله بأن يسأله في زيادة العلم، وكان يزيده كل يوم علمًا وكمالاً[1] .. وإنما الذي يُذم مطلقًا هو الجهل المرادف للسفه وهو ضد الحلم .

وفي تفسير الحافظ بن كثير (إضافة إلى ما تقدم مما نقله صاحب المنار عنه) - يقول تعالى مسليًا لنبيه : « **قد نعلم إنه ليحزنك ...** » أي قد أحطنا علمًا بتكذيب قومك لك، وحزنك وتأسفك عليهم « **فلا تذهب نفسك عليهم حسرات** » (٨ - فاطر) . - كما قال تعالى في الآية الأخرى : « **ولعلك باخع على أن لا يكونوا مؤمنين** » (٣ - الشعراء) . « **فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** » (٧ - الكهف) .

ثم ماذا في تفسير القرطبي[2] ؟ قال (عن الآيتين ٣٥ - ٣٦) : إن كان عظم عليك توليهم عن الإيمان فإن قدرت أن تطلب سَرَبًا تخلص منه إلى مكان آخر، أو سببًا إلى السماء «فتأتيهم بآية» ليؤمنوا فافعل! . أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ألا يشتد حزنه عليهم إذا كانوا لا يؤمنون، كما أنه لا يستطيع هداهم «ولو شاء الله لجمعهم على الهدى» أي لخلقهم مؤمنين وطبعهم عليه . بيّن تعالى أن كفرهم بمشيئة الله، وقيل المعنى : أي لأراهم آية تضطرهم إلى الإيمان، ولكنه - عز وجل - أراد أن يثيب منهم من آمن ومن أحسن . « **فلا تكونن من الجاهلين** » أي من الذين اشتد حزنهم وتحسروا حتى أخرجهم ذلك إلى الجزع الشديد، وإلى ما لا يحل . أي لا تحزن على كفرهم فتقارب حال الجاهلين . وقيل الخطاب له والمراد الأمة ، فإن قلوب المسلمين كانت تضيق من كفرهم وإذايتهم . « **إنما يستجيب الذين يسمعون** » أي سماع إصغاء وتفهم وإرادة الحق، أي المؤمنون الذين يقبلون ما يسمعون، فينتفعون به ويعملون «والموتى يبعثهم الله» وهم الكفار، أي هم بمنزلة الموتى في أنهم لا يقبلون ولا يصغون إلى حجة . والله يهديهم إلى الإيمان بالله والرسول . وفي الآية ٣٧ - يقول تعالى : « **وقالوا لولا نزل عليه آية من**

(١) يقول تعالى : «وقل : ربِّ زدني علمًا» (١١٤ - طه) .
(٢) مجلد ٦ ص٤١٦ وما بعدها .

ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون» . ولكن أكثرهم لا يعلمون أن الله قادر على إنزالها .

بند (٧٠)

عن الآية (١٥ – من سورة الحج) : **« من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ»** .

١ - أوضح التفاسير : «من كان يظنّ أن لّن ينصره الله» أى من كان يظُنُّ أن الله لن ينصر رسول الله عليه الصلاة والسلام . أو من كان قد يئس من روح الله، وقنط من رحمته، وظن أنه تعالى لن ينصره (أى يرزقه) فليختنق . «فليمدد بسبب» بحبل «إلى السماء» أى إلى السقف (فكل ما علاك سماء) «ليقطع» ليختنق . «فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ» أى هل يذهبن كيده لنفسه بالاختناق الأمر الذى يغيظه؟! وهو ظنه بأن الله تعالى لن يرزقه، أو بأن الله تعالى لن ينصر رسوله، وقد نصره فى الدنيا : بنصره ورفعة شأنه وإعلاء دينه؛ وفى الآخرة : بالمقام المشهود، والحوض المورود والشفاعة العظمى .

٢ - تفسير ابن كثير : (مجلد ٥ ص٣٩٧ وما بعدها) قال ابن عباس (وآخرون) : من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة فليمدد بحبل إلى سماء بيته (أى سقفه)، ثم ليختنق به . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : «فليمدد بسبب إلى السماء» أى ليتوصل إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتى محمداً من السماء (ثم ليقطع) ذلك عنه، إن قدر على ذلك .

أقول : يقول تعالى : **﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين * واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون * فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ...﴾** (٣٨ – ٤٠ القصص) . ويقول : **﴿وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا و كذلك زين لفرعون سوء عمله و صد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب﴾** (٣٦ و ٣٧ غافر) . ومنذ سنوات غير بعيدة قال أحد رواد الفضاء السوفييت (الذين قالوا مما قالوا : إن الدين هو أفيون الشعوب) قال بعد عودته إلى الأرض، بعد دورة أو دورات حولها فى الفضاء قال : إنى لم أجد الإله الذى يزعمه المؤمنون. أظن أن اسم رجل الفضاء هذا «جاجارين»، وأذكر أنه لم يعمر طويلاً بعد ذلك ومات فى حادث طائرة أو سيارة . أما الاتحاد السوفيتى فقد تفكك شَذَرَ مَذَرَ .

٣ - تفسير القرطبى[1] : **﴿من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء﴾** قال أبو جعفر النحاس : منْ أحسن ما قيل فيها أن المعنى : من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً صلى الله عليه وسلم، وأنه تهيأ له أن يقطع النصر الذى أوتيه

(١) مجلد ١٢ ص ٢١ وما بعدها .

فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء (ثم ليُقطع) أى ثم ليقطع النصر إن تهيأ له . «فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ» أى هل يذهبن كيده وحيلته ما يغيظه من نصر النبى صلى الله عليه وسلم؟ وكذلك قال ابن عباس . وعن ابن عباس أيضًا : أن الهاء تعود إلى «من» والمعنى : من كان يظن أن الله لا يرْزقه فليختنق، فَليقتل نفسه . إذ لا خير فى حياة تخلو من عون الله . والنصر على هذا القول : الرزق . وكذلك روى ابن أبى نجيح عن مجاهد . وقيل: إن الهاء تعود على الدِّين .

قرآن كريم

بند (٧١)

يقول تعالى - مما يقول عن - القرآن الكريم - وهو كثير : يقول : ﴿فلا أقسم[١] بمواقع النجوم* وإنه لقسم لو تعلمون عظيم* إنه لقرآن كريم* فى كتاب مكنون* لا يمسه إلا المطهرون* تنزيل من رب العالمين﴾[١] . أقول : إن القسم - هنا - بمواقع النجوم. بالكون العظيم. الذى تعتبر المجموعة الشمسية، بكواكبها (وأرضنا منها) وتوابع هذه الكواكب؛ ليست إلا هباءات فيه! إنه (أى القرآن) فى كتاب مصون . وهو اللوح المحفوظ . إنه الكتاب الذى قال فيه : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (٩ - الحجر)؛ وقال : ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ (٤٢ - فُصلت) . وقال : ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون* وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم﴾ (٣ - ٤ الزخـــرف) . ﴿إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا﴾ (٩ - الإسراء) إن هذا القرآن يهدى للطريقة، أو الأسلوب، أو الوسيلة التى هى أعدل وأصوب ماديا ومعنويا، جسميا وروحيا وعقليا . إنه سفينة النجاة من كل كرب، والمخرج الأمين من كل مأزق[٣] .

و«المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير ...»[٤]؛ و«المؤمن كيِّس فطن حذر»[٥] «ولا يرمى بنفسه إلى التهلكة»[٦] .

وأعود وأكرر القول بأن اتخاذ الأسباب واجب . والتوكل على الله والتفويض إليه واجب . إننا هنا، وفى جو هذه الآيات، فى دائرة أوسع، ومجال أرحب لكننا لم نخرج عن موضوعنا - وهو الطب النفسى . إن الأمراض النفسية، اشتد زحفها على الناس فى عصرنا، وأسبابها كثيرة، وآثارها جدُّ خطيرة، وعلاجها فى القرآن، الذى يهدى - دائمًا - للتى هى أقوم . وفى الأثر «اعقِلْهَا وتوكل» !.

وإلى مزيد - فيما يلى - من الآيات الكريمة : ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم

---

(١) وفى سورة الحاقة (الآية - ٣٨) يقول تعالى : «فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون» .
(٢) ٧٥ - ٨٠ الواقعة . (٣) «ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ..» (٢ - الطلاق) .
(٤) إلى آخر الحديث .. (رواه مسلم وغيره عن أبى هريرة) . (٥) القضاعى عن أنس .
(٦) «.. ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا ...» (١٩٥ - البقرة - وانظر سابقًا) (بند٤٤) .

وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾[1] (٥٧ – ٥٨ يونس) . ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾ (٨٢ – الإسراء) . ﴿ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ (٤٤ – فصلت) .

يقول صاحب أوضح التفاسير (ابن الخطيب) يرحمه الله عن كلمة «وشفاء» لما فى الصدور: وأقسم بكل يمين غموس : أن القرآن الكريم، كم أذهب أسقاماً، وأزال آلاماً، وشفى صدوراً، وأبرأ جسوماً، وقد ورد عن الصحابة أنهم كانوا يرقون اللديغ بأم الكتاب فيبرأ لوقته . وقد أقر الرسول عليه الصلاة والسلام ذلك[2] . فأنعم به من هدى، وأكرم به من شفاء . وهو – فضلاً عن شفائه الأسقام والأوجاع – فإنه يشفى كل من آمن به من الشك والريب «والذين لا يؤمنون» هو «فى آذانهم وقر» (أى صمم) «وهو عليهم عمى» يطمس قلوبهم ويعمى أبصارهم وبصائرهم «ينادون من مكان بعيد» أى ينادون يوم القيامة بأسوأ الصفات ..

«... لا تقنطوا من رحمة الله ...»

بند (٧٣)

يقول تعالى : **﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون * قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم * قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون * قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين * قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾**(٥١ – إلى – ٥٦ الحجر)

ويقول : **« وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد»** (٢٨ – الشورى) . ويقول : **« قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم»** (٥٣ – الزمر) . ويقول : **« وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون»** (٣٦ – الروم) .

ويقول : **« لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط»** (٤٩ – فصلت) . هذه هى الآيات الكريمة التى جاءت فى التنزيل الحكيم، وفيها مادة «القنوط» وما يشتق منها . واليأس والقنوط مترادفان، وأكتفى بالآية التالية وهى من سورة يوسف، وعلى لسان يعقوب – عليهما السلام **« يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون»** (٨٧) .

وهذه آيات فى التوبة : يقول تعالى : **﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما * وليست التوبة للذين يعملون**

---

(١) من مال وغيره من حطام الدنيا ومتاعها .

(٢) انظر كتابى «محمد فريد وجدى» (بند ١٣ تحت عنوان : ما وراء المادة – تأثير الإرادة) .

السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما﴾ (١٧ - ١٨ النساء) . ويقول تعالى : **﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم﴾** (١٠٤ - التوبة) . ويقول : **﴿وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون﴾** (٢٥ - الشورى) . ويقول : **﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير﴾** (٨ - التحريم) . **﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون﴾** (٩٠ - آل عمران) .

أقول : الناس جميعًا عبيد الله . والإنسان كله ملك لله . وليس للإنسان حق قِبَلَ الرب إلا ما أوجبه الرب على نفسه فى مثل قوله تعالى : **﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾**[1]، وقوله: **﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾**[2] .

والقنوط كفر، كفر بالنعمة على الأقل . ونعم الله (الظاهرة والباطنة) على الإنسان، لا يعلمها ولا يحصيها إلا الله . والإنسان - وهو ملك لله - الذى صوره وركبه فأحسن التصوير والتركيب، كيف يقنط أيًّا كانت الأسباب؟ . إن فى هذا اعتراضًا على الله، وحاش لله !

واليأس، أو القنوط، والحياة - كما ينبغى أن تكون - لا يجتمعان . وللزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل عبارة شهيرة، يقول فيها «لا حياة مع اليأس، ولا يأس مع الحياة»! وإنى لا أتصور إنسانًا بلا أمل، اللهم إلا القانط من رحمة الله . إن الأمل، وإن التفاؤل، وإن الاستبشار، وإن التعلق برحمة الله ولطفه. لا يستطيع الإنسان العادى أن يعيش بدونها ما دام فيه نفس يتردد، وعرق ينبض . هذا عن الرجل العادى، فما بالنا بالمؤمن؟ إنه مع السراء يشكر، فهو فى خير، وإنه مع الضراء يصبر، فهو فى خير . إن المؤمن دائمًا فى خير . يقول تعالى : **﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾**[3] . إن المخاطب فى الآية هو صاحب الرسالة، والمقصودون هم نحن المسلمون، أتباع الرسول عليه الصلاة والسلام .

يقول الشاعر العربى :

ليس من مات فاستراح بميْتٍ ∴ إنما الميْت ميت الأحياء

إنه اليأس من روح الله . والانتحار - ونعوذ بالله - شائع بين هؤلاء . إن الإنسان - كما قلت - ليس ملكًا لنفسه - وليس له - بالتالى - أن يؤذى نفسه . فإذا انتحر فهو فى النار، وإذا شرع فى الانتحار فهو غير معاقب فى الشرائع الوضعية، لكنه معاقب دنيا وأخرى فى الشريعة الإسلامية . معاقب قضاءً، ومعاقب ديانة .

---

(١) ٤٧ - الروم . (٢) ١٢ ، ٥٤ الأنعام .
(٣) وأنظر وقارن - سابقًا - فصل بعنوان «الطب النفسى» .

وأقول فى «ميت الأحياء» السابق الذكر، إنه حقيقة ميت، بعكس هؤلاء الذين رحلوا من ذوى الشأن، نابهى الذكر . إنهم بآثارهم وذكرهم أحياء «والذكر للإنسان عمر ثان» .

وأنتقل إلى «القرطبى» و«ابن كثير» فى تفسيريهما، وبعض ما قالاه، وما أورداه من نصوص - عن الآية - ٥٣ - الزمر :

يقول ابن كثير[١] عن هذه الآية : هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت؛ وإن كثرت وكانت مثل زَبَد البحر . ولا يصح حَمْلُ هذه الآية على غير توبة، لأن الشرك لا يُغفر لمن لم يتب منه . ويقول القرطبى[٢] بعد أن ذكر صدر الآية «من أَجَلِّ ما روى فيه ما رواه محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال : لما اجتمعنا على الهجرة اتَّعَدْتُ أنا وهشام بن العاص بن وائل السهمى، وعياش بن أبى ربيعة بن عُتبة، فقلنا : الموعد أضاة[٣] بنى غفار . وقلنا : من تأخر منا فقد حُبِسَ فليمض صاحبه، فأصبحت أنا وعياش بن عتبة وحُبِس عنا هشام، وإذا به قد فُتِن فافْتُتِنَ . فكنا نقول فى المدينة : هؤلاء قد عرفوا الله عزّ وجل، وآمنوا برسوله صلى الله عليه وسلم، ثم افْتُتِنوا لبَلاء لَحِقَهم لا نرى لهم توبة؛ وكانوا هم أيضاً يقولون هذا فى أنفسهم، فأنزل الله عزَّ وجل فى كتابه « **قل يا عبادى الذين أسرفوا ... الآية**» إلى قوله تعالى : « **أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين**»[٤] . قال عمر : فكتبتها بيدى ثم بعثتها إلى هشام . قال هشام : قلت : اللهم فهمنيها فعرفت أنها نزلت فينا، فرجعت فجلست على بعيرى فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان قوم من المشركين قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا فقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم - أَوْ بَعَثُوا إليه : إن ما تدعو إليه لَحَسَن، أو تخبرنا أن لنا توبة؟ فأنزل الله عز وجل، هذه الآية «قل يا عبادى ...» ذكره البخارى بمعناه . وعن ابن عباس أيضاً : نزلت فى أهل مكة . قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التى حرم الله لم يُغْفَرْ له . وكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا مع الله إلَهاً آخر وقتلنا النفس التى حرم الله . فأنزل الله هذه الآية . وقيل : إنها نزلت فى قوم من المسلمين أسرفوا على أنفسهم فى العبادة، وخافوا ألاّ يُتقبل منهم لذنوب سبقت لهم فى الجاهلية . وقال ابن عباس أيضاً وعطاء نزلت فى وحشى قاتل حمزة، لأنه ظن أن الله لا يقبل إسلامه . وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : أتى وحشى إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فقال : يا محمد : قد أتيتك مستجيراً فأجرنى حتى أسمع كلام الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد كُنْتُ أحبُّ أن أراك على غير جوار، فأما وقد أتيتنى مستجيراً فأنت فى جوارى حتى تسمع كلام الله. . قال: فإنى أشركت بالله وقتلت النفس التى حرم الله وزنيت، هل يقبل الله منى توبة؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلَهاً آخر ولا يقتلون**

---

(١) مجلد ٧ ص٩٧ وما بعدها .
(٢) مجلد ١٥ ص ٢٦٧ وما بعدها .
(٣) الأضاة = الغدير .
(٤) الآية ٦٠ من نفس السورة .

النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾ إلى آخر الآية فتلاها عليه . فقال : أرى شرطًا، فلعلى لا أعمل صالحًا[1] . أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله، فنزلت ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ فدعا به فتلى عليه؛ قال : فلعلى ممن لا يشاء، أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله، فنزلت - «يا عبادى الذين أسرفوا ...» . فقال: نعم. الآن، لا أرى شرطًا، فأسلم .. إلى آخره .

ذكر أحاديث فيها نفى القنوط[2]

قال الإمام أحمد : حدثنا سُريج بن النعمان، حدثنا .. حدثنى أَخْشَنُ السدوسى قال : دخلت على أنس بن مالك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «والذى نفسى بيده، لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله لَغَفَرَ لكم . والذى نفس محمد بيده لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم» (مسند الإمام أحمد ٣/٣٨) . وقال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى .. عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة . قد كنت كتمت منكم شيئًا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول : «لولا أنكم تذنبون، لخلق الله قومًا يذنبون فيغفر[3] لهم» . وقال الإمام أحمد : حدثنا ... عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كفارة الذنب الندامة» ... إلى آخره .

عودة إلى موضوع التوبة

بند (٧٣)

عن أنس قال : كان غلام يهودى يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمرض، فأتاه النبى صلى الله عليه وسلم يعوده . فقعد عند رأسه، فقال له «أسلم» فنظر الغلام إلى أبيه وهو عنده . فقال (الأب) أطع أبا القاسم، فأسلم . فخرج النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول «الحمد لله الذى أنقذه بى من النار» (رواه أحمد والبخارى وأبو داود)[4] .

أقول : لقد أسلم الغلام وهو فى مرض الموت (قارن الآية ١٨ من النساء، وقد سبق ذكرها). والعبرة بالخاتمة، والأمر لله أولاً وآخراً . هناك آثار كثيرة فى ذلك - أذكرها هنا بمعناها . من ذلك الرجل الذى كان قد اشتد به الظمأ، فصادف بئراً، فنزل وشرب حتى ارتوى، ولما صعد من البئر وجد كلبًا يلهث من شدة العطش، فعاد ونزل إلى البئر، وملأ خفه وسقاه - فغفر الله له ! وكذلك هذا الآخر الذى كان يعمل عمل أهل النار، حتى إذا كان بينه

---

(١) «والذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثامًا» (٦٨ - الفرقان) . «يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانًا» (٦٩) «إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيمًا» (٧٠) «ومن تاب وعمل صالحًا فإنه يتوب إلى الله متابًا» (٧١) .

(٢) عن ابن كثير، نفسه، ص٩٩ وما بعدها .

(٣) مسند الإمام أحمد ٥/ ٤١٤ والنص كما هو مبين فى المتن.

(٤) عن «نيل الأوطار للشوكانى» (جـ٨ ص٧٠ وما بعدها . الطبعة الثالثة - مصطفى البابى الحلبى) (باب ما جاء فى بداءتهم) «أى الذميين» بالتحية، وعيادتهم.

وبينها قيد شبر عمل عمل أهل الجنة فدخلها . وهذا الثالث الذى كان يعمل عمل أهل الجنة حتى إذا كان بينه وبينها قيد شبر عَمل عَمَلَ أهل النار، فدخل النار . وفى الحديث الشريف «دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها، فلمَ تُطعمها ولم تدعها تأكل من حَشاش[1] الأرض حتى ماتت»[2] .

من الواجب علينا ألا نستهين بالشىء (أو العمل) الصغير، خيراً كان أم شراً : فإماطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الإيمان، وفاعلها مثاب . والذى يرمى «بالأذى» فى الطريق، سيلقى العقاب، فى الدنيا والآخرة . إن النظافة من الإيمان . ونحن فيما يتعلق بالطريق – يجب ألا نقف عند تنظيفه، بل نطمع فى تجميله، فما بالنا بهؤلاء البلهاء الذين يعملون على تلويثه؟ إن قشرة موز أو برتقال، قد يتعثر فيها قدم وتكون النتائج وبيلة . ما أكثر ما هو مطلوب من المؤمن! إن عليه جلب المصالح ودرء المفاسد، وهذا يتطلب منه الكثير من الجهد، والكثير من اليقظة، ومحاسبة النفس! وأختم هذه الإضافة بهذه الآيات فى التوبة من العبد، والرحمة من الرب : يقول تعالى : ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعد ذلك وأصلح فإنه غفور رحيم﴾(٥٤ ـ الأنعام) . ويقول : ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ (١١٩ – النحل) . ويقول : ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم * وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم﴾ (٧ – ٩ غافر) .

الأمل .. والأمانى

بند (٧٤)

يقول تعالى : ﴿ألر، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين * ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين * ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾ (٣،٢،١ الحجر) . ويقول : ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا﴾ (٤٦ – الكهف) . وفى كتب اللغة[3] : الأمل : الرجاء . وأكثر استعماله فيما يستبعد حصوله. والجمع : آمال. وعن الآمانى، أنقل فيما يلى شيئًا مما جاء عنها، وفى «مادتها» فى القرآن الكريم يقول تعالى : ﴿ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب، من يعمل سوءا يجز به ...﴾(١٢٣ – النساء – وقد سبق ذكرها) .

ويقول : ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب * ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر

(١) حشرات الأرض . (٢) أحمد فى مسنده عن أبى هريرة .
(٣) وفى كتاب اللغة : الأمْنِيَة – البُغْية – والجمع : أمانى .

الله وغركم بالله الغرور * فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير﴾ (١٣ و ١٤ و ١٥ الحديد) . ويقول : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، وإن الظالمين لفي شقاق بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ (٥٢ و ٥٣ و ٥٤ الحج) .

أقول : إنه إذا كان الأمل، معناه – لغةً – الرجاء؛ وإذا كانت الأمنية معناها لغةً : البُغية، فهذه كلها جميلة وحميدة .

والشاعر العربي يقول :

أعلِّلُ النفسَ بالآمال أرقبها ∴ ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل.

ويقول آخر :

مُنىً، إن تحقَّقتْ تكن أجمل المنى ∴ وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا.

ومثل هذا كثير في التراث العربي، وغير العربي . فالإنسان – بلا آمال، وبلا أماني هو «ميِّت الأحياء»(١) . إنه إنسان مريض نفسياً، وربما بدنياً كذلك . إنه إنسان مكتئب . إنه يعاني من اختلال، وإن قلبه قد خلا من الإيمان، ومن الثقة بالنفس . والكافرون، والمنافقون، مرضى بدرجة أو بأخرى . وبين هؤلاء وهؤلاء ترتفع نسبة الانتحار . إنهم في عذاب في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. ﴿ كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ (٣٣ – القلم).

وأقول : إن الآيات الكريمة لم ترفع عن «الآمال والأماني» معناها الكريم، وإنما انحراف الإنسان بها، انحراف الإنسان الجاهل المريض، الذي غرَّه الغَرور، وتسلطت عليه شهواته ونزواته والنفس الأمارة بالسوء .

وأنتقل – بعد هذا التقديم إلى كلمات موجزة، وبعض الإيحاءات التي تنطلق من الآيات الكريمات، ففي الآية (١٢٣ من النساء) يقول – عزّ من قائل : ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوء يجز به ...﴾ وهذه بعض النصوص في أمانيهم (أي أماني أهل الكتاب) : ففي الآية (١١١ من سورة البقرة) ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾؛ وفي الآية ١١٣ من نفس السورة : ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ..﴾ إلى آخر الآية .

هذه آيات ترد على أباطيل اليهود والنصارى . وهم أهل كتاب وترد على الذين لا يعلمون (وهم الأميون) الذين قالوا مثل قولهم . هذه نوعيات من «الأماني الآثمة» التي رددها هؤلاء

(١) ليس من مات فاستراح بميِّتٍ ∴ إنما الميْتُ ميِّت الأحياء.

وهؤلاء وهؤلاء، وجاء القرآن الكريم ليدمغ مزاعمهم بقوله « **من يعمل سوءا يجز به**» وبالمثل من يعمل خيراً يجز به . ﴿**الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ...**﴾ (١٧ - الشـــورى) . وفى الآيات (١٣ و ١٤ و ١٥ من سورة الحديد) يقول المنافقون للمؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم، فقيل لهم - توبيخًا وتأنيبًا وسخرية، ارجعوا إلى حيث أعطينا هذا النور فاطلبوه . وكان سدٌ سميك كثيف قد أقيم؛ فى باطنه الرحمة، حيث أهل الجنة، وفى ظاهره العذاب، حيث أهل النار. وينادى المنافقون المؤمنين : ألم نكن معكم؟ قالوا : بلى، لكنكم تربصتم بنا وشككتم فى ديننا ، وغرّتكم الأمانى، وخدعتكم الآمال الكذاب، وكذب عليكم الشيطان حين زعم لكم، أن رحمة الله تشملكم . وجاء الموت، وتحققتم من وعيد الله . واليوم - يوم الساعة - لا تقبل منكم فدية، ولا من الذين كفروا والنار مرجعكم جميعًا . هى مآلكم، وبئس المآل !

وعن الآيات (٥٢ و ٥٣ و ٥٤ - الحج - وقد سبق ذكرها) يقول تعالى مخاطبًا خاتم أنبيائه عليه الصلاة والسلام : لا تحزن، ولا يضق صدرك بما ترى وتسمع وتشهد، فما من رسول ولا نبى قبلك، إلا وقد أخذ يدعو إلى الله مثلك فيتصدًى له ولدعوته المتمردون، إنهم شياطين الإنس الذين يُلقون بكل ثقلهم ولئيم كيدهم ضد كل دعوة، لكى يحولوا دون ظهورها ونشرها، ولكن الله غالب على أمره، فتنتصر الدعوة، وتتحقق فى النهاية الأمنية . إن الله ينسخُ ما يلقى الشيطان فى طريق الدعوة من عقبات، ويثبت الله شريعته، وينصر رسله وهو العليم الحكيم . إنه الامتحان، ليحيى من حىًّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة . إن ما يلقى الشيطان، ويتلقّفه شياطين الإنس، إنما هو فتنة للذين فى قلوبهم مرض وزيغ . إنها قلوب كالحجارة، بل أشد قسوة . هؤلاء جميعًا يزيدون ضلالاً وغيًّا . ففى آذانهم وقر، وعلى أعينهم غشاوة . وهم فى شقاق، ولهم عذاب أليم . أما الذين أوتوا العلم، فيعلمون أنه الحق من ربك، فتخبت له قلوبهم وتخشع . والله يزيد الذين آمنوا إيمانًا، إنما هو الهادى إلى الصراط المستقيم . وفى الآية الخامسة والخمسين يقول تعالى : ﴿**ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم**﴾ إنهم يعيشون مع الشك الذى يعذبهم، ويظلون كذلك حتى تأتيهم الساعة بغتةً أو يأتيهم عذاب يوم عقيم . وهذا ما حدث لأقوام من قبلهم . وقد يحدث - فى الدنيا لهم . وفى الدنيا والآخرة لا تخفى على الله منهم خافية .

وأعود إلى ما ذكرته فى صدر هذا البند (الآيات الثلاث الأولى من سورة الحجر) (ثم الآية ٤٦ من سورة الكهف) .

« **تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ...**» تلك آيات الكتاب المنزل المقروء الواضح «**ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين**» فيها أقوال، منها : إذا رأى المشركون المسلمين وقد دخلوا الجنة (وليس فى النار معهم) تمنوا أنهم كانوا مسلمين . وقد قال أحد المفسرين : هذا التمنى إنما هو عند المعاينة فى الدنيا حين تبين لهم الهدى من الضلالة . وقيل : فى القيامة إذا رأوا كرامة المؤمنين، وذل الكافرين .

﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل﴾ أى يشغلهم، عن الطاعة، عن العمل الصالح، عن العمل للآخرة، لقد استغرقتهم ملاذّ الدنيا وشهواتها، وصاروا عُميًا بُكمًا صمًا عما عداها . **«فسوف يعلمون»** إذا صاروا إلى يوم القيامة، وعانوا نتائج ما كان منهم فى الدنيا **﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾** (٢ - الحج) .

وأنقل هنا عن تفسير القرطبى ما يلى : «فى سند البزاز عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أربعة من الشقاء : جمود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا» - ومضى القرطبى (وهو معروف بالتزهد والتقشف) فقال : وطول الأمل داء عضال، ومرض مزمن، ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه واشتد علاجه، ولم يفارقه داء، ولا نجح فيه دواء، بل أعيا الأطباء ويئس من بُرئه الحكماء والعلماء . وحقيقة الأمل : الحرص على الدنيا والانكباب عليها، والحب لها والإعراض عن الآخرة . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخرها بالبخل والأمل» ... وقال الحسن : (ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل . وصدق رضى الله عنه . فالأمل يكسل عن العمل، ويورث التراخى والتوانى، ويعقب التشاغل والتقاعس ويخلد إلى الأرض، ويميل إلى الهوى . وهذا أمر قد شوهد بالعيان فلا يحتاج إلى بيان . ولا يطلب صاحبه ببرهان . كما أن قصر الأمل يبعث على العمل، ويحيل إلى المبادرة، ويحث على المسابقة) .

وأقول : إن ما قاله شيخنا يرحمه الله يصدق على التواكل، وهو منهى عنه . وقد يكون من صوره، هذا الذى يعتكف فى المسجد معتمداً على إنفاق غيره عليه . وقد رأى عليه الصلاة والسلام شخصاً ممنْ يديمون هذا الاعتكاف، فسأل : من ينفق عليه؟ فقالوا : أخوه . قال عليه الصلاة والسلام : أخوه خير منه . أما ما جاء فى الحديثين الشريفين عن «طول الأمل»[١] فالمقصود الآمال الكاذبة، والأوهام الخادعة، التى تشغل عن العمل للدنيا والآخرة . وفى الحديثين قرَنَ النصان - الأمل بالحرص على الدنيا، والبخل .

وفى الآية ٤٦ من سورة الكهف لا نجد رفضاً للأمل، وإنما مفاضلة بين أمل وأمل، فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا، وهما ليسا مرفوضين، بل إنما هما مطلوبان[٢] إذا برئا من الخيلاء والسرف، ومن الانشغال بهما عن الآخرة . ألاَ إن الحياة الدنيا زائلة، والآخرة هى الباقية . إن

---

(١) الأمل : الرجاء . وأكثر استعماله فيما يستبعد حصوله - الجمع : آمال (المعجم الوسيط) .

(٢) ومما ورد فى سورة الفرقان، عن عباد الرحمن : «والذين يقولون ربنا هَبْ لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً * أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة بما صبروا ويُلَقَّوْن فيها تحية وسلاماً * خالدين فيها حَسُنَت مستقراً ومقاماً» . (٧٤ - ٧٥ الفرقان) .

وقد ورد فى كتاب الله، وفى أكثر من آية أن «الله هو الغنى الحميد» (انظر على سبيل المثال) : (الآية - ٦ الممتحنة) وفى الحديث الشريف : «اللهم إنى أسألك الهُدى والتقى والعفاف والغنى» (والمقصود بالغنى فى هذه النصوص هو المعنى الواسع للكلمة) . وأضيف هنا أن فضل «الغنى الشاكر» مذكور مشهور (والحديث رواه مسلم وآخرون عن ابن مسعود) .

المال والبنين – مع الاعتدال والتوسط، وأداء حقوق الله والناس فيهما وعنهما – نعمة، بل نعم من الله يجب شكره عليها على النحو الذى تعنيه الآية الكريمة « **لئن شكرتم لأزيدنكم** » أما الكفر والجحد، فقد توعد الله مرتكبهما بما جاء فى نفس الآية « **ولئن كفرتم إن عذابى لشديد** » (٧ – إبراهيم) .

إن «المال والبنين» أمل وخير «والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابًا وخير أملا» . «إن ذوى الألباب» . و«الراسخون فى العلم» «والذين أوتوا الحكمة» لا يمكن أن يبيعوا الآخرة بالدنيا، ولا الذى هو خير بالذى هو أدنى . ومن المحقق أن الإيمان والعمل الصالح، فيهما خير الدنيا والآخرة جميعًا. وفى الحديث الشريف «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا»[١] . هذا هو شعار الإنسان المسلم، وهذا هو دستوره .

فى سعادة الدنيا

بند (٧٥)

فى سبيل المبادئ السامية، ودفاعًا عن النفس والوطن والعقيدة، وحماية لها، كتب الله علينا القتال . أما الحرب الهجومية العدوانية، أما الحرب لأغراض مادية دنيوية فقد حرمها الله.

وهذا بعض ما جاء به القرآن الكريم فى هذا المعنى : **﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾** . **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا﴾** . **﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾** . فإذا وجبت الحرب وجبت التضحية بالنفس والولد والمال وبكل غال . . والقرآن الكريم زاخر بالآيات التى تحض على هذه الحرب الشريفة وترغب فيها . ونكتفى هنا ببعض الأمثلة .

يقول الله تعالى فى سورة النساء : **﴿فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما﴾** . **﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما﴾** . ويقول فى سورة التوبة : **﴿انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله﴾** . **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون﴾** . ويقول فى سورة الأنفال : **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾** . **﴿يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال﴾**.

---

(١) وفى الفتح الكبير بترتيب النبهانى ص٢٠٢ مجلد ١ «اعمل عمل امرئ يظن بأن لن يموت أبدًا واحذر حذر امرئ يخشى أن يموت غدًا» (للبيهقى فى السنن) .

وفى سبيل الله وإعلاء كلمته احتمل الرسول والذين آمنوا معه، الكثير من الأذى والتضحية مما امتلأت به كتب السيرة والتاريخ، فتمادت قريش فى إيذائه، وتآمرت على قتله .. وذهب أئمة الكفر فيها مذاهب وفنونًا فى تعذيب بعض أصحابه . ولن ينسى التاريخ ما لاقاه آل ياسر وغيرهم .. لقد ماتت سمية - زوجة ياسر - من أثر التعذيب، ولم ترتد عن دينها الجديد ولم تكف عن ترديد كلمة التوحيد . ولما ذهب الرسول إلى ثقيف، يلتمس عندها الاستجابة لدعوته ردته رداً غير كريم وقذفه صغارها وسفهاؤها بالحصى والأحجار . وفى تلك اللحظات الشديدة من تاريخ الدعوة، اتجه إلى الله بهذاالدعاء : «اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين .. إلى من تكلنى؟ إلى عدو يتجهمنى، أم إلى قريب ملكته أمرى؟ إن لم تكن ساخطًا على فلا أبالى ..» .

ورغم كل شىء مضت الفئة القليلة إلى الأمام، مؤمنة بالله وبالنصر .. ﴿**وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها، وسنجزى الشاكرين * وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين**﴾ . ولم يحفظ التاريخ مثل ما حفظ للمسلمين الأولين من التسابق إلى الجهاد، والتنافس على مواجهة الأعداء ومنازلتهم . لقد كان الموت فى سبيل الله غاية غاياتهم .

﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين * الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم * الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾ . ﴿**قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون قل هل تربصون بنا إلى إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أوبأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون**﴾ .

وإذا كان القرآن الكريم قد سجل هذا عن الرسول والمؤمنين، وإذا كانت هذه شهادته لهم، فإنه يبدو من بعض آياته أن الحرص على هداية الناس قد بلغ منه - عليه الصلاة والسلام - وممن معه، مبلغًا استوجب التنبيه والتوجيه . لقد احتمل الأذى أشكالاً وألوانًا، من قومه ومن غير قومه، فى صبر وجلد، لكنه كان يعز عليه عنتهم، وكان يخشى عليهم عاقبة ضلالهم وكفرهم .. لم يصعب عليه أن يراهم أعداء له ولكن عز عليه أن يراهم أعداء لأنفسهم. هكذا كان، وكان أصحابه والمؤمنون معه، كانوا يقلقون ويضيقون، ويتحسرون إذ يرون البعض فى عمى عن نور الله، وصمم عن صوت الحق . وتتنزل الآيات من عند الله تخفف وتلطف وتنبه: ﴿**ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة» «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين**﴾ .

إن القلق والضيق يذهبان براحة النفس . ولا سعادة مع الحسرة والألم . وإن الأمر كله من قبل ومن بعد - بيد الله وهو - سبحانه - لا يدعنا لأنفسنا، بل يحدد لنا ما عليه وما علينا .

وفى هذا يقول: ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون﴾. ويقول : ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء﴾ . ويقول : « وما عليك ألا يزكى» . «إنما أنت منذر» « فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ» . ويقول : ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ .

فإذا قيل بأن هذه الآيات تعنى - فيما تعنى - أنه «لا إكراه فى الدين» . قلنا : هذا صحيح.. وإذا قيل بأنها تعنى - فيما تعنى - أن المسئولية شخصية ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ . قلنا : هذا صحيح . وإذا قيل بأنها توجهنا إلى أن نبدأ بإصلاح أنفسنا : ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ..﴾ . قلنا : هذا صحيح . ولكننا نريد - بالذات - أن نشير هنا إلى معنى يتبادر من هذه الآيات الكريمة، ويجب إبرازه والالتفات إليه.

نريد أن نقول : إنه يؤخذ من هذه الآيات أنه حتى فى العمل فى سبيل الله، حتى فى تبليغ رسالاته، حتى فى المكارم والفضائل، حتى فى الأمور المحمودة البواعث والنتائج، يجب أن نقف فى الاهتمام بها والعمل من أجلها عند الحد المعقول وإلا انقلب الاهتمام إلى هم، وتحول الاكتراث إلى نكد وغم . نريد أن نقول هذا وأن نقرره، ثم نرثى لتلك الأنفس التى تذهب حسرات من أجل الماديات والتافهات ومتاع الدنيا وسفاسف الأمور . إن الإسلام لم يتنكر للغرائز، ولم يعمل على كبتها وقبرها، بل طلب حسن استعمالها واختار أحسن المسارات لها . فعلينا - مثلاً - ألا ننسى نصيبنا من الدنيا ولكن بشرط أن نبتغى فيما آتانا الله الدار الآخرة، وأن نحسن كما أحسن الله إلينا، وألا نستخدم ما أعطانا الله فى الإفساد فى الأرض . وكلمة «الإحسان» من الكلمات الجامعة . إنها الترجمة العملية للإيمان . إنها تعنى كل صالح من قول وعمل . إنها تعنى الإحسان مع أنفسنا ومع الغير، مع القريب والبعيد، حتى مع الحيوان . علينا أن نطلب الدنيا، ولكن بالعمل الصالح، وبالطرق المشروعة، والكرامة الواعية، والحرص المعقول . فإذا ما أعطانا الله شيئًا أدينا فيه حقوقه وحقوق عباده .

وفى طلب الدنيا، وفى انتظار ثمرات أعمالنا، وفى التصرف فى هذه الثمرات، يجب ألانقول ما قاله قارون ﴿إنما أوتيته على علم عندى﴾ . إن الله - سبحانه وتعالى - هو الذى يعطى، وهو الذى يحرم. فإذا أعطانا وجب الشكر. وإذا حرمنا وجب الصبر .. فإذا ما فعلنا ذلك أدركنا الأجر والسعادة .. والله سبحانه يقول: ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾(٣٠ - الكهف). وأول الإحسان إحساننا - على هذا النحو - مع أنفسنا .

وحب الأولاد والأموال والأزواج طبع فينا . والله سبحانه يمن بذلك علينا : ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ (٤٦ - الكهف) . ﴿ لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور * أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير ﴾ (٥٠ - الشورى) . ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾ (٧٢ - النحل) . ﴿ ومن آياته أن

خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (٢١ ـ الروم) . فالنفس والأولاد والأموال والأزواج كلها نعم أنعم الله بها علينا . فإذا أحسنا النظر إليها سعدنا، وإلا شقينا . فى هذا يقول – جل شأنه – فى سورة التغابن **﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم * إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم * فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون * إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم * عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم﴾** .

والعداوة التى تأتى ظاهرة سافرة من بعض الأزواج والأولاد، وتقع تحت طائلة القانون الدنيوى موجودة وواقعة : فكم من أزواج وأولاد اعتدوا على أزواجهم وآبائهم اعتداءات قد تصل إلى حد التخلص منهم بالقتل . غير أن العداوة من هؤلاء، ومن النفس والمال، قد تأتى متسللة خفية، فلا يكاد يدركها ضحاياها . فمن الناس من إذا أعطوا من المال والسلطان ونحوهما شيئًا فرحوا به، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم، وعذبهم به فى الدنيا . ومن الناس من يشقون بإسرافهم فى حب أزواجهم وأولادهم، وبسبب الإسراف فى هذا الحب لا يصبح الأزواج والأولاد نعمة، بل نقمة . إنهم من هذا الحب فى سكرة لا يعرفون معها التعقل والتوكل. إنهم فى أشد الضيق بسبب الفاشلين منهم . وإنهم فى قلق وخوف من مكروه قد يقع بالناجحين الصالحين فيهم .

وهذه صور من الفتنة التى علينا أن نصون أنفسنا منها وأن نذكر الله فيها «**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**» .. **﴿ياأيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى﴾** . إن الأموال والأزواج والأولاد نعم ظاهرة أسبغها الله علينا . فإذا وفقنا فى السعى إليها، وحبها ورعايتها، عند حدود التعقل والتوكل، والشكر والصبر، سعدنا بها ... وإلا كانت وكانت أنفسنا أعدى أعدائنا . **﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾** . **﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾** (١٣١ – طـــه) . **﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا﴾** (٤٦ – الكهف) .

فالصحة والجاه، والأموال والأولاد والأزواج، عوامل ذاتية وخارجية من شأنها أن تهيئ للرضا والسعادة فى الدنيا، ولكن ليس مع كل الناس : ذلك أن منهم من يعطى النعمة، فيعذب بها فى الدنيا ويفتن، ومنهم من يحرم منها فيكفر . ومنهم من يعطاها فيشكر، ومنهم من يحرم منها فيصبر . والشاكرون والصابرون هم الذين يدخرون عند الله . هم الذين يدركون أن الباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابًا وخير أملاً . إنهم أقوياء الروح والعقل . إنهم أهل الحكمة : **﴿يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾** (٢٦٩ – البقرة) . وإذا لم يكن فى طاقة البشر أن يبلغوا غاية الحكمة فعليهم أن يحاولوا، وأن يتقوا الله ما استطاعوا[١] .

---

(١) مقال للمؤلف نشر بمجلة منبر الإسلام – ص١٨٩ وما بعدها – عدد ٨ سنة ٢٤ – شعبان ١٣٨٦ – نوفمبر ١٩٦٦.

بند (٧٦)

النفوس – كما جاء في التنزيل الحكيم – ثلاثة أنواع : أولها «النفس المطمئنة» . وفيها يقول تعالى : ﴿**يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي وادخلي جنتي**﴾ (الآيات الأربع الأخيرة من سورة «الفجر») . إن الإنسان المطمئن النفس، يعيش في سعادة، في رضا، في جنة . وهذه الجنة (جنة الاطمئنان في الدنيا) هي الطريق إلى جنة الآخرة . إن الله – سبحانه وتعالى – قد آتاه الحكمة التي يؤتيها من يشاء من عباده . إنهم الذاكرون المتذكرون «**وما يذكر إلا أولوا الألباب**» (٢٦٩ – البقرة) . «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**» (٤ – الجمعة) . والثانية : هي «النفس اللوامة» . يقول تعالى : ﴿**لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة**﴾ (١ و ٢ من سورة القيامة) . إننا بشر . وإننا نخطئ . لكن السعيد السعيد، هو الذي يلوم نفسه، ويحاسبها، قبل أن يحاسَب . إنه يخطئ، لكنه يستغفر. «**وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون**»[1] . «**فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات**»[2] .

إن اللوامين لأنفسهم من الناجين بفضل الله . ما أحرانا أن نراجع أنفسنا قبل النوم، عما كان في نفس اليوم . وما أحرانا أن نُتْبِعَ ذلك بتخطيط للغد، مادمنا من سكان هذه الأرض. والتخطيط الرشيد هو المستضيء بنور الله . وما أجمل التفاؤل والاستبشار . إنهما يعنيان حُسن الظن بالله! إن الموفق من الله هو الذي لا ينفك عنهما، ولا يدعهما ينفكان عنه! علينا أن نعي قوله تعالى : «**ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه**» (٦ – العنكبوت) .

أعود وأقول : إننا بشر، وإننا لا نخلو من عيوب. وواجبنا هو محاولة التقليل من هذه العيوب ثم التخلص منها . والمولى – جل وعزّ – لا يتخلى عن عباده الذين يجاهدون في الطريق إليه . إنه طريق مفتوح دائمًا على مصراعيه . «**والسابقون السابقون * أولئك المقربون * في جنات النعيم**» (١٠ و ١١ و ١٢ – الواقعة) . «**وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**» (٢٦ – من سورة المطففين).

وفي رياضة النفس وترويضها على المجاهدة في الله، أثبت هنا هذا الحديث الشريف «إنما العلم بالتعلُّم، وإنما الحلم بالتَّحلُّم، ومن يَتَحَرَّ الخير يُعْطَه، ومن يتق الشّر يُوقَه» (للخطيب عن أبي الدرداء) (عن الفتح الكبير للنبهاني – مجلد ١ ص٤٣٥) .

علينا أن نتكلف الفضل، حتى يصير عادةً لنا، وصفة راسخة فينا . إن المحاولة واجبة . وكذلك المجاهدة . علينا أن نقتحم الطريق الصعب، إذا لم يوجد سواه للوصول إلى الأهداف النبيلة، والقيم العليا ! .

---

(١) ٣٣ – الأنفال . (٢) ٧٠ – الفرقان .

والنفس الثالثة: هى النفس «الأمارة بالسوء»، نعوذ بالله منها، ومن كل سوء! يقول تعالى: **﴿وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ...»** (٥٣ – يوسف) . إنها النفس التى تسلطت عليها النزوات والشهوات . والنفس الأمارة بالسوء، أو التى هى ضحية السوء – هى فريسة للشيطان والوساوس والأوهام .

وأقول : لمن يعانون من الضعف النفسى : إن الحياة اليومية لا تخلو من تفاهات. ومرحى، وألف مرحى، وهناءً وصفاءً لهذا الذى يسمو بعقله وحسه فوق هذه التفاهات . إننا لا نستطيع أن نصنع الآخرين على النحو الذى نحبه، ولكن علينا أن نجاهد ونجاهد لكى نرقى بأنفسنا لتكون كما نحب . لماذا لا نعير الاهتمام اللازم لفضيلة الحلم؟! إنه سيد الأخلاق(١). إن علينا أن نزكى عن كل نعمة أنعم الله بها علينا . فإذا كان الله سبحانه وتعالى، قد أكرمنا بفضيلة الحلم، فزكاة هذه النعمة تحمل الحمقى والاعتذار للآخرين . إن الوساوس والأوهام قد تتسلل إلينا موهمة إيانا بأشياء لا وجود لها فى دنيا الواقع . والويل، والويل الكبير لمن يضيع عمره، أو بعض عمره، وبعض وقته فى الأوهام !؟ . وأعود وأكرر : علينا أن نتصالح مع أنفسنا، لأن هذا من حسن الظن بالله .!

ومن الوهم ما قتل ؟!

بند (٧٧)

إنى أستعيذ بالله من الشيطان والوساوس والأوهام، مع الصلاة، وفى غير أوقات الصلاة؛ وآناء الليل، وآناء النهار . وإنى أغالب هذه الثلاثة، ومعها النفس الأمارة بالسوء! . وإنى أحمد الله أنى كتبت الكلمة السابقة مغرب اليوم الذى حدث فى النصف الأول من ليله ما سأذكره بعد . ولقد كان فى تلاوتها عقب «الأزمة» خير كبير، فضل من الله عظيم! كنت أنتظر مكالمة هاتفية من حفيدى العزيز محمد فى هذا اليوم (١٤/١١/١٩٩٣) وهو يوم عيد ميلادى؛ العزيز عليه وعلىّ . وفى انتظار هذه المكالمة لم أخرج من شقتى، وهو ما لم يحدث قط . وحتى الحادية عشرة مساءً. تساوى الثانية عشرة بتوقيت الرياض حيث يعمل محمد – كنت أنتظر المكالمة، مع أمل يتضاءل كلما تقدم الوقت . ويبدو أنى – وقد تسرب إلىّ اليأس والوهم – قد فقدت السيطرة على نفسى «والشفيق – كما يقول المثل – بسوء ظن مولع» . لقد فاجأنى الوهم بمتاعب فى ذراعى الأيسر، وجانبى الأيسر ..!؟ وألهمنى الله – سبحانه وتعالى – قوله تعالى: **«إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون»** (٢٠١ – الأعراف) . ورددت الآية الكريمة مراراً، وأعدت تلاوة الكلمة السابقة الذكر (التصالح مع النفس)، والتى كانت كتابتها بمثابة إرهاص بما سينقذنى الله به، ذكر الله، وذكرها . وأخذت أردد أسباباً لعدم المكالمة، لم يكن من بينها السبب الحقيقى . لكنها – على أية حال كانت رحمة من الله! وفى تلك الليلة انتابتنى اضطرابات وارتباكات، لم تحدث لىَ قبل ذلك، ولا داعى لذكرها! أما السبب الحقيقى، والذى لم يخطر لى على بال، هو عطب أو ضغط على خطوط الاتصال بالإسكندرية!

---

(١) وانظر – سابقًا – بند – ١٦ .

ولقد اتصل محمد بمنزلنا بالقاهرة، وكانت (العاملة عندنا) هى التى ردت عليه، لعدم وجود سواها . خشيتُ الاتصال بالقاهرة، وأنقل قلقى إلى أمه، ولم يكن إلا الوهم هو مصدر القلق! وعدت إلى القاهرة يوم ١٥ وعرفت ما طمأننى ! .

«إن الظن لا يغنى من الحق شيئا»[١]

بند (٧٨)

إنّه محل قريب من شقتنا بالإسكندرية، اعتدت الشراء منه . بالمحل جهاز الإذاعة المرئية، شاهدت عليه بدء الأذان لصلاة العصر . وقد رآنى العامل بالمحل وأنا أقبل عليه، لكنه نوى الصلاة . وظننت أنه يصلى العصر على آذان القاهرة، وفرق التوقيت بين القاهرة والإسكندرية حوالى خمس دقائق، أى أن الوقت لم يجب بعد فى هذه الأخيرة . هكذا ظننت، وغضبت وانصرفت وراجعت العامل مساء نفس اليوم، فقال : إنه كان يصلى الظهر قبل انتهاء وقته بدخول وقت العصر ! لقد ظننت، وغضبت على غير أساس !

« **إن الظن لا يغنى من الحق شيئا»** . و« **إن بعض الظن إثم»** (١٢ – الحجرات) . لقد أخطأت . أستغفر الله، الذى وسعت رحمته كل شىء[٢] .

---

(١) ٣٦ – يونس .
(٢) انظر الآيتين ١٥٦ – الأعراف ، ٧ – غافر .

«ختامه مسك»

بند (٧٩)

وفي ختام هذا الكتاب المبارك بعنوانه، أنقل ما يلي عن كتابي «صفحات من اليوميات» مما جاء في «الافتتاح ص٣» : **﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾** (١٨ – الزُّمر) . «**واستعينوا بالصبر والصلاة ...**» (٤٥ – البقرة) . **﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾** (٥٣ – الزمر) . **﴿ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون...﴾** (٨٧ – يوسف) .

سأل أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال يا رسول الله، قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عليه أحداً بعدك . فقال صلى الله عليه وسلم «قل آمنت بالله ثم استقم». وفى الحديث القدسى : «أنا عند ظن عبدى بى» (فليظن بى ما شاء) . (متفق عليه) ومن الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : «أكبر الكبائر سوء الظن بالله» (الديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عمر) . وفى حديث آخر «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر، وكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له» (رواه مسلم وأحمد عن صهيب) .

وأقول : إن المؤمن فى أنس دائم بالله، ومع الله . إنه دائماً فى ذكر الله، ولا أحد ولا شيء سواه . ومن كان كذلك فهو فى حمى الله . فلا بأس ولا يأس، ولا وساوس ولا هواجس تقترب ممن كان فى حمى الله .

وفى نهاية الافتتاح أحلت على ما جاء فى بند ٦٣ – و ، من نفس الكتاب . والبند المذكور بعنوان «**إن مع العسر يسرا**» (التوبة) . وتحته هذه الأبيات :

بالأمس[1] كان[2] عذاباً ∴ وعناءً وسرابا
واليوم صار نعيماً ∴ وهناءً ورضابا
الحمد لله الذى ∴ قد هدى ثم أثابا

والأبيات دعوة إلى التفاؤل والاستبشار باليوم والغد، أيًّا كان الأمس . والحمد والشكر لله. فالفضل منه وإليه . إنه هو الذى هدى إلى الطريق المستقيم . وإنه هو الذي يُثيب المهديين ... إلى آخره . وهو – جل وعزّ – هو القائل : **﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾**[3] . **﴿ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون﴾**[4] .

---

(١) الأمس : الماضى القريب والبعيد . (٢) كان : أى كان الحال .
(٣) الآية (٧٦ مريم) . هذا؛ وبنفس كتاب «صفحات ...» ص١٢٧ وما بعدها كتبت عن : التغذية – الصحة – الرياضة – المشى، إلى آخره (وهذه جميعها من الأخذ بالأسباب) .
(٤) (الآية ٢٦ من سورة المطففين) .

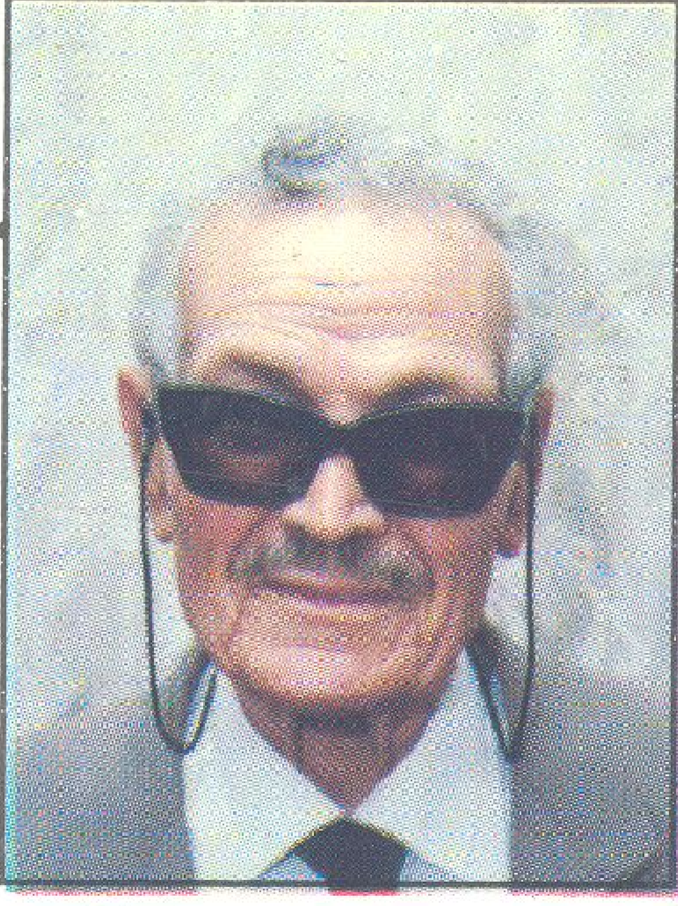
(أ) كتب المؤلف : فى «النظم الإسلامية» و«حقوق الإنسان»

١ - الإسلام وحقوق الإنسان - دراسة مقارنة - طبعة ثانية . ١٩٨٤
٢ - الإسلام والإدارة والاقتصاد - دراسة مقارنة . ١٩٧٨
٣ - الإسلام والدولة - دراسة مقارنة . ١٩٨٢
٤ - الإسلام وحقوق الإنسان - غزوات الرسول وسراياه - دروس مستفادة . ١٩٨٨
٥ - الإسلام وحقوق الإنسان - الجهاد . ١٩٨٩
٦ - الإسلام وحقوق الإنسان - «غير المسلمين فى الدولة الإسلامية» . ١٩٨٧
٧ - الإسلام والقضاء - دراسة مقارنة ومتعمقة . ١٩٩٣

(ب) كتب أخرى

١ - صفحات من اليوميات (ترجمة ذاتية) . ١٩٩٢
٢ - محمد فريد وجدى - وحسن استعمال الحرية . ١٩٩٤

الكتاب والكاتب



شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكون أول مكان جلس فيه كاتب هذه السطور بين يدى معلم ـ هو «كُتَّاب القرية» ـ حيث حفظ القرآن الكريم. وبعد «الكُتَّاب» وفى مراحل الدراسة الأولى ـ وكان قد بدأ الاغتراب عن أهله ـ وجد وقته أوسع، وقدراته أكبر من المقررات الدراسية ـ فتابع تلاوة القرآن حتى أجاد حفظه، كما أنه أقبل ـ بشغف وحب ـ على القراءات الحرة فى المجلات والكتب ذات المستوى الرفيع. واختار الله له كلية الحقوق التى تخرج فيها بتفوق عام ١٩٤٥. ودُعى ـ مع غيره من المتفوقين فى سائر الكليات والمعاهد ـ إلى عيد العلم الذى حضره الملك فاروق، وكان مكانه حدائق قصر رأس التين. ولما حصل عل الدكتوراه بتفوق كان ممن كرمتهم الدولة فى احتفال كبير بعيد العلم عام ١٩٦٥ بالقاعة الكبرى بجامعة القاهرة، وحضره الرئيس الراحل جمال عبد الناصر.

وعمل الكاتب أستاذا بجامعات مختلفة وكانت البداية فى كلية الحقوق (فرع جامعة القاهرة بالخرطوم)، ثم فى الجامعة الإسلامية بليبيا، ثم فى جامعة أم درمان الإسلامية.

أما عن كتبه، فكان أولها كتاب «فى إصلاح التعليم الأولى» بتكليف من الدكتور السنهورى (وزير المعارف)، وقد مضى على ظهور هذا الكتاب أكثر من خمسين عاما. وفى حفل كبير فى أحد الفنادق الكبرى بالمعادى، أقامته إحدى الهيئات لتكريم مَن تميزوا بجهودهم فى خدمة المجتمع، وكنتُ أحدهم، بسبب الكتاب المذكور.

وأما كتبى الأخرى، ومعظمها فى «النظم الإسلامية» و«الإسلام وحقوق الإنسان»، ثم سلسلة كتبى «رواد الفكر الإسلامى فى العصر الحديث»، وجميعها ما كانت لتكون كما جاءت إلا بفضل الله وحفظى لكتاب الله، الذى أواظب على تلاوته كل يوم، والحمد لله.

وأما عن الكتاب ـ الذى بين أيدى القراء ـ فإن مضمونه جاء فى حدود عنوانه :

«مع الله ـ فى كتابه وسنة رسوله».

وأما مشتملاته فقد أجملها كتاب فضيلة الإمام الأكبر ـ الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر الشريف، أطال الله عمره، ومدَّ نفعه، وجزاه بالخير عنى وعن سائر المسلمين.

القطب محمد القطب طبلية